هرمان هسة

سيرة ذاتية

ترجمة : محاسن عبد القادر

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

هرمان هسة

سيرة ذاتية

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:
بيروت، ساقية الجنزير، بناية
برج الكارلتون، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي، هـ ٨٠٧٩٠٠٨/١
تلكس، LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧

التوزيع في الأردن:
دار الفارس للنشر والتوزيع: عمان
ص.ب: ٩١٥٧، هاتف: ٦٠٥٤٣٢، فاكس
٦٨٥٥٠١ - تلكس ٢١٤٩٧

الطبعة الأولى

١٩٩٣

هرمان هسة

◇ سيرة ذاتية ◇

ترجمة : محاسن عبد القادر

مراجعة : محمد الفقير
ود. محمد الحاج خليل





الفهرست



المقدمــة

كان طلاب الاقليم التربوي الذي يوفر مشاهد رواية هرمان هسه الأخيرة «لعبة الكريات الزجاجية» (١٩٤٣) ، مطالبين في كل عام أن يقدموا «حياة» وهي سيرة ذاتية خيالية تدور أحداثها في أية مرحلة من الماضي يختارها الطالــب ، ومن خــلال هــذه الحيوات يتعلم الطلاب أن «ينظروا إلى أنفسهم كأشخاص يرتدون أقنعة تستر شكلهم الخارجي ، وكتجسيد لرداء الرب العابر . وغالباً ما كانت تقدم هذه المؤلفات ، التي كان الطلبة يتمتعون فيها بحرية كاملة في الابتكار والتعبير ، رؤية واضحة بشكل مدهش لوضع كاتبها الفكري والأخلاقي» . ووفقاً لذلك ، فان «الراوي» لوقائع رواية هسه يتضمن ثلاثاً من هــذه الحيوات التي ألفها «ماجستر لودي وجوزيف كنشت» ، توحي بأنها قد تمثل أكثر الأجزاء أهمية في كتابنا» .

ونستطيع أن نـعقد تشابهاً دقيقــاً بين حيوات كنشت وبين روايات هسه . ومع أن هسه لم يكتب قط رواية شاملة واحدة عن حياته ، فإن جميع أعماله ومن نواحٍ عـدّة تعتبر ـ وكما يقول جوته في عبارته المعروفة ـ «أجزاء من الاعتراف العظيم» . وسواء أكانت أمكنة هذه الروايات الهند القديمة في (سدهارتا) أو أوروبا القرون الوسطى في (نارسيسوس وجولدموند) أو كاستاليا الوهمية في (لعبة الكريات الزجاجية) ، فإن شخصيات رواياته كانت

دائماً تتحول لتكون استحالات لهسه ذاته ، متكيفة مع ظروف الحكاية .

يصرح هسه في صورته الوصفية «طفولة الساحر» التي تناولت سيرته الذاتية ، بأن أكثر أمانيه حماسة ، وهو صغير ، كانت أن يمتلك القدرة السحرية على الاختفاء أو على تغيير شكله - ويواصل - وما كافأ هذه القوة السحرية عند النضج ، هي موهبته في اخفاء نفسه بعبث خلف شخوص عالمه الروائي . وهذا التخفي الفني قد تمثل في حقيقة أن الكثير جداً من بدائله الروائية - من هرمان هايلنر في «تحت العجلة» (١٩٠٦) الى هاري هالر في «ذئب البوادي» (١٩٢٧) و هـ .هـ ، راوية «رحلة إلى الشرق» (١٩٣٢) - قد شارك المؤلف فيها بأحرف اسمه الأولى . ففي رواياته لا يحاول هسه كثيراً ان يتعامل بموضوعية مع العالم الواقعي بقدر ما يوظف المغامرات لاكتشاف الذات أو ، فيما يتعلق برواية «لعبة الكريات الزجاجية» فهو يخلق سيراً خيالية يظهر من خلالها «إبداع» الكاتب في تنوع من الاردية العابرة .

ولا تتوضح النزعة نحو السيرة الذاتية في أبطال روايات الكاتب فقط . فسواء كانت أحداث هذه الروايات تدور في الماضي نحو السيرة الذاتية أو الحاضر ، أو في المستقبل ، فغالباً ما كانت الخلفية والشخصيات الثانوية فيها مستمدة على نحو مباشر من تجربة هسه الخاصة . ففي مثل هذه الأعمال المتباينة من تجربة رواية التلميذ (تحت العجلة) ، وحكاية القرون الوسطى (نارسيسوس وجولد موند) ، والحكاية المستقبلية (لعبة الكريات الزجاجية) ، تستند الواقعة إلى تفاصيل كبيرة من الدير البندكتي السابق الواقع في ماولبرون. حيث قضى هسه أحد أعوام مدرسته هناك . وفي العديد من قصصه ورواياته وصف هسه مدينة «كالف» ، وصفاً دقيقاً حتى أن القارىء الذكي يمكن أن يرسم خارطة لها ، وكذلك كان يظهر أصدقاءه بانتظام في حكاياه

وبهيئات مختلفة ، «بستوديوس» عازف الأرغن المهتم بالآثار القديمة في (دميان) الذي شكله هسه على غرار نموذج محلله النفسي «جوزيف ب . لانج» ؛ و«كارلو فيرومونته» في (لعبة الكريات الزجاجية) مدين باسمه إضافة إلى موهبته الموسيقية لابن أخ هسه (كارل ابزنبرغ) (وكلا اللقبين يعني «الجبل الحديدي»)؛ وعبر خدعة اسمية مماثلة يقدم هسه زوجته «نينون» في (رحلة إلى الشرق) حيث تدعى (نينون الغريبة) (وقد استخدم اسمها قبل أن تتزوج ، اوسلاندر ، الذي يعني في اللغة الالمانية «الغريب» .) .

ومع أن روايات هسه قد ظهرت وتشكلت من واقع حياته الذاتية ، إلا أنها أخذت - في الوقت نفسه - تنحو منحى آخر: فغالباً ما كانت كتاباته الذاتية تميل الى الاتحاد مع الخيال . ففي أماكن عديدة في «طفولة الساحر» يتجاوز وصف هسه لأعوامه المبكرة حقيقة حياته الخاصة الى مملكة الخيال الساحرة التي تتخذ - سواء كانت واقعية أم لا - أهمية أكبر من الواقع الخارجي (مثلاً ، «القزم» الذي كان دوره مثل العفريت في طفولة هسه) . وكذلك حال اللقاء مع الهولندي المرح في «نزيل في المنتجع» إضافة إلى المقابلة مع رجل «دوستويفسكي» الشاب في «ملاحظات حول العلاج في بادن» كل هذه تشكلت من خلال قوة الخيال الروائي في سلسلة أحداث مترابطة ظهرت على شكل رواية مثل (ذئب البوادي) . وأكثر الأمثلة المدهشة لمثل هذا المزج العابث للواقع يقع في نهاية «حياتي باختصار» حيث أخذ هسه بعد أن أعاد أحداث حياته باختصار حتى زمن الكتابة (١٩٢٥) ، يتأمل سيرها في المستقبل. وكما يعتقد هو ، فإنه أمر محتوم لرجل ذي نزعة لا تلتزم بأعراف الكنيسة ،أن يزج نفسه آجلاً أم عاجلاً في صراع مع القانون . ومن المفروض ، انه في مرحلة متأخرة من حياته يودع السجن بتهمة إغواء فتاة صغيرة عن طريق

السحر . وخلال فترة سجنه الطويلة أخذ يسلي نفسه بالرسم على جدار زنزانته فرسم منظراً جبلياً متقناً يُظهر فيه قطاراً وهو يدخل في نفق . وتنتهي «السيرة الحدسية» حيث ينهك هسه من الاستجواب ومن السجن الممل ، يركب القطار المرسوم ويختفي معه في نفق خياله الابداعي ، تاركاً وراءه الواقع الشبيه بالسجن ، مع حرسه المذعورين .

ويمكن تفسير هذا الأمر ببساطة على النحو التالي . فسواء كان هسه يكتب «رواية» أم «سيرة ذاتية» ، فهو ينتهي تقريباً دائماً إلى ما يدعوه «بمملكة الروح السرمدية» ، التي تقيم خارج الزمان والمكان - وتتجاوز الرسم فوق جدار السجن . ولو أخذنا عنوان أحد أعماله الأولى ، «ساعة بعد منتصف الليل» ، نجد أن الاختلاف الرئيسي في عقل هسة وعمله لا يقع بين الحياة والفن أو بين الحقيقة والخيال ، بل بالأحرى بين واقع الروح المليء بالمعاني والعالم اليومي الزائل الذي أطلق عليه ' الواقع' (مع علامتي الاقتباس لينتقص منه) أو «الواقع المزعوم» .

وحالما نفهم كم هي حقيقية على نحو قوي المملكة الروحية هذه بالنسبة لهسه ، نصبح في وضع يؤهلنا لاستيعاب الاختفاء المتكرر في أعماله للحواجز الاعتباطية القائمة تقليداً بين السيرة الذاتية والرواية . فبالنسبة لهسه فإن الأمر يعني أكثر من مزحة شخصية ، حين دون بسرده الذاتي في (رحلة إلى نورمبرغ) انه رأى صديقه القديم «بستوريوس» . وبإشارته إلى دكتور لانغ باسم أعطاه له في (دميان) ، نجح هسه في تضمين أمرين: الأول؛ لقد رمز بشكل واف للعلاقة الرئيسية المتناقضة نوعاً ما بين الكاتب والمحلل النفسي بالصداقة بين بستوريوس واميل سنكلر .

والثاني ، انه يفضل ان يلقى أصحابه على المستوى الروحي المشترك بينهم

أكثر من مستوى الواقع اليومي الذي تحدده الأسماء والألقاب الرسمية .
وللسبب ذاته ، يظهر الرسام موليت في هذه الصفحات تحت الاسم الذي يحمله في «رحلة الى الشرق» ، لويس الرهيب ، وبدأ هسه نفسه ، ولعدة أعوام قبل نشر الرواية التي جعلت الصورة في متناول مدارك الجمهور ، يكتب لنفسه مثل «ذئب» من البوادي . ان تأثير جميع هذه التصنيفات - منها ظهور الناس (الحقيقيين) في الرواية يتبعه ظهورهم ثانية - بهيئة خيالية ، في عالم «الواقع» - هو يقصد عمل تداخل الحدود بين «الشعر والحقيقة» (وهذه استعارة لعنوان سيرة حياة غوته) ، وليرغمنا ، كقراء ، على دخول «مملكة الروح السرمدية» تلك حيث كان هسه يشعر بألفة كبيرة فيها . وقد خطط لها بدقة لتكون الاقليم الأدبي الأكثر تمييزاً .

ورغم ان جميع الأعمال الكاملة لهسه هي سير ذاتية إلى حد كبير ، فلم يكن من قبيل الصدفة انه لم يبدأ بكتابة نماذج للسير الذاتية حقاً إلا في أربعيناته وقد فعل ذلك للمرة الأولى وبشكل مفاجىء . وكما جاءت الحقيقة على لسانه هو حيث يذكر أنه أمضى سنوات قبل أن يعي كم كانت أعماله معتمدة بشكل ذاتي على ظروف حياته . وفي عام ١٩٢١ ، طُلب منه أن يحضر طبعة مختارة من أعماله ، فأعاد قراءة الكثير من رواياته الأولى ، وأشار وهو مندهش «كل هذه الحكايات كانت عن نفسي ، فهي تعكس طريقي الذي اخترته ، أحلامي ورغباتي السرية ، وحزني المرير الذي عانيته!»

« وحتى هذه الكتب التي حين كتبتها كنت أفكر بأمانة بأنني كنت أصور مصائر غريبة وصراعات بعيدة عن نفسي ، تغنت بنفس الأغنيات ، وتنفست الهواء نفسه وعبرت عن ذات المصير ، مصيري أنا » . وخلاصة القول ، لقد ظل هسه لأعوام عدة ، لصيقاً بأعماله لدرجة أنه لم يكن قادراً على فهم كم

كانت هذه الأعمال تدور بشكل محكم حول نقطة المركز في وعيه . وقد منحته تجربة المحلل النفسي في الأعوام التي أعقبت ١٩١٦ الحياد الضروري للنظر بموضوعية إلى أعماله الأولى ، إضافة إلى أنها دفعته إلى إمعان النظر في حياته من جديد ـ بوعي ودون وساطة الخيال .

من المهم أن نتذكر لسببين على الأقل أن اللجوء إلى السيرة الذاتية كان نتاجاً مباشراً للتحليل النفسي . السبب الأول أن النماذج التي تخص «السيرة» لا تمثل كثيراً محاولة تدوين تاريخ حياة هسه للآخرين بقدر ما تحاول فهم معنى حاضره الشقي على ضوء ماضيه . وبمعنى آخر لم يكن لديه اهتمام يذكر بتقديم وصف للأحداث الخارجية الموضوعية ـ «الواقع» ـ بقدر اهتمامه بالشروع في إعادة التقييم المعذب لنموه الداخلي ـ أي الواقع الروحي .

وأما السبب الثاني ، فيخصّ التعرض لعلم النفس التحليلي ، فهو لم يهيىء له فقط الحافز للتحليل الذاتي فحسب ، بل زوده كذلك بالأدوات اللازمة لذلك . وان كان هسه قادراً ، وهو يتفحص ماضيه ، على اكتشاف النماذج ذات الطراز البدائي في حياته الخاصة ، فيرجع ذلك الى تأثير «يونغ» الذي تعرف عليه شخصياً ومن خلال كتاباته . وعلى سبيل المثال ، فإن إحدى الأفكار المهيمنة والمتكررة في «طفولة الساحر» هي صورة الجنة: «لقد عشت مدة طويلة في الجنة» . قد تكون هذه العبارة أي شيء عدا كونها عبارة «اصطلاحية» أو زخرفية . ووفقاً لمعتقدات هسه الأساسية ، التي انبثقت من وعيه أثناء دراسته ليونغ ، فإن كل فرد في حياته يعيد تمثيل اسطورة أولية: يولد في حالة فردوسية متكونة من اتحاد البراءة والطفولة مع الوجود ككل ـ وهي ما اطلق عليها هسه «السحر» ـ فكلما تنامى وعي الانسان انغمر في الأزمات واليأس بسبب إدراكه للتناقضات التقليدية الكاملة ، التي من خلالها حطمت

الأخلاقيات السائدة تلك الوحدة الطبيعية . وحين وصف هسه رحلته الى بلاد الهند الشرقية في عام ١٩١١ ـ ولا سيما عيد الطهور فوق جبل بيدورو تالاكالا في سيلان ـ جعل الأمر يبدو كأنه شروع ـ وإن كان بطريقة ساذجة ليستعيد في بلاد الشرق الجنة التي أضاعها الرجل الأوروبي الحديث . وفي وقت متأخر يدرك أن فقدان البراءة ليس ظاهرة اجتماعية وجغرافية فحسب ، بل هو أمر يخص دواخل الانسان نفسه ـ وقد وصف هذه الرؤية العصيبة في «حياتي باختصار» وتوصل إلى نتيجة أن على كل فرد أن يشرع «برحلته» عبر جحيم وعيه ليسلمّ بـ«فوضى» روحه . وفي نفس الوقت تبدو بوضوح في نهاية «نزيل في المنتجع» ثنائية قطبي الحياة الصواب والخطأ ، الخير والشر ، الروح والواقع، وقد تعذر التوفيق بينهما بشكل يدعو إلى اليأس . وبعد مضي عامين ، وصف هسه في (رحلة إلى نورمبرغ) كيف طور حس السخرية المرهف لديه ، كإحدى وسائل التعامل مع الصراع ، والتي نالت إعجاب أندريه جيد وتوماس مان على نحو كبير جداً . فحين ننظر إلى «الواقع» بسخرية نكون حينها قادرين على تحرير أنفسنا من قيوده ، الروحية منها على الأقل ، لأننا لم نعد نتعامل معها بجدية ، ويبقى ، الفرد الأوفر حظاً ، هو الذي يستطيع أن يسمو فوق الصراع وينتقل إلى حالة جديدة من البراءة ، «مملكة الروح السرمدية» التي تكمن وراء الرسم على جدار السجن . هذا التناغم الثلاثي للتطور الانساني ـ من البراءة عبر اليأس إلى السخرية أو ، في أحسن الأحوال ، إلى وعي أعلى ـ يشكل الأساس لجميع روايات هسه المهمة: ويظهر هذا النموذج أكثر وضوحاً في «دميان» و«سدهارتا» التي كتبها بعد تجربته مع التحليل النفسي بفترة قصيرة . وفي الوقت ذاته ، يتبين بوضوح أن هسه يروي حياته في مثل هذه الطريقة ليبرز جوانبها الإنسانية العامة و«الأسطورية» المؤثرة . فما هو ، إذا

ما انكشف عنه القناع ، إلا مجرد طراز بدائي لرجل هجرته البراءة . فالرحلة إلى الشرق تحولت إلى بحث أسطوري عن الجنة الضائعة وقد اتخذ جده صفات «الشيخ الحكيم» بالخرافة والأسطورة؛ وتحولت رحلته إلى نورمبرغ رحلة إلى أغوار الماضي بقصد استكشاف الحاضر .

وإذا كان هسه قد بدأ بتأمل حياته ، دون وعي ، في انكسارات مرايا عالمه الروائي ، فانه قد تطور ، تحت تأثير علم النفس اليونجي ، في أسلوب التلاعب البارع بعدسات المجهر المسلطة على ذكرياته من أجل أن يبحث عن الخطوط الفاصلة المخفية لحياته حتى اللحظة الراهنة . وكان تطوراً منطقياً حين توصل إلى موضوعية عالية في المقالة التأملية ، التي لم تعد الحياة فيها - من أجل مواصلة التماثل البصري - تمتحن في عزلة عبر منظار ضيق ، وإنما عبر تأملها ببعد نظر كما لو أنها نقطة واحدة في ملك أكبر . إن هذه المقالات الأخيرة ، التي كتبت في الأغلب في الأربعينات والخمسينات ، هي في أحسن الأحوال نماذج «عرضية» اسقطتها أحداث مثل الانتقال إلى منزل جديد ، والذكرى الخامسة والعشرين لزيارته الأولى لبادن ، وموت شقيقته ، وإعادة اكتشاف قصيدة جده صدفة .

بمعنى آخر ، لم يعد الدافع مجرد دافع ذاتيّ محض ولا تحليل للنفس وإنما صار خارجياً يميل عموماً إلى التأمل . فقد تحول التركيز من ذاتية المؤلف إلى واقع العالم المحيط به . فنحن نحصل على وقائع عن حياته الذاتية من هذه المقالات أكثر مما نحصل عليه من أعماله التي تبدو ظاهرياً أنها سيرة ذاتية ، ولكن تظل هذه المعلومات في الواقع حصيلة ثانوية ، طالما لم تعد شخصية هسه نفسه تستقطب الاهتمام ، فحياته أصبحت تنعكس بشكل غير مباشر - عبر الأشخاص الذين يعرفهم ، وعبر المنازل التي عاش فيها .

وبما يدل على هذه الموضوعية الجديدة كتابته مقالات تذكارية لكل من شقيقتيه إضافة إلى أخيه هانز ، الذين غادروا الحياة قبله . في هذه المقالات الثلاث ـ الممثلة في هذا الكتاب بفصل (إلى مارولا) ـ نتعرف إلى الكاتب بصفته فرداً في العائلة . وأما الكتابات التي تخص الحياة الخاصة في العشرينات، والتي تناولت بكثافة مجموعة فردية الكاتب الذي كان بدأ للتو في اكتشاف وعيه الخاص ، فقد أهملت فعلياً هذه العلاقات العائلية . وصورت العائلة بشكل أساسي كحاملة للقيم المهجورة التي تمرد عليها الطفل والشاب . ونادراً ما كانت تلك الكتابات المبكرة تشير الى أن هسه قد نشأ في عائلة تضم خمسة أشقاء وشقيقات . وقد اكتفت فقط بوصف جوانب من طفولته التي كانت مهمة لنموه ككاتب .

وعلى أية حال ، هل للسحرة من أقارب ؟!

في التأملات الأخيرة ، حقق المؤلف درجة من الثقة والاحساس الراسخ بالنفس بحيث استطاع أن يعتبر نفسه ، من جديد ، عضواً في الوحدة الاجتماعية ـ وهي العائلة ـ بدلاً من شعوره بأنها تهدده ، وبدلاً من الدخول في مواجهة معها . وبحصول هسه على هذا الاتزان ، صار قادراً على تأمل حياته الماضية في «الواقع» من نقطة ما في «مملكة الروح السرمدية» .

إن هذا التحول المعلن في التركيز الواضح في الكتابات الذاتية الأخيرة ـ البعيد عن «الأنا» في المفهوم الضيق والمتجه نحو الفرد في تكوينه الاجتماعي الأوسع نطاقاً ـ يوازي تماماً التطور المألوف في روايات هسه . فـ (دميان) (١٩١٩) ، و(سدهارتا) (١٩٢٢) ، و(ذئب البوادي) (١٩٢٧) هي مؤلفات شديدة الذاتية تستحوذ عليها مشاكل أبطالها . وعلى النقيض ، نجد الفرد في «رحلة إلى الشرق» (١٩٣٢) و«لعبة الكريات الزجاجية» (١٩٤٣) ، يخضع

إلى المجموع وفيها تصوير لعلاقته مع مؤسسات إنسانية مثل «العصبة» ومثل «الاقليم التربوي لكاستاليا» .

لقد غطت المذكرات المجموعة هنا كل فترة من حياة هسه ، من طفولة الساحر، وعبر أزمة النضج ، إلى سكينة الشيخوخة . وبما أن هسه كان في معظم الأحيان معنياً على نحو أكبر بالأساليب والمعاني والعلاقات أكثر من التفاصيل السيروية ، لذا نجد أن البنية الخارجية للأسماء ، والتواريخ ، والظروف مفقودة هنا . والقراء المعنيون بأمر هذه الكتابات بالتأكيد معنيون أساساً بتطور وعي الكاتب . وربما نقدم شيئاً نافعاً فيما لو أضفنا معلومات رئيسية قد يكون هسه حذفها أو ضمنها بشكل محدود جداً .

قضى هسه معظم أعوامه الأولى - وحتى سن السابعة عشرة في مدينة كالف في نورمبرغ ، حيث ولد في الثاني من تموز من عام ١٨٧٧ ، وكوكبة القوس والرامي في طالعه ، كما يذكرنا بذلك مراراً عدة . ورغم أن العائلة قد عاشت في بازل من عام ١٨٨١ إلى ١٨٨٦ ، إلا أنه أعتبر كالف ، تلك المدينة التي تكاد تخلب الألباب من روعتها ، والتي تقع على حافة «الغابة السوداء» ، موطنه الذي وصفه مراراً في قصصه ورواياته .

ومن الممكن اعتبار كالف أيضاً رمزاً لجانب أكثر شمولاً من تجربة هسه . فهو غالباً ما يذكر شعوره بألفة روحية أكبر مع الأدب والثقافة الألمانية التي تنتمي للفترة من ١٧٥٠ إلى ١٨٥٠ . ويبدو تأثيرها واضحاً في كل مكان من أعماله ، (لاحظ ، مثلاً ، الموسيقى والكتب المفضلة لدى «هاري هالر» في «ذئب البوادي») .

وأما الوسيلة الأكثر مباشرة التي أتاحت لهسه دخول هذه الثقافة فقد

كانت عن طريق مفكري وكتاب المنطقة التي عاش فيها - التقويّون الشغابيون ، الشاعران هولدرلين وموريك ، والفيلسوفان شيلنج وهيغل - الذين عاشوا في مدن مجاورة ، وارتادوا المدارس نفسها ، ودرسوا في نفس الجامعات . ومع هذا ، لا ينبغي أن يعتبر هذا الولاء للثقافة الألمانية الكلاسيكية ، الذي استمر حياة بأكملها ، ضيق أفق أو مقيداً للتفكير لأن انطباعات هسه عن كالف قد اكتسبت قوتها وتوسعها ، منذ طفولته وتصاعدت ، عن طريق عائلته التي كانت نموذجاً استثنائياً حقا .

كان يوهانس هسه ، والد هرمان ، ألمانيا بلطيقياً(*) من «استونيا» ، وقد استمر حتى نهاية حياته يتحدث - وسط مجموعة اللهجات المحلية(**) - بألمانية راقية صافية ظل ابنه يتذكرها باعتزاز وقد أثرت دون شك على أسلوب هسه الأدبي . وبعد أن قضى يوهانس هسه أربعة أعوام في ساحل «مالابار» في الهند مبشراً دينياً ، اضطر لأسباب صحية للعودة إلى أوروبا . وهناك عينته الجمعية التبشيرية في بازل لمساعدة الدكتور «هرمان جوندرت» مدير الصحافة التبشيرية في كالف . والتقى في كالف بابنة جوندرت الأرملة «ماريا ايزنبرغ» ، وسرعان ما تزوجها . وقد أنجبت ماريا ولدين ، ثيو وكارل ، في بداية زواجهما؛ وفي الأعوام التي تلت بقي على قيد الحياة أربعة أطفال لهما: اديله ، هرمان ، هانز ، مارولا . وهكذا عاش وتربى جيل من ستة أطفال في هذه الأسرة الألمانية الجنوبية التي يهيمن عليها جد عجوز شبيه بالساحر ، يتكلم عدداً من اللغات الأوروبية بطلاقة علاوة على كونه خبيراً بثقافة الهند

(*) بلطيقي : - متعلق ببحر البلطيك أو بدول ليتوانيا ولاتفيا وأستونيا.

(**) Alemanic مجموعة اللهجات المحلية للناطقين بالألمانية في الزاك وسويسرا وجنوب غرب ألمانيا.

ولغاتها ، وكان هرمان جوندرت ، الذي أمضى أكثر من عشرين عاماً فوق ساحل مالابار ، أحد أكثر مبشري القرن التاسع عشر تميزاً إضافة إلى أنه كان عالماً ذائع الصيت . ومن بين الأعمال العديدة التي أنتجها ، مأثرته العظيمة في وضع قاموس من لغة المااليالم إلى الانكليزية ، وكان منهمكاً فيه حتى أثناء عمله مديراً لدار النشر في كالف .

واستطاع جوندرت بواسطة شخصيته البارزة ـ التي انعكست في العديد من الكتابات السيروية ، ولا سيما في «عن جدي» ـ وعبر الزوار الغرباء الذين كثيراً ما كانوا يترددون على منزله ، ان يضيف الى الثقافة الألمانية الجنوبية بعداً عالمياً ، وأصبح يحمل أهمية تتزايد باستمرار إلى حفيده: فقد جعله يفتتن بالشرق ، وبفلسفته ، وبأدبه . فالثقافة الألمانية الكلاسيكية ، والاستشراق ، والمسيحية المنتشرة في العالم والتي تحولت إلى اهتمام في الدين بشكل عام ـ كل هذه تشكل العناصر الثلاثة الرئيسية لتجربة طفولة هسه ، ثم تطورت إلى موضوعات لأعماله اللاحقة .

إن تاريخ العائلة المدعم بالكثير من الوثائق ـ فعائلتا هسه وجوندرت كانتا مراسلين صحفيين وكتاب يوميات بالاكراه ـ يبين أن الصغير هرمان كان منذ طفولته طاغية العائلة ، وطفلاً ذا مزاج لا عقلاني يغيظ والديه ومعلميه على السواء . وقد تكون سلسلة الأحداث هذه قد تنبأت جيداً بمشاكل هسه الأكاديمية اللاحقة إضافة إلى مقاومته للسلطة التي استمرت طيلة حياته . إلا أن مثل هذه العناصر المخربة قد ترشحت من ذكريات هسه الخاصة لـ«طفولة الساحر» ، حيث تحولت حدة هذه الأعوام إلى لون ذهبي رقيق من ألوان السحر والجنة . لقد كان أمراً مسلماً به ان يكون هسه ، رغم طبيعته العنيدة ، طالباً موهوباً ، سيتبع الطريق المتوقع لسليل أسرة تبشيرية فيتخذ مهنة تعليمية .

لذا أُرسل في عام ١٨٩٠ إلى المدرسة اللاتينية في جوبنجن ليتعلم على يد الكاهن باور الشهير ، الذي وصفه هسه بولع في مقالة «من أيام مدرستي» . (وقد ذكر العام الذي أمضاه في جوبنجن أيضاً في العديد من الروايات ، وبالأخص «تحت العجلة» و«دميان») . هنا يتهيأ هسه لامتحانات الدولة العامة التي تؤهله للدخول في إحدى الحلقات الدراسية الشهيرة في فورتمبرغ ، وبدورها تجعله من ألمع الطلبة المسموح لهم دخول الجامعة في توبنجن . وفي صيف عام ١٨٩١ اجتاز هسه الامتحانات وقبل في حلقة دراسية في ماولبرون . وهو دير بندكتي سابق درس فيه هولدرلين قبل قرن من الزمن .

ورغم أن هسه كان يبدو في البداية مفتوناً بوضعه الجديد كطالب في ماولبرون ، إلا أنه ما لبث أن هرب من المدرسة خلال نصف عام وأعاده ضباط من شرطة البلدة، وتدهورت صحته ابتداءً من آذار حتى أيار من عام ١٨٩٢ وانتابته فجأة حالة يأس مطبق حدا بوالديه أخيراً إلى نقله من ماولبرون . ولو صدقنا «حياتي باختصار» ، فمن الممكن تفسير مشاكل هسه المدرسية جزئياً عن طريق قراره - الذي اتخذه في سن الثالثة عشرة وهو أن يصبح كاتباً - تلك المهنة ، التي كما أشار هو ، لا يوجد لها منهاج دراسي مقرر .

وطيلة عام ونصف كان ينتقل من مدرسة إلى أخرى ، ولم يتمخض عن ذلك سوى محاولات انتحار ونوبات من الصداع والدوار تتصاعد حدتها . وفي مطلع عام ١٨٩٣ توسل هسه إلى والديه ليخرجاه من المدرسة لا غير . وهكذا انتهى في سن السادسة عشرة تعليمه الرسمي . بعدها تسكع لستة أشهر حول كالف ، عمل في حديقة العائلة ، وساعد والده (الذي صار مدير الصحافة بعد وفاة جوندرت عام ١٨٩٣) ، منصرفاً إلى القراءة في مكتبة جده . في صيف عام ١٨٩٤ تمرد هسه ضد كل انواع المهن الأكاديمية ،

فاشتغل تلميذاً متمرناً في مشغل ساعات الأبراج لهاينريش بيروت بكالف .

وقد وفرت هذه التجربة مادة للعديد من قصص هسه المبكرة ، التي تعاملت كثيراً مع التجار ، وصبيان المهن ، والمتجولين في ريف ألمانيا (مثال ذلك كنولب) ، وتركته وهو يكن احتراماً كبيراً إلى رئيسه الداهية الحاذق بيروت ، الذي تحول ، بعد مضي خمسين عاماً ، في آخر رواية لهسه إلى المكتشف الأصلي «للعبة الكريات الزجاجية» .

في عام ١٨٩٥ تغير نمط حياة هسه مرة أخرى . وبمبادرة منه حصل على وظيفة عامل متمرن في مخزن لبيع الكتب في توبنجن ، وظل طيلة الاعوام الثمانية اللاحقة ـ في البدء في توبنجن ، ومن ثم في بازل ـ يتقدم في مهنة تجارة الكتب ، ويقرأ بنهم في نفس الوقت ، مزوداً نفسه بالثقافة التي رفضها في المدرسة . وكان في نفس الوقت يكتب. فقد ظهرت له عام ١٨٩٩ طبعة تضم مجموعة من القصائد ، «أغاني رومانسية» ، إضافة إلى كتاب يضم صوراً نثرية قصيرة معنون بـ«ساعة بعد منتصف الليل» . وقد أتبع هذه الأعمال الرومانسية الجريئة عام ١٩٠١ بكتاب «كتابات بوسثوموس وقصائد هرمان لاوشر» ، وكتاب قصائد ثانٍ عام ١٩٠٢ . وقد استرد هسه وجوده البوهيمي في مقاله «الانتقال إلى منزل جديد» . خلال تلك الأعوام ، التي قضاها في الغرف المؤجرة المزينة بصور نيتشه وشوبان .

ورغم أن أعمال هسه الأولى حظيت بقدر من الاهتمام النقدي ـ فقد امتدحه كل من ريلكه والناشر س . فيشر ـ إلا أنه لم ينل استحسان النقاد وانتباههم ولم يحقق قدراً من الاستقلالية الاقتصادية قبل عام ١٩٠٤ حين ظهرت روايته «بيتر كامنسند» . في ذلك العام تزوج هسه ماريا برنولي ، وكانت امرأة انطوائية للغاية تتمتع بموهبة موسيقية ، وتكبره بتسعة

أعوام. وكان هسه بعد تركه مهنته ، بائع الكتب ، قد انتقل إلى قرية جاينهوفن على الساحل الألماني لبحيرة كونستانس ، عازماً على احتراف مهنة الكتابة كمصدر للعيش . وقد وصف الهدوء الخادع للأعوام الثمانية التالية ، التي أنجب خلالها أطفاله الثلاثة في «الانتقال إلى منزل جديد» . وفي جاينهوفن كتب هسه بعضاً من أكثر قصصه ورواياته شعبية مثل « تحت العجلة » و«جرترود») . وجعلته شهرته المتنامية يستغرق أكثر فأكثر في الحياة الثقافية غير العادية للأديب الناجح . وبجانب عمله كمساعد مؤسس لـ(مارس) إحدى الصحف التحررية المعارضة ، كانت هناك حاجة ماسة إليه للعمل في تحرير مجلات دورية معاصرة كانت تصدر في أعوام ما قبل الحرب . إضافة إلى ذلك ، فقد استعرض عدداً لا حصر له من الكتب ، وحرر العديد من المختارات الأدبية والأعمال الألمانية الرومانسية . كان هسه كاتباً يافعاً يبشر بالنجاح بكافة المقاييس . إلا أن هذه السعادة الظاهرية لم تكن إلا غطاء للاستياء العاطفي الكامن في الأعماق ـ وقد وصف وضع العائلة المتوتر بدقة متناهية في رواية«روسهالده» (١٩١٤) ، التي يستنتج منها أن الفنان الناجح لا يمكن أن يكون أبداً زوجاً وأباً ناجحاً .

في عام ١٩١١ رحل هسه مع الرسام هانز شتور سنجر إلى الهند الشرقية ، ولكن وكما كتب هو خابت آماله باكتشاف الفردوس البكر في الشرق . ولم يتمكن إلا بعد مضي عشرة أعوام ، وفي رواية «سدهارتا» (١٩٢٢) ، من أن يتعامل أخيراً مع تجاربه في الشرق بشكل موضوعي ويتقبلها . إلا انه في الوقت نفسه ، ظلّ يبحث عن تعويض لاضطرابه الداخلي عبر التحرك في الخارج . فانتقل مع عائلته عام ١٩١٢ من جاينهوفن إلى بيرن، حيث باغتته هناك الحرب العالمية الأولى في سويسرا . وقد أرعبت الحرب هسه

منذ البداية خلاف ما حدث مع معاصريه في ألمانيا وفرنسا . وهاجم ذهنية الحرب التي تغلغلت على نحو سيء في أوروبا ، بعدد من المقالات المعارضة للحرب والعنف. وقد انتشرت على نحو واسع ـ وطبعت في كتاب «لو استمرت الحرب . . .» ـ وبفعل ذلك ، تخاصم والعديد من أصدقائه وقرائه السابقين ، الذين هاجموه وكالوا له الاتهامات الوضيعة . وقد زادت المشاكل العائلية من حدة هذه الصدمة النفسية الخطيرة: فوفاة والده في عام ١٩١٦ ، وإصابة أصغر أبنائه بمرض خطير ، وابتلاء زوجته باضطراب انفعالي حتم دخولها بعد فترة قصيرة إلى مؤسسة عقلية . كل هذه الضغوطات كانت سبباً في جعله يقرر في نهاية ذلك العام ، وضع نفسه تحت عناية الدكتور جوزيف لانغ ، تلميذ يونغ ، بمصحة زونمات قرب لوسيرن .

ولا ينبغي التصور أن هسه وهو يعاني من مثل هذا الانهيار العصبي الحاد عاجز في أي معنى من المعاني . فالحقيقة ، أنه طيلة فترة الحرب كان يعمل بنشاط في منظمات الاعانة السويسرية ، وكان يحرر جريدة (ساندي) (الأحد) نصف الاسبوعية وسلسلة من الطبعات الأدبية للأسرى الألمان ، إضافة إلى تحرير جريدة للألمان اللاجئين في سويسرا . ويجب أن يكون مفهوماً أن تجربة التحليل النفسي لم تؤثر عليه كمصدر للإلهام بقدر ما كانت برهاناً منهجياً لنفاذ البصيرة الذي حققه ضمنياً من أعمال الأدب العظيمة . ومع هذا ، كانت لهذه الجلسات مع لانغ التي امتدت حتى عام ١٩١٧ وقادت هسه للتعرف على يونغ ، أن تخلق إحساساً واضحاً عند هسه بالتحرر الروحي . وقد تعلم هسه ، الذي كان حتى تلك اللحظة مثقلاً بمشاعر تتصارع مع الأفكار التقليدية عن الصواب والخطأ ، أن يدرك وجود هذه الأفكار في روحه وفي العالم . وبدلاً من أن يدجّن أفكاره ومشاعره لقوالب

وضعها المجتمع ، قرر أن يتقبل «فوضى» وعيه ، حيث لا تبدو الحواجز بين الخير والشر في غاية الحدة والوضوح كما في أخلاقيات المسيحية ـ اليهودية .
وكانت نتيجة هذا التحرر النفسي رواية «دميان» التي كتبها في بضعة أسابيع من عام ١٩١٧ . وقد صاغ الأفكار الأخلاقية الجذرية للرواية بشكل أكثر تماسكاً في مقالتين كتبهما عن دوستويفسكي ، ظهرت في «في تأمل الفوضى» عام (١٩٢٠) واسترعت هاتان المقالتان انتباه ت .س أليوت فأشاد بالكتاب في ملاحظات «أرض اليباب» .

وعندما انتهت الحرب وصفّى هسه أعماله في بيرن ، قرر أن يقطع الصلة جذرياً مع الماضي ، فانتقل إلى تيسينو في جنوب سويسرا مطلع عام ١٩١٩ ، تاركاً عائلته وراءه ، وهناك في قرية مونتانيولا فوق لوجانو ، قضى عاماً اعتبره فيما بعد من أسعد أعوامه وأكثرها نتاجاً . ولكي يرمز إلى بدايته الجديدة ، نشر الكثير من أعماله في ذلك العام ـ رواية (دميان) إضافة إلى العديد من المقالات ـ تحت الاسم المستعار «إميل سنكلير» . وفي ذلك الوقت ، كتب إضافة إلى ذلك حكايتيه القصيرتين الرائعتين ـ «صيف كلينجسور الأخير» و«كلاين وفاكنر» وبدأ بكتابة رواية «سدهارتا» . وأخيراً في عام ١٩١٩ ، عبثت في بال هسه فكرة ترك الكتابة والتفرغ للرسم . (رغم انه بقي أساساً كاتباً ـ إلا أنه أخذت تتزايد لديه أهمية الرسم بالألوان المائية كمهنة بل بالأحرى أصبحت مصدراً للدخل) .

لم يستمر شعور النشاط والخفة لعام ١٩١٩ . فقد أعقبت هذه السنة الوفيرة الانتاج وكما يقول هسه واحدة من أكثر السنين جدباً وقنوطاً في حياته . إضافة إلى أن تضخم الأسعار الذي أعقب الحرب قد استنفد مدخراته وقضى فعلياً على كل أمواله الألمانية التي حصل عليها من بيعه لمؤلفاته . ومن

أجل أن يدبر هسه هذا الوضع المالي المزعزع ، قبل أن يتقاضى نقوداً مقابل رسمه الصور الخاصة بطبعات قصائده وحكاياته الخيالية . وفي عام ١٩٢٣ ، العام الذي أصبح فيه مواطناً سويسرياً ، بدأ مدفوعاً بآلام الروماتزم التي ابتلي بها على نحــو متزايد لبقية حياته ، القيام بأولى زياراته الخريفية إلى المنتجع في بادن ، حيث كان يمكث دائماً في نفس الحجرة في فندق فيرينا ـ هوف . (ومن أجل التوثيق ، تزوج هسه للمرة الثانية عام ١٩٢٤؛ ولكن لم يستمر هذا الزواج من روث فنجر سوى بضعة أشهر فسخه بعدها رسمياً عام ١٩٢٧ .) ومن عام ١٩٢٥ وحتى ١٩٣١ أخذ هسه يقطع وجوده في مونتانيولا الذي يشبه وجود الناسك ، بقضاء فصول الشتاء في زيورخ . وفي هذه الأعوام أيضاً شرع بعمل تجوالات القراءة العامة مثل تلك التي انتجت (رحلة إلى نورمبرغ) .

وقد كانت الأعوام الثلاثون الأخيرة من حياة هسه ، التي دشنها بزواجه من نينون دوبلن (اسمها بالولادة اوسلاندر) عام ١٩٣١ وانتقالهما إلى منزل جديد في مونتانيولا بناه لهما صديقه هانز . س . بودمر ، تختلف كثيراً في طبيعة المزاج وفي البنية عن الأعوام الخمسين السابقة . وقد استمر هسه بقضاء بضعة أسابيع من كل خريف بالمنتجع في بادن إضافة إلى العديد من فصول الصيف في «سيلس ماريا» في انجادين . إلا أن هذه الاقامات المؤقتة ـ التي وصفها في مقاطع من حياته مذكورة هنا ـ كانت أكثر قليلاً من مقطع رقيق في إيقاع سلس لحياته الجديدة ، وقد ميزت الاربعين عاماً الأولى من حياة هسه ، حركة مسعورة خارجية ـ هروب من المدرسة ، هروب من البيت ، هروب عبر أوروبا وآسيا ، وهروب من العائلة . وقد كانت الأعوام من ١٩١٩ وحتى ١٩٣١ ، ظاهرياً على الأقل ، أكثر هدوءاً بعض الشيء ، إلا

أن ما كان يمزقه من الداخل هو العملية العنيفة لاعادة التقييم الروحي والتي أسماها «الرحلة عبر جحيم ذاتي» . وعلى عكس ذلك ، كانت أعوامه الأخيرة تبدو متألقة بهدوء داخلي وسكينة خارجية . ومن الممكن أن نلمس على نحو أفضل دوام هذا الوجود المستقر في مقالاته التأملية الأخيرة ، مثل «أحداث في أنجادين» ، التي تؤكد تماثل وتكرر قيمة الحياة .

ظل هسه خلال الثلاثينات وبداية الأربعينات منغمساً في العالم الخارجي: يكتب الرسائل إلى أصدقائه الذين عارضوا الاشتراكية القومية في ألمانيا ، ويواصل عرض أعداد كبيرة من الكتب ، وبالأخص كتب الكتّاب المحظورين في ألمانيا؛ ويساعد العديد من أصدقائه وزملائه في الهروب من النازية . (وقد خصص دخله الذي كان يأتيه من طبعات الألوان المائية لهذا الغرض بالذات) . وبعد أن انتهت الحرب مباشرة نال هسه نوعاً جديداً من الاعتراف به ـ ممثلاً بحصوله على امتيازات مثل جائزة نوبل وجائزة جوته ـ: فقد صار جلياً للكثير من القراء أن أعمال هسه قد صانت بنقاء تام العديد من القيم (مملكة الروح السرمدية) التي فقدت في جو الخواء الازلي والثقافي الذي ساد ألمانياخلال الاثني عشر عاماً من الاشتراكية القومية . ورغم كل الاضطراب الكامن في اسفل العالم ، ظلت حياة هسه في مونتانيولا تسير وفق أنماط ثابتة معينة ، أسطورية إلى حد ما . وهذه الأنماط هي التي انعكست في المقالات عن حياته الشخصية في أعوامه الأخيرة ـ وكانت على درجة كبيرة من القداسة بالنسبة له بحيث لم تكن لتعكرها الرحلات إلى ألمانيا أو السويد لاستلام الجوائز! . والظاهرة المميزة التي حصلت بعد نشر «لعبة الكريات الزجاجية» عام ١٩٤٣ أن هسه لم يكتب فعلياً أية رواية ولا سيرة ذاتية تحليلية . فقد كانت حاجاته

للتعبير عن الذات ، حتى مماته في التاسع من آب عام ١٩٦٢ ، قد أشبعتها على الأغلب وعلى نحو وافٍ أشكال عامة مثل الرسالة السيارة(*) والمقالة التأملية .

يتضمن هذا الكتاب اثنتي عشرة قطعة أدبية عن الحياة الذاتية من أكثر ما كتب في هذا المجال أهمية ونموذجية ، نظمت بحيث يروي هسه حياته الخاصة تقريباً بتتابع مرتب زمنياً . فلا يعرف قراء هسه في الولايات المتحدة وفي بريطانيا العظمى إلا القليل القليل عن مؤلف الروايات الذي كثيراً ما عبروا عن إعجابهم به دون تحفظ . وهذا الإهمال يرجع جزئياً إلى الظروف التي جعلت فقط عدداً قليلاً جداً من وثائقه الشخصية ومقالاته ورسائله ، وكتاباته السيروية - متوفرة في اللغة الانكليزية . ولكن من المحتم علينا أن نفسر ذلك بحقيقة متناقضة هي ميل هسه الواضح لأن يقودنا بعيداً عن الواقع إلى «مملكة الروح السرمدية» فيضعف الاهتمام بالشخصية ذاتها . وسرعان ما يكتشف قارىء روايات هسه الذي يعود إلى «سيرته الذاتية» أن الفتنة في الروايات لا تكمن كثيراً في قدرتها على التحليق في الخيال بقدر ما تكمن في الخواص التي تعبر عن حياة الكاتب . ان نمط بداية حياة هسه تحول ليكون - وأكثر مما كان في «دميان» أو «سدهارتا» - نموذجاً للشباب الغريب ، العاجز عن تقبل القيم البالية وغير الراغب في بيع نفسه إلى مجموعة قوانين ، والذي انعزل عن المجتمع المنظم للبحث عن ذاته . ان أزمة نضوج هسه الروحية تعكس ، وحتى بشكل أكثر وضوحاً من «ذئب البوادي» ، أزمة وعي(**) العديد ممن تخطوا الثلاثين من العمر في هذا البلد ممن أجبرتهم أحداث العقد الماضي - كالحرب والفقر والتكنولوجيا - إلى إعادة تقييم قيمهم ، وغالباً يتحمل مجازفة إثارة عداء أصدقائهم وزملائهم الذين لم يصدمهم بعد التناقض الفاضح بين الواقع

(*) الرسالة السيارة : الرسالة الموجهة إلى عدد كبير من الأشخاص.

(**) جاءت بالفرنسية Crise de conscience.

الامريكي والحلم الامريكي . أما هسه الأكبر سناً والذي يشبه واحداً من هؤلاء الحكماء الجليلين في «لعبة الكريات الزجاجية» فهو يمثل طريقة في الحياة ، ربما ما يزال بعض القراء يتوقون إليها . كان هسه واثقاً جداً من معتقداته لدرجة انه لم يعد يقلقه السعي المسعور وراء الفردية ، فقد خلق له في مونتانيولا كاستاليا خاصة به ، وفي وسط «الواقع» ، عاش بمملكة الروح التي تحفظ القيم دون أذى وحيث الحياة تجري وفق أنماط ثابتة أبدية . وسنلتقي في هذه الصفحات مرة أخرى بـ«اميل سنكلير» ، «سدهارتا» ، «هاري هالر» ، «جولد موند» ، «جوزيف كنشت» - ممثلين جميعاً بشخصية هسه . ولو أخذنا تماثل هسه ذاته في «لعبة الكريات الزجاجية» ، لوجدنا أن السيرة الذاتية تكشف «فكرة» ان شخصيات هسه الخيالية ما هي إلا رداء عابر .

ثيودور سيولكوفسكي



«طفولة الساحر»

١٩٢٣

مرة اخرى وأخرى بعدها ، انزل في نبعك
أيتها الملحمة الرائعة الجليلة،
أسمع أنشودتك[1] الذهبية
كيف تضحكين ، وكيف تحلمين، وكيف تنتحبين بعذوبة .
وكنذير يأتي من اعماقك
تنساب كلمة السحر الهامسة،
ثملاً، خدراً ، هكذا بدوت ،
وأنت تدعينني الى الامام والى البعيد . . . .

لم يكن والداي وحدهما اللذين زوداني بالمعرفة، بل كانت هنالك أيضاً قوى أكثر علواً ، وأكثر سرية وغموضاً، ومن بين هذه القوى، الاله بان[2]،

(١) Leider ← الليدة ـ أغنية المانية (المترجم)
(٢) بان ← اله الغابات والمراعي والرعاة (عند الاغريق)

الذي كان يقف في خزانة جدي الزجاجية بهيئة صنم هندوسي صغير راقص . وقد أثار اهتمامي هذا الاله ، في اعوام طفولتي، وغيره من الالهة ايضاً، قبل تمكني من القراءة والكتابة بفترة طويلة، وملأني بالصور والأفكار الشرقية القديمة، التي جعلتني ـ فيما بعد كلما قابلت حكيماً هندوسياً او صينياً، أشعر وكأني أتوحد من جديد، وأعود الى بيتي . ولكن، تبقى الحقيقة اني، رجل اوروبي، وهذا مقدر علي ومكتوب في طالعي بعلامة برج الرامي، وطيلة حياتي مارست بحماسة الطباع الغربية من اندفاع وجشع وفضول لا يهدأ . ولحسن الحظ، ومثل معظم الاطفال، تعلمت ما هو اكثر نفعاً، واكثر ضرورة للحياة قبل ان تبدأ اعوام المدرسة . فقد تعلمت من اشجار التفاح، من المطر والشمس، من النهر والغابات، والنحل والخنافس ، وتعلمت من الاله بان، من الصنم الراقص في غرفة نفائس جدي . وقد توضح لي طريقي في العالم . وصاحبت بلا خوف الحيوانات والنجوم . وكنت اشعر بألفة في بساتين الفاكهة ومع الاسماك في المياه، وكان باستطاعتي في ذلك الحين أن أنشد الكثير من الاغنيات . وكنت قادراً على فعل السحر ايضاً ، تلك البراعة التي نسيتها سريعاً لسوء الحظ ، وكان علي ان اتعلمها مرة اخرى في سن متقدمة جداً . واستحوذت على حكمة الطفولة الأسطورية كلها .

وبعد ذلك ، جاء التعليم المدرسي الرسمي مكملاً وقد كان يسيراً وممتعاً بالنسبة لي . الا ان المدرسة وبكل تعقل ، لم تكن لتشغل نفسها بهذه البراعات المهمة التي لا غنى للحياة عنها ، وانصب اهتمامي بشكل رئيسي على تسليات عابثة جذابة ، كثيراً ما كانت تجلب لي المتعة ، باعطاء نتف من معلومات ، لازمني العديد منها بولاء طيلة حياتي ، فمثلاً مازلت أحفظ اليوم أقوالاً لاتينية ، وأشعاراً ، وأمثالاً جميلة طريفة ، وأعرف عدد القاطنين في الكثير من المدن في

كل ارجاء الكرة الارضيةـ وبالطبع ، ليس كما هو عليه اليوم ، ولكن كما كان في ثمانينات القرن التاسع عشر .

والحين بلوغي سن الثالثة عشرة ، لم اكن أفكر بشكل جاد أبداً بما سأكون عليه في يوم ما اوفي أية مهنة سأختار . ومثل كل الصبيان ، احببت وتقت الى العديد من المهن: كأن اكون صياداً ، أو رمّاثاً [(١)] ، أو قاطع تذاكر في قطار ، أو بهلواناً يسير على الحبال ، أو مستكشفاً أجوب القطب الشمالي .

إلا ان اكثر المهن قرباً الى قلبي هي أن اكون ساحراً . وكانت هذه الأمنية هي الأعمق والأثرى نظراً للحوافز التي كان سببها عدم ارتياحي لما يدعوه الناس«الواقع» الذي تراءى لي في وقت ما انه مجرد مؤامرة سخيفة من فعل البالغين؛ وفي وقت مبكر شعرت برفض قاطع له ، وفي وقت آخر بتهيب منه ، وفي آخر باحتقاره . لذلك تملكتني رغبة ملحة لتغييره بالسحر وتبديله والرُقي به . وفي طفولتي اتخذت رغبتي في السحر اتجاهاً نحو اهداف خارجية صبيانية: كنت اود ان اجعل شجرة التفاح تثمر في الشتاء ، وان تمتلىء محفظتي عن طريق السحر بالذهب والفضة ، وبواسطته حلمت بشلّ أعدائي ، وبإلحاق العار بهم ، ولكن بشهامة ، لأتوج بعدها بطلاً وملكاً؛ أردت أن اكون قادراً على ان أجد الكنوز الدفينة وعلى بعث الموتى ، وعلى جعل نفسي لا مرئياً . واعتبرت قدرة المرء على اخفاء نفسه أكثر القدرات أهمية ، وتقت لامتلاكها بشدة . وقد رافقتني هذه الرغبة ، وجميع قوى السحر الأخرى ، طيلة حياتي ، متخذة أشكالاً عدة ، ما كنت في الغالب لأستطيع إدراكها فوراً: وقد حدث ذلك فيما بعد ، بعد ان كبرت بمدة طويلة وزاولت مهنة الكتابة .

---

(١) Raftsman والرمّاث من ينقل بالرمث وهو الطوف: خشب يشد بعضه الى بعض ويُركب في البحر(المورد)

فقد حاولت مراراً أن اتوارى خلف مخلوقاتي وأعيد تعميد نفسي ، متخفياً بمرح خلف أسماء مبتكرة ، وقد جعلت هذه المحاولات زملائي الكتاب كثيراً ما يسيئون فهمي على نحو غريب ويعتبرونها مـأخذاً علي . عندمـا أنظر الى الماضي ، يتضح لي ان كامل حياتي قد تأثرت برغبة امتلاك قوى السحر هذه؛ وأرى كيف تغيرت اتجاهات هذه الرغبات السحرية بمرور الزمن ، وكيف حولت جهودي تدريجاً من العالم الخارجي وركزتها على نفسي . وكيف طمحت لاستبدال العباءة السحرية الساذجة وقدرتها على الاختفاء بقدرة اختفاء الحكيم الذي يرى كل ما حوله ، ويبقى هو غير مرئي دائماً. هذا التوق الذي أصبح فيما بعد المضمون الحقيقي لقصة حياتي .كنت فتى حيوياً سعيداً ، ألهو مع العالم الجميل ، المتعدد الالوان ، أشعر بالألفة في كل مكان ، مع الحيوانات ، والنباتات ، وبالقدر نفسه مع الغابة البدائية لخيالاتي وأحلامي؛ كنت سعيداً بقواي وقدراتي ، تبهجني رغباتي المتوهجة بدلاً من أن تذويني . وقد جربت في ذلك الوقت العديد من قوى السحر دون أن أعي ذلك ، وبشكل يقترب كثيراً من الكمال مما تمكنت منه في وقت لاحق . فقد كان يسيراً علي أن أفوز بحب فتاة ، وأن أسيطر على الآخرين ، ولم يستعص علي لعب دور زعيم فتنة أو دور المختال بنفسه أو الرجل الغامض . وفي وقت ما ، ولأعوام عديدة ، جعلت أصدقائي وأقربائي الأصغر مني سنا يقتنعون ـ مع احترام كامل ـ بقوتي الأدبية السحرية ، وبسيطرتي على العفاريت ، وبحقي في الاستحواذ على السلطة وعلى الكنوز الدفينة . لقد عشت في الجنة مدة طويلة ، على الرغم من أن والديّ قد جعلاني أتعرف على الشيطان في وقت مبكر . كان حلمي الطفولي طويل الأناة ، اذ شعرت أن العالم ملكي ، ولا وجود الا للحاضر ، وكل شيء حولي قدّر ليكون لعبة جميلة . ولو حدث أن نبع استياء

أو توق ما في داخلي ، أو بدا العالم البهيج بين حين وآخر كئيباً وغامضاً ، عندها كان من السهل عليَّ ، اذا حوصرت بحالة مثل هذه ، أن أجد طريقاً ليَ في ذلك العالم الآخر ، الاكثر حرية ، والأكثر طواعية ، عالم الخيال . وحين اعود منه ، اجد عندئذ العالم الخارجي جذاباً من جديد وجديراً بحبي . لقد عشت طويلاً في الجنة .

أذكر ان سقيفة خشبية كانت موجودة ، في حديقة أبي الصغيرة حيث احتفظت بالأرانب والغداف الأليف . قضيت فيها ساعات لا حدود لها مثل العصور الجيولوجية ، يغمرني شعور التملك الدافىء الهنيء؛ وكانت تنبعث من الأرانب رائحة الحياة ، العشب والحليب ، والدم والانجاب؛ ومن عين الغُداف المحدقة السوداء التمع سراج الحياة الأبدية . وفي نفس المكان قضيت عصوراً أخرى لا حد لها في الأماسي ، وقرب شمعة دامعة مع الحيوانات النائمة المطمئنة ، أمضيتها وحدي أو بمعية صديق ، أضع الخطط للعثور على الكنوز الهائلة ، ولإيجاد جذور نبات اللُّفّاح العشبي[1] ، وشن الحملات الظافرة في كل أرجاء العالم الذي كان في أمسّ الحاجة إلى الخلاص ـ تلك الحملات التي أعدمت فيها قطاع الطرق ، وحررت الأسرى التعساء ، ودمرت حصن اللصوص ، وصلبت الخائنين ، وعفوت عن الخدم الهاربين ، وامتلكت قلوب بنات الملوك ، وفهمت لغة الحيوانات .

وكان يوجد في مكتبة جدي الكبيرة كتاب بالغ الضخامة والثقل ، غالباً ما كنت أتصفحه وأقرأ فيه في أماكن متفرقة وكان هذا الكتاب الذي لا يذهب يحوي صوراً قديمة رائعة ـ أحياناً يمكنك العثور عليها بمجرد أن تفتح الكتاب

---

(١) نبات اللّفاح (اليبروح) نبات عشبي من الفصيلة الباذنجانية (م).

وتقلب صفحاته ، فتجدها أمامك زاهية جذابة؛ وأحياناً تبحث عنها فترة طويلة لا تجدها أبداً . اختفت ، تلاشت بفعل السحر كما لو أنها لم تكن موجودة أصلاً . في الكتاب توجد قصة ، جميلة للغاية ، عصية على الفهم ، حتى اني أعدت قراءتها مرات ومرات . لم يكن العثور عليها أيضاً ممكناً دائماً ، وإن حصل ذلك فهذا يعني أن الحظ قد حالفك . فكثيراً ما كانت تختفي تماماً وتبقى متوارية ، وكثيراً ما كانت تبدو كما لو أنها غيرت مكانها وعنوانها؛ وعندما تقرأها في بعض الأوقات تكون قريبة للنفس على نحو غريب وسهلة الفهم بشكل ما ، وفي وقت آخر كانت غاضبة ، وممتنعة مثل باب العلّية حيث تسمع خلفه عند الشفق أصوات الأشباح وهي تهذر أحياناً وتئن . كان كل شيء مفعماً بالواقع ومفعماً بالسحر ، وقد نما الاثنان معاً بحميمية جنباً إلى جنب ، وكلاهما ينتمي إليّ .

وحتى الصنم الراقص القادم من الهند الذي يقف في خزانة جدي الزجاجية الخرافية ، لم يكن دائماً الصنم نفسه ، لم يكن له دائماً ذات الوجه ، لم يكن يرقص في كل الساعات الرقصة نفسها . أحياناً كان صنماً ذا هيئة غريبة ومضحكة الى حد بعيد ، مثل تلك الأصنام التي ينحتها ويعبدها بشر غريبو الأطوار ، غامضون ، في بلدان عجيبة محاطة بالسرية . وفي أحايين أخرى ، كان شيئاً سحرياً ، مليئاً بالمعنى ، فاسداً إلى أبعد الحدود ، شديد التوق إلى تقديم الاضاحي ، حاقداً قاسياً ، غير جدير بالثقة ، متهكماً - وكان يبدو كأنه يغويني لأهزأ منه ، ليأخذ ثأره مني فيما بعد . كان باستطاعته أن يغير سيماءه رغم كونه مصنوعاً من معدن أصفر اللون؛ وأحياناً كان ينظر اليّ شزراً . ويعود في مرات أخرى ليكون رمزاً خالصاً ، لا هو بالقبيح ولا

بالجميل ، ولا بالشرير ولا بالطيب ولا بالمضحك ، ولا بالمخيف ، ولكن مجرد رمز قديم غامض ، مثل حرف روني[1] ، ومثل الأشنة فوق الحجارة ، ومثل الخطوط التي تزين الحصاة ، وخلف هيئته ، ووراء وجهه وفكرته ، عاش الاله الخالد متوارياً هناك . ورغم كوني صبياً في ذلك الوقت ، ولا أعرف اسم هذا الاله ، إلا أني ميزته وبجلته ، وبشكل لا يقل عن الأيام اللاحقة ، عندما دعوته شيفا[2] ، وفيشنو[3] ، وسميته الله ، أو الحياة ، أو البرهمي ، أو اتمان ، أو الطاو[4] ، أو الام الخالدة . لقد كان الأب ، والأم ، وكان المرأة والرجل والشمس والقمر .

وحول الصنم في الخزانة الزجاجية وفي باقي خزانات جدي ، يقف ويتدلى ويستلقي العديد من الكائنات والأشياء الأخرى ، خيوط من الخرز الخشبية كالمسابح ، ولفائف منقوشة من سعف النخيل بكتابات هندوسية قديمة ، سلاحف منحوتة من الحجر الصابوني الاخضر اللون ، تماثيل صغيرة لآلهة من الخشب ، وزجاج المرو ، ومن الطين ، أغطية مطرزة بالحرير والكتان ، أكواب وطاسات من النحاس ، وقد جاءت كل هذه الأشياء من الهند وسيلان ، ومن جزيرة بارادايس(الجنة) بأشجار سرخسها وشواطئها التي تصطف فيها أشجار النخيل وابنائها من السنهاليين ذوي العيون التي تشبه عيون أنثى الضبع الوديعة؛ جلبت من سيام ومن بورما . فكل شيء كانت تعبق منه رائحة البحر والتوابل ، والأماكن البعيدة ، ورائحة القرفة وخشب الصندل ، وكلها تعفرت بالايدي السمراء والصفراء ، وتشبعت بالمطر المداري ومياه نهر

(١) الحرف الروني: حرف من حروف تيوتونيّة قديمة (م.م)

(٢) شيفا: اله هندوسي يعرف بـ «المُدمِّر»(م.م)

(٣) فيشنو : ثاني أقانيم الثالوث الهندوسي.(م.م)

(٤) الطاو : المبدأ الأول الذي ينبثق منه كلّ وجود في هذا الكون(م.م).

الجائع ، وجففتها الشمس الاستوائية ، وظللتها الغابات البدائية . كل هذه الأشياء كانت تعود إلى جدي ، الجليل ، الموقر ، الرجل القوي ذي اللحية البيضاء ، والمعرفة الواسعة ، الأعظم من أي أب أو أم ، الذي كان يملك ، إضافة لكل ما ذكرت ، أشياء وقوى أخرى ،لم تقتصر على الأصنام والدمى الهندوسية ، والكائنات المنحوتة ، والملونة ، التي يسكنها السحر ، والأكواب المصنوعة من قشرة جوز الهند وصناديق خشب الصندل ، وحجرة الجلوس والمكتبة ، بل كان ساحراً أيضاً ورجلاً حكيماً ، راجح العقل . كان جدي يفهم جميع لغات الجنس البشري ، أكثر من ثلاثين لغة ، وربما كان يفهم لغة الآلهة كذلك ، وربما لغة النجوم . كان بإمكانه أن يكتب ويتحدث باللغة البالية[1] ، وباللغة السنسكريتية ، وأن ينشد أغنيات الكنارين ، والبنغال ، وهندستان والسنغال وكان يعرف الطقوس الدينية للمسلمين والبوذيين رغم كونه مسيحياً مؤمناً بالثالوث الاقدس؛ وقد عاش سنوات وعقوداً عديدة في بلدان شرقية حارة وخطرة ، وارتحل في قوارب وعربات تجرها الثيران ، وعلى ظهور الخيل والحمير ، ولم يكن هنالك امرؤ يعرف مثلما كان يعرف هو أن مدينتنا وبلدتنا لم تكن سوى جزء صغير من الأرض ، وأن ألف مليون من البشر يعتنقون معتقدات تختلف عن معتقداتنا ، ولهم عادات ولغات وألوان بشرة ، والهة ، وفضائل ورذائل تختلف عنا: لقد أحببت جدي ، واحترمته ، وخشيته ، وتوقعت منه كل شيء ، واليه عزوت كل الأشياء ،ومنه ومن الهه بان المتنكر في شكل صنم ، كنت اتعلم دونما توقف . كان هذا الرجل ، والد أُمّي ، يختبيء في غابة الألغاز ، مثلما يختبيء وجهه في غابة لحيته البيضاء؛ ومن عينيه كان يفيض الحزن من أجل العالم ، وتفيض كذلك حكمة بهيجة ، حسبما

---

(١) اللغة البالّية: ـ لغة الاسفار البوذية المقدسة.(م.م).

تتطلب الحالة؛ حكمة معزولة وخبث سماوي؛ عرفه الناس في بلاد عديدة ، وكانوا يزورونه ويحترمونه ، ويتحدثون معه باللغة الانكليزية ، والفرنسية ، والهندية ، والايطالية ، ولغة المالايالم ، ويغادرونه بعد حوارات طويلة دون أن يتركوا دليلاً لهوياتهم ، فربما كانوا أصحابه ، ربما رسله ، خدمه ومعاونيه ، ومنه بالذات ، من هذا الرجل الغامض ، جاء السر الذي كان يلف أمي ، ذلك اللغز الخفي القديم الأزلي ، فقد عاشت هي أيضاً لفترة طويلة في الهند ، وكان بمقدورها أيضاً أن تتحدث وتغني بلغة المالايالم ، وأن تتبادل مع والدها الشيخ العبارات والأمثال بلغات غريبة سحرية . وفي أوقات معينة ، كان لها ، مثله ، ابتسامة الغريب ، ابتسامة الحكمة الخفية .

أبي كان مختلفاً . كان يقف وحده ، لا ينتمي الى عالم الأصنام أو عالم جدي ، ولا إلى عالم المدينة العادي . كان ينتحي جانباً بعيداً ، من دون رفيق ، مكابداً الألم ، ناشداً شيئاً ما وكان واسع الاطلاع ، رقيق الفواد ، بلا زيف وممتلئاً حماسة لخدمة الحقيقة ، إلا أنه كان بعيداً كل البعد عن تلك الابتسامة النبيلة ، الحانية التي لا يمكن إغفالها - فلم يكن يمتلك أية علامة من علامات الغموض ، ولم يتخل قلب أبي عن رقته أبداً ، ولم يخنه ذكاؤه ، ولكنه لم يتوار قط في سحابة السحر التي كانت تحيط بجدي ، ولم يتبدد وجهه ابداً في تلك البراءة والألوهية التي كان يبدو انفعالها حيناً كما الحزن ، وحيناً آخر مثل سخرية لطيفة ، أو مثل قناع الدب الساكن ذي النظرة الروحية . لم يكن أبي يتحدث مع أمي باللغات الهندوسية ، بل كان يحادثها بالانكليزية وبألمانية صافية ، واضحة ، جميلة ، ممزوجة بشكل طفيف باللكنة البلطية .[1] وقد استخدم ألمانيته هذه ليجذبني اليه ، وليكسب مودتي وليعلمني؛ وفي وقت ما

(١) اللغات البلطية Baltic : مجموعة من اللغات الهندية الأوربية تشمل اللاتفيانية والليتوانية والبروسية القديمة. (المورد).

جاهدت لأحاكيه ، وأنا ممتليء إعجاباً به وحماسة ، رغم كونها حماسة مبالغاً فيها جداً ، ورغم معرفتي أن جذوري تمتد اعمق في تربة امي ، في العينين الداكنتين ، وفي الغموض الذي يكتنفهما . فأمي كانت تفيض موسيقى ، ولم يكن أبي كذلك ، ما كان بمقدوره أن يغني البتة .

نشأت معي أخوات وأخوان إثنان أكبر مني سناً ، كانا مثاراً للحسد والإعجاب ، كانت تحيطنا مدينة صغيرة ، قديمة ، محدبة الشكل ، تسيجها جبال مغطاه بغابات ، حـادة ، يشوبها شيء من العتمة ، وفي وسطها نهر جميل ، ذو منعطفات ينساب فيها بتمهل . وقد أحببت كـل ذلك ودعوتـه بيتي ، وهنـاك في الغابات وفي النهر ، كنـت على معرفة جيدة بكل ما كان ينمو . . بكل ما في التربة ، بالحجارة والكهوف ، والطيور والسناجب ، وبالثعالب والأسماك .

كل هذه الأشياء كانت تخصني ، ملكي ، وبيتي ومعها كانت الخزانة الزجاجية والمكتبة والسخرية الحانية في وجه جدي المتوهج بالمعرفة ، ونظرة أمي الغامضة الدافئة ، والسلاحف والاصنام ، والأغنيات والأقوال الهندوسية ، جميعها كانت تحدثني عن عالم أرحب ، وعن وطن أعظم ، وعن سلالة أكثر قدماً ، وعن محيط أوسع . عالياً كان ببغاؤنا الوقور معلقاً في قفصه المحاط بالاسلاك ، عجوزاً وحكيماً ، يملك وجه عالم ومنقاراً حاداً ، يغني ويتكلم . وقد أتى هـو ايضاً من مكان بعيد ، من المجهول ، تخـرج لغة الأدغـال من منقاره ،وكأنها عزف على الناي ، وتنبعث منه رائحة خط الاستواء . عوالم عديدة ، وأجزاء عدة من الأرض ، وأذرع ممتدة ترسل أشعتها لتلتقي وتتداخل في بيتنا . كان البيت كبيراً وقديماً ، يحوي غرفاً كثيرة فارغة تقريباً ، ويحوي اقبية وممرات واسعة باهرة تفوح منها رائحة الحجارة والرطوبة ، وعلّيات لا نهاية لها ، مليئة بالأشياء المبعثرة والفاكهة وأحجار الداما والفراغ المظلم . أشعة

ضوئية تصله من عوالم عدة تتداخل في هذا البيت فالناس هنا يقرأون الكتاب المقدس ، وهنا يدرسون ويمارسون ، علم اللغة الهندوسية ، هنا يتعالى عزف موسيقى بالغ الروعة ، وتشيع معرفة البوذا واللاوتسي ، وهنا يحل ضيوف قادمون من بلدان عديدة ، تبدو على ملابسهم الغرابة والغفران ، حاملين معهم صناديق ثياب غريبة مصنوعة من جلدٍ ومن لحاء منسوج ، وتسمع همهمة السنتهم الغريبة ، وفي هذا البيت أطعم الفقراء وأقيمت الاحتفالات في ايام العطل ، فقد كان يعيش العلم والخرافة جنباً إلى جنب هنا .

كانت هناك جدتي ، أيضاً ، وكنا نخالفها كثيراً ،ولا نعرفها حق المعرفة لأنها لا تتكلم الالمانية ، وتقرأ الكتاب المقدس باللغة الفرنسية ، كانت حياة هذا البيت معقدة ، لا يمكن ان يفهمها إي أنسان ، فلهو الضياء هنا متعدد الالوان ، ونداءات الحياة فيه غنية ولا تحصى . كانت حياة جميلة تطيب لي ، ولكن يبقى الأكثر جمالاً منها عالم أفكاري المليء برغباته ، وتبقى مداعبة أحلام يقظتي اكثر غنى فلم يكن الواقع ليكفيني ابداً ، كانت بي حاجة الى السحر .

كان السحر شيئاً فطرياً في بيتنا وفي حياتي ، والى جانب خزانات جدي كانت لأمي خزانات أيضاً ، تملؤها الأنسجة الآسيوية ، والملابس والبراقع . وفي نظرة الصنم الماكرة كان يكمن السحر ، واكتنف الغموض رائحة العديد من الحجرات القديمة والسلالم اللولبية . وفي داخلي كان يوجد الكثير الذي ينسجم مع هذه الظواهر . وفقط في داخلي ومن أجلي وحدي وجدت هذه الدوافع والروابط . فلا شيء كان أكثر غموضاً ، وأكثر تعذراً في الحديث عنها وأكثر ابتعاداً عن الواقع العادي مثلما كانت هذه الأشياء . وفي الوقت ذاته لم يكن هناك شيء أكثر حقيقية منها . وينطبق هذا حتى على الظهور والاختفاء المزاجي لصور وحكايات ذلك الكتاب الكبير . ويصدق هذا على التغيرات في هذه الأشياء التي كنت أشهد وقوعها بين ساعة وأخرى . فكم كان مختلفاً مرأى بابنا الأمامي ، وسقيفة الحديقة ، والشارع في مساء الأحد عنه في صباح

الاثنين! وكيف كانت تكتسي ساعة الحائط وصورة السيد المسيح في غرفة المعيشة وجها مختلفاً تماماً حين تهيمن روح جدي ، خلاف ما تبدو حين تحضر روح أبي ، وكيف يتغير ذلك كله تماماً مرة أخرى في تلك الساعات عندما لا توجد روح أخرى عند روحي تعطي للأشياء ما يميزها ، وتمرح النفس معها وتمنحها أسماء ومعاني جديدة! في مثل هذه الأوقات من الممكن لكرسي عادي أو مقعد ، ولظل قرب الفرن ، ولعنوان في صحيفة أن يصبح جميلاً ، أو قبيحاً وبغيضاً ، عظيماً أو تافهاً ، من الممكن ان يثير الشوق أو الفزع، الضحك أو الحزن . كم كانت قليلة تلك الأشياء الراسخة ، المستقرة ، الثابتة! وكم كان حياً كل شيء ، يخوض التحول ، ويتوق الى التغير ، في انتظار الفناء ، والابتعاد من جديد! .

ولكن أهم وأروع من كل هذه الظواهر السحرية كان «القزم» . لا اعرف متى كانت المرة الأولى التي رأيته فيها ، ولكني أظن أنه كان موجوداً دائماً ، وإنه قد أتى الى العالم برفقتي . كان القزم كائناً ضئيلاً ، أشهب اللون ، مبهجاً ، شبحاً أو جنياً ، ملاكاً أو شيطاناً . كان يسير في بعض الأوقات أمامي في الأحلام مثلما يفعل في ساعات صحوي ، وهو من أنصاع اليه أكثر من أبي ، وأكثر من أمي ، وأكثر من العقل ، نعم غالباً أكثر من الخوف . فلو ظهر القزم ، فلن أرى غيره ، وإنما يذهب أذهب وراءه ، ومثلما يفعل أفعل ، كان يظهر في أوقات الخطر . فلو حدث أن ضايقني كلب شرس أو صبي ساخط يكبرني في السن وأصبحت في وضع حرج ، فإنه في أكثر اللحظات خطورة ، يظهر يركض أمامي ، يريني الطريق ويجلب الخلاص لي فيدلني على لوح خشبي غير محكم بسياج الحديقة استطيع الهرب من خلاله في اللحظة الحاسمة ، أو يبين لي ما ينبغي فعله بالضبط ، كأن انطرح أرضاً ، أو اتراجع إلى الوراء ، أو أولي هارباً ، أو أصرخ ، أو التزم الصمت . كان يخرج من يدي شيئاً كنت على وشك أن آكله ، ويقودني

الى مكان حيث استطيع فيه أن استرجع ما ضاع من ممتلكاتي . مرّت أوقات كنت أراه فيها كل يوم. وأوقات أخرى يظلّ فيها مختفياً. ولم تكن هذه اوقات طيبة ، فكل الأشياء تصبح فاترة ومضطربة ، لا شيء يحدث ولا شيء يتقدم.

وذات مرة ، ركض القزم أمامي في ساحة السوق وركضت وراءه ، ركض الى ينبوع ماء كبير ذي حوض حجري يعلو ارتفاعه على قامة الانسان ، وتتدلى منه أربع جرار ماء ، شق طريقه الى حافة جدار النبع الحجري ، وتبعته ، وعندما قفز بوثبة نشطة الى الماء ، قفزت خلفه أيضاً ، فلم يكن لي خيار آخر ، وأصبحت على وشك الغرق . ولكني لم أغرق فقد انتشلتني امرأة شابة جميلة ، جارتنا التي لم أكد اعرفها حتى تلك اللحظة ، والتي عشت معها لفترة طويلة صداقة سعيدة من ذلك النوع الساخر .

ومرة وبخني والدي على خطأ ارتكبته ولكني برأت ساحتي قليلاً ، فها أنا من جديد أعاني من حقيقة أعرفها وهي كم من الصعب ان تجعل نفسك مفهوماً للبالغين . سالت بعض الدمعات ونلت عقوبة خفيفة ، وفي النهاية أعطاني أبي كيلا أنسى هذه الحادثة ، تقويم جيب جميلاً وصغيراً . شعرت بشيء من الخجل وعدم الرضا من المسألة كلها . فذهبت بعيداً اتمشى فوق الجسر ، وفجأة ركض القزم أمامي ، قافزاً فوق سور الجسر ، وأمدني بايماءات منه أن ألقي هدية أبي في النهر . فرميتها فوراً؛ فلا مجال للشك والتردد حين يكون القزم موجوداً ، فهذه المشاعر تنتابني فقط حين لا يكون موجوداً ،وحين يختفي ويتركني وحيداً . اذكر يوماً اني خرجت مع والديّ وكنت امشي الى جانبهما ، وظهر القزم . مشى على الجانب الايسر من الشارع فتبعته ، وكلما أمرني ابي بالعودة الى الجانب الآخر ، يرفض القزم أن يأتي معي ويصر على السير في الجانب الأيسر ، وفي كل مرة كنت أعبر اليه وتعب أبي من هذا

الأمر ، وتركني أخيراً أسير على هواي .

إلاّ أنه شعر بالإهانة ، وسألني فيما بعد في البيت لم تماديت في عدم طاعته ، وعن سبب إصراري عل السير في الجانب الآخر من الشارع . كنت أشعر في مثل هذه الاوقات بحرج كبير ، وبالأحرى بكرب حقيقي ، فلا شيء كان أكثر استحالة على الاطلاق من التفوه بكلمة واحدة عن القزم لأي كان ، ولن يكون هناك أشد سوءاً ، ووضاعة ، وما يفوق اقتراف إثم مميت من خيانته، من تسميته ، ولا حتى زيارته ، أو التمني أن يكون قربي فإذا كان موجوداً فهو أمر حسن ، ولسرت وراءه ، وإذا لم يكن ، فكأنه لم يوجد أصلاً . ولم يكن للقزم اسم . ولكن مع ذلك فإن أكثر الأشياء تعذراً علي في هذا العالم أن يكون القزم في مكان ما ولا اتبعه . فأينما ذهب ذهبت خلفه ، سواء الى الماء أو الى النار . فما كان إلاّ كما لو أنه كان يأمرني ، أو ينصحني بفعل هذا أو ذاك ، فعدم محاكاة أفعاله كان مستحيلاً كاستحالة ألا يتبع ظلي حركاتي تحت الشمس .

ربما كنت مجرّد ظل أو صورة منعكسة للكائن الصغير ، أو هو كان كذلك بالنسبة لي؛ وربما حين ظننت اني أقلده كنت اقوم قبله بنفس الذي يفعله أو في وقت واحد معه . فقط لم يكن القزم وياللحسرة ، موجوداً دائماً ، فحين يغيب تفقد افعالي كل عفويتها وضرورتها ، وعندها من الممكن أن يصبح كل شيء مختلفاً ، يكون لكل خطوة إمكانية التحقق أو عدمه ، وإمكانية التردد، واحتمال التفكير الطويل بها . وأما الخطوات الجيدة والمفرحة والمواتية في حياتي في ذلك الوقت ، فكلها حدثت بلا تفكير . لعل مملكة الحرية هي أيضاً مملكة الأوهام .

أي صديقين حميمين أصبحنا أنا وجارتي الطروب التي انتشلتني من الينبوع!! كانت تتدفق حيوية ، شابة جميلة ، حمقاء على نحو محبب يتاخم حدود العبقرية .

كانت تجعلني أحكي لها الحكايات عن اللصوص والسحرة ، فتصدقها أحياناً أكثر مما يجب ، وأحياناً أقل مما يجب ، ولكنها اعتبرتني واحداً من حكماء الشرق ،وكان هذا يروق لي . وكانت معجبة بي كثيراً فلو اخبرتها شيئاً مضحكاً ، ضحكت بصوت عال ولمدة طويلة مبالغ فيها ، حتى قبل أن تفهم المغزى . كنت أوبخها على ذلك قائلاً: « اسمعي يا فراو آنّا ، كيف يمكنك الضحك على دعابة لم تفهمي منها شيئاً على الإطلاق؟ إنه أمر في منتهى الغباء ، إضافة إلى أنه مهين لي . إما أن تفهمي دعاباتي وتضحكي وإلاّ لا تفعلي ، ثم لا يجوز أن تضحكي وتتصرفي وكأنك فهمت ما قلت» . وكانت تستمر في الضحك ، وتصرخ«لا» «انت أمهر شاب رأيته في حياتي ، أنت عظيم ، ستصبح أستاذاً أو سفيراً أو طبيباً ، ولكن ، كما تعرف ، لا يمكن أن تحمل الضحك محمل السوء . فأنا أضحك فقط لاني استمتع بصحبتك ولأنك أظرف من رأيت ، والآن هيا ، اشرح لي مزحتك» . وأشرح لها المزحة بالتفصيل ، وتظل تسأل عن هذا وذاك ، وفي الآخر تفهمها بحق ، ولو أنها قد ضحكت على مزحتي من كل قلبها وبسخاء من قبل ، ولكنها الآن تضحك بشكل حقيقي وكأنها المرة الأولى ، وبشكل مجنون ومعد لدرجة تدفعني للضحك معها كذلك! أحياناً كانت تطلب مني أن أردد أمامها ، وبشكل سريع جداً ، وثلاث مرات متتالية ، كلمات يصعب نطقها بسرعة مثلاً:

"Wiener Wascher waschen weisseWasche

Kattbuser Postkut schkasten (*) أو قصة

وكنت أصر على أن تردد معي نفس العبارات ، ولكنها كانت تنفجر منذ البداية بالضحك ولا تستطيع ان تنطق ثلاث كلمات صحيحة ، ولم تكن تريد ان تفعل ذلك ، فكل جملة تبدؤها تنهيها بقهقهات متجددة من الضحك . فراو أنّا كانت أكثر من عرفتهم مرحاً . وكنت أعتبرها بذكائي الصبياني حمقاء بشكل لا يعقل ، وهي كذلك بالفعل ، إلا أنها إنسانة سعيدة ، وأنا أميل في بعض الأوقات لان اعتبر البشر السعداء هم الحكماء السريون ، حتى لو بدا عليهم الغباء . هل ثمة ما هو أكثر غباءً وقدرة على إتعاس البشر من الذكاء؟! .

مرت الأعوام ، وخلالها اهملت صداقتي مع فراوآنّا بشكل مؤقت . فقد أصبحت تلميذاً كبيراً في المدرسة ، تتجاذبني الأهواء ، والأحزان ، ومخاطر الذكاء حتى التقيتها ثانية في أحد الأيام . ومن جديد كان القزم هو الذي قادني اليها في ذلك الحين كنت مهموماً بالتساؤل اليائس حول الفرق بين الجنسين وأصل الأطفال ، وأخذ هذا التساؤل يزداد الحاحاً وتعذيباً لي ، لدرجة اني فضلت ذات يوم عدم الاستمرار في العيش ما لم أجد حلاً لهذا اللغز المرعب . أثناء عودتي من المدرسة ، مثقلاً بالغضب والحزن ، ماشياً بمحاذاة ساحة السوق ، محدقاً في الأرض ، تعيساً ،نكد المزاج ، فجأة ظهر القزم! وكان قد غدا ضيفاً نادراً ، وأصبح لفترة طويلة من الزمن غير حقيقي بالنسبة لي . وربما كنت كذلك بالنسبة له فجأة أراه الآن من جديد ، متغيراً سريع الحركة يركض امامي على طول الطريق؛ تراءى للحظة واحدة فقط ، ومن ثم اندفع مسرعاً داخل بيت فراو آنا ، واختفى إلا إني تبعته فوراً . ودخلت البيت ، وفي الحال

- عمال المطبعة الفينيسيون يغسلون البياضات.
- قصة عربة كوتبوز لنقل البريد.

عرفت السبب ، صرخت فراو آنّا عندما ظهرت في غرفتها دون سابق انذار ، فقد كانت تتعرى في اللحظة تلك ، ولكنها لم تخرجني ، وبعد مدة قصيرة عرفت تقريباً معظم الأشياء التي كانت معرفتها ضرورية لي بشكل ملح آنذاك ، ولولا أنني كنت صغيراً جداً لتحول الأمر الى علاقة غرامية .

هذه المرأة اللعوب الساذجة تختلف عن معظم البالغين ، فرغم كونها حمقاء ، كانت طبيعية وصريحة ، يقظة على الدوام ، لا يمكن ابداً خداعها أو احراجها ، ومعظم البالغين كانوا خلاف ذلك . إلا أن الاستثناء كان موجوداً ، فأمي ، كانت مثالاً للحيوية والتأثير الغامض ، وأبي يجسد الاستقامة والذكاء بكل ما في الكلمة من معنى ، وكذلك جدي الذي صار الآن لا يكاد يحسب من البشر ، هذا الخفي المتعدد الأوجه ، المرح ، المتجدد ورغم ان على المرء ان يحترم ويهاب البالغين ، لكن كان العدد الأكبر منهم إلى حد بعيد ، آلهة من طين بلا ريب . كم كانوا مضحكين بتمثيلهم الأخرق عندما يتكلمون مع الأطفال! وكم كانت أصواتهم مزيفة . وابتساماتهم سخيفة! كم كانوا يبدون جادين في مواعيدهم وأعمالهم ، وكم تبدو هيئتهم رصينة على نحو مبالغ فيه وهم يعبرون الشوارع محملين باللوازم ، ومحافظ الأوراق ، والكتب المثبتة تحت أذرعهم ، وكم كانـوا متلهفين أن يلفتوا الانظار اليهم ، وأن تحييهم الجموع ، وتحتفي بهم!

أحياناً كان يأتي الناس في يوم الأحد لزيارة بيت والديّ ، رجال يحملون قبعات مرتفعة بأيديهم العديمة الرشاقة المدثرة بقفازات منشاة مصنوعة من جلد الماعز ، كانوا مثيرين للاعجاب مفعمين بالكبرياء ، رجال تربكهم درجة مناصبهم ، محامون وقضاة ، ووزراء ومعلمون ، مديرون ومفتشون ، تصحبهم زوجاتهم الهيّابات ، القاطبات الجبين ، يجلسون متخشبين فوق الكراسي ، وكانوا بحاجة ان يحثهم المرء في كل التفاتة ، ويعينهم في كل خطوة ، أثناء

توجيههم الأسئلة واجابتهم علينا ، واثناء استئذانهم للانصراف . كان من السهل علي ألاّ آخذ هذا العالم البرجوازي التافه مأخذا جدياً كما ينبغي الأمر ، لأن والديّ لم يكونا ينتميان اليه ، وكانا يجدانه أيضاً عالماً مضحكاً . كم كانوا معتدين بأنفسهم بسبب العمل الذي يمتهنونه ، ونقاباتهم ، والمراكز الرسمية التي يحتلونها ، وكم بدوا عظماء وموقرين لأنفسهم! فلو حصل ان اعترض سيرهم في الشارع قاطع تذاكر او شرطي او بناء آجر ، فذلك امر مقدس لا يمكن تجاوزه فمن المفترض عليك ان تبتعد عن الطريق ، او تفسح المجال ، او تقدم المساعدة . بينما لم يكن الاطفال بافعالهم ولعبهم مهمين على الاطلاق فقد كانوا ينحون جانباً ويزجرون . هل معنى هذا انهم يقومون بما هو اقل صواباً واقل نفعاً واهمية من البالغين؟ أوه ، كلا بل على العكس ، ولكن ما حدث ان البالغين يتمتعون بالقوة ويصدرون الأوامر ، وهم الذين يسودون . إلا أنهم في الوقت نفسه ، لهم ألعابهم تماماً مثلنا نحن الصغار فهم يلعبون عندما يكونون رجال أطفاء وجنوداً ، وعندما يذهبون الى النوادي والى الحانات ، وكل ذلك بمظاهر العظمة والسلطة كما لو أن كل شيء لا بد أن يكون على هذه الشاكلة بالضبط ، ولا يوجد شيء أكثر جمالاً أو أكثر قدسية منها . . .

من المؤكد أنه يوجد ايضاً بعض الأذكياء ، حتى بين المعلمين ، ولكن اليس هذا امراً غريباً ويدعو للشك ان يوجد بين جميع هؤلاء «الكبار» ، الذين كانوا هم انفسهم أطفالاً لفترة ليست بالبعيدة ، قلة جداً ممن لا يجهلون تماماً ومن لم ينسوا ما معنى الطفل ،كيف يعيش ، ويعمل ، ويلعب ، ويفكر وما الذي يحبه وما الذي يكرهه؟ قليل ، وقليل جداً من بقي يعرف ذلك! ليس وحدهم الطغاة والرعاع فقط من يتصرفون بدناءة وبغض تجاه الأطفال ، يردونهم بجفاء ، وينظرون اليهم شزراً والكراهية تملؤهم ـ نعم ، وقد يشعرون

احياناً وبوضوح بشيء يشبه الخوف منهم . وحتى الآخرون الذين يقصدون الخير ، ويتلطفون احياناً وينزلون الى مستوى الاطفال ليحادثوهم . لم يعد لديهم وفي معظم الأحوال ادنى فكرة عن ما هو المهم ، وهم أيضاً ، ومعظمهم تقريباً ، لو أرادوا ان يتفاهموا معنا ، فعليهم ان يعودوا بانفسهم اطفالاً ، باذلين جهداً وشاعرين بالإحراج ، وليس إلى أطفال حقيقين ، ولكن بالاحرى إلى صور مشوهة ، مختلفة ، مضحكة للاطفال . كل هؤلاء البالغين ، أو معظمهم ـ تقريباً ، عاش في عالم مختلف ، وتنشق هواءً مختلفاً عن هوائنا نحن الأطفال ولم يكونوا في كثير من الأحوال أكثر ذكاء منا ، وهم غالباً لا يملكون أية ميزة عدا ميزة القوة الغامضة تلك . كانوا أقوى منا ، نعم ، وكان باستطاعتهم ، ما لم نمتثل صاغرين لأوامرهم ، إجبارنا وضربنا . ولكن أكان ذلك تفوقاً حقيقياً؟ الم يكن اي ثور أو فيل أقوى بكثير من أي من هؤلاء البالغين؟ إلاّ انهم كانوا يملكون السلطة ، ويصدرون الاوامر . وقد قدّر لعالمهم ولطريقهم ان يكون صواباً . ومع هذا فما استرعى انتباهي بشكل خاص وأصبح في بعض الحالات مخيفاً ، هو أن هنالك العديد من البالغين ممن يظهر انهم يحسدوننا نحن الأطفال . وأحياناً يعبرون عن ذلك بكل سذاجة وصراحة ، ويقولون ، ربما بحسرة:

«نعم ، أيها الأطفال فأنتم حقاً المحظوظون!» وإذا لم يكن هذا القول ادعاءً ـ وما كان كذلك ، كما كنت ادرك كلما كنت اسمع مثل هذه الملحوظات ـ فالبالغون ، الأقوياء ، المبجلون ، المسيطرون ، لم يكونوا ، بأية حال ، أكثر سعادة منا ، نحن المجبرين على الطاعة وعلى إبداء الاحترام العميق لهم ، وفي الاسطوانات الموسيقية التي كنت اتلقى تعليمي بواسطتها كانت فعلاً توجد اغنية بلازمة مدهشة تقول : «كم من الرائع ان تعود طفلا مرة أخرى»! هنا

يكمن سر ما . فثمة شيء نملكه نحن الأطفال ويفتقده الكبار . فلم يكونوا اكبر واقوى منا ، وانما كانوا ايضاً في بعض الجوانب اكثر مسكنة مما كنا عليه! وهم الذين كثيراً ما حسدناهم لمنزلتهم الرصينة ، ووقارهم ، وحريتهم الظاهرية ولواقعيتهم ، وحسدناهم للحاهم . وبنطلوناتهم الطويلة ، كانوا في الوقت نفسه يحسدوننا نحن الصغار ، حتى في الأغاني التي ينشدونها! .

حسن ، وإلى حين ، رغم كل شيء ، كنت سعيدا ، وإن كان هناك أشياء كثيرة في العالم وكذلك مثلها في المدرسة كنت أرغب في أن أراها بشكل مختلف؛ إلاّ انني مع ذلك كنت سعيداً . . تعلمت من جهات عديدة وتأكدت بشكل حقيقي ان الانسان لم يأت الى الأرض من اجل متعته الخاصة فحسب ، وإن السعادة الحقيقية تأتي من وراء الأشياء التي خبرت وتمت البرهنة على جدارتها فقط . وقد عبرت العديد من الامثال والاشعار التي تعلمتها عن ذلك كله ، وكثيراً ما بدت لي جميلة ومؤثرة . إلا أن هذه الموضوعات ، التي كانت تشد اهتمام ابي كثيراً ، لم تؤثر بي بشكل كبير ، فلو عاكستني الأمور ، ولو مرضت أو عانيت من ظمأ الرغبات غير المروية ، أو من الصراعات مع والديّ او من تحدّيهما ، فنادراً ما كنت الجأ الى الله ؛ وكان لدي طرق جانبية اخرى تردني الى الضياء ثانية ، فإن فشلت لعباتي المألوفة ، وأصبحت السكك الحديدية ، ومخزن الدمى ، وكتاب القصص الخيالية أشياء مستهلكة ومضجرة ، عندها كثيراً ما كانت تخطر لي اجمل لعبة جديدة حتى لو كانت مجرد أن أغمض عيني في الفراش اثناء الليل ، وان اضيع نفسي في الضياء البهي المشع من الدوائر الملونة التي تظهر امـامي - عندهاكم تتآلف السعادة والغموض من جديد ، وكم يصبح العالم ذا معنى ومليئاً بالوعود! .

انقضت السنوات الأولى في المدرسة دون ان تغير فيّ الكثير ، وقد

علمتني التجربة ان الثقة والصراحة يمكن ان تجلبا الحزن لنا ، وتعلمت على ايدي بعض المعلمين اللاأباليين أكثر فنون الكذب ولبس الاقنعة اهمية؛ ومنذ ذلك الحين . أدركت ما كان يدور . وشيئاً فشيئاً ذوت الزهرة الأولى ، وشيئاً فشيئاً تعلمت كذلك ودون وعي مني ، الاغنية الزائفة للحياة التي تساوم «الواقع» ، والعالم « وكيفما اتفق ان يكون » وعرفت حينها أنه لم يحو كتاب اغانـي البالغين اشعاراً مثل هذه : « كم من الرائع ان تعود طفلاً مرة أخرى » ، وأما بالنسبة لي فقد مرت علي أوقات كثيرة حسدت فيها أولئك الذين ما زالو أطفالاً .

في سن الثانية عشرة ، حين برز سؤال حول تعلمي اللغة الاغريقية ، لم اتردد واجبت بنعم ، فقد تراءى لي ، أنه أمر جوهري أن أصبح متعلماً ، في وقت مناسب ، مثل ابي ، وإذا كان ممكناً مثل جدي . ومنذ ذلك اليوم ، امتدت خطة الحياة واضحة امامي؛ كان علي ان ادرس لأصبح كاهناً او عالماً بفقه اللغة ، لان هناك زمالات لهاتين المهنتين . وجدي ايضاً كان قد اتبع هذا الطريق ذات مرة . لم يكن هناك من خطأ ظاهري يكتنف ذلك وعلى حين غرة أصبح لي مستقبل ، ومعالم رسمت طريقي ، وكان كل يوم وكل شهر يقربني أكثر من هدفي المرسوم ، فكل الأشياء تؤشر نحوه ، وكل شيء كان يقود بعيداً ، بعيداً عن اللهو وعن الإدراك الذي ملأ أيامي حتى تلك اللحظة ، وبعيداً عن المزايا التي لم تكن تخلو من معنى ولكنها كانت تبدو دون هدف ودون مستقبل . فحياة البالغين كانت قد اسرتني ، في البدء بخصلة شعر معقوفة أو التواء اصبع ، ثم ما لبثت ان استولت علي وربطتني الأرقام ، حياة نظامية مليئة بالأعمال ، وبالمهن والاختبارات؛ وعمّا قريب ستحين ساعتي أيضاً ، وما ألبث ان أغدو طالباً جامعياً ، خريج جامعة . كاهناً ، استاذاً ، أقوم بالزيارات معتمراً

قبعة عالية وقفازات جلدية تليق بها ، ولا اعود قادراً على فهم الاطفال ، وربما سأحسدهم . إلاّ أني في الحقيقة لم أكن اريد في اعماقي ايا من هذا ولم اكن اريد ان اترك عالمي حيث الأشياء كانت قيمة ونفيسة وعندي ، بلا ريب ، هدف سري للغاية كلما فكرت بالمستقبل . فالشيء الوحيد الذي تمنيته بحرقة ، هو أن أصبح ساحراً .

بقي هذا الحلم الذي سكنني شيئاً حقيقياً بالنسبة لي لزمن طويل ، إلا أنه في آخر المطاف بدأ يفقد قدرته الكلية؛ فقد كان له أعداء ، وقوى معارضة تقف في وجهه الحقيقي ، والجاد ، وذلك الذي لا يمكن انكاره . وشيئاً فشيئاً ذبلت الزهرات ، وخرج بتؤده من المطلق شيء محدد كان يتقدم نحوي ، العالم الحقيقي ، عالم البالغين ، وشيئاً فشيئاً تحولت رغبتي في أن أكون ساحراً رغم استمراري في التمسك بها في اعماقي ، الى رغبة قليلة الأهمية في نظري ، ورغبة صبيانية . فقد حدث شيء وقتها لم يتح لي أن أظل طفلاً ، وصار عالم الممكن اللامحدود والمتعدد الروائع ، ضيقاً بالنسبة لي ، ومنقسماً الى حقول ، تفصلها الأسيجة ، وتغيرت تدريجاً الغابة البدائية لأيامي ، وتحجرت الجنة من حولي ، ولم اعد على ما كنت عليه ، أميراً وملكاً في أرض الممكن ، ولن أكون ساحراً ، فها أنا أدرس الاغريقية ، وفي خلال سنتين سأدرس العبرية كذلك ، وسأكون في الجامعة خلال ست سنوات .

تسلل هذا الانكماش لا شعورياً الى حياتي ، ومن دون أن أحس تلاشى السحر من حولي ، وبقيت القصة المدهشة في كتاب جدي جميلة ، إلا أنها كما كانت موجودة في صفة معينة اعرف رقمها ، موجودة اليوم وغدا وفي كل ساعة ، فلا وجود لمعجزة اخرى والإله الراقص من الهند صار يبتسم دون اكتراث ،وكان مصنوعاً من البرونز ، ولم اعد انظر اليه الا فيما ندر ، ولم يعد

يحدق بي قط . واسوأ من ذلك كله التناقض المستمر في المرات التي كنت ارى فيها الرجل الأشهب ، القزم . كان الملل يحيطني من كل ناحية ، وضاق كثيراً ذاك الذي كان في يوم ما رحبا ، وغدا مبهرجاً باهتاً ذاك الذي كان ذات مرّة ذهبياً .

ولكني لم أعِ ذلك الا بشكل مبهم ، كان يستثيرني ، إلا أنني بقيت مرحاً وطموحاً ، وتعلمت السباحة والتزلج ، وكنت الاول في درس الاغريقية ، وكل شيء كان يبدو وكأنه يسير بشكل رائع ، ومع ذلك فقد صار لون الأشياء جميعها اكثر شحوباً ، وصوتها ـ الى حد ما ـ اكثر خواءً ، وانتابني الضجر من الذهاب لروية فراو آنّا ، فبلا وعي كان شيء ما قد فقد من كل ما خبرته ، شيء غير ملحوظ ، لا يمكن اغفاله ، الا انه مع هذا ،كان واهناً وضعيفاً .

والآن لو رغبت في بعض الاحيان ان اشعر بكامل نفسي وبالحماسة تملؤني، لاحتجت لحافز أقوى من ذي قبل ، ولكان علي أن أدُجّ نفسي وان اشرع ببداية قوية . بدأت اتذوق الطعام المليء بالتوابل ، وكثيراً ما أقضم الحلوى بتأن ، واحياناً اسرق كروشن لاغمس نفسي في شيء من المتعة الخاصة، وعدا ذلك كانت الأشياء تفتقر للحيوية ، والبهجة بما يكفي . ومن ثم ، بدأت الفتيات يجتذبنني؛ وقد حدث هذا لفترة قصيرة بعد أن ظهر لي القزم ثانية وقادني مرة اخرى الى فراو آنّـا .



من أيام مدرستي

١٩٢٦

طيلة الأعوام التي قضيتها في المدرسة لم التق إلاّ باستاذين كنت قادراً على احترامهما وحبهما، وعلى ان اقر لهما بكامل ارادتي بالتبجيل، فقد كان بمقدورهما ان يوجهاني بغمزة عين. كان الأول يدعى «شميد»، مدرس في مدرسة كالف اللاتينية، وهو رجل يبغضه بشدة كل الطلبة الآخرين لكونه متجهماً وقاسياً، وسيء الطبع ومخيفاً . أصبح هذا المدرس رجلاً مهما بالنسبة لي ، ففي صفه (وكنا نبلغ نحن التلاميذ من العمر اثني عشر عاماً) بدأنا نتلقى دروس اللغة الاغريقية . تعودنا في هذه المدرسة اللاتينية الصغيرة ، شبه الريفية ، على رؤية مدرسين كنا إما أن نخافهم ونكرههم ، أو نتجنبهم ونخدعهم أو نهزأ بهم ونحتقرهم . كانوا يملكون السلطة ، وهذه كانت حقيقة راسخة ، سلطة طاغية لا يستحقونها ابداً ويستغلونها في الغالب على نحو مخيف ولا انساني ـ وكثيراً ما يحدث في تلك الأيام ان يصل فيها ضرب الأيدي وقرص الآذان الى الحد الذي يسيل الدم فيه ـ فهذه السلطة التربوية لم تكن إلاّ قوة عدائية ، كريهة، بغيضة . فالمدرس يمتلك السيادة لمجرد انه يقف في مكان يعلونا ، ولانه يمثل الفكر والانسانية ، ويغرس فينا شذرات من عالم اعلى مرتبة . كان امراً لم نخبره مع اي من معلمينا في الصفوف الدنيا أيام المدرسة

اللاتينية . وقد صادفنا عدداً قليلاً من المدرسين الودودين ممن كانوا يسببون سأم الدراسة من أجل انفسهم ، ومن اجلنا نحن بلا مبالاتهم ، وبنظراتهم عبر النافذة ، أو بقراءاتهم الروايات ، بينما نحن منهمكون بنسخ التمارين ، أحدنا عن الآخر . وصادقنا ايضاً مدرسين سيئي الطبع ، عبوسين ، شديدي الاهتياج ، مسعورين ، وقد لقينا على ايديهم ما لقينا من شد الشعر والضرب على الرأس (كان واحد منهم طاغية متحجر القلب بشكل خاص ، اعتاد ان يقضي محاضراته بضرب التلاميذ السيئين بمفتاح مزلاجه الثقيل على نحو ايقاعي) .

ربما يكون هناك ايضاً مدرسون من الممكن ان يتخذهم الطالب قدوة له بسرور وحماس ، ومن اجلهم قد يجهد نفسه ، بل وقد يتغاضى عن الظلم وسوء المزاج، ويتلهف لتقديم الشكر لهم بشعوره تجاههم بالامتنان ، لانهم كشفوا له عن عالم اسمى وهذا احتمال بقي حتى الآن بعيداً عن نطاق معرفتنا.

والآن سأحكي عن الأستاذ «شميد» مدرس الصف الرابع ، فمن بين خمسة وعشرين طالباً تقريباً ، قرر خمسة ان يدرسوا الدراسات الانسانية ، وقد دعوا «بالانسانيين» أو «الاغريقيين» ، بينما اهتم ما تبقى من الصف بالموضوعات الدنيوية كالرسم ، والتاريخ الطبيعي وما شابه ذلك. وقد تلقينا نحن الخمسة اصول الاغريقية على يد الاستاذ شميد ، لم يكن الاستاذ محبوباً على الاطلاق؛ فقد كان عليلاً ، شاحب الوجه ، مهموماً ، نكد المزاج ، املس الوجه ، اسود الشعر ، وكان كئيباً في العادة وذا طبع متزمت؛ ولو حدث ان تظارف في بعض الحالات فسيكون ذلك باسلوب تهكمي . ولا اعرف حقاً ما الذي استمالني اليه خلاف حكم الصف الجماعي عليه ، ربما كان ذلك استجابة لتعاسته فشميد ضعيف البنية يبدو وكأنه يتعذب . اما زوجته فضعيفة الصحة ، كثيرة المرض

تكاد لا ترى لضآلتها . وكان يعيش مثل جميع مدرسينا في فقر مدقع . وقد منعته بعض الظروف ، من المحتمل جداً ان يكون مرض زوجته ، من زيادة دخله البسيط كما كان يفعل بقية المدرسين ، عن طريق ايواء الطلبة وإطعامهم . وقد اضفت عليه هذه الحقيقة شيئاً مميزاً جعلته يختلف عن بقية مدرسينا . والشيء الآخر ايضاً هوتدريسه للغة الاغريقية ، كنا نبدو لانفسنا دائماً نحن الخمسة الذين اخترنا الاغريقية مثل الطبقة الأرستقراطية المثقفة وسط زملائنا . فقد كنا نطمح الى دراسات عليا بينما قدر للآخرين ان يكونوا عمالاً يدويين او حرفيين وبدأنا نتعلم هذه اللغة الغامضة ، القديمة ، التي تفوق اللاتينية قدماً وغموضاً وتميزاً ، تلك اللغة التي لا يتعلمها المرء لغرض كسب المال او لتمكنه من السفر حول العالم ولكن ببساطة ليطلع على سقراط وأفلاطون ، وهوميروس .

معالم معينة في هذا العالم كانت معروفة لي مسبقاً ،لان الثقافة الاغريقية كانت شيئاً مألوفاً لوالدي وجدّي ، وقد تعرضت منذ زمن بعيد من خلال كتاب «شواب» «اساطير العالم الكلاسيكي» على الاوديسة وبوليفيموس وعلى الفيتون وايكاروس والآركنوت(*) وعلى تنتالوس ، وفي كتاب القراءة الذي بدأنا بقراءته في المدرسة في وقت لاحق ، ومن بين مجموعة من اكثر المقطوعات مللاً ، كانت توجد قصيدة رائعة لهولدرلين .

وكانت هذه القصيدة وحيدة هناك مثل طائر الجنة . وللأمانة لم اكن افهم هذه القصيدة الا قليلاً ، إلا أنها بدت عذبة وجذابة الى ابعد الحدود ولم اكن ادرك صلتها السرية بعالم الاغريق الا على نحو باهت .

لم يفعل الـ (هر) شميد هذا اي شيء ليجعل عامنا الدراسي يسيراً بل لقد

(*) الاركنوت: الابطال الأغريقيون الذين ابحروا مع جاسون البطل الأغريقي الأسطوري ابن أيسون ملك أيولكس إحدى مدن تساليا على ظهر السفينة ارغوس للاستيلاء على الجزة الذهبية(م).

زاد في الواقع من صعوبته ، وكانت على الاغلب صعوبة لا ضرورة لها . كان يطلب الكثير ، على الاقل منا نحن الانسانيين ، ولم يكن قاسياً فحسب بل كان فظاً في الغالب وحاد الطبع ايضاً في كثير من الأحوال ، وكانت تنتابه نوبات من الغضب المفاجيء ، يلم بنا جميعاً عندها خوف له أسبابه بمن فيهم أنا ، تماماً كما ترتعش مجموعة صغار السمك المحجوزة خلف سياج من قضبان اثناء مطاردة سمك الكراكي لها . وقد عرفت هذه المشاعر أيضاً مع باقي المدرسين ، ولكن مع شميد خبرت شيئاً جديداً . فالى جانب الخوف والاحترام ، اكتشفت أنك من الممكن أن تحب وتحترم إنساناً حتى لو كان عدواً لك ، وكان أحياناً ، وفي ساعاته الحالكة وحين يبدو وجهه المنهك تحت شعره الأسود ، مأساوياً جداً مكدراً الحقد ، يكرهني على التفكير بالملك صول(*) في عهوده المظلمة . ولكنه ما يلبث أن يستعيد هدوءه ويغدو وجهه أكثر رقة ويبدأ بكتابة الأحرف الأغريقية على السبورة والتحدث عن القواعد واللغة الإغريقية حتى كنت أشعر أن ذلك لم يكن أكثر مـــن تعقيد للمـــادة . عشقت الإغريقية بعمق ، رغم تخوفي من هذا الدرس ،وكنت ادون في دفتر المدرسة بعض الأحرف الاغريقية، مثل : Omega , Psi , Upsilon (*) التي كانت تفتنني وتأسرني تماماً، كما لو كانت علامات سحرية .

فجأة وخلال العام الأول من دراسة الإنسانيات ، وقعت صريع المرض .

(*) الملك صول : أول ملك حكم إسرائيل.

(*) Upsilon الحرف العشرون من الابجدية الاغريقية

Psi ← الحرف الثالث والعشرون من الابجدية الإغريقية

Omega ← الحرف الرابع والعشرون من الابجدية لاغريقية وآخرها

وكان مرضاً لم يعد حسب علمي ، معروفاً وملحوظاً وقد اعطوني زيت كبد سمك القد ، وحامض الساليسيليك وكانت تدلك ركبتاي لفترة بالسمكاني(•) . وقد استمتعت كثيراً بمرضي ، رغم مثاليتي الانسانية ، إلاّ أني كنت قد جبلت على الكراهية والخوف من المدرسة لدرجة جعلتني اعتبر المرض الذي يمكنني احتمال الآمه إلى حد ما ، هبة من السماء وانعتاقاً . بقيت لفترة طويلة طريح الفراش ،وكان يجاور سريري جدار من الخشب المطلي باللون الأبيض ، بدأت أرسم على سطحه بالألوان المائية ، وعند مستوى رأسي ، رسمت لوحة كان يفترض انها تمثل« الشغابيين السبعة» وقد ضحك اشقائي وشقيقاتي كثيراً عليها، ولكن حيث انقضى الإسبوع الثاني والثالث وأنا ما أزال طريح الفراش ، انتابني القلق في أن اتخلف كثيراً في المادة الإغريقية ، لو استمر الحال هذا مدة أطول وقد بذل أحد زملائي قصارى جهده ليجعلني على صلة بما يجري داخل الصف ، واتضح لي عندها كيف أن هر شميد انهى خلال فترة مرضي مع طلبته الإنسانيين فصولاً هائلة من قواعد اللغة الإغريقية ، فصار علي أن أدرس ما فاتني، وتحت أنظار الشغابيين السبعة ، ناضلت عبر ساعات طويلة موحشة كي أتغلّب على كسلي وصعوبات تصريف الأفعال الإغريقية ، كان أبي يساعدني في بعض الأوقات ، وحين تحسنت صحتي وسمح لي بالنهوض والحركة ثانية وجدتني ما أزال متأخراً جداً في درورسي ، لذا فكر والدي أنه قد أصبح من الضروري أن يعطيني الأستاذ شميد بعض الدروس الخصوصية . وكان هو مستعداً لاعطائها ، وهكذا وبعد فترة وجيزة بدأت بالذهاب بين يوم وآخر إلى شقته المعتقة الكئيبة حيث كانت زوجته الشاحبة ، الصموت، تصارع المرض المميت ، وكنت نادراً ما اراها ، وقد توفيت بعد ذلك بمدة قصيرة .

(•) Ichthyoid

كانت الساعات تبدو في هذه الشقة الخانقة وكأنها تسلب الألباب؛ فاللحظة التي أتخطى فيها عتبة الباب ، تطأ قدماي عالماً مختلفاً ، غير حقيقي ، مخيفاً؛ وأجد الرجل الحكيم المحترم الطاغية المخيف ، الذي عرفته في المدرسة قد تغير بشكل غريب خارق للطبيعة . بدأت افهم حدسياً تعبير وجهه العذب ، وعانيت من اجله ، وعانيت منه بسبب مزاجه الذي غالباً ما كان في غاية السوء . وقد اخذني لمرتين في نزهة على الأقدام ، نتمشى معاً في الهواء الطلق غير مثقلين بعبء القواعد أو الإغريقية . وفي هذه النزهات القصيرة ، كان لطيفاً ودوداً ؛ بلا تهكم وبلا نوبات مزاجية . كان يسألني عن هواياتي وعن احلام المستقبل ، ومنذ ذلك الحين احببته ، رغم انه كان يظهر حينما اعود الى حصته ثانية ، وكأنه قد نسي هذه النزهات تماماً ، واذكر أنه بعد أن دفنت زوجته ، صار يكرر كثيراً وعلى نحو مفاجيء حركته المميزة ، تلك التي يرجع فيها شعره الطويل الأسود الى الوراء بعيداً عن جبهته . كان شميد مدرساً يصعب التعامل معه آنذاك . واعتقد أني كنت الوحيد من بين تلامذته الذي أحبه رغم قسوته ورغم تصرفاته التي لا يمكن التنبؤ بها .

لم تمض فترة طويلة على إكمالي صف شميد حتى غادرت مدينتي والمدرسة التي كان فيها للمرة الأولى في حياتي وقد حدث ذلك لأسباب تأديبية حين كنت قد تحولت آنذاك الى ولد عنيد ، متمرد ، وقد حار والديّ بكيفية التصرف معي وبالإضافة إلى ذلك كان عليّ أيضاً أن أتهيأ بشكل جيد قدر الإمكان لامتحان المقاطعة . وهذا الامتحان الرسمي ، الذي يجري كل صيف لإقليم فورتمبرغ كله ، مهم للغاية ، فكل من يجتازه كان يزود بالمبيت والمأكل في «معهد» لاهوتي وبإمكانه الدراسة هناك على حساب المنحة الدراسية . وهكذا قدر لي السير في هذا الطريق ، وقد كان في المقاطعة مدارس معينة متخصصة في التهيئة لهذا الإمتحان ، فأرسلت إلى إحداها . وكانت هذه

المدرسة هي المدرسة اللاتينية في جوبنجن ، حيث ظل فيها الكاهن العجوز ، باور ، لسنوات يحشو أدمغة التلاميذ بالمعلومات إستعداداً لإمتحان الإقليم؛ وقد كان مشهوراً في المقاطعة كلها لهذا السبب . وعاماً بعد عام كان يتجمع حوله حشد كبير من الطلبة الطموحين ، القادمين من جميع انحاء المنطقة .

في الأعوام الأولى ، كان يشاع عن الكاهن باور بأنه مدرس قاس ، مولع باستخدام العصا والضرب بها ، وقد تعرض قريب لي يكبرني في السن إلى ضربه المبرح ، عندما كان تلميذاً قبل عدة أعوام . وأما الآن ، ولكبر سنه ، فقد أخذ الناس ينظرون إليه كإنسان رائع غريب الأطوار . ورغم أنه كمدرّس يطالب طلبته بعمل الكثير ، إلاّ أنه يبقى لطيفاً معهم . ومع هذا ، فقد انتظرت بفزع كبير ، بعد اول وداع مؤلم لبيت عائلتي ، ممسكاً بيد أمي ، خارج مكتب الكاهن الشهير . وأظن أن أمي لم تفتتن به للوهلة الأولى حين تقدم نحونا ودعانا لدخول حجرته . وكان شيخاً محني الظهر ذا شعر أشيب متشابك ، له عينان جاحظتان إلى حد ما تظهر فيهما العروق الحمر ، ويرتدي حلة عتيقة الطراز يصعب وصفها ، تلونها لطخات مخضرة . وثمة نظارات طبية تعلو أرنبة أنفه ، وفي يده اليمنى غليون طويل ، تجويفه من الخزف الصيني ، يكاد يلامس الأرض ، وكان ينفث منه بشكل مستمر سحباً هائلة من الدخان في فضاء الحجرة التي امتلأت مسبقاً بالدخان ، ولم يفارق باور غليونه حتى داخل الصف . كان هذا الرجل العجوز الغريب بوقفته المنحنية اللامبالية ، بملابسه المهملة البالية ، بتعبيره الحزين المزاجي ، بخفيه الخاليين من الزخرفة ، بغليونه الطويل الذي يرسل الدخان يبدو لي مثل ساحر هرم . ومهما يكن ، فأنا الآن تحت وصايته . ربما يكون الأمر مخيفاً مع هذا الشيخ العجوز المكفهر ، الأشيب، القادم من عالم آخر ، وأيضاً من الممكن ان نتخيل أنه قد يكون ممتعاً

وساحراً - وعلى أية حال ، فهو أمر غريب ، مغامرة ، تجربة كنت مستعداً . وراغباً في خوضها والالتقاء به عند منتصف الطريق .

كان علي منذ البدء أن أتحمل . فلحظة قبلتني أمي في المحطة ومنحتني تبريكاتها وترجلت قبل أن يتحرك القطار بعيداً ، شعرت أنها المرة الأولى في حياتي التي أقف فيها وحيداً في «العالم» الذي ينبغي الآن أن أجد طريقي فيه وأحمي نفسي - لقد كنت وما أزال غير قادر على فعل ذلك حتى هذه اللحظة الحالية التي بدأ الشيب يغزو فيها رأسي قبل الفراق . صلت أمي ، ورغم أن تقواي آنذاك لم تكن شيئاً يستحق التباهي به ، إلاّ أني عزمت في داخلي ، وبكل جلال ، وبينما هي تصلي وتبارك ، على أن أحسن التصرف هنا ، بعيداً عن البيت ، وأن لا أجلب الخزي لها ، ولكني لم أفلح بالالتزام بذلك على المدى البعيد . فقد جلبت سنوات المدرسة الأخيرة لها ولي ثورات ، ومحناً ، وصحوات عاصفة من الأوهام ، والكثير من الحزن ، وسيلاً من الدموع وعدداً من النزاعات وسوء الفهم . ولكن في جوبنجن بقيت ملتزماً تماماً بقراري وتصرفت على نحو جيد وبالتأكيد لم يكن هذا الالتزام أمراً ملحوظاً للطلبة النموذجيين أو بقدر تعلق الأمر بذلك ، لمدبرة المنزل التي كنت اعيش معها بصحبة أربعة فتيان ، نأكل ونتلقى الرعاية منها ، ولكن بالرغم من كل ذلك ، لم أكن أستطيع احترامها وطاعتها بالطريقة التي كانت تتوقعها ممن هم تحت رعايتها . لم أكن يوماً في نظرها شخصاً يستحق الإعجاب رغم أنني كنت قادراً في بعض الأيام أن أتحول إلى شخص اكثر جاذبية ، وأن أجعلها تطلق ابتساماتها وارادتهـــا الطيبة . كانت حاكماً لم اعترف له بالقوة ولا بالأهمية ، وفي يوم عصيب اقترفت إثماً صبيانياً تافهاً جداً ، فدعت اخاها صاحب العضلات الضخمة القوية ، لينزل بي عقاباً جسدياً ، فتمردت بعناد أكبر و كان

يمكن أن ألقي بنفسي من النافذة ، أغرز أسناني في حنجرة الرجل ، على أن أدع أي شخص يعاقبني . فلا أحد في رأيي يملك حق فعل ذلك . وبعدها لم يجرؤ الرجل على لمسي واضطر إلى الإنسحاب دون أن يحقق غايته .

لم أحب جوبنجن ، ولم يعجبني «العالم» الذي اقحموني فيه ، فقد كان عالماً عقيماً وكئيباً ، فظاً ومسلوب القوة . ولم تكن جوبنجن آنذاك قد أصبحت بعد المدينة الصناعية كما هي عليه اليوم ،ومع ذلك كانت فيها ست أو سبع مداخن لمصانع طويلة ، وكان النهر الصغير ، مقارنة بنهر موطني ، بروليتارياً ، ينسل على نحو قذر بين كومة من النفايات . ولم نكن نعرف إلاّ القليل عن حقيقة البيئة المحيطة بالمدينة ،والتي كانت في غاية الجمال ، لأننا لم نكن نخـــرج إلاّ لفترات قصيرة ، فقد ذهبت إلى «هوهنشتاوفن» لمرة واحدة فقط . أوه ، كلا لقد اثارت جوبنجن هذه استيائي تماماً فلا يمكن حقاً مقارنة هذه المدينة الصناعية المملة مع مدينتي . ولو حكيت لزملائي في المدرسة ، الذين هم مثلي يذبلون في أرض غريبة وفي حبس حقير ، ولو حكيت لهم عن كالف والحياة هنا لبدوت مغالياً في اطرائها ومبتدعاً لقصص حب ملفقة عنها بدافع من الحنين او التباهي فما من أحد هناك يستطيع أن يناقشني في ما أقول نظراً لأني كنت الوحيد القادم من كالف في هذه المدرسة . كانت كل أجزاء الإقليم تقريباً وكل المدن الاقليمية ممثلة في مدرستنا ، ولم يكن هنالك سوى ستة أو سبعة طلبة في الصف من جوبنجن . أما الآخرون فقد قدموا من أماكن بعيدة ليفتنوا من منصة الوثب هذه ذات السمعة الحسنة لتهيئهم لامتحان الإقليم .

وقد استمر تأثير هذه المنصة في صفنا كما كان عليه في العديد من الصفوف الباقية . وفي نهاية اقامتنا بجوبنجن ، اجتاز عدد رائع من الطلبة

الامتحان وكنت أنا من بينهم . ولا أضع اللوم على المدينة أن لم يصدر عني ابداً أمر طيب .

ومع أن المدينة الصناعية المملة والحبس تحت إشراف مدبرة منزل صارمة ، وباقي جوانب حياتي الخارجية في جوبنجن كانت مقيتة جداً ، إلاّ أن هذه الفترة(التي قاربت العام والنصف) ورغم كل شيء كانت مثمرة على نحو استثنائي ومهمة في حياتي . وكانت العلاقة بين المدرس والتلميذ ، والتي خبرتها بشكل طفيف في كالف مع الأستاذ شميد ، تلك العلاقة المجزية بلا حدود ، والتي هي في ذات الوقت صلة مرهفة بين قائد مفكر وطفل موهوب ، قد وصلت إلى أوج ازدهارها بين الكاهن باور ويني . هذا الشيخ الغريب ، المخيف الهيئة على نحو ما، ذو الأفعال الشاذة والنزوات التي لا تحصى ، الذي يحدق بيقظة وبمزاجية ،من خلف زجاج نظارته الصغيرة المخضرة ، والذي يملأ باستمرار قاعة الدرس المزدحمة بدخان غليونه الطويل ، أصبح في نظري قائداً وقدوة وحاكماً ونصف اله ، وقد كان يأتينا مدرسان آخران أيضاً ولكن لم يكن لهما وجود ، بالنسبة لي ، فقد كانا يتقلصان مثل الظلّ خلف شخصية العجوز المحبوبة ، المهابة ، المحترمة كما لو أن لهما حجماً ضئيلاً واحداً . وحتى صداقاتي مع زملائي الطلبة ، تضاءلت أيضاً إلى العدم ، أزاء هذه الشخصية المضخمة . كان صباي آنذاك في أوج ريعانه وحتى حين بدأت تتحرك أولى بوادر وهواجس الحب الجسدي ، كانت المدرسة ورغم كونها عموماً مؤسسة بغيضة للغاية ولما يزد عن العام النقطة المركزية لحياتي التي تدور حولها كل الأشياء الباقية ، بما فيها أحلامي ، وحتى أفكاري خلال فترة العطلة . أنا الذي كنت دوماً تلميذاً رقيق المشاعر ، كثير الانتقاد ، معتاداً على حماية نفسه بضرواة ضد أي شكل من أشكال التبعية والخضوع ، سلب لبي وفتنني تماماً

هذا العجوز الغامض ، لمجرد أنه كان يحاكي جهودي وغاياتي السامية ليس إلاّ؛ ويتصرف معي وكأنه يتجاهل كلياً عدم نضجي ، وارتباكي ، وشعوري بالنقص . وكـــان ينتظر الأفضل مني ويعتبر أرقى « إنجاز نحققه مجرد مسألة طبيعية . ما كان يحتاج إلى كلمات كثيرة ليعبر عن ثنائه ، فلو علق على تمرين لاتيني أو إغريقي فسيقول «همه ، لقد أديت ذلك باتقان كبير» ، وأبقى بعدها لأيام سعيداً ومشتعلاً بالحماسة ، ولو حدث ان همس بشكل عابر فحسب دون أن ينظر إليّ: «أنا لست راضياً عنك تماماً ، فبإمكانك فعل الأحسن» . عندئذ تبدأ معاناتي ولا أتورع عن بذل ما بوسعي لإرضاء نصف الاله هذا . وكان غالباً ما يتكلم معي باللاتينية ، مترجما إسمي إلى شاتوش .

لم يبقَ أمامي الآن إلاّ أن أحكي عن المدى الذي شارك فيه زملائي خوض تجربة هذه العلاقة الخاصة جداً . فبعض الطلاب المفضلين ، وبالتحديد أقرب الأصدقاء والأنداد إليّ ، الذين كانوا مثلي واقعين تحت سحر آسر الأرواح العجوز ، ومنحوا مثلي نعمة الإحساس بالنداء الباطني ، شعروا بأنفسهم وعلى نحو جلي ، أنهم قد خطوا خطوة عميقة في مكان مقدس . ولو حاولت أن أسبر أغوار روحي الفتية ، لوجدت أن أفضل وأكثر الأجزاء خصوبة فيها ، رغم الكثير من التمرد والكثير من الرفض ، هو القدرة على الإحساس بالرهبة ، وأنها تبدع أكثر وتزدهر ، بروعة أكبر حين يكون بمقدورها أن تشعر بالمهابة ، وأن تعبد وتكافح من أجل الهدف الأسمى . هذه السعادة ، التي أدرك والداي بداياتها مبكراً فيّ وربياها عندي ، والتي كانت على وشك أن تذوي تحت تأثير سلسلة من المدرسين العاديين الذين تعوزهم الحيوية ، والتي ازهرت ثانية ولو بشكل محدود بفضل الأستاذ شميد الكئيب ، وصلت إلى ذروة ازدهار مع الكاهن باور ، للمرة الأولى والأخيرة في حياتي .

حتى لو لم يكن في مقدور كاهننا فعل شيء آخر غير دفع عدد من أفضل تلاميذه لعشق اللغة اللاتينية والإغريقية ، وإشعال الإيمان فيهم حول المهمة الفكرية والمسؤوليات المتعلقة بها ، فإن هذا وحده كان يعتبر إنجازاً عظيماً جديراً بالثناء ، ولا يكمن الأمر النادر والاستثنائي في مدرسنا هذا في قدرته على اكتشاف أذكى تلاميذه وإغناء مثاليتهم بالرعاية والدعم فحسب ، بل كان يكمن أيضاً في إعطاء أعمارهم وصباهم ورغبتهم في اللعب حقها المشروع . لأن باور ، هذا السقراطي الوقور ، كان أيضاً مديراً حاذقاً ، ومبدعاً كبيراً يبحث باستمرار عن مختلف الوسائل لجعل المدرسة مكاناً جذاباً لفتيان في الثالثة عشرة من عمرهم . هذا الحكيم ، القادر على تدريسنا بمثل هذه الفطنة اللغة اللاتينية وقوانين الإغريقية ، كان يملك أيضاً أفكاراً تربوية متجددة ، تشيع في نفوسنا نحن الصبيان البهجة ، فلا بد أن يتذوق المرء شيئاً طفيفاً من قساوة وصرامة سأم المدرسة اللاتينية في ذلك الوقت حتى يكون بمقدورة تخيل كم كان يبدو هذا الرجل مفعماً بالنشاط ومبدعاً وملهماً وسط الحشد العادي في البيروقراطيين المتحفظين . فحتى مظهره الخارجي ، ذلك المظهر المذهل الذي يثير فيك الرغبة في الضحك حالما تراه ، ما يلبث أن يتحول إلى أداة تخدم نفوذه وتطبيق نظامه ، وبسبب غرابته تلك وهواياته ، التي كانت بلا شك تبدو أنها ملائمة لدعم سلطته ، استطاع أن يقدم إعانات جديدة للتعليم . فمثلاً ، لم يعد غليونه الطويل ، الذي أفزع أمي كثيراً ، بالنسبة لنا نحن الطلبة وخلال فترة قصيرة جداً ، شيئاً إضافياً يثير الضحك أو الإزعاج ، بل صار ، مثل صولجان الملك ، رمزاً للعظمة . ومن كان يسمح له بحمله للحظة واحدة ، ويعهد إليه بمهمة تنظيفه وجعله جاهزاً للاستعمال ، فإنه يعتبر الأثير الذي يثير حسدنا جميعاً . وكانت ثمة مهام شرفية أخرى كنا نتبارى بلهفة عليها ، فهناك مهمة

«المتملق» والتي شغلتها بكل فخر لفترة من الوقت . فالمتملق عليه أن يزيل الغبار من فوق منضدة المدرس كل يوم وعليه أن يفعل ذلك باقدام الارنب الموضوعة على المنضدة . وحين أخـذ مني هذا العمل في أحد الأيام واعطي إلى طالب آخر ، شعرت بأني قد عوقبت بشدة .

لو حدث وكنا نجلس في الصف ذي الحرارة المفرطة والمملوء بالدخان في يوم شتائي ، وقد القت الشمس اشعتها فوق النوافذ المكسوة بالصقيع ، فقد يقول كاهننا فجأة: «أيها الفتيان ، الجو نتن هنا بشكل بشع ، وفي الخارج تشرق الشمس ، هيا اركضوا حول المنزل ، وقبل أن تفعلوا ذلك ، افتحوا النوافذ!» . أو يحدث في أوقات كنا فيها مقدمين على امتحان الإقليم ، ومثقلين بواجبات إضافية أن نُفاجأ بدعوتنا إلى شقته ، لنجد أنفسنا في غرفة غريبة تحتوي على طاولة كبيرة فوقهـا عدد من علب الورق المقوى المملوءة بدمى على شكل جنود ، كنا نصفها في جيوش ومجاميع مرتبة ، وحين تشتبك في القتال ، كان الكاهن ينفث بوقار من غليونه سحباً من الدخان بين المتحاربين .

وغالباً ما تكون الأشياء الجميلة عابرة والأوقات الحلوة لا تستمر طويلاً ، فكلما فكرت في أيام جوبنجن تلك ، وبالفترة القصيرة الوحيدة من سنوات المدرسة يوم كنت طالباً جيداً ، احترم واحب مدرستي ، منهمكاً قلباً وروحاً في الدراسة يخطر في بالي دائماً العطلة الصيفية عام ١٨٩٠ ، والتي امضيتها في منزل والديّ في «كالف» . ففي هذه العطلة لم نكلف بعمل أي واجب مدرسي . ومع هذا فقد وجه الكاهن باور انتباهنا الى «قوانين الحياة» لايسقراط(*) التي كانت تدخل ضمن المقاطع الإغريقية المختارة التي ندرسها ،

(*) ايسقراط: خطيب اغريقي، تأثر بسقراط، تركز كتاباته السياسية بشكل كبير على وحدة الاغريق ـ في القرن الرابع قبل الميلاد ـ (م).

اخبرنا بأن عدداً من أفضل تلامذته في السابق كانوا قد حفظوا قوانين الحياة هذه عن ظهر قلب . كان الأمر متروكاً لنا للأخذ بهذه الملاحظة أو اهمالها .

ومنذ ذلك الصيف ، علقت في ذاكرتي قلة من النزهات التي قمت بها مع أبي ، فأحياناً كنا نقضي أوقات ما بعد الظهيرة في الغابات فوق كالف ، وتحت أشجار الصنوبر البيضاء العجوز نمت الكثير من الشجيرات الشائكة ذات الزهر الأصفر وشجيرات توت العليق . وفي الأراضي الخالية من الشجر في الغابة ، ازدهر كعب الثلج ، وحلقت فراشات الصيف مرفرفة ، وأميرة الفراش الحمراء اللون وفراشات ملونة أخرى ، وكانت تفوح روائح الراتينج القوية من أشجار الصنوبر والفطر ، وكم من مرة وجدنا أنفسنا وجهاً لوجه أمام غزال . كنا نتجول أنا وأبي عبر الغابة او نتسابق هنا وهناك بين أعشاب الخلنج في الأطراف . وكان أبي يسألني بين فترة وأخرى أين وصلت مع أيسقراط ، فقد كنت أجلس كل يوم مع الكتاب ـ ولو بشكل قليل أحفظ« قوانين الحياة» هذه . والى اليوم ما زلت أحفظ عن ظهر قلب أول عبارة من أيسقراط والتي هي مقطع منفرد من النثر الإغريقي ، تلك الجملة الايسقراطية وبعض الأشعار الهوميروسية هما كل ما تبقى من ثقافتي الإغريقية . كذلك لم استطع السيطرة على كل «قوانين الحياة» فالكثير من العبارات التي حفظتها ، وحملتها حيناً معي اينما ذهبت ، وكان بإمكاني أن أقولها ساعة أشاء ، قد تلاشت وضاعت في مجرى السنين ، مثلما تضيع كل الأشياء التي يمتلكها المرء ويظن أنها بحوزته إلـــى الأبـد .

اليوم لم أعد أعرف شيئاً من اللغة الإغريقية ، واختفت معظم لاتينيتي منذ

زمن طويل وكنت على وشك نسيانها تماماً لولا وجود زميل لي في الصف من جوبنجن ما زال حياً وما زال صديقي . فمن وقت الى آخر يكتب لي رسالة باللاتينية وعندما أقرؤها ، وأتأمل جملها الكلاسيكية الجميلة التركيب ، تعبق رائحة خفيفة من حديقة شبابي ومن دخان غليون الكاهن باور العجوز .





عن جدي

١٩٥٢

كتب هرمان جوندرت هذه القصيدة في عام ١٨٣٣ بمناسبة عيد ميلاد والده الخمسين ، بعد وفاة والدته بفترة قصيرة .

أتنحب
الآن المساء يأتي ؟
والشمس ترحل
تعبة من كدح النهار ،
وظلال الظلمة تنهال من كل جانب ،
والكواكب تتلألأ
فوق سكون الليل ؟

ها أنت تمشي حانيا الخطى
وسط بواكير الخريف الذابلة ،

ضحايا مبعثرة لبرد الليل .

ولكن فوق التل من حولك

يتخمر النبيذ الطيب

وتنهل الفاكهة الناضجة الغزيرة

من الطاقات الأمومية

وهنالك حتى البراعم ما تزال تتحرك

في رضا طفولي

ونجمة ودود

تؤمن بامتنانها

.تحيي الأوراد وعرائش الكروم ،

والاعشاب والفاكهة ،

ومحيا الانسان الرصين

المبتهج بهذه الاشياء

والعربة المحملة بالحبوب

وهي تمر الى المستودع .

هذه صور

من عالم الله الطليق .

ولكنها تتغير في اشكال مختلفة

واحدة منه فقط تعود اليّ واحدة ط كما هي:
تلك هي عين الانسان التي تتطلع !
ألم تكن الزهرةَ
التي تحلم على نهد الأم ؟
ألستَ تبعد ذلك العنب الذي ينضج ،
متحرقا لقدوم تاجر الخمر
ليتذوق قوته ، وخفته؟

ولا بد أنك أيضاً كوز الذرة ،
الذي يرقب في الحقل الجاف
اخته وهي تسقط امام آلة الحصاد
ويتلوى ألماً
لمرأى الجياد
وهي تحمل جاره بعيداً
إلى مستودعات مجهولة .
ولكن بمنأى عن رحم الارض المتغير ابداً
حدّق صوب السماء الأزلية
فاذا ما هبت ريح المساء
جارفة الاوراق فوقك ،

أوراقاً ذابلة فوق شعر ذابل ،
فحوّل نظرك بعيداً عن الرياح و الغيوم ،
وحدق من وراء الاغصان المنهكة
نحو ضياء النجوم المتألق .
لقد انتهى ذلك النهار
حين تسللت قوة الشباب
إلى أعلى الجبل ،
وأقسمت أن تتحول شمساً
لعقول ليس لها عد .
هاهوذا يدرك أن المساء قادم
وشمس الحياة تتوارى
في وادي الارض عميق الأخاديداً
أمنيته الوحيدة أن يقلد النجمات
ويحدّق أبداً في الشمس
في تنافس متقد
مع تلك الضياءات السماوية .
أنت تقف على عتبة قرنك .
هوذا المهد الذي بكيت فيه ،
وهناك تمتد العوالم التي تنتظرك!

والعوالم التي أكملت في الأعالي

تدعوك الى عمل ابهج

واما تلك الموثوق بها في الأسفل

فإنها تتمايل في جهد نبيل .

امدد يدك اليمنى الى الاعلى

اليد التي منحتها لحبيبتك السرمدية

تلك التي تحملت المعركة

ومن ستعينك في الخطوة الاخيرة!

ودّع يدك اليسرى

وعينك الحارسة

وذكرى نيران الحب

للقادمين الأصغر سنا !

كتب جدي هرمان جوندرت هذه القصيدة ، حين كان تلميذاً في التاسعة عشرة من عمره ، ومن المؤكد أن هذه القصيدة بقدر ما كانت محاولة لتوضح مشاعره الخاصة كانت تعزية لوالده الأرمل . وسيكون بإمكان القارئ المرهف أن يدرك سريعاً بأن وراءها فكراً متأثراً بهيغل ، والهندوس ، وعلى اطلاع جيد بهولدرين ، يجاهد في البحث عن وسيلة للتعبير . ولم ينظم كاتب هذه القصيدة الرائعة أخرى مماثلة ، فقد ألفها جدي في أكثر فترات حياته اضطراباً وتعرضاً للأخطار ، وبفترة قصيرة قبل أن يؤدي «حوار» الشباب

المتحمس المؤمن بوحدة الوجود إلى أن يقرر تكريس حياته من الآن فصاعداً للأعمال التبشيرية في الهند .

كنت احتفظ بنسخة قديمة من هذه القصيدة مكتوبة بخط والدتي ، وقد سلمتها منذ فترة إلى متحف شيللر في مارباخ بناء على طلبهم . وبالصدفة ، وقعت القصيدة في يدي ثانية وتكشفت لي هده المرة جمالياتها الظاهرة إضافة إلى الاتجاهات الخفية لفكرتها ، ولسرها الخجول ، وقد تركت انطباعاً قوياً عليّ في هذا اللقاء الثاني بحيث أنني قررت انقاذ هذه الجوهرة الصغيرة . وقد شكرني بكل أدب ورقة جوندرت على إرسالي لهم نسخة مطبوعة من القصيدة ، رغم أنهم بدوا وقد أصابتهم الدهشة والحيرة ، فلم يعرفوا ما الذي يفعلونه بهذه الهدية الغريبة . وقد تسلمتها الأغلبية وتقبلوها بإحترام ولكنهم لم يظهروا أية علامة انفعال تجاه التدفق الشعري الفتي ، أو أية علامة تشير لتأثرهم بالنار الخفية التي تتوهج بين السطور .ولكن وصلتني منذ ذلك الوقت آراء أخرى ، كذلك ، رجحت هذه الخيبة الصغيرة الاولى الى حد كبير . وكان اول هذه الاصوات التي استهوتها القصيدة حقيقة واستطاعت ان تحركها هو الدكتور لوتسكندورف ، ذلك الرجل الذي كتب قبل عشرين عاما ، إحدى اوائل الاطروحات التى كتبت عني وعن ماضي الروحي والديني .واورد هنا هذه الفقرة من رسالته المؤرخة في شباط ١٩٥٢:

« . . . في الوقت الذي كتبت فيه أطروحتي عنك وواتتني الشجاعة لأصنف مؤلفاتك وفقاً للنوع والأصل ـ أنظر إلى نفسي اليوم ، فلا أعرف من أين أتتني تلك الجرأة الوقحة ـ فقد بدا لي هرمان جوندرت هذا منذ البداية ، خارقاً للطبيعة ، وودت لو أعرف عنه أكثر من هذه المعلومات المتفرقة التي يمكن جمعها عنه شيئاً فشيئاً . ولقـد منحني جمعه بين الحماسة الملهمة والتحمل العنيد ، والذي كانت تنوّره بشكل متتابع نيران البنغال الغامضة ، فرصة للعديد

من التخمينات التي جعلته في نظري المصدر والأصل الممكن لكثير من الغرائب، التي تمتلكها أنت أيضاً . وقد شعرت بسعادة كبيرة حين تجدد لقائي به بشكل يدعو للاستغراب تماماً في هذه القصيدة التي كتبها في عام ١٨٣٣ . وأكدّ لي هذا اللقاء ومن نواح عديدة ، أنه حتى في زمننا أيضاً ينبغي على الدوام ألاّ تكون أحكامنا متأثرة فقط بالأصوات الغوغائية ، وبالجلبة وعدم الشعور بالمسؤولية المنتشرة بوضوح في كل مكان . ولا يمكن أيضاً نسيان الجوهر والتأثير الصامت العميق الذي يشيع من هذه الروح اليافعة منذ مئة عام؛ والذي لا زال مستمراً حتى الآن ولو لم يكن هذا الشخص هو جدك لكان من الصعب أن نسمع عنه ومع ذلك فإن كل هذا كان سيكتب له أن يعيش . وبالتأكيد يعيش حتى هذا اليوم الكثير من أمثال هرمان جوندرت - رجال مهتمون يرغبون في أن يكملوا دورة حياتهم وفي نفس الوقت يملكون الشجاعة لتحمل ومكابدة الشهرة بأعلى درجاتها . وأنا اعتقد أن مثل هذه القدرات تبقى وشيكة الحدوث في أمة من الأمم ، رغم أن المرء قد يتعرض كثيراً إلى إغراءات اليأس في مثل هذه الأوقات، ولكن عليه في النهاية ألاّ يرضخ» .

لا أدري أن كان قد بلغ علم كاتب هذه الرسالة البديعة أن جدي جوندرت ، المتخفي الذي يتمثل بأمانة ، ورغم كل شيء ، في المعنى الذي حمله لي ، يلعب دوراً في مؤلّفي القصير غير الكامل والمعنون بـ *«طفولة الساحر»* الذي تضمنه كتاب لي يدعى *«رحلات الحلم»* ، ولم أتعرف من خلال هذا الجد الذي توفي عندما كنت في سن السادسة عشرة ، على الحكيم العارف بطباع البشر فحسب بجانب ثقافته الواسعة ، ولكن اضافة إلى ذلك ورغم أن التقوى وخدمة الله قد جعلتاه غامضاً بعض الشيء إلاّ أنه ظل مفعماً بفيض من الحيوية - فقــد لقيت فيه الصدى والحي المتبقي من ذلك العالم الشفابي(*)

(*) نسبة إلى شفابيا مقاطعة Swabia في شمال غرب ألمانيا . (المراجع) .

العجيب ، المؤلف من الصرامة المادية والعظمة الفكرية والذي استمر لمئتي عام تقريباً ، في المدارس اللاتينية الشفابية وفي المعاهد اللاهوتية البروتستانتية ، وفي دار معلمي توبنجن الشهيرة ، يُعني وينشر تعاليمه القيمة باستمرار . ولا ينتمي إلى عالم مقرات ومدارس الكهنة الشفابيين ، رجال يمتلكون ، فكراً عظيماً وانضباطاً روحياً نموذجياً أمثال بنجل . وأوتيجر وبلومهارت فقط بل في هذا العالم أيضاً ارتقى إلى مصاف العظماء كل من هولدرلين وهيغل موريك .

كانت تفوح من هذا العالم ،كما في شقة جدي على السواء ، رائحة دخان الغليون والقهوة ، والكتب القديمة والأعشاب المجففة المحفوظة ، وقد كان هذا العالم الفكري ، ورغم طغيان المعتقدات اللاهوتية عليه كارهاً لاقصاء أي ميل من التقوى صوب الفكر الراديكالي الحر . وصار يضم عاماً بعد عام صفوة المدارس اللاتينية في المقاطعة ، وجيلاً بعد آخر تطور فيه جمع من الشخصيات الهامة والمبدعة والغريبة الأطوار . كان كل فرد منها إن لم يكن هو ذاته محور اهتمام ونجماً ثابتاً ، فإنه كان ينضم لا محالة إلى حلقة من أصدقاء وزملاء مثل هذا النجم ، ويخلف وراءه المقالات والرسائل المتبادلة والرسومات ، ويقوم بدوره في تعريف الأبناء والتلاميذ بهذا التقليد . وقد تمخض ذلك عن وفرة في الشخصيات التي تتحلى بنمط التفكير الشرقي وقد تجمعت بطريقة يصعب أن يضاهيها أي جمع في أية مقاطعة أخرى في ألمانيا .

وهكذا عرفت في جدي جوندرت ومن خلاله ثقافة فكرية محلية ، إلاّ إنها كانت تصل رغم محدوديتها هذه إلى الذورة ، وتمتلك طابعها الخاص ، ولغتها الخاصة ، واصالتها الرفيعة الخاصة بها ، وفي بعض الأحيان تمتلك مفردات غريبة لم توهنها عند جدي أبداً أو تشوهها عشرات السنين التي قضاها في الهند ، أو علاقاته وصداقاته العالمية اللامحدودة ، والتي كان يديرها بلغات

عدة ، ولا حتى زواجه من سيدة تتكلم الفرنسية نشأت على تعاليم المذهب الكالفيني[1] في منطقة في سويسرا يتحدث سكانها اللغة الفرنسية ، أو من خلال دراساته التي لم تنقطع لعقائد وأديان الهند وشعبها .

كانت أكثر الذكريات عن جدي حيوية وأكثرها قيمة تتعلق بالحادثة التالية : لم أكن قد أتممت أعوامي الخمسة عشر ، وكنت طالباً في المعهد اللاهوتي في مالبرون ، أقف فوق واحدة من أدنى درجات السلم الذي كان يقود إلى دار المعلمين ، أو إلى المعرفة ، أو إلى منصب كاهن أو إلى أن أكون شاعراً شغابياً أنتمي إلى المذهب البرناسيّ[2] في الشعر ، حين مررت بأقسى أزمة واجهتها في حياتي الدراسية واقترفت إثماً لا يمكن تصديقه ، ويصعب التكفير عنه ، ألحق الخزي بي وبمعظم عائلتي المحترمة: فقد هربت من المعهد ، وبحثوا عني في الغابة طيلة يوم كامل وأبلغوا الشرطة بالحادث ، وكدت أقضي نحبي بقضائي الليل في عراء الحقول وفي جوها القارس البرد ، وبعد أن تحررت من غرفة المرض ، عدت إلى المنزل لقضاء إجازة ، ورغم أن المعهد لم يبعدني ويطردني بشكل نهائي إلا أن سيرتي الأكاديمية كانت قد تعرضت إلى الشبهة بشكل يدعو إلى اليأس . ولو أنني عوملت كمجرم وعدو ، وخصوصاً من أقربائي لكان الحال أقل رعباً لي من العطف والقلق المربك الذي أحاطني الناس به ، بكل حذر ، كما لو كنت قد ابتليت بداء مبهم قد يكون ناقلاً للعدوى . حينئذ كان عليّ أن أقوم بأولى الزيارات الواجب عليّ تأديتها بعد عودتي إلى

---

(١) الكالفينية : ـ مذهب كالفين اللاهوتي الفرنسي البروتستانتي (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤) القائل بأن قدر الانسان مرسوم قبل ولادته.

(٢) برناسي : ـ ذو علاقة بمدرسة شعرية فرنسية(في النصف الثاني من القرن التاسع عشر) . انصب اهتمامها على الشكل وجمالياته واستبعدت العاطفة .

المنزل ، وكانت أهم وأصعب الزيارات إلى جدي المبجل ، الحبيب ، الذي كان في اللحظة تلك يوقع الرهبة في القلب . ولم يراودني الشك أن والديّ كانا يعلقان آمالاً كبيرة على هذه الزيارة وإنهما قد رجوا الحكيم الجليل أن يختبرني قلباً وروحاً وأن يجعلني أدرك عظم الإثم الذي ارتكبته والنتائج المحتملة له . كان تقدمي في الطريـق إليه ، في المنزل العتيق العزيز وفوق السلالم المؤدية إلى مكتبه ، المشمس هو تقدم الآثم الى المحكمة . وفي حجرة الانتظار الكبيرة كانت توجد مئات والآف الكتب ، التي كانت لها جاذبية قوية عليّ حتى ذلك الحين والتي قرأت الكثير منها في وقت لاحق؛ كانت الحجرة معتمة يهيمن الصمت عليها ، ومن خلال النافذة الوحيدة رأيت الحائط الزاهي لمؤخرة المبنى يومض في ضياء الشمس ، مع فتحة الكوة الكبيرة المظلمة في سقف البيت ، التي عُلّقت فوقها بشكل منحرف ومائل بعض الشيء عجلة الرافعة المستعملة لسحب حطب الوقود . كل ذلك بما فيه صفوف ملفات الأوراق الكئيبة الرمادية اللون فوق الرفوف الواطئة لخزائن الكتب ، والتناسق الرقيق للمسافات التي تفصل بين العناوين الباهتة المكتوبة فوق الصفوف الطويلة لمجلدات المجلات الدورية ، ووميض الذهب الواهن الذي ازاله الزمن فوق ظهور الكتب الجلدية ، كل ذلك بدا لي في تلك الساعة المقررة لمصيري واقعاً خارقاً ، ذا شأن كبير أدخل الغم إلى صدري . واقع يحكي عن عالم النظام ، والنظافة وكل ما له صلة بهما ، العالم الذي اتخذت خطوتي القدرية الأولى بالانسحاب منه لاضيع نفسي . تلك الخطوة بالذات سأمنحها اعتباراً هنا .

دخلت إلى مقرّه بقلب خائف مرتجف ، أشم رائحة دخان الغليون ، والأوراق ، والحبر ، وأرى ضياء الشمس يتلاعب فوق المائدة المغطاة بالكتب ، والمجلاّت والمخطوطات المكتوبة بلغات عدة ، رأيته أمامي وظهره باتجاه النافذة

المنارة بضوء الشمس ، يجلس فوق أريكة تغوص في سحب دخان الغليون التي تتخللها أشعة الشمس . رفع ذلك الحكيم رأسه ببطء من فوق مكتبه . حييته صوت منخفض ومددت يدي ، متهيئاً لسماع أي شيء ، ولاصدار الحكم عليّ وإدانتي . ابتسم ، وبرز فمه من بين لحيته البيضاء الكثيفة ، ابتسم بشفتيه اللتين تعرفان الكثير من اللغات ، وابتسم أكثر بعينيه البراقتين الزرقاوين ، فاسترخى فوراً توتري العصبي وأدركت أنه لا الأحكام ولا العقاب تنتظراني هنا بل التفهم ، وحكمة العمر وحلمه الممزوج بشيء من السخرية والخبث . فتح فمه وقال ، «إذن هذا أنت ، يا هرمان؟ لقد سمعت أنك قد قمت مؤخراً برحلة مزاجية قصيرة» .

قبل نصف قرن ، كانت «الرحلة المزاجية» هي التعبير الذي يطلقه تلامذة توبنجن لوصف محاولات الهروب والمغامرات الغريبة التي تحدث بدافع العجرفة ، أو التمرد ، أو اليأس . لم أعرف إلاّ بعد مضي أعوام أنه هو أيضاً ، جدي ذلك المسيحي والتلميذ النموذجي ، قد عاش ذات مرة في ذلك المناخ الخطر الذي تحدث فيه مثل هذه الرحلات المزاجية . في تلك الفترة بالذات المتقدة والخطرة من شبابه ومن المحتمل أن جدي كان يفكر حينئذ بتلك اللحظة ، التي عاشها هووأصدقاؤه المقربون في ومضة خاطفة بين غطرسة صبا موهوب ويأس انتحاري - وفي تلك الفترة بالضبط كتب جدي القصيدة التي سلطت الضوء عليها ثانية بعد مضي مئة وعشرين عاماً على نظمها .

وأمر آخر وثيق الصلة بنفس هذه القصيدة ، هو ما كتبه لي مؤخراً باريسي متخصص في الأدب الألماني يقول: «أريد فقط أن أقول لك كم هي قيمّة قصيدة هرمان جوندرت بالنسبة لي ، كشجرة عنب رقيقة تلتف حول جذع راسخ ، وهي مهمة لي أيضاً لأنه يمكن بواسطتها إدراك معنى العرف

العائلي ، ومع انها ثقيلة الوطأة ، إلاّ إنها تعين المرء في التقدم لو كان يمتلك قوة تخطي الشراك الخطرة . كنت قادراً على تأمل هذا في حالة البرت شفايتزر(*)؛ وربما تناهى لعلمك أن جان بول سارتر هو حفيد أخيه ، أي حفيد العم الباريسي لشفايتزر .كان هذا العم مختصاً في الأدب الألماني ، وتلميذاً عند هانس زاكس(1) وقد أصبح هو نفسه يشبه تماماً زاكس بلحيته البيضاء وطبعه الفظ . فبمثل سلسلة النسب هذه من المعلمين والقساوسة ، استطاع سارتر أن يجيز لنفسه أن يكون عدمياً دون أية مخاطرة؛ فاتباعه ، ممن لا تدعم معظمهم مثل هذه الذخيرة الوقائية ، قد أصابهم على الأغلب الإخفاق . . .»

وأما بالنسبة لي ، وقد صار لي منذ زمن بعيد حشد من الأحفاد وبلغت تقريباً سن الأسلاف فيوجد نوع خاص من المتعة والرضا في معرفة ذلك رغم إنها بالنسبة لجدّي لن تكون أكثر من مسألة مثيرة للضحك ، فهو الآن باقٍ في الذاكرة وله تأثير يتجاوز حدود العالم التبشيري الورع ، ورغم أنه قد يكون فقد في أعوامه الأخيرة كل اهتمام بهذا الموضوع ، بيد أنه قد سار ذات مرة في درب هولدرلين ، وهيغل ، وموريك ، ونسخ مقطوعة *«الناي السحري»* المحورة لتعزف على البيان بريشة الأوزة المأخوذة حديثاً من الجناح ، وكتب القصائد ، حتى انه انغمس في وقت ما في رحلة مزاجية .

(*) شفايتزر ، البرت (١٨٧٥ - ١٩٦٥) طبيب ولاهوتي فرنسي . منح جائزة نوبل لعام ١٩٥٢ .

(١) زاكس ، هانس (١٤٩٤ - ١٥٧٦) شاعر الماني عرف بغزارة الإنتاج .

قصة حياتي باختصار

١٩٢٥

في السنوات التي اعقبت الحرب العالمية الأولى مباشرة حاولت مرتين أن أقدم نظرة عامة موجزة عن حياتي بشكل اسطوري وشبه مرح ، من أجل أصدقائي الذين أصبحت في نظرهم وقتذاك شخصاً مثيراً للجدل نوعاً ما. ومن بين هاتين المحاولتين أحببت تلك التي تحمل «طفولة الساحر» والتي بقيت ناقصة. وأما الأخرى ، فقد حاولت فيها الجرأة أن أحذو حذو نموذج جان بول(*) بأن أتنبأ المستقبل في «سيرة ذاتية حدسية». وقد نشرت هذه في عام ١٩٢٥ في «نويه روندشاو» وظهرت في هذا الكتاب على حالها عدا بعض التعديلات الطفيفة.، وكنت أنوي لسنوات عديدة أن أربط هذين العملين بطريقة ما ، إلاّ أني لم أتوصل إلى وسيلة توفق بين عملين يختلفان كثيراً في الأسلوب والمزاج اللذين كتبا فيه.

ولدت قرب نهاية العصر الحديث ، قبل عودة العصور الوسطى بفترة قصيرة ، تحت علامة برج الرامي في طالعي كوكب المشتري في حالته الواعدة. حدث مولدي في ساعة مبكرة من مساء يوم دافيء من شهر تموز ، وقد احببت وبحثت طيلة حياتي وبلا وعي عن حرارة تلك الساعة من ذلك المساء؛ وحين لا

(*) جان بول كاتب الماني، كتب الحكايات الخيالية الشعبية (١٧٦٣ - ١٨٢٥).

أجدها كنت أفتقدها بشدة. فلم أتمكن من العيش أبداً في بلدان باردة وكانت جميع رحلات حياتي الاختيارية تتجه صوب الجنوب. كنت طفلاً لوالدين ورعين ، أحببتهما بحنو وكنت سأحبهما بحنان أكبر لولا إطلاعي المبكر جداً على الوصية الرابعة(*) ولسوء الحظ ،كان للوصايا دوماً تأثير فادح علي ، مهما كانت صحيحة وذات مقصد طيب ـ ورغم أني كنت وديعاً في طبيعتي مثل حمل وطيعاً مثل فقاعة صابون ، إلا أني غالباً ما كنت أتمرد على الوصايا ومن أي نوع كانت وخاصة في صباي ، فكل ما احتاجه هو أن أسمع «عليك أن..» حتى يثور كل ما في داخلي وأتحول إلى إنسان عنيد متصلب. ويمكن تخيل ، كم كان لهذه الميزة الغريبة من تأثير بعيد وتعيس خلال أعوام المدرسة. صحيح أن مدرسينا قد علمونا ، في تلك المادة الممتعة المسماة تاريخ العالم ، بأن من كان يحكم ويقود ويغير العالم هم دائماً رجال صنعوا قوانينهم الخاصة وخرقوا النظم التقليدية ، وأن علينا دائماً احترامهم ، إلاّ أن كلامهم هذا كان مخادعاً مثل بقية دروسهم جميعاً. فكلما استجمع أحدنا شجاعته ، سواء بقصد طيب أو سيء ، ليحتج على نظام ما أو حتى ضد عرف أو طريقة سخيفة لفعل الأشياء ، لم يكن يلقى أي احترام أو يؤخذ كمثال يحتذى به ، بل على العكس فالمدرسون يعاقبونه ويسخرون منه ويسحقونه تماماً ، هؤلاء المدرسون الذين كانوا يستغلون سلطتهم العليا بكل خسة.

ومن حسن حظي أني تعلمت ، حتى قبل أن تبدأ أعوامي في المدرسة ، الأكثر أهمية ومنفعة في الحياة: فقد امتلكت حواسَّ حادة مرهفة ومتطورة بشكل ممتاز استطيع أن أثق بها واستمد منها متعة هائلة. ومع أني استسلمت فيما بعد وبشكل لا رجعة فيه إلى إغواءات العالم الغبي ، حتى إني عاقبت

(*) إحدى الوصايا العشر التي أمر الله بها النبي موسى.

حواسي بشدة وأهملتها لوقت ما ، إلاّ أنه رافقتني دائماً خلفية هذا الانغماس الحسي المرعي بعناية فائقة وخصوصاً فيما يتعلق بالنظر والسمع ، ولعبت دوراً حيوياً في عالمي الفكري حتى لو كان يبدو مجرداً. وهكذا فقد زودت نفسي ، كما ذكرت ،بقدرات معينة كي اواجه الحياة ، وحدث هذا قبل بدء دراستي بفترة طويلة ، عرفت دربي التي تمر حول مدينة أجدادي ، والتي تمتد في الفناءات المحاذية لمخازن الحبوب ، وفي الغابات ، وفي بساتين الخضار ، وفي ورشات الميكانيكيين ، وعرفت الأشجار والطيور ، والفراشات واستطعت أن أنشد الأغاني وأخرج الصفير من بين أسناني والكثير من الأشياء الأخرى الضرورية للعيش ، وانضمت إلى كل ما تعلمته هنا أشكال متنوعة من معارف المدرسة ، التي جاءت يسيرة لي وكانت مصدراً للبهجة والسرور؛ وبالأخص تلك البهجة الحقيقية التي حصلت عليها من اللغة اللاتينية. فقد كتبت أشعاراً لاتينية تقريباً في الوقت الذي بدأت فيه كتابة الشعر الألماني ،ويعود الفضل لاتقاني فن الكذب والديلوماسية الى السنة الثانية من المدرسة ، حيث منحني خلالها مدرس ومساعده السيطرة على هذه المهارات بعد أن جلبت لي صراحتي الطفولية وثقتي التي أمنحها للآخرين كارثة بعد أخرى. فقد استطاع هذان المربيان أن يفتحا عيني بنجاح على واقع أن حس الفكاهة وحب الحقيقة ليستا الميزتين اللتين يبحثان عنهما في التلاميذ. فقد اتهماني بارتكاب ذنب لا يحمل أية أهمية على الإطلاق كان قد وقع في الصف وكنت بريئاً لا يد لي فيه أبداً ، ولما فشلا في انتزاع اعتراف مني بأني أنا المتهم ، تحولت هذه القضية التافهة إلى تحقيق ، تفنن الاثنان فيه بتعذيبي. ولم ينتزعا مني عنوة الاعتراف المطلوب . ليس هذا وحسب ، بل عوضاً عن ذلك ، انتزعا مني كل إيمان في نزاهة مهنة التدريس. والشكر لله أنني قد تعرفت فيما بعد وفي الوقت المناسب

إلى مدرسين جديرين بالاحترام. ولكن ما حصل من خراب قد حصل ، ولم تشوه علاقتي بالمدرسين ويمتلىء قلبي ضغينة عليهم فقط بل على كل ما يمثل السلطة. وعموماً ، كنت طالباً جيداً في السنوات السبع أو الثمان الأولى من أعوامي في المدرسة ، وكنت على أية حال من ضمن الأوائل في صفي على نحو منتظم. وازداد انغماسي في الصراع مع المدرسة أكثر فأكثر ، في الوقت الذي ابتدأت فيه تلك المعارك التي لم يكن ليستثنى منها كل من يجهد ان يبنى ذاته. وكان لا بد من مضي عقدين من الزمن كي أفهم مغزى هذه المعارك ، التي كانت جميعها تجري آنذاك ببساطة حولي ، رغماً عن ارادتي ، مسببة لي تعاسة كبيرة.

حدث الأمر هذا : منذ سن الثالثة عشرة والأعوام التي تلته ، صار أمراً واضحاً لي بأني إما أن أكون شاعراً أو لا شيء آخر على الإطلاق. وبجانب هذا الإدراك أصبح هناك وعي مؤلم آخر يخالجني تدريجياً ، فمن الممكن أن يصبح المرء مدرساً ، أو قسيساً ، أو طبيباً أو ميكانيكياً ، أو تاجراً ، أو موظفاً في البريد، أو يصبح موسيقياً ، أو رساماً أو معمارياً ، فهناك طرق ممهدة لكل مهنة في العالم ، وهناك متطلبات اساسية لها ومدارس ودورات تعليمية للمبتدئين فيها. إلاّ الشاعر فلا شيء أمامه من هذا الضرب أو ذاك! فأن يكون المرء شاعراً فهذا أمر جائز بل وحتى مشرف؛ ويعني ذلك أن يكون ناجحاً وشهيراً كشاعر ، إلاّ أنه لسوء الحظ سيكون من الطبيعي حينها أنه أصبح في عداد الأموات. إلاّ أني سرعان ما اكتشفت كم كان من المستحيل أن تغدو شاعراً ، وكم كان من السخف والخزي أن ترغب في أن تكون واحداً من الشعراء ، وسرعان ما توصلت الى ما ينبغي معرفته من هذا الوضع: وهي أن الشاعر ببساطة هو ذلك الكائن الذي يسمحون له أن ينمو في داخلك ولكن لا

يدعونك أن تكونه. وأكثر من هذا : كان كل من يملك موهبة شعرية فطرية وولعاً في الشعر موضع ريبة في نظر المدرسين؛ فإما أن يشكّوا في مقدرته الشعرية أو يسخروا منه ، وغالباً ما يتعرض فعلياً لإهانات بالغة القسوة. وكان حال الشاعر يشبه تماماً حال البطل ، وحال كل الشخصيات البارزة والمقدامة وغير المألوفة التي تتمتع بالشجاعة والوسامة والجرأة: حيث كانوا يعتبرون في الماضي رجالاً عظماء ، يزخر كل كتاب من كتب المدرسة بالثناء عليهم؛ ولكن في الحاضر في الحياة الحقيقية ، ترى الناس يمقتونهم ، ومن المحتمل أنه كان يتم انتقاء المدرسين ، وتدريبهم خصيصاً ليمنعوا قدر إمكانهم ظهور العظماء ،والبشر الاحرار ، وليحولوا دون إنجاز المآثر العظيمة الرائعة.

وهكذا لم أكن أرى غير هوة شاسعة تفصل بيني وبين هدفي البعيد فكل شيء كان عرضة للشك خالياً من أية قيمة. شيء واحد فقط بقي ثابتاً وهو اصراري على أن أكون شاعراً ، سواء كان ذلك يسيراً أم عسيراً ، سخيفاً أم مشرفاً ، واما النتائج الظاهرية لهذا القرار ـ أو بالأحرى لهذ القدر المحتوم فقد كانت كما يلي:

في سن الثالثة عشرة حيث كان الصراع قد ابتدأ للتو ، أصبح سلوكي لا يطاق في منزل والدي وفي المدرسة على السواء لدرجة أنني ابعدت إلى مدرسة لاتينية في مدينة أخرى ، وبعد مضي عام واحد أصبحت تلميذاً في معهد لاهوتي ، وتعلمت كتابة الابجدية العبرية ، وكنت على وشك أن أفهم ما تعنية Dagesh Forte imlicitum حين هبت في داخلي فجأة عواصف قادتني إلى الفرار من مدرسة الدير وإلى معاقبتي بالحبس الصارم وإلى فصلي من المعهد .

ثم جاهدت لفترة كي أتقدم في دراستي في المدرسة الثانوية الألمانية (الجمنازيوم)؛ إلاّ أن الحجز والطرد كانا من نصيبي هناك أيضاً ، فعملت صبياً

متمرناً عند تاجر لمدة ثلاثة أيام. ومما أثار اسى والدي أني هربت مرة أخرى واختفيت لأيام وليال عديدة. وعاونت أبي لستة أشهر ، واشتغلت عاملاً في ورشة ميكانيكية وفي معمل لصناعة ساعات الأبراج لمدة سنة ونصف.

وباختصار ، لم تجد معي أية محاولة لما يزيد على الأربعة اعوام فلا المدرسة استطاعت ان تبقيني في احضانها ، ولا استطعت أن استمر طويلاً في أية دورة تعليمية.وفشلت كل محاولة لجعلي انساناً نافعاً ، بل انتهى بعض هذه المحاولات بالعار والفضيحة ، وبالفرار أو الطرد. ومع هذا فقد اعترف الجميع ، وفي كل مكان بتمتعي بالموهبة بل حتى بقدر لا بأس به من العزم! وفي داخلي كنت أشعر بأني لا شيء ما لم أكن منتجاً - رغم إني كنت أتطلع برهبة إلى فضيلة الكسل الرفيعة ، إلاّ أني لم استطع ابداً أن أجيدها. وفي سن السادسة عشرة ، وبعد أن باءت كل مسيرتي الدراسية ، بالفشل ، بدأت بوعي وبنشاط ، أكوّن ثقافتي الخاصة ، وكان من حسن حظي ومبعث سعادتي أن بيت والدي قد حوى مكتبة جدي الضخمة وهي غرفة كاملة مليئة بأمهات الكتب التي تحتوي من بين ما تحويه ، على كتب الأدب والفلسفة الالمانية العائدة للقرن الثامن عشر. فبين سني السادسة عشرة والعشرين ، لم أملأ كمية من الأوراق بمحاولاتي الشعرية الأولى فحسب ، بل قرأت كذلك نصف إدب العالم منكباً على تاريخ الفن واللغات والفلسفة بمثابرة من شأنها أن تؤهلني للنجاح في أي جامعة اعتيادية.

أصبحت بعدها بائعاً للكتب لأكسب قوتي. كنت دائماً على علاقة جيدة بالكتب أفضل من علاقتي بالملزمات والعجلات المسننة التي اضطهدت نفسي معها حين عملت ميكانيكياً. في البدء كان الخوض في الأدب الحديث ، وبالأخص الأكثر حداثة ، الذي كنــت مغرماً به بحق ، متعة تقترب من

الانتشاء ، ولكنني لاحظت بعد حين أن في المسائل الروحية تكون الحياة في الحاضر المعاش والأكثر معاصرة غير محتملة تماماً وخالية من أي معنى ، ومن الممكن فقط الوصول الى الحياة الروحية بالعودة المستمرة إلى ما هو ماضٍ ، إلى التاريخ ، إلى القديم ، إلى البدائي. لهذا وبعد ان استهلكت تلك المتعة الأولى أصبح ضرورياً لي أن أخرج من انغماسي في الحداثة وأعود إلى القديم ؛ ولقد حققت ذلك بانتقالي من مخزن الكتب الذي كنت فيه إلى مخزن يبيع كل ما هو قديم . بقيت في هذه المهنة طيلة الوقت الذي كنت محتاجاً فيه لتأمين معيشتي. وفي سن السادسة والعشرين ، وبسبب نجاحي الأدبي الاول ، تركت أيضاً هذه المهنة. وهكذا وسط العديد من العواصف والتضحيات ، وصلت أخيراً إلى هدفي: رغم أنه كان يبدو مستحيلاً ، إلا أني أصبحت شاعراً وربحت ، كما بدا لي ، المعركة الطويلة الشرسة مع العالم. وصارت كل مرارة أعوامي الدراسية وأعوام التحضير تلك ، التي أوشكت فيها مراراً على الانهيار ، في طي النسيان أو أصبحت أضحك منها ، وحتى اقربائي وأصدقائي الذين سببت لهم الخيبة من قبل ، أخذوا الآن يبتسمون لي ابتسامة مشجعة. لقد انتصرت ولو فعلت الان اسخف الأشياء وأكثرها تفاهة ، لبدت للأعين فاتنة ، تماماً مثلما كنت أنا مفتوناً بنفسي وللمرة الأولى في حياتي ، أدركت في أية عزلة موحشة وأي زهد وخطر كنت أعيش سنة بعد أخرى؛ فقد افادني النسيم الدافىء بالاعتراف بي وبدأت اتحول إلى رجل مفعم بالرضا.

في الظاهر ، سارت حياتي لفترة لا بأس بها بشكل هادىء متناغم. فقد كان لي زوجة وأطفال ومنزل وحديقة. ألفت الكتب ، واعتبرت شاعراً محبوباً وعشت في سلام مع العالم. وفي عام ١٩٠٥ ساهمت في إيجاد مجلة دورية

تتوجه بشكل أساسي لمهاجمة الحكومة الفردية لولهلم الثاني(•) دون أن آخذ الهدف السياسي. هذا مأخذاً بالغ الجدية . وقمت برحلات ممتعة الى سويسرا وألمانيا واستراليا وإيطاليا والهند ، وكان كل شيء يبدو مرتباً.

وبحلول صيف عام ١٩١٤ ، تغير كل شيء فجأة ، في داخلي وفي الخارج. فقد صار واضحاً أن رفاهيتنا السابقة قد بنيت على أسس متزعزعة ، وعلى أثرها ، ابتدأت مرحلة البؤس ، وآن أوان المحك كما يسمونه ، ولا يمكنني القول انني تهيأت لمواجهته أفضل وأجدر وأقوى من أي شخص آخر. وما ميزني عن الآخرين وقتذاك كان افتقادي للعزاء الكبير الذي احتفظت به نفوس كثيرة ألا وهو الحماس . لذلك عدت إلى نفسي ثانية وإلى التورط في الصراع مع محيطي ، ومرة أخرى أدخلت المدرسة وكان عليّ أن أنسى سلامي مع النفس ومع العالم ، وفي هذه التجربة خطوت لأول مرة على عتبة معرفة الحياة.

لم يغب عن بالي قط لقاء قصير جرى خلال السنة الأولى من الحرب. فقد قمت بزيارة مستشفى عسكري كبير آملاً في العثور على طريقة أزج بها نفسي في نمط من الحياة يحمل قيمة ما في هذا العالم المتغير - وهو أمر كان لا يزال يبدو لي ممكناً من ذلك الوقت. وفي مستشفى الجرحى هذا ، التقيت عانساً مسنة كانت في السابق تعيش على دخل خاص وفي ظروف مريحة وهي الآن تعمل ممرضة في أجنحة المستشفى ، اخبرتني بحماس مؤثر عن مقدار شعورها بالسعادة والفخر لأن الفرصة قد سنحت لها لتشهد هذا الزمن العظيم. وقد

(•) ولهلم الثاني(١٨٥٩ - ١٩٤١) ملك بروسيا وامبراطور المانيا (١٨٨٨ - ١٩١٨) في عهده خاضت ألمانيا الحرب العالمية الأولى ، ثم تخلى عن العرش.

تفهمت ما قالته ، ففي مثل حالتها تعتبر الحرب منفذاً لتغير حياتها الرخوة من كينونة العذراء العجوز الغارقة في ذاتيتها إلى حياة نشطة ونافعة ، وبينما كانت تعبر لي عن سعادتها في ممر مليء بمعوقي القذائف ووسط جنود مضمدين يفترشون اجنحة تكتظ برجال مبتوري الأعضاء وآخرين يحتضرون ، ارتجف قلبي هلعاً . فعلى الرغم من تفهمي العميق لحماسة «أونتي» ، إلاّ أنني لم أستطع أن أشاركها تلك الحماسة ، ولم استطع أن أثني عليها. فلو وجدت مقابل كل عشرة جرحى ممرضة متحمسة أخرى مثل هذه ، لكلفتنا سعادة هؤلاء السيدات الكثير.

لم أستطع أبداً أن أحس ببهجة الزمن العظيم ، هكذا كان حالي منذ البداية فقد عانيت شقاء الحرب ، ولمدة سنوات كنت أسعى بيأس لحماية نفسي من سوء حظ بدا أنه قد حل بي فجأة ، بينما كان الجميع من حولي يتصرفون كما لو أنهم يفيضون حماسة مرحة تجاه المأساة نفسها. وكلما قرأت في الصحف المقالات التي يكتبها كتاب بارزون يشيدون فيها بعطايا الحرب ، وغيرها من نداءات الأساتذة الصريحة للمعارك ، وكل قصائد الحرب التي تصدر عن مكاتب الشعراء المشهورين كنت ازداد بؤساً على بؤس.

في أحد الأيام من عام ١٩٠٥ تسرب مني جهاراً اعتراف بهذه التعاسة ، وتعبير عن الأسف لأولئك الناس المدعوين بالروحانين الذين لم يجدوا شيئاً أفضل من الوعظ بالكراهية ونشر الأكاذيب وتمجيد البلاء الأعظم . وكانت نتيجة هذا التشكي الذي عبرت عنه نوعاً ما بتردد أن اتهمتني صحـــافة بلدي بالخيـــانة وقـــد كانت هذه التجربة جديدة لي ، فرغـــم اتصلاتي المتعددة بالصحافة ، لم تبصق عليّ الأغلبية هكذا من قبل على الإطلاق. وقد نشرت المقالة التي ضمت هذا الاتهام في عشرين صحيفة في بلدي ، ومن بين كل

الذين ظننتهم أصدقاء لي من رجال الصحافة تجرا أثنان فقط على الدفاع عني. وقد اخبرني أصدقاء قدامى لي بأنهم كانوا يرعون أفعى خبيثة في قلوبهم ، وأن هذه القلوب ستخفق في المستقبل من أجل القيصر والرايخ وليس من أجل شخص منحل مثلي ، ووصلتني كذلك أكداس من الرسائل البذيئة من أشخاص غرباء. وأكد لي تجار الكتب بأن كاتباً له مثل هذه الآراء الكريهة لم يعد له وجود بالنسبة لهم . ولاحظت فوق عدد من هذه الرسائل زخرفة كنت أراها في وقتها للمرة الأولى : علامة مدورة صغيرة كتب عليها «فلينزل الله العقاب بانكلترا».

قد يظن البعض بأني قد ضحكت من كل قلبي على سوء الفهم هذا الذي حدث إلاّ أني لم أفعل أي شيء من هذا القبيل ، فهذه التجربة ، غير الهامة في حد ذاتها قدمت لي مكافأة على ثاني تحول هام في حياتي.

حدث التحول الأول ، كما تذكرون ، في اللحظة التي أدركت فيها عزمي على أن أصبح شاعراً. ومنذ تلك اللحظة تحول هسه التلميذ المثالي إلى تلميذ رديء ، تلقى العقاب ،والطرد ، ولم يصدر عنه تصرف صحيح ، وسبّب لنفسه ولوالديه الهمّ تلو الهمّ ، كل ذلك لمجرد أنه لم يكن يرى أية إمكانية للتوفيق بين العالم على الحال التي هو عليها ـ أو على ما يبدو أنه عليها ـ وبين صوت قلبه. ومرة أخرى وجدت نفسي في صراع مع عالم كنت حتى ذلك الحين أعيش فيه برضا تام. مرة أخرى باء كل شيء بالفشل ، ومرة ثانية كنت وحيداً وتعيساً ، وأصبح الآخرون مرة ثانية يسيئون فهم كل ما أقوله وأفكر به بشكل متعمد ومرة أخرى ، رأيت أن بين الواقع وبين كل ما بدا لي طيباً ، مرغوباً به ومعقولاً تمتد هوة سحيقة لا رجاء فيها.

ولكنني ، هذه المرة ، لم ادخر وسعاً في مراجعة أفكاري ومشاعري.

ففيما مضى وجدت نفسي مدفوعاً للبحث عن سبب معاناتي ، ليس في الخارج بل في داخل نفسي. وتمكنت على الأقل من أن أرى هذا الأمر بوضوح: فلقد وجدت أن اتهام العالم أجمع بالخداع والوحشية هو شيء لا يحق لأي إنسان أو إله أن يوجهه أو على الأقل لا يحق لي أنا. لذلك فلا بد من وجود شتى أنواع الاضطرابات في داخلي ما دمت أعيش مثل هذا الصراع الحاد مع مسيرة العالم كلها. وبالفعل كانت هناك فوضى كبيرة في الداخل. وليس من المتعة في شيء أن ادجنها وأحاول تغييرها إلى نظام ما . أمر واحد بدا لي واضحاً وهو أنّ الرضا العذب الذي عشته مع العالم لم يكن غالي الثمن فحسب؛ بل كان عفناً تماماً مثل عفونة السلام الظاهري للعالم. وقد آمنت أنه لولا معارك الشباب الطويلة والصعبة التي خضتها لما حصلت على مكانتي التي احتلها الآن ولما غدوت « الشاعــر». وفي نفس الوقت ، كان للنجاح والرخاء تأثيرهما المعتاد علي ، فكنت أشعر بالرضا عن نفسي والراحة ، وحين أمعن النظر حولي أجد أن الشاعر ما كان يميزه الآخرون عن كاتب الأدب الرخيص إلاّ قليلاً . كانت الأمور قد سارت على أحسن حال معي في هذه الأيام ، رغم أني بدأت اتخذ احتياطات كثيرة لمواجهة الظروف الصعبة ، والتي هي دائماً تدريب جيد ونافع وتعلمت أكثر فأكثر أن أدع شؤون العالم تأخذ مسارها وتمكنت من إشغال نفسي بنصيبي مما يجري حولي من فوضى وشعوربالذنب ، وأترك للقارىء مهمة التحقق من وجود هذا الهم في كتاباتي.

ومع هذا فقد احتفظت دوماً في ذاكرتي بالأمل الخفي ، وهو أن يجتاز شعبي أيضاً اختباراً مماثلاً في الوقت المناسب ، ليس جميعهم بل العديد من الأفراد الواعين والجديرين بالثقة. وبدلاً من الندب وانزال اللعنات على الحرب اللعينة وعلى العدو الغادر وعلى الثورة الشرسة ، سيستيقظ تساؤل في الاف القلوب: كيف أصبحت أنا نفسي شريكاً في هذه الجريمة؟ وكيف أستطيع أن

أستعيد براءتي؟من الممكن دائماً للمرء أن يستعيد براءته لو أدرك معاناته وإثمه وعانى حتى النهاية بدلاً من محاولة القاء اللوم على الآخرين.

ولما أخذ هذا التحول الجديد يجد طريقه إلى حياتي وكتاباتي ، هز العديد من أصدقائي رؤوسهم بأسف ، وقاطعني الكثير منهم. كان هذا جزءاً من نمط حياتي المتغير ،تماماً مثل فقداني البيت ، والعائلة وغيرها من الأشياء الجيدة والمريحة. كان زمناً كنت أقول فيه يومياً وداعاً! وكنت كل يوم أذهل بأني ما أزال قادراً على التحمل وما زلت مستمراً في العيش. وما زلت أجد ما أحبه في هذا الوجود الغريب الذي كان يبدو حقيقة ، انه لا يجلب لي غير الألم والخيبة والخسارة.

على أية حال ، ولتعويض كل ذلك ،كان لدي شيء يشبه الفأل الحسن أو أن الملاك الحارس لم يتخل عني حتى أثناء سنوات الحرب . فعندما كانت الآمي تحاصرني وكنت أشعر بقدري يلعنها ويمقتها كل ساعة. ،هذه الحال استمرت حتى بداية التحول الــذي طرأ عليّ . كانت هذه المعاناة ، في نفس الوقت ، واستغراقي فيها قد حصنتني أيضاً مثل درع واق أو ترس في مواجهة العالم الخارجي . وفي الواقع لقد قضيت أعوام الحرب في مثل هذه الظروف البغيضة وسط أجواء السياسة والتجسس والرشوة والفساد، والتي كانت حتى آنذاك نادراً ما تنحصر في مكان واحد فهي تتمركز خصوصاً في بيرن، وبين المانيين وفي وسط الديبلوماسية المحايدة ، والعدائية في مدينة تغمرها طوال الليل أمواج عارمة من الديبلوماسيين والعملاء السريين، والجواسيس ، والصحفيين، والمشتغلين في المضاربات التجارية ، والمستغلين . عشت وسط الديبلوماسيين ووسط الجنود ، وكانت لي صلات مع أناس من بلدان معادية عديدة ، وكان يحيطني جو متناقض: شبكات تجسس وأناس يناضلون ضد الجاسوسية ، مكائد واتهامات، ومضاربات سياسية وشخصية ـ ومن كل ما كان يدور حولي وعبر

كل تلك السنوات، لم ألحظ أي شيء على الإطلاق! كنت ملاحقاً ، يتنصتون علي ، ويراقبونني وكنت موضوعاً لريبة الاعداء تارة ، وتارة للمحايدين وأخرى لابناء موطني ، ولم الحظ أيّا من ذلك ، وقد عرفت القليل عن هذا الأمر بعد مضي فترة طويلة ، ولم استطع أن أفهم كيف تمكنت من العيش مطوقاً بهذا الجو ،دون أن أمس بسوء أو أصاب بأذى ، إلاّ أن هذا ما حصل .

ومع نهاية الحرب ، تزامن اكتمال التحول الذي مر بي مع دورة معاناتي في تجربتي الذاتية ، ولم تعد لهذه المعاناة أية علاقة بالحرب أو بمصير العالم. حتى هزيمة المانيا ، التي كنا نتنبأ بها طيلة عامين في الخارج واثقين من حدوثها لم تعد في ذلك الحين أمراً مروعاً . ورغم أني كنت غارقاً كلياً في ذاتي وفي قدري الخاص ، إلا إنني كنت أشعر في بعض الأوقات بأن مصير الإنسانية كان يعنيني بالقدر نفسه وقد اكتشفت أنه تنعكس في نفسي كل شهوة العالم للحرب والقتل وكل عجزه عن تحمل المسؤولية ، وكل انغماسه الفاضح في اهوائه ، وكل جبنه؛ وكان ينبغي أولاً أن أفقد احترامي لذاتي ومن ثم افقد احتقاري لها؛ ولم يعد امامي من مهمة سوى إمعان النظر في الفوضى ، بأمل يحلق مرة ، ويغور أخرى بأن أكتشف ثانية ما وراء طبيعة هذه الفوضى وما وراء البراءة . ولا بد أن يكون كل من حمل ذهناً متيقظاً واكتسب وعيه بحق قد سار في هذا الدرب الضيق في حين أو في أحايين كثيرة عبر الخراب ـ وتبقى محاولة التحدث عن هذا الى الآخرين جهداً ضائعاً .

عندما غدر بي الأصدقاء ، شعرت وقتها بالحزن ولكني لم اشمئز أبداً ، بل على العكس كان ذلك تأكيداً على صحة طريقي الذي اخترته . وبلا ريب كان هؤلاء الأصدقاء السابقون على حق حين قالوا اني كنت ذات مرة متعاطفاً للغاية كانسان وكشاعر ، بينما كان موقفي الحالي المثير للجدل لا يطاق ابداً .

واما بخصوص الميول والشخصية فقد تجاوزتهم منذ فترة طويلة ، فلم يكن بينهم من كان بمقدوره فهم المفردات التي كنت استخدمها . وربما كان لهؤلاء الاصدقاء الحق في ان يعيبوا علي فقداني الجمال والتناغم في كتابتي . ومثل هذه الكلمات لم تكن لتثير الا الضحك فيّ - فماذا يعني الجمال او التناغم لمن حكم عليه بالموت ، ولمن يحاول ان ينجو بحياته من بين جدران متداعية؟ وربما ايضاً ، ورغم ايماني الذي لازمني طيلة حياتي ، لم اكن شاعراً ، وربما كانت جميع دوافعي بالنسبة للجمال مجرد غلطة؟ لم لا؟ وحتى هذا لم يعد له اية اهمية . فمعظم ما كنت اتصارع معه اثناء رحلتي في جحيم ذاتي كان مزيفاً وخاوياً ، وربما يصبح الامر نفسه مع تصوري الواهم عن كفاءتي وموهبتي . كم كان ذاك بلا اهمية ، برغم كل الاشياء! وما اعتبرته ذات مرة واجبي وانا مفعم بكبرياء وفرحة صبيانية ، صار ايضاً لا وجود له . لم اعد اجد مهمتي ، او الاصح طريق خلاصي في مملكة الشعر المقفى او الفلسفة او اي من مهن الاختصاصيين تلك بل اجدها ببساطة في اطلاقي العنان لهذا الشيء الصغير الموجود في داخلي والمملوء حيوية وقوة ، ليعيش حياته . وان وفائي المطلق الآن سأكرسه لما تبقى ينبض بالحياة في داخلي ، لا غير . تلك كانت الحياة ، وذاك كان الله . وكلما كانت تمر بي مثل تلك الاوقات التي تعتريني فيها نشوة مفرطة خطرة للغاية يضحي عندها كل شيء مختلفاً على نحو غريب ، فكل مضامين الوعي السابقة ومسمياتها اصبحت الآن دون معنى وما كان مقدساً في الأمس ربما يبدو مضحكاً الآن.

واخيراً ، وفي ربيع عام ١٩١٩ ، حين أوشكت الحرب على نهايتها بالنسبة لي ايضاً ، انزويت في ركن قصي في سويسرا واصبحت ناسكاً . ذلك انني طيلة حياتي كنت متأثراً بالحكم الهندية والصينية(وهذا ورثته عن والديّ

واجدادي) ، وايضاً لاني عبرت الى حد ما عن تجاربي الجديدة في اللغة التصويرية للشرق ، فغالباً ما كنت ادعى«بالبوذي» وما كان بوسعي سوى ان اضحك على هذه التسمية . ففي اعماقي لم اعرف ديناً كنت بعيداً عنه كل البعد كالبوذية . ولكن مع ذلك كان يوجد شيء صحيح ما ، بذرة حقيقية تختبىء هنا ، وقد ادركت ذلك لاول مرة في وقت متأخر بعض الشيء . وعلى اية حال لو كان من الضروري ان يختار المرء ديناً له ، لكنت بالتأكيد وبدافع من توق داخلي اعتنقت ديناً محافظاً: كالكونفوشيوسية ، او البرهمانية او الكنيسة الرومانية . ولكنت فعلت ذلك ، بدافع التوق الى قطبي المعاكس ، وليس بسبب الانجذاب الفطري له . فليس من قبيل الصدفة وحدها انني ولدت ابناً لبروتستانتيين ورعين؛ فقد كنت بروتستانتيا بالمزاج والطبيعة كذلك(وهذا لم يتعارض مطلقاً مع نفوري الشديد من الطوائف البروتستانتية الحالية) . فالبروتستانتي الحقيقي يعارض كنيسته كما يعارض كل الكنائس الأخرى ، ما دامت طبيعته تدفعه ان يكون متعالياً عن النوازع البشرية . وعلى هذا الاعتبار ، كان بوذا دون شك بروتستانتيا لا محالة .

اما ايماني بموهبتي كشاعر وبقيمة جهودي الادبية فقد استؤصِلَ منذ ان حدث هذا التحول في حياتي . فلم تعد الكتابة لتمنحني اية متعة حقيقية . الا ان الانسان ينبغي ان يشعر ولو بقدر ضئيل بها؛ فحتى في خضم يأسي كنت اؤكد دعوتي هذه . فمن الممكن ان اتخلى عن العدل ، والعقل ، والمعنى في الحياة وفي العالم؛ وقد وجدت ان العالم من الممكن ان يأخذ مجراه بمنتهى الروعة مستغنياً عن هذه الافكار المجردة . ولكني لا استطيع ان اواصل الحياة دون شيء من المتعة . واصبحت حاجتي اليها الآن واحدة من تلك الشرارات الصغيرة التي تسكنني والتي ما زلت اؤمن بها ، فمن خلالها خططت من جديد

لخلق عالم خاص بي . وكثيراً ما بحثت عن متعتي ، وعن حلمي ، وعن النسيان في زجاجة خمر ، وكثيراً جداً ما وجدت ضالتي فيها؛ لذا فليباركها الله . ولكنها لم تكن كافية . بعدها اكتشفت في احد الايام متعة جديدة تماماً . فجأة وفي سن الاربعين ، بدأت ارسم . ليس لاني كنت اعتبر نفسي رساماً ، او اعتزم ان اصبح واحداً من الرسامين . ولكن لأن فن الرسم شيء مدهش؛ فهو يجعل الانسان اكثر سعادة واكثر صبراً . ومن ثم لا تكون له أصابع حمراء وزرقاء . وقد اغتاظ ، ايضاً الكثير من اصدقائي بخصوص مسألة الرسم هذه . لم يحالفني حظ وفير في هذا الامر - فكلما شرعت في امر بغاية الضرورة ، بهي ومبشر بالنجاح ، وقف الناس في طريقي . فهم يودون ان يبقى الانسان حيث هو؛ ولا يرغبون ان يغير الانسان وجهه . الا أن وجهي لن يذعن إنه يصر على التغّير الدائم: تلك ضرورة .

وهناك لوم آخر تم توجيهه إلي ، وقد التمست له عذراً . يقول الناس انني لا املك ادنى حس واقعي . فالقصائد التي اكتب واللوحات القليلة التي ارسم لا تتوافق مع الواقع . فغالباً ما يغيب عن بالي اثناء الكتابة المواصفات التي يضعها القراء المهذبون للكتاب الملائم ، ولكن بالنسبة لي يبقى الاكثر اهمية من كل هذا ، هو انني حقاً لا أكن احتراماً للواقع . فانا أعتبره آخر شيء يحتاج المرء ان يشغل نفسه به ، فهو مضجر بما فيه الكفاية ، موجود دائماً ، بينما توجد هنالك اشياء اكثر جمالاً وأكثر أهمية تتطلب انتباهنا واهتمامنا . الواقع هو الذي لا ينبغي للانسان وتحت اي ظرف كان ان يرضى به ، ولا ينبغي له تحت اي ظرف ان يهيم به ويرهبه ، لانه عرضي ، ولانه فضلات الحياة . وليس من الحكمة ان نغير هذا الواقع الجائر المخيب دوماً للآمال ، العقيم ، اللهم إلا برفضنا اياه وإثباتنا مع مرور الزمن بأننا اكثر قوة منه .

يفتقد الناس في كتاباتي كثيراً الاحترام التقليدي للواقع . وعندما ارسم تكون للاشجار وجوه ، وتضحك المنازل ، او ترقص او تنتحب . اما هل كانت الشجرة التي رسمت شجرة كمثرى أم شجرة كستناء ، فهذا كان من اكثر الاشياء صعوبة في التحديد . لا بد ان اسلم بهذا اللوم . فأنا أعترف بأن حياتي الخاصة كثيراً ما بدت لي كما الأسطورة ، وكثيراً ما رأيت وشعرت بالعالم الخارجي وهو يتصل ويتناغم مع عالمي الداخلي بطريقة لا يمكنني الا أن أدعوها ساحرة .

وقع لي عدد آخر من المصادفات السخيفة فمثلاً ، كتبت مرة تعليقاً غير مؤذ عن الشاعر الشهير شيلر ، فاتهمتني على اثرها كل اندية البولنغ في جنوب المانيا كمدنس لآثار وطني المقدسة . الا انني نجحت فيما بعد ولسنين عديدة بعدم التفوّه بأي شيء يدنس الآثار المقدسة او يجعل الناس يشتاطون غضباً . واعتبرت هذا تطوراً . فما دام لم يكن لهذا الواقع المزعوم اي دور مهم في حياتي ، وما دام الماضي قد سيطر علي في الغالب كما لو كان هو الحاضر ، والحاضر يبدو لي بعيداً دون حد ، فإنني لا يمكنني ان أفصل المستقبل عن الماضي بالحدة ذاتها التي تفصل عادة بينهما . فانا اعيش المستقبل كثيراً لذا لا اريد ان أنهي مذكراتي بيوم حاضر بل اريد ان أدعها تستمر بروية .

سأحكي بايجاز كيف اكملت حياتي مسارها . فطيلة السنين التي امتدت حتى عام ١٩٣٠ ، الفت مجموعة اخرى من الكتب ، لأنصرف بعدها عن تلك المهنة والى الابد . وقد تناولت اطروحتان لشابين مجدين مسألة ما اذا كنت اعتبر حقاً من ضمن الشعراء ، ولكنهما لم يتوصلا الى جواب لذلك . وقد اتضح ، حقيقة ، ونتيجة لدراسة دقيقة للادب المعاصر ، ان الهالة التي كانت تميز الشاعر قد وهنت الى درجة كبيرة في الأزمان الحاضرة حتى لم يعد

يتسنى التفريق بين الشعراء والادباء . ومن هذه الحالة الموضوعية للامور استمد المرشحان لدرجة الدكتوراه استنتاجاتهما المتعارضة . احدهم وهو الاكثر تعاطفاً ، كان مع الرأي القائل ان شعراً على هذه الدرجة من الوهن والسخافة لا يعد باي حال شعراً ، وبما أن الادب السهل لا يستحق البقاء ، فلم لا ندع ايضاً ما يسمى حتى الآن شعراً ان ينتهي دون ضجة . أما الآخر فقد كان معجباً بالشعر بإفراط حتى في شكله الرديء ، لهذا فهو يعتقد انه من الافضل إفساح المجال لمئة من غير الشعراء كضمان بدلاً من الاساءة الى شاعر واحد ربما لا زالت تجري في عروقه قطرة من دماء عبقرية البرناسيين .

كنت منشغلاً بالرسم وبتعاويذ السحر الصينية بدرجة أساسية ، ولكنني في الاعوام التالية انهمكت اكثر فأكثر بالموسيقى . وصار طموحي في الفترة الاخيرة من حياتي ان اكتب نوعاً من الاوبرا ينظر فيها الى الحياة الانسانية في واقعها المزعوم بقليل من الجدية ، بل بالاحرى يسخر من اهميتها الخالدة مهما تألقت كمثال ، ولرداء آني لله . ودوماً كان التصور السحري للحياة قريباً الى قلبي . فلم اكن قط «رجلاً متحضراً» ، واعتبرت دائماً كتاب «قدر الذهب» لـ«فون هوفمان» وحتى «هاينريش من اوفتردنجن» من الكتب المدرسية التي تفوق قيمتها اي كتاب في التاريخ الطبيعي او في تاريخ العالم . (وفي الحقيقة ، كلما كنت أقرأ هذين الكتابين كنت اعتبرهما دائماً من الخرافات السارة) . الا أني شرعت الآن في مرحلة من الحياة لم يعد فيها ضرورة للاستمرار في تطوير الشخصية والسعي لتفردها بعد ان اكتملت وتميزت اكثر مما يجب ، وبدلاً من ذلك تحولت المهمة في هذه المرحلة الى جعل «الانا» الجديرة بالاحترام تتلاشى ثانية في الكون ، لتواجه عدم استقراره ولتأخذ مكانها في النظام السرمدي الخالد . وقد تبين لي انه من الممكن التعبير عن هذه الافكار او المواقف تجاه الحياة

فقط عن طريق الحكايات الخرافية ، واعتبرت الأوبرا ارقى اشكالها ، ربما لأنني لم أعد اؤمن حقاً بسحر الكلمة في لغتنا المتحضرة ، المُساء استعمالها ، بينما ظل السحر فــي نظري شجرة حية ينمو تفاح الجنــة فوق اغصانها حتى يومنا هــذا .

أردت في هذه الاوبرا ان أعبر عن كل ما لم تستطع ان تستوعبه قصائدي: أن أضع معنى سامياً وبهيجاً للحياة الانسانية . أردت ان أمجد البراءة وتجدد الطبيعة الذي لا ينضب وأبين مسارها الى النقطة التي تضطر فيها ، وعبر مخاض حتمي ، ان تتجه صوب الروح ، قطبها المضاد البعيد ، وعندها سينكشف تأرجح الحياة بين قطبي الطبيعة والروح مرحاً ماجناً بالغاً حد الكمال كقوس قزح .

ورغم كل محاولاتي ، ويا للخيبة ، لم أوفق قط في إنهاء تلك الاوبرا . فتجربتي معها كانت مثل تلك التي خضتها مع الشعر . فقد اضطررت الى ترك كتابة الشعر بعد ان وجدت ان كل ما بدا لي مهما لأقوله قد قيل في «قِدر الذهب» وفي «هاينريش من اوفتردنجن» بصورة أوضح ألف مرة مما كان باستطاعتي ان أعبر عنه .

وهذا ما حصل الآن مع الاوبرا التي اردت تأليفها . فما ان انهيت سنوات دراستي الموسيقية التحضيرية ، وحضرت عدة تخطيطات تمهيدية للموضوع محاولاً من جديد ان اتخيل بوعي حاد قدر الامكان مغزى ومضمون عملي الحقيقيين ، حتى ادركت بغتة بأنني كنت أحاول ان أضع في اوبراي نفس الشيء تماماً الذي كان قد انجز بعظمة منذ أمد بعيد في «الناي السحري» .

لهذا السبب ، تركت هذا العمل جانباً وكرست نفسي تماماً لممارسة

السحر عملياً . فلو كان حلمي في أن اصبح فناناً ، محض وهم ، وعجزي عن انتاج عمل مثل «قِدر الذهب» او «الناي السحري» حقيقة ، فعلى الاقل انا «ساحرٌ» بالفطرة . وكنت منذ زمن بعيد قد تقدمت بما فيه الكفاية عبر الطريق الشرقي للاوتسي(*) و «آي ـ تشنغ»(**) للدرجة التي عرفت فيها بثقة كل ما يتعلق بالطبيعة العرضية للواقع المزعوم وقدرته على التغير . وقد سيطرت بالسحر على هذا الواقع وفقاً لأمنياتي وينبغي ان أقول اني شعرت بالكثير من المتعة في فعل ذلك .

ومع هذا ، لا بد ان اعترف ، بانني لم احصر نفسي دائماً في الجنة الرائعة المعروفة بالسحر الأبيض ، فقد كنت أنسحب الى الجانب الأسود من وقت الى آخر عن طريق تلك الشعلة الصغيرة المتوهجة حياة في داخلي .

في عمر تعدى السبعين ، ومباشرة بعد ان خصتني جامعتان بدرجات شرف ، قدمت للمحاكمة بتهمة إغواء فتاة يافعة عن طريق السحر . وفي السجن التمست الموافقة لكي اقضي وقتي بالرسم . وكان ذلك مسموحاً به . جلب لي الاصدقاء الالوان وكل ما يحتاجه الفنان من أدوات ، فرسمت منظراً طبيعياً صغيراً على جدران زنزانتي . هكذا عدت مرة اخرى الى الفن ، ولم تستطع كل الخيبات التي عانيتها كفنان ان تمنعني للحظة من الارتشاف ثانية من اسمى الكؤوس تلك ، ومن ان ابني مرة اخرى مثل طفل يلهو عالماً رائعاً صغيراً عابثاً ، ولم تمنعني من ان أتخم قلبي بها ، وان الفظ كل الحكم والافكار المجردة

---

* Lao-tse لاوتسي: مؤسس فلسفة الصين العظمى ، التاوية(٦٠٠ ق .م) وكلمة التاو Tao تعني الطريق . (الناشر) .

** I-Ching اي ـ تشنغ: كتاب السحر الصيني كتبه الملك «يونة» ـ قبل حوالي ثمانمئة عام من ميلاد المسيح ـ في سلالة التانغ .

بعيداً واعود من جديد الى شهوة الكون البدائية . هكذا عدت الى الرسم ثانية والى مزج الالوان وغمس الفرشاة فيها وعدت اتشرب مفتوناً كل ذلك السحر اللانهائي: صوت الاحمر الزاهي المشرق ، ونغمة الاصفر الصافية ، ونبرة الازرق العميقة المؤثرة في النفس ، والموسيقى المنبعثة من مزجها سوية حتى تظهر اشد درجات الرمادي عمقاً وشحوبا . سعيداً كنت مثل طفل ، وأنا أواصل لعبة الخلق هذه . وهكذا رسمت المنظر الطبيعي على جدران زنزانتي وتضمن هـذا المنظر الطبيعي تقريباً كل ما منحني غبطة في الحياة: الأنهار والجبال ، والبحر والسحاب ، الفلاحين في موسم الحصاد ، وجملة من الأشياء الجميلة الأخرى التي كانت تفرحني .

ولكن في وسط اللوحة كان يسير قطار صغير جداً فوق سكة حديدية ، متوجهاً صوب جبل ، دفنت مقدمته فيه مثل دودة في تفاحة ، وكانت القاطرة تدخل النفق الصغير الذي تدفق من مدخله المظلم دخان ملوث بالسخام .

لم يسحرني قط لهوي من قبل كما فعل هذه المرة . فعودتي الى ممارسة الفن لم تنسني فقط بأنني كنت سجيناً ورجلاً متهماً بأمل ضئيل في أن ينهي حياته في أي مكان ما عدا السجن ـ بل حتى أنستني مراراً ممارساتي السحرية ـ وقـد بدوت لنفسي ساحراً مقتدراً عنـدما خلقت بفرشاتي الرفيعة شجيرة صغيرة ، وغيمة مشرقة صغيرة .

وفي نفس الوقت ، كان الواقع المزعوم ، الذي كنت آنذاك بحق على خصام معه ، يبذل ما في وسعه ليهزأ من حلمي ويبعثره شتاتاً مرة بعد أخرى . ففي كل يوم من أيام السجن تقريباً كانوا يقتادونني تحت الحراسة إلى غرف سيئة للغاية حيث يجلس رجال عدائيون بين ركام من الأوراق ، يستجوبونني ،

ويرفضون تصديقي ، وينهرونني ، يهددوني مرة كطفل في الثالثة من عمره ومره مثل مجرم متمرس . ولا يحتاج المرء أن يكون متهماً ليتعرف على قضايا المحاكم والوثائق والأوامر التي هي الجحيم بعينه . فمن بين كل العذابات التي كان لا بد للرجال أن يخلقوها لأنفسهم على نحو غريب ، كانت تبدو لي هذه دائماً أكثر فظاعة . فكل ما تحتاجه هو أن تنوي الرحيل أو الزواج ، أن تطلب جوازاً أو وثيقة إقامة حتى تجد نفسك فجأة وسط هذا الجحيم ، إذ تقضي ساعات عصيبة في مساحة خانقةفي عالم الأوراق هذا حيث يستجوبك أشخاص يتأكلهم الضجر ، إلا أنهم في نفس الوقت على عجلة ، مفعمون بالنقمة يزجرونك ، ولا يصدقون أبسط وأصدق عبارة تتفوه بها ويعاملونك تارة مثل تلميذ مدرسة وأخرى مثل مجرم . لا بأس فالكل يعرف هذا الأمر . كان من شأن هذا الجحيم الورقي أن يهزمني ويستنزفني ، لولا ممارستي للرسم التي كانت تمنحني الراحة وتنعشني باستمرار ، ولولا لوحتي ، منظري الطبيعي الجميل الصغير ،الذي منحني هواءً متجدداً ومنحني حياة .

كنت أقف أمام هذه الصورة في زنزانتي أحد الأيام عندما جاء الحراس مستعجلين مرة أخرى باستدعاءاتهم المملة وحاولوا أن ينتزعوني من عملي المفرح . شعرت في تلك اللحظة بالاعياء وبشيء يشبه التمرد ضد كل هذا الهياج وضد كل هذا الواقع الوحشي الكئيب وقد خطر لي أنه الوقت المناسب لأضع نهاية لعذابي . فإذا لم يكن مسموحاً لي أن ألعب لعبة الفنان البريء بدون ازعاج ، فعلي أن ألجأ إلى الفنون الأشد صرامة ، تلك التي كرست لها نفسي سنوات عديدة ، فبدون السحر لا يمكن أن يحتمل هذا العالم .

تذكرت قاعدة صينية ، فوقفت لدقيقة حابس الأنفاس ، وحررت نفسي من وهم الواقع ثم رجوت الحراس بعذوبة أن يصبروا عليّ لمدة دقيقة لاغير حتى أدخل إلى لوحتي وأفتش عن شيء في القطار . ضحكوا علي كعادتهم ، فقد كانوا يعتبروني مختل العقل .

بعد ذلك جعلت نفسي صغيراً ، خطوت داخل لوحتي وصعدت على متن القطار الصغير . وسار القطار عبر النفق الصغير الأسود . استمر الدخان الملوث بالسخام مرئياً لفترة من الزمن ، يتدفق من فتحة مدورة ، ثم تبدد واختفى ومعه اختفت اللوحة كلها ، واختفيت أنا مع اللوحة وبقي الحراس ورائي تحيطهم الحيرة من كل جانب .



ذكرى من الهند

١٩١٦

هذه الذكريات لها صلة بلوحات الرسام هانز شتشور سنجر

كلما نظرت إلى اللوحات والرسومات التي جلبها «هانز شتشور سنجر» معه من الهند، تجتاح ذاكرتي أيام رحلتنا سوية إلى الشرق في فيض من الصور المؤثرة التي انطبعت في الذهن بعمق. فقد نفخت أعماله الحياة في شهور الرحلة الزاخرة بالأحداث، التي كانت مهمة الرسام التي كما كانت لي، والتي من خلالها تعرف أحدنا على الآخر عن قرب عبر تلك الرفقة المطولة والحميمة فوق سطح الباخرة وعلى الشاطيء. ومن الممكن جداً أن يكون تأثير الرحلة هذه عليه بحجم التأثير الذي اجتاحني؛ فأنا لم أتعرف فقط على أرض أجنبية في منتهى الغرابة لكن ومن خلال تجربتي لما هو غريب، وجدت أن في داخلي بالأخص اكتشافات ينبغي أن أجدها واختبارات يجب أن أصمد أمامها.

سافرنا سوية في صيف حار من عام ١٩١١ إلى جنوا، عن طريق سويسرا وإلى مقاطعات حارة جداً في شمالي ايطاليا، ومن هناك ذهبنا إلى مستعمرة التاج البريطاني السابقة عبر البحر ودون توقف. وفي مساء بهي من

أمسيات بيناغ الرطبة الساخنة لمدينة آسيوية؛ وللمرة الأولى شاهدنا المحيط الهندي يتلامع بين عدد لا يحصى من جزائر المرجان ، وشدتنا بدهشة مشاهد الحياة المتعددة الألوان في الشارع ، في المدينة الهندوسية وفي المدينة الصينية وفي مدينة الملايي . جمع بشري جامح ، ونابض بالحياة يحتشد في أزقة لم أرَ مثل ازدحامها من قبل ، والليل بحر من شموع ، تنعكس فيه صورة أشجار جوز الهند ساكنة ، وأطفال عراة خجلون وصيادون بألوانهم الداكنة يجذفون في قوارب بدائية! ومن هذه الانطباعات الأولى التي كوناها عن المدن الميناثية التي اكتسبت إلى حد ما طابعاً اوروبياً ، إلى الغابة الإستوائية الصامتة غير المطروقة في جنوب سومطرة ، ازدادت الصور الذهنية عدداً وقوة حتى وجد كل منا الهند التي يحلم بها وآسيته فحملها في داخله . وحتى هذه الانطباعات تبدلت فيما بعد ، وتغيرت قيمتها وأهميتها ولم يبق منها إلاّ تجربة الزيارة الحلم إلى الأسلاف البعيدين ، وتجربة الرجوع إلى الطفولة الاسطورية للبشرية ، والشعور بالرهبة العميقة لروح الشرق ، التي ظلت تعاودني كرّة بعد أخرى منذ ذاك الحين في هيئة هندوسية أو صينية ، وكانت لي دوماً منبعاً للراحة والالهام. لأننا لن نستطيع أبداً ، نحن أبناء الغرب الشيوخ ، أن نعود إلى الطبيعة الإنسانية الفطرية وإلى البراءة الفردوسية التي يتحلى بها الناس البدائيون؛ وما شعورنا بالحنين للعودة إلى الوطن والتجدد المثمر إلاّ اشارات انبعثت الينا من «روح الشرق». هذه الروح التي عاشت من اللاوتسي الى المسيح ، وولدت من الفن الصيني القديم وما زالت اليوم تنطق بها كل إيماءة من إيماءات الاسيوي الحقيقي.

ورغم هذا ، نادراً ما كنّا نفكر بمثل هذه الأمور أو نتحدث عنها ولو قليلاً. فالانطباع الحسي كان يتطلب في كل ساعة انتباهنا الكامل. ولقد نشدت رؤية المعابد والمسارح الصينية ، والفراشات ، والأشجار الضخمة ، ورؤية نوادر

جميلة أخرى ، في حين كان رفيق رحلتي يتذوق حتى الثمالة أولى العقبات التي يواجهها الرسام في مدينة غريبة جداً ،وما زلت حتى الان أستطيع رؤيته جالساً فوق جنركشة[1] مؤجرة ، يرتفع لوحده فوق الجماهير المحتشدة في الشارع الصيني في سنغافورة يرسم التخطيطات وسط الأتربة والجو الحار إلى أن يغادر المكان.

كم كان هناك من الصور العجيبة التي لا يمكن امتلاكها وأي تنوع غني على نحو استثنائي في هذا العالم الحسي الذي يحيطنا! كنت وما أزال مملوءاً بالدهشة والحسد لما استطاع «هانز شتسور سنجر» أن يعود به في رسوماته التخطيطية ولكني أجد ذاكرتي قد اختزنت بشكل جيد بمئات من مثل هذه الصور التي كان بستحيل تدوينها أو حتى تسجيل ملاحظات عنها في اللحظة نفسها.

واحدة منها ربما تكون إحدى فترات الظهيرة في جاهور ، في أكبر صالة للعب القمار في الهند الصينية حيث يقف في غرف ضيقة ومعتمة وحول موائد غير صقيلة ، فئات من الحمالين الصينيين وأجسادهم متراصة تلتصق مجاميع تلتف حول بعضها ، في انتظار نتيجة رهانهم ، حابسي الأنفاس ، صامتين ، شاحبي الأوجه ، وحياتهم تتركز كلها في النظرة المترقبة التي تطل من عيونهم بجشع.

أو ربما تكـون أمسية قضيتها فوق متن سفينة ، أقف ساكناً ممسكاً بسياجها ، والليل متشحٌ بالزرقة ومرصع بالنجوم ، والبريق الفسفوري يتلامع في الأثر الواهن الذي تخلفه السفينة وراءها في المياه.

أو ليلة في مسرح ملاوي حيث الممثلون يتمتعون بموهبة كبيرة ، وخفة

---

١ - جنركشة : عربة صغيرة بدولابين تتسع لشخص واحد عادة ويجرها رجل واحد (المورد).

حركة كالقرود ، يعملون بمهارة لا تصدق ، واليأس يسكن قلوبهم جنب اللهفة، لتقديم صورة هزلية لمسرحية أوروبية - وباللحسرة دون أي مقصد تهكمي.

كم كان موثراً وغامضاً التقرب من قرية في الملايو فوق زورق نهري يمر عبر الغابة البدائية! ليظهر من بعيد امتداد الشاطيء القصير المأهول بالسكان وبدلاً من جدار الدغل الأخضر الذي لا يتغير ، تبرز أشجار جوز الهند ، وتحتها أشجار موز الجنة الضخمة المثمرة وسقوف الأكواخ المصنوعة من أوراق نبات السمّار(*) وحقل أرز صغير ، ومرسى بدائي للزوارق . وعند الشاطيء ، كان يقف أطفال سود عراة.مسكونون بالفضول. ، ولكننا لم نكد نلمحهم ، وما كاد الزورق ينحرف صوب الشاطيء حتى تلاشت هذه الأجساد البشرية بعيداً دون ضجة ، مختفية في لحظة واحدة؛ وحين نزلنا من الزورق صار بمقدورنا أن نلمح هنا وهناك وعلى بعد مسافة آمنة ، خلف جذوع أشجار النخيل ، بريق الأعين السود المتيقظة.

رأينا مدناً تقف على دعامات في مياه الأنهر العظيمة التي تجتازها بسكون آلاف المراكب ، والتجارة العائمة ومخازن صغيرة عائمة للسجاد والفواكه والسمك وكتب إسلامية لتعليم الصلاة.

ورأينا الجزر ، جزر الأحجار ، وجزر التراب ، والمرجان والطين ، وجزراً بمثل حجم نبات الفطر ، وأخرى يبلغ حجمها حجم سويسرا ، رأيناها تستلقي هناك في البعيد ، وفي غروب الصيف كانت تبدو داكنة الزرقة ، أو تتوهج في منتصف النهار بألوان لا توصف ، أو تختفي بشكل رماديّ وشبحي تحت الستار الثقيل لعاصفة رعدية جبارة. وباللرهبة الغريبة التي اغارت علينا بها هذه

(*) السمّار : نبات تستعمل لوراقه الأسطوانية الطويلة في صنع مقاعد الكراسي .

العواصف الرعدية ، رعد وبرق ووابل من طين. كان يقوم على خدمتنا صينيون وملاويّون وسنهاليون ورجال بضفائر لامعة ورجال بشعور مرفوعة إلى الأعلى ومثبتة بأمشاط معدنية تزين وجوههم الرصينة على نحو رائع.

والحيوانات ! ويا للحيوانات التي رأيناها! لم تكن فيلة متوحشة(فقد شاهدنا الأليفة منها) ولم تكن نموراً كذلك ، بل كانت أعداداً وفيرة من الأشكال الجميلة والغريبة التي لا يمكن نسيانها! رأينا قروداً كبيرة وصغيرة ، فرادى وجماعات وحتى أحياناً كنا نراها في حملات محتشدة كبيرة ، وشاهدنا القرود يشرعون برحلاتهم الغريزية بشكل مؤثر ، تصحبهم جلبة لا تصدق ، جماعات وعشائر بأكملها متسلقة أغصان الغابة التي لفها الشفق ورأينا كذلك قروداً أليفة داجنة موثقة بسلاسل تتراكض فوق جذوع أشجار جوز الهند حين يأمرها سيدها بجلب الثمار ، والتماسيح في الأنهار وأسماك القرش وهي تلاعب مؤخرة السفينة والأغوانة(*) البدائية ، وجاموس الماء الشاحب الوردي اللون والببغاء الأحمر الرائع القادم من سومطرة ، وربما الطيور تفوق هذه الحيوانات جمالاً؛ طيور مالك الحزين البيضاء اللون عند النهر ، والكثير من النسور ، وطيور الكركدن الصياحة الضخمة ، والطيور المنمنمة البالغة الصغر التي تشبه الأحجار الكريمة متعددة الألوان. ولكن قد تكون حتى أكثر فتنة منها الخنافس ، واليعاسيب ، والفراشات ، وعثة الحرير الرمادية التي يبلغ حجمها قدر يد الإنسان ، والخنافس الذهبية ، والسحالي وكذلك الأفاعي الموسمية. يالهول ما صادفناه من زهور، كؤوس أزهار عملاقة بيضاء شاحبة نمت وسط الرطوبة الخطرة للغابة المظلمة ، ومجموعة من زهرات ذات لون احمر زاهٍ توردّت فوق أشجار عالية،ونخلة بيضاء تضرب إلى الخضرة

(*) الأغوانة - عظاية أمريكية استوائية ضخمة آكلة للأعشاب (المورد).

ازهرت عناقيد ثمر تطاول قامة الإنسان!

ولكن دائماً كان أكثر روعة من كل ما رأيناه هو ما لمسناه من البشر - الطريقة الحالمة التي يمشي بها الهندوسي ، نظرة السنهالي الدمث الجميلة الرقيقة التي يشوبها الحزن ، كنظرة الغزال ، وبياض مقل الأعين الذي يخطف الأبصار في وجوه الحمالين التاميليين السوداء البرونزية ، وابتسامة الصيني المميز ، وغمغمة متسول في لغة غريبة تشبه الغرغرة ، وحقيقة أن يفهمك دون كلمات أناس من عشرة أجناس ولغات مختلفة ، يتعاطفون مع المظلوم ، ويزدرون الظالم. وفي كل مكان يسري شعور خاص بهيج وهو أنّ جميع هؤلاء البشر ، هم اندادنا ، وإخواتنـــا ورفاقنا في القدر! يمرون من أمامنا ، متخفين بعض الشيء ، كل في غرابته ، وسلوكه وعرقه الخاص: المسلم الهندي ، معتد بنفسه وواعٍ لخصوصيته؛ الصيني ذو الخطوات المسترخية ، جليلاً ومبتهجاً؛ وكان السيلانيون صغار الأجسام النحلاء ، خجلين كخجل العذارى ، والملاويون الوسماء ، فطنين ومتلهفين للخدمة؛ واليابانيون صغاراً ، مهرة ونشطين كانوا جميعاً يمتلكون شيئاً مشتركاً ، مهما كان اختلافهم في اللون والقامة فجميعهم كانوا آسيويين ، كحالنا نحن الأجانب ، لا يهم سواء كنا قد أتينا من برلين أو ستوكهولم ، من زورخ أو باريس أو مانشستر ، فكلنا ، بطريقة غامضة نوعاً ما لا يمكن اخفاؤها أبداً ، أوروبيون ننتمي لبعضنا.

كان ذلك في حد ذاته جميلاً وغالباً ما يثير الدهشة ما أن تقع العين عليه ، وكم كان هناك من شيء مشترك يجمع بين الأوروبيين كلهم ، تماماً مثلما كان بين جميع الآسيويين ، حتى عندما لا يفهم أحدهم الآخر أوحين يحل بينهم الخصام. ولكن يبقى الأكثر جمالاً بالنسبة لي والأكثر أهمية على نحو لا متناهٍ هو الإدراك الذي يتجدد بين الحين والآخر ، بكل نضارته وحسيته ، بأن ما

يشكل وحدات ليس الشرق والغرب فقط ، ولا أوروبا وآسيا فحسب ، بل هناك توحد وترابط أبعد وأسمى من ذلك ألا وهو الإنسانية. ورغم أننا جميعاً نعرف هذه الحقيقة الا انها تكون جديدة وقيمة بلا حدود لا عندما نقرأ عنها في كتاب من الكتب ، بل حين نجربها وجهاً لوجه مع أناس غرباء عنا تماماً.

ولكن هذه الملحوظة الصغيرة القديمة والمعروفة سلفاً التي تقول أن هنالك أسمى وأبعد من حدود الأمم وأرجاء الكرة الأرضية ، وهنالك الإنسانية كانت آخر وأعظم مكافأة جنيتها من رحلتي ، وقد أخذت قيمتها تتزايد عندي باستمرار منذ الحرب العالمية.

من وجهة النظر هذه فقط ، ومن وعي الأخوة والمساواة الروحية يكتسب كل ما هو غريب ومتباين ، ومتنوع الألوان بين الأمم والشعوب ، سحره العميق وفتنته. وكم من مرة اعتبرت ، كآلاف المسافرين غيري ، الناس والمدن في البلاد الأجنبية مجرد أشياء غريبة نادرة ، وكنت اتطلع اليهم كما لو كانوا في معرض للوحوش ليس إلاّ ، حيث يملك كل أهميته ولكن ليس له أية صلة اساسية تربطه بنا! لقد حدث - فقط عندما أبعدت وجهة النظر هذه وصرت قادراً أن أرى الملاويين والهندوس ، والصينيين واليابانيين كبشر وأقارب حميمين ، عند ذاك فقط ابتدأت التجربة التي اعطت الرحلة قيمة ومعنى.

كنت نادراً ما أتحدث عن ذلك مع هانز شتو رسنجر. ولكني كلما نظرت إلى أعماله الهندية ، كنت لا أرى في تلك العيون المتلهفة ، الغامضة ، اللوزية الشكل ، موضوعاً للفضول بل أرى بدلاً من ذلك انسانية متماثلة وواضحة وجديرة بالحب تحدق بي . لا يمكننا التحدث مع هؤلاء البشر ، أو ليس بالقدر الوافي ، ولكن أرواحهم تشبه أرواحنا ، تشبهها تماماً ، وهم يتعلقون بأحلام ورغبات خلال حيواتهم لا تختلف عن أحلامنا ورغباتنا بأكثر مما تختلف أوراق الشجرة الواحدة عن بعضها .



بيدورو تالاكالا

١٩١١

كي أودع الهند وداعاً لائقاً وجليلاً بسلام وسكينة ، تسلقت في أحد الأيام الأخيرة التي سبقت رحلة عودتي ، في برودة صباح ممطر أعلى قمة في سيلان لوحدي ، قمة «بيدرو تالاكالا» . وكان يبدو ارتفاع هذه القمة ، لو قيس بالقدم الانكليزي ، كبيراً جداً ، ولكنه في الواقع لم يكن يزيد إلا قليلاً عن ٢٥٠٠ متر ، وكانت الطريقة التـــي تتسلق بهـــا هذه القمة هي السير على الأقـــدام .

تلامع وادي جبل «نوارا ايليا» الاخضر الذي تشيع فيه البرودة ، فضياً تحت مطر الصباح الخفيف ، وأضفت عليه سقوف الصفيح المتموج لمنازله وساحات التنس وملاعب الغولف الواسعة طابعاً هندياً انكليزياً نموذجياً؛ كان السنهاليون يزيلون القمل عن أجسامهم في مقدمة أكواخهم أو يجلسون مرتجفين ملفعين بالشالات الصوفية؛ وينبسط المنظر ، الذي يشبه الغابة السوداء ، خالياً من الحياة يكتنفه الغموض . لم أكن قد رأيت أياً من دلائل الحياة عدا بعض الطيور القليلة حتى وقعت عيني على حرباء ضخمة سامة خضراء اللون عند سياج احدى الحدائق ، فأخذت أراقب حركاتها الحقود وهي تقتنص الحشرات .

ما إن ابتدأ الطريق بالتسلق الى الأعلى عبر وهد صغير ، حتى اختفت السطوح المتناثرة ، وبدا جدول سريع يترقرق أسفل مني . كان الطريق ضيقاً شديد الانحدار يؤدي باطراد الى الأعلى مستغرقاً لساعة طيبة من الزمن ، ماراً عبر شجيرات نامية يابسة وأسراب من البعوض كانت مصدراً للعذاب؛ ونادراً ما كنت أصادف انعطافة في الطريق تمكنني من رؤية نفس الوادي الجميل ، المضجر إلى حد ما ، وكذلك من رؤية البحر وسطوح الفنادق . وشيئاً فشيئاً توقف المطر عن الهطول ، وهدأت الريح الباردة ، وكانت الشمس تشرق في كل مرة لدقائق معدودات .

تسلقت كتف الجبل ، وأصبح الطريق الآن يمر عبر ريف منبسط ، وأرض سبخة كثيرة الينابيع والجداول الجبلية الجميلة . هنا ينمو نبات الورديّة* بوفرة تفوق نموه في بلدي وتعلو الأشجار قامة الانسان بثلاث مرات ، وهنالك نبات فضي اللون يكسوه الفراء ، زهراته بيضاء اللون ، أعاد لي ذكرياتي عن ذلك النبات الجبلي ذي الأوراق البيض والأزهار الصغيرة النامية بين الصخور؛ وعثرت على الكثير من زهرات الغابة المألوفة إلا أنها جميعاً كانت مكبرة الحجم ومرتفعة على نحـو غريب وتحمل الخواص الجبلية والأشجار ،واضافة إلى ذلك، لا تبالي كثيراً هنا بالحدود التي يوقف البرد نموها عندها ، بل تنمو بصلابة شامخة بأوراقها الثقيلة نحو الأعالي الشاهقة .

وبينما كنت اقترب من آخر مرتقى في الجبل ، أخذ الطريق فجأة بالارتفاع مرة أخرى ، ما لبثت بعدها أن وجدت نفسي ثانية والغابة تحيطني ؛ غابة غريبة ، ساكنة ، ساحرة حيث الجذوع والأفرع تنجدل حول بعضها

---

* نبات الوردية: صنف نبات من الفصيلة الخلنجية.

كالافاعي ، تحدق بي على غير هدى من خلال أشواك الطحلب الطويلة السميكة الضاربة إلى البياض ، ومن خلالها كانت تعبق رائحة أوراق النباتات الرطبة اللاذعة وينتشر الضباب .

كان ذلك كله في منتهى الروعة ، ولكنه لم يكن حقاً ما تصورته سراً لنفسي ، وكنت قد بدأت أخشى أن يضيف اليوم صحوة جديدة من الأوهام الهندية إلى الصحوات السابقة الكثيرة . اقتربت الغابة من تخومها؛ فخطوت خارجاً منها منفعلاً متقطع الأنفاس ، فوق أرض بور كئيبة تشبه بعض مناظر الطبيعة في «أوسيان» ورأيت القمــة الجرداء قريبة مني يغطيها هرم صخري صغير . وكانت الرياح الباردة الشديدة تعصف في وجهي ، فأحكمت شد معطفي حول جسدي وتسلقت على مهل آخر مئة خطوة .

ربما لم يكن ما شاهدته في الأعالي هندياً بمعنى الكلمة ، ولكنه كان أروع وأنقى انطباع خرجت به من سيلان كلها . كنست الرياح منذ لحظات طول وادي «نوارا ايليا» كله ، وشاهدت منظومة سيلان الجبلية الشاهقة جميعها ، العميقة الزرقة الهائلة ، تتجمع في جدران جبارة ، يتربع وسطها الهرم الجميل الموغل في القدم والمقدس لـ *«قمة آدم»* . وعلى مقربة منه وعلى عمق ومسافة لا متناهيين امتد البحر الأزرق المنبسط ، بين ألف جبل وجبل ، وأودية عريضة ، ووهاد ضيقة ، وأنهار وشلالات ، في ثنايا لا حدود لها ، وجزيرة مكتظة بجبال أقامت الأساطير القديمة الجنة فوقها .

وفي الأسفل ، وعلى مبعــدة مني كــانت تتحرك مواكب هائلة من السحب ، تهدر راعدة فوق وديان منفردة ، وبرزت خلفي من الأعماق السوداء المزرقة سحب الضباب الممدودة . وغمرت كل الأشياء ريح الجبل الهادرة الرطبة ، الباردة ، وأخذت الكائنات القريبة والبعيدة تتجلى في الهواء

الندي مشبعة حتى الأعماق بانصهار الألوان العاصف كما لو أن هذه الأرض كانت الجنة بحق ، وقد هبط الانسان الأول بطوله الفارع وقوته من جبالها المتشحة بالأزرق والمحاطة بالسحب ، إلى الوديان .

كان لهذا المنظر الطبيعي البدائي وقع في نفسي أقوى من أي شيء وقعت عيني عليه في مكـان آخر مـن الهند . أشجـار النخيل ، وطيور الجنة ، حقول الارز ، معابد المدن الساحلية الغنية ، أودية الأراضي المنخفضة المدارية التي تموج بالفواكه ، كل هذه الأشياء إضافة إلى الغابة البدائية ذاتها كانت في غاية الفتنة والسحر ، ولكنها كانت على الدوام غريبة عني وغير مألوفة ، ولم تكن أبداً قريبة إلى نفسي أو لم أشعر أنها ملكي تماماً . هنا فقط ، في الهواء البارد والسحب المهتاجة للأعالي الرطبة صار واضحاً تماماً لي كيف أن كياننا وثقافتنا الشمالية تمتد جذورها كاملة في أراض رطبة مسلوبة الخصوبة ، جئنا وملؤنا الشوق إلى الجنوب وإلى الشرق ، مدفوعين بنوازع مبهمة وبهيجة للوطن . فوجدنا الجنة هنا ، فيها وفرة متنوعة غنية بجميع الهبات الطبيعية ، ووجدنا بشر الجنة بسطاء ومتواضعين ، يشبهون الأطفال في براءتهم . ولكننا نحن نختلف ، غرباء نحن هنا بلا مواطنة . ضيعنا الجنة منذ أمد بعيد ، وتلك الجديدة التي نأمل أن نمتلكها ونبنيها لن توجد فوق خط الاستواء أو فوق بحار الشرق الدافئة ، إنها تكمن في دواخلنا وفي ثقافة بلادنا الشمالية .

نزيل في المنتجع

١٩٢٤

استهـــلال

شعار: الكسل هو بداية نشوء علم النفس كله ـ نيتشه

يقال عن الشغابيين أنهم الوحيدون الذين يصلون إلى سن الرشد في الأربعين من عمرهم ،ولكنهم ما كانوا أبداً يمتلكون ثقة عالية بالنفس ، وكان هذا يشكل لهم في بعض الأحيان نوعاً من العار . ومع أن الأمر على العكس من ذلك ، فإنه لشرف عظيم ، لأن التعقل مطلوب في السلوك(رغم أنه لا يمثل شيئاً سوى ما يدعوه الشباب بـ «حكمة الشيخوخة» التي هي المعرفة بالتناقضات العظيمة ، وبسر دورة الحياة وقطبيها) ولا بد أن يكون وجوده نادراً جداً حتى بين الشغابيين ، رغم الموهبة التي قد يتمتعون بها ، وبين عموم الأفراد البالغين الأربعين مـن العمر . ومن ناحية أخرى ، ما أن يتجاوز المرء منتصف الأربعينات ، سواء كان موهوباً أم لا ، حتى تظهر تلك الحكمة أو رجاحة العقل واثقة من ذاتها ، لا سيما إذا كانت تعينها البوادر الأولية لشيخوخة الجسد عن طريق مختلف الانذارات وعلامات العجز ، ومن أكثر هذه الأمراض شيوعاً داء

النقرس ، والروماتزم ، وعرق النسا ، وهذه الأوجاع بالذات هي ما تجعلنا زبائن لحمامات بادن . فهذه البيئة ملائمة تماماً لطبيعة الذهنية التي انزلقت الآن فيها ، وكما يبدو لي ، ينساق المرء بآلية تامة ، تقوده *أصالة المكان*(١) إلى نوع من التقوى التي تنزع إلى الشك ، وإلى الحكمة الواضحة ، وإلى فن التبسيط الحاذق جداً ، وإلى مذهب بالغ الذكاء يجعله على النقيض تماماً من المذهب العقلي ، إضافة إلى أن دفء الحمامات ورائحة مادة الكبريت يشكلان جزءاً مميزاً من علاج بادن . ولكي أختصر الأمر أكثر ، فنحن نزلاء المنتجع ، المبتلين بالتهاب المفاصل ،نميل بشكل خاص جداً إلى تحويل حافات الحياة القاسية إلى حافات ملساء ، وإلى جعل حاصل جمع اثنين مع اثنين يساوي خمسة ، ولا نتعلق بالأوهام الكبيرة ولكن ، وبقصد التعويض فقط ، نميل إلى امتلاك وحماية مئات الأوهام الصغيرة المواسية . وما لم أكن مخطئاً ، فنحن« مرضى بادن» لدينا حاجة خاصة إلي معرفة التناقضات ، كلما زاد تصلب مفاصلنا ، زادت حاجتنا إلحاحاً لطريقة تفكير مرنة ، ذات وجهين وقطبين متضادين . فآلامنا هي آلام حقيقية ، إلاّ إنها ليست من ذلك النوع البطولي الأخاذ ، الذي يخوّل من يعاني منها لأن يعتبرها آلاماً ذات وقع مؤثر في النفوس ، دون المساس باحترامنا لأنفسنا .

ولو تحدثت كما لو أنني كنت أسمو بحياتي الشخصية وبطريقة تفكيري الإنسانية(٢) إلى نموذج وقاعدة عامة ، ولو تصرفت كما لو أنني كنت أتكلم هنا ليس من أجلي وحدي بل من أجل جماعة مسنة وطبقة كاملة من الناس ، ففي عملي هذا أنا مدرك تماماً ، على الأقل في هذه اللحظات ، بأنه كان خطأً

---

(١) genius loci عبارة لا تينية تعني المكان الأصيل .

(٢) متعلقة بمرض عرق الأنسا .

فادحاً. فليس بمقدور أي عالم نفسي ، ما لم يكن أخي لروحي وتوأمي ، أن يعتبر رد فعلي العقلي طبيعياً ونموذجياً إزاء محيطي والقدر . بل على العكس ، فبعد محاولة صغيرة منه لاكتشاف سريرتي ، سيسلم سريعاً بأني ذئب منعزل اتمتع بموهبة متوسطة وانتمي إلى عائلة الفصاميين ، إلا أني لست بحاجة إلى الإحالة لمستشفى الأمراض العقلية . ومع هذا فقد جنيت الفائدة بروية من الحق المشروع لجميع البشر ، وبضمنهم علماء النفس ، واسقطت طريقة تفكيري ، ومزاجي وافراحي وأحزاني ليس على الناس فقط بل كذلك على الأشياء وعلى أنظمة محيطي وكذلك على العالم كله . إن اعتبار افكاري ومشاعري صحيحةً ومقبولة هو فرحة لن اسمح أن تسلب مني ، رغم أن العالم من حولي يجاهد كل ساعة ليقنعني بخلاف ذلك ، نعم ، فأنا لا أفكر البتة كيف أن الغالبية ضدي ، بل أفضل أن اعتبرهم مخطئين بدلاً من أن أعتبرهم نفسي كذلك . والحالة ذاتها تنطبق على رأييّ بالشعراء الألمان العظام الذين لا أكن لهم احتراماً وحباً ، ولم استفد منهم أقل استفادة لأن الغالبية العظمى من الألمان الأحياء يفعلون العكس ويفضلون الصواريخ على النجوم ، والصواريخ جميلة ، الصواريخ ساحرة ، فلتحي الصواريخ! ولكن النجوم! التي تغمر العين والعقل بضيائهـــا الخافت ، وبالرنين الشاسع لموسيقاها الكونية ـ آه يا أصدقائي أن أمرها ، رغم كل شيء ، مختلف تماماً .

وحين شرعت ، أنا الشاعر قليل الشأن المتأخر الظهور ، بتخطيط إقامتي في المنتجع ، استحضرت في ذهني العديد من الزيارات إلى المنتجعات والرحلات إلى بادن التي سجلها الكتّاب الجيدون والرديئون ، وفكرت بسحر ورهبة بالنجمة المتوحدة بين الصواريخ ، وبقطعة النقد الذهبية بين الأوراق النقدية ، وبطائر الجنة وسط جميع العصافير . وخلاصة القول ، فكرت في

الزيارة القصيرة التي قام بها الدكتور كاشنبرجر إلى الحمامات ، بيد أني لم أدع هذه الأفكار تمنعني من أن أرسل صاروخي ليلاحق النجمة ، وأطلق عصفوري خلف طير الجنة . فحلّق إذن ، أيها العصفور وارتفع ، أيها التنين الورقي الصغير!

نزيل في المنتجع:

ما كاد قطاري يصل إلى بادن وما أن نزلت درجات العربة بشيء من الصعوبة حتى وقعت اسير سحر بادن. وفي أثناء وقوفي على رصيف المحطة الأسمنتي الرطب باحثاً عن حمال الفندق ، شاهدت ثلاثة أو أربعة من زملائي يترجلون من القطار نفسه ، من مرضى عرق الإنسا ، الذي كانت علاماته ظاهرة عليهم ، كالشد العصبي لعجيزاتهم والخطوة المرتبكة وتعابير الوجوه الباكية البائسة نوعاً ما والتي كانت تصحب حركاتهم الحذرة . وبالتأكيد كان لكل منهم خصوصية ، وطبيعة الألم الخاصةبه ، وبالتالي طريقته الخاصة في المشي ، والتردد ، والترنح ، والعرج ، وكان له أيضاً تعابير وجهه المميزة به ، ولكن يبقى الذي يجمعهم والغالب عليهم ، لدرجة أنني ميزتهم جميعاً من النظرة الأولى وهو أنهم مصابون بعرق الإنسا ، إضافة إلى كونهم إخوة وزملاء . وإذا حدث وألمّ بأي شخص أعراض مرض عرق الإنسا العصبي ، لا عن طريق الكتب المدرسية بل عبر التجربة الشخصية التي يسميها الأطباء «الحس الذاتي» فسوف يفهم ذلك بسرعة . توقفت مباشرة وأخذت أراقب هذه المميزات الواضحة ولاحظت كذلك ، أن كل ثلاثة منهم كانوا يشكلون وجوهاً أشد قبحاً من وجهي ، ويسندون أنفسهم بثقل أكبر فوق عكازاتهم ، ويرفعون أيديهم بتشنج أكبر ، ويحطون أقدامهم فوق الأرض بتردد وعدم رغبة تفوق حالتي . كان الجميع أكثر اعتلالاً مني ، وأكثر ارهاقاً ، ويعانون من آلام

أشد ويدعون للشفقة أكثر مني . وقد منحني ذلك عالماً ملائماً ظل طيلة أيامي في بادن مصدراً للتعزية لا ينضب ويتجدد باستمرار: فكل من حولي كانوا عرجاً ، يدبون ببطء ويتنهدون ويركبون كراسي المقعدين ، وجميعهم يفوقونني مرضـاً ، ولا يملكـون أي سبب للتمتع بمـزاج رائق أو شعور بالألم مثلمـا أملك أنـا ! .

في هذا المكان اكتشفت فوراً ومنذ الدقيقة الأولى واحداً من أعظم اسرار ومفاتن كل المنتجعات ، وقد صاحب اكتشافي هذا بهجة حقيقية وهي: «الرفعة في الألم»(١) .

غادرت المحطة والقيت نفسي في الشارع الذي ينحدر مباشرة صوب الحمامات . كانت كل خطوة أخطوها تؤكد وتغني هذه التجربة القيمة: ففي كل مكان كان المرضى يزحفون ، ويجلسون فوق المصاطب الخضراء بأجساد أمالها الأرهاق ، ويعرجون ، مارين في جماعات يعلو لغوها . امرأة تجلس فوق كرسي ذي عجلات ، وابتسامة تعبة ترتسم على وجهها ، تحمل في يدها العليلة زهرة نصف ذابلة ، بينما كانت الممرضة التي تدفعها من الخلف تفيض صحة وحيوية . سيد عجوز يخرج من أحد المخازن التي يبتاع منها مرضى الروماتزم بطاقاتهم البريدية المصورة ومنافض سجائرهم ومثقلاتهم(*) (والتي لا أستطيع أن أفهم أبداً ، لم يحتاجون الكثير منها) ـ هذا السيد العجوز الخارج من المخزن كان يحتاج إلى دقيقة كاملة لينزل كل درجة من السلم بعد أن يتطلع إلى الشارع الذي يمتد أمامه بنظرة الرجل المتعب ، غير الواثق وكأنه ينظر إلى مهمة ثقيلة القيت على كاهله ، وآخر ما زال شاباً يعتمر قبعة عسكرية ذات لون

---

(١) habere malorn جاءت هذه العبارة اللاتينية بعد عبارة« الرفعة في الألم» تأكيداً لها وهي تحمل المعنى نفسه .

المثقلة : شيء يوضع على الأوراق لمنعها من التطاير .

أخضر رمادي ، تغطي شعره الكث ، كان يشق طريقه إلى الأمام بقوة ولكن بجهد واضح رغم مساعدة العكازتين له . أوه ، بلى ، أنها الحقيقة عكازات في كل مكان ، عكازات مرضى مبتلين بآلام لعينة ، تنتهي بكعوب مطاطية عريضة تلتصق بالأسفلت مثل الطفيليات! ومن دون ريب ، حملت أنا أيضاً عكازاً ، مصنوعاً من خيزران مَلَـقَا الجميل ، وكانت مساعدة هذا العكاز تبعث فيّ السرور ، ولكن عند الضرورة كان بإمكاني أن أسير بدونه! ولم يحدث أن رآني أحد أحمل واحدة من هذه العصي ذات النهايات المطاطية المثيرة للشفقة!

كلا ، كان الأمر في غاية الوضوح ، ولا بد أنه لفت إنتباه كل من شاهد كيف كنت اتنزه بكل نشاط ورشاقة في هذا الشارع المبهج ، وكيف استعمل عكاز مَلَقا بعبث واعتمد عليه قليلاً ، أداة الزينة الخالصة ، المزخرفة هذه وكم كانت العلامة الفارقة لعرق الأنسا غير حادة ولا تسبب لي أي أذى ، كان انكماش الفخذ العصبي ، ورغم وضوحه لا يكاد يلمح ، أثر طفيف لا غير ، وكم كانت هيئتي بوجه عام عندما أسير في الشارع منتصبة وطبيعية ، وكم كنت يافعاً أفيض صحة مقارنة بكل أولئك الإخوان والأخوات الأكبر سناً ، والأكثر مدعاة للرثاء والأكثر اعتلالاً ممن كانت أمراضهم ظاهرة ، بادية للعيان بشكل كبير على نحو لا رحمة فيه! كنت اتنفس الامتنان ، وازدرد الثقة في كل خطوة اخطوها ، فقد شعرت تواً بأني قد تحسنت تقريباً ، أو على الأقل أحسن بكثير من كل هؤلاء المساكين . نعم ، لو أنّ أنصاف المقعدين هؤلاء ، العرج ذوي العكازات ذات النهايات المطاطية ، لم يفقدوا الأمل في العلاج ، ولو كان باستطاعة بادن أن تعينهم ، لتلاشى مرضي الأولي الضئيل هذا مثل الثلج حين تهب عليه رياح الجنوب ، ولوجدني الطبيب حقاً عينة جيدة ، وظاهرة ذات نفع كبير ، ومعجزة صغيرة للقدرة على الشفاء .

كنت أنظر بعطف إلى هذه الكائنات المستفزة ، مفعماً بالتعاطف والإرادة الطيبة . ها هي امرأة عجوز تخرج وهي تتدحرج من مخزن بيع الحلويات ، ومن الواضح أنها توقفت منذ زمن بعيد عن محاولة إخفاء عجزها ، وامتنعت عن إصدار أبسط حركة لا إرادية ، واستفادت فائدة قصوى من كل مخفف للآلام ممكن أن يخطر على البال ، ومن أي تحريك ممكن للعضلات المساعدة ، ولهذا كافحت وتوازنت وانزلقت إلى الأمام مثل اسد بحر يعبر الشارع ولكن بتمهّل أكثر . ابتهج قلبي لمرآها ، هللت لها وباركت أسد البحر ، باركت بادن وحالتي المحظوظة .

فقد وجدت نفسي محاطاً من كل مكان برفاق مكافحين ، ومتنافسين كنت أتفوق عليهم إلى حد بعيد . كم كنت محظوظاً حين جئت إلى هنا في الوقت المناسب . فما زلت في المرحلة الأولى من مرض عرق الأنسا الخفيف ، وما زلت أحمل الأعراض الأولية غير الواضحة لالتهاب المفاصل الأبتدائي! وحين استدرت متكئاً عل عكازتي ، تتبعت عيني أسد البحر لوهلة شاعراً بالرضا الأليف يغمرني ، والذي اثبت لي أن اللغة ما زالت عاجزة لحد الآن عن التعبير عن الفعاليات النفسية ، لأن الأضداد اللغوية هنا ، الحقد والتعاطف ، متحدّة بعمق كبير . يا آلهي ، يا للمرأة المسكينة فالحال يمكن حقاً أن يبلغ هذا السوء .

إنها الحقيقة ، فحتى في هذه اللحظة المتقدة بالسعادة السامية ، وحتى عند الشعور الرائع بالنشاط والخفة لساعة طيبة من الزمن ، لم يكن ذلك الصوت المزعج في داخلي صامتاً تماماً ، الصوت الذي لم أكن راغباً أبداً في سماعه . أنه صوت العقل ، الذي ذكرني بنبرته الباردة الكريمة ، بكل رقة وبشكل مؤسف أن مصدر راحتي كان مجرد هفوة ، ونهجاً خاطئاً: فقد كنت سعيداً

وأنا اقارن نفسي ، أنا الأديب الأعرج الذي يحمل عصاه من مَلَقا ، بكل أعرج آخر ومقعد حالته سيئة ، وبكل شخص يتمايل ، ناسياً أن آخذ في اعتباري سلسلة الأعراض اللامتناهية الممتدة في الاتجاه المعاكس لحالتي ، ودون أن أميزّ كل أولئك الأشخاص الذين كانوا أصغر سناً ، وقاماتهم أكثر اعتدلاً ، وأكثر صحة ونشاطاً مني ، أو بشكل أدق ، كنت قد لاحظتهم إلاّ أني رفضت أن أعقد أية مقارنة بيني وبينهم؛ وفي الواقع ، كنت خلال اليومين الأولين مقتنعاً تماماً بأن كل هؤلاء الناس ذوي الهيئات القانعة ممن كنت أشاهدهم يتجولون في المكـــان دون عكازات ، ودون أي عرج أو ترنح ظاهر ، لم يكونوا إخوة زملاء ، ولم يكونوا مرضى ومتنافسين ، بل كانوا سكان المدينة الطبيعيين والأصحاء ومن المحتمل أن يكونوا هنالك أيضاً مرضى عرق الأنسا ممنّ كان بإمكانهم أن يتقدموا دون معونة عكازات ، وأن يسيروا بلا حركات تشنجية ، لأن آلام الكثير من مصابي التهاب المفاصل ، لا يمكن أن يدركها أي امرىء ، حتى لو كان عالماً نفسانياً عند التطلع إليهم في الشارع . وعلى أية حال كنت بمشيتي المتمايلة بعض الشيء وعكاز مَلَقا الذي أتكىء عليه في المرحلة الإبتدائية غير المؤذية من المرض الأيضي[1] . وإذا كنت قد أثرت أن أحسد أعرج ومقعد حقيقيين ، فقد حصلت أنا أيضاً على عطف باعث على السخرية من الكثير من الزملاء الذين لم أكن في نظرهم سوى أسد بحر يتمتع بالراحة . وباختصار لم أتوصل بمراقبتي الحادة لدرجات الألم إلى كشف موضوعي بل بالأحـــرى إلى خداع ذاتي متفائل ـ وقد توصلت إلى هـــذا الإدراك عبر طريقي اليطيء المعتـــاد وبعد أيام عديـــدة لا غيـــــر .

(١) الأيضي: متعلق بالأيض: مجموع العلميات المتصلة ببناء البروتوبلازما ودثورها .

حسناً ، لقد تمتعت منذ اليوم الأول بهذه السعادة حتى الثمالة وانغمست في طقوس معربدة لتأكيد الذات الساذج ، وقد أفادني ذلك . لفت انتباهي هيئة رفاقي نزلاء المنتجع واخوتي الأكثر اعتلالاً وهم يترنحون بسيرهم في أرجاء المكان ، وأرضى كبريائي مظهر كل مقعد ، وأثار فيّ كل كرسي صادفته. أمامي للمقعدين ، تعاطفاً أشاع البهجة في نفسي ، والشعور بالرضا عن الذات كنت أتمشى على طول الشارع ، الذي يتمايل فوقه المرضى القادمون من المحطة ، والذي يمتد بشكل مريح جداً ومرضٍ للغاية بتموجات خفيفة ومنحدرات متسقة بانسجام إلى الحمامات العتيقة ، حيث هناك في الأسفل يتيه في المداخل المفضية إلى فنادق المنتجع ، مثل نهر تبتلعه الرمال . اقتربت من هايليجنموف ، حيث عزمت على الاستقرار ، ممتلئاً بالقرارات الجيدة والتوقعات السارة ، لم يكن الأمر ليتعدى مسألة احتمال الوضع هنا لمدة ثلاثة أو أربعة أسابيع ، والاستحمام يومياً ، المشي قدر الأمكان ، والابتعاد عن الانفعال والقلق قدر المستطاع قد يصبح الحال رتيباً في بعض الأحيان ، وقد تكون ثمة لحظات ضجر ، فما ينصح به هنا ، هو نقيض الحياة المكثفة . وبالنسبة لي ، أنا الناسك القديم ، فإن حياة القطيع وحياة الفندق مقيتة للغاية وفي منتهى الصعوبة ، فهناك بعض الإزعاجات التي عليّ تقبلها وبعض الأمور المنفرة التي يجب التغلب عليها . ولكن من دون شك فإن هذه الحياة الجديدة غير المألوفة لي تماماً ستحمل معها تجارب ممتعة ومشوقة ، رغم كونها حياة تميل إلى أن تكون برجوازية ، ذات ملامح ممسخوة بعض الشيء - فبعد أعوام من الوجود المسالم ، البريء ، المنعزل ، ومن الإقامة في الريف المكرسة للدراسة ، ألم أكن حقيقة بأشد الحاجة إلى الاختلاط بالناس مرة أخرى لفترة من الزمن؟ والأمر الرئيسي: فوراء الصعوبات ووراء أسابيع العلاج التي ابتدأت تواً ، يكمن يوم

سنرحل فيه عن هذا الفندق وارتقي بخفة نفس هذا الشارع ، اليوم الذي سأكون فيه متجدد النشاط خالياً من الأمراض ، وسأودع الحمامات وبحركة مرنة لركبتي ومفاصل وركي أتقافز في هذا الشارع الجميل صوب المحطة .

ومع هذا ، فقد وقع أمر سيء جدا ، فما أن دخلت هايليجنهوف حتى بدأ مطر ناعم بالهطول . فبادرت الشابة الجالسة خلف الطاولة بتحيتي بطريقة ودية بالقول: «إنك لم تجلب معك طقساً حسناً» .أجبت بارتباك «كلا» ، ولكن ما معنى ذلك ترى ، هل من المعقول أنه أنا هو من جعل حبات المطر هذه تتساقط وأنا الذي خلقها وجلبها معه؟ وإن الطريقة الصائبة في الحكم على الأشياء التي تناقض هذا الأمر لا يمكنها أن تبرئني ، أنا اللاهوتي المتصوف . حقاً ، فمثلها كان القدر والطبيعة الشخصية ، اسمين لفكرة واحدة ، ومثلما اخترت وكونت في معنى من المعاني اسمي ومركزي ، وعمري ، ووجهي ، وعوق أنساي ، ينبغي أن لا أدع أي شخص عداي يتحمل المسؤولية ، وعلى الأرجح فإن هذا الأمر ينسحب على المطر كنت مستعداً لآخذ المسؤولية على عاتقي .

بعد أن قلت ذلك للسيدة الشابة وملأت استمارة التسجيل ، خضت وحدي تلك المفاوضات حول الغرفة التي سأقيم فيها ، التي لم يجربها الانسان العادي ولا يملك الشخص البسيط القانع أية فكرة عن الرعب الذي تسببه ، ولا يعرف مأساتها الكلية سوى الناسك والكاتب الذي اعتاد الوحدة والهدوء العميق ، ومن عانى الأرق ووجد نفسه ملقى في فندق غريب لا حول فيه ولا قوة .

فاختيار غرفة فندق ، للشخص السوي عمل تافه مبتذل ليس له صلة على الإطلاق بالمشاعر ومن الممكن أن يتم خلال دقيقتين . أما الذين على شاكلتنا ، نحن العصابيين ، المصابين بالأرق والمضطربين ، فإن هذا العمل العادي مثقل

بشكل لا يصدق بالذكريات ، والمشاعر ، والفزع من المجهول إلى حد الاستشهاد . ونتيجة لترددنا وطلبنا الملحاح أوصى مدير الفندق الكريم موظفة الإستقبال المتعاطفة معنا «بغرفتهم الهادئة» دون أن يكون لهما علم بعاصفة تداعيات الأفكار والمخاوف والتهكمات وسخرية الذات التي أثارتها هذه العبارة القدرية القاتلة في دواخلنا . آه ، كم كانت محددة ـ وشديدة الدقة ، وكم كانت عميقة بشكل مخيف معرفتنا بهذه «الغرف الهادئة» محطات لأشد اوجاعنا ألماً ، وأكثر خيباتنا ثقلاً ، وأعمق ما نشعر به من مهانة سرية! كم كان مزيفاً وخادعاً ، وشيطاناً منظر ذلك الأثاث الودي وهذه السجادات ذات النوايا الطيبة وورق الجدران المبهج للنفس! ويا للتكشيرة المهلكة حد الموت التي تكسو سحنة ذلك الباب المتربس المتصل بالغرفة المجاورة ، والذي كان موجوداً لسوء الحظ في معظم الغرف ، مدركاً بشكل عام دوره الشرير ، ولذا فهو يختبيءخجولاً خلف سجادة الزينة المعلقة على الجدار! وأي تعبير مؤلم ومذعن اتخذناه ونحن ننظر إلى سقف الغرفة الكلسي ، الذي كان دوماً في لحظة النظر اليه يتكلف الابتسام بصمت وخواء ، فقد كانت تتردد أصداء وقع خطوات من يعيشون فوق ـ آه ، ولم تكن الخطوات فحسب فهي مألوفة لنا ، لذلك لم تكن أسوأ عدو! كلا ، ففوق ذلك السطح الأبيض البريء وفي ساعة باعثة على اليأس ومن خلال ذلك الباب الضئيل والجدار فقط تتناهى قرقعات ، واهتزازات لا يمكن تصورها ، جزم تلقى أرضاً وعكازات تسقط ، ورعود إيقاعية جبارة(وهنا أشير إلى التمارين الصحية) ، وكراسي تتقلب ، كتاب أو قدح يسقط من طاولة ليلية ، وصناديق ثياب وأثاث تتحرك .

وهنالك أيضاً الأصوات البشرية ، والحوارات والمناجاة الذاتية ، والسعال والضحكات وشخير النيام! وأكثر من ذلك ، وأسوأ مما ذكرت ، أصوات

الحفيف المجهول الذي يتعذر تفسيره ، تلك الأصوات الغريبة الشجية التي لم نستطيع تأويلها ، ولم يكن بإمكاننا أن نخمن مصدرها والمدة التي يحتمل أن تستمر فيها ، هذه الأوراح التي تمشي بخطى خفيفة والتي تدور وتصدر كل تلك الأصوات من الطقطقة والتكتكة والهمس والنفخ والازدراد والخشخشة والتنهد والفرقعة والنقر والاهتياج ـ الله يعلم أية اوركسترا خفية محتشدة يمكن أن تختبيء في الأمتار المكعبة القليلة لغرفة الفندق .

هكذا كان اختيار غرفة نوم لأمثالنا مسألة دقيقة للغاية ومهمة ، وهو في الوقت نفسه عمل لا أمل فيه تماماً .

وينبغي أن يوضع له في الحسبان عشرون أو مئة احتمال . كان مصدر المفاجآت الصوتية في إحدى الغرف هو الخزانة الجدارية ، وفي الغرفة الأخرى مزامير القرب ، وفي الثالثة جار يعزف على الة الأكرينة(*) . وبما أن كل التجارب قد أثبتت أنه لا يوجد غرفة واحدة في العالم يمكن أن يضمن فيها الإنسان توقه للسكون والنوم الهادىء ، وبما أن الغرفة التي تبدو أنها الأكثر هدوءاً من نظيرتها تخفي مفاجآت (ماذا كان سيصبح الحال عليه لو لم استقر في غرفة الخدم التي تقع في اقصى الطابق الخامس كي أكفل عدم وجود ما يعكر صفو الهدوء فوقي أو جواري ، لأكتشف أن فوق رأسي عليّة تصدر صريراً ، مليئة بالفئران؟ ، إذن ألا يكون من الأجدر بالمرء في آخر الأمر أن يكف عن الاختيار كله ، وبكل بساطة يسلم أمره منذ البداية إلى القدر تاركاً الحظ يتحكم فيه؟ وبدلاً من أن يعذب نفسه ويقلقها ، ويتلبسه الحزن والخيبة بعد مضي ساعات معدودات لا غير بسبب ما هو محتوم . ألا يكون الوضع أكثر ذكاءً لو يترك القرار إلى الصدفة العمياء ويأخذ أول غرفة تعرض عليه؟

(*) الأكرنية: آلة موسيقية بسيطة من آلات النفخ.

بالتأكيد سيكون ذلك أكثر ذكاءً .

إلاّ إننا لا نأخذ بذلك ، أو بالأحرى نادراً ما نفعله ، فلو كان للذكاء وتجنب الانفعال أن يحكما تصرفاتنا جميعها فكيف سيكون عندها شكل الحيـــاة ؟

ألسنا موقنين أن قدرنا هو أمر غريزي لا مفر منه ، ألاّ نتشبث رغم ذلك بشكل عاطفي بوهم الاختيار والإرادة الحرة؟ ألا يكون اختيار المرء لطبيب يعالج أمراضه ولحرفة يمتهنها ومكان لسكناه ، وانتقائه لعروس اثيرة على قلبه ، هو ذات الأمر ، وربما أوفر نجاحاً لو ترك التصرف للصدفة المحضة ـ ألم يختر الشيء نفسه ،ألم يكرس قدراً كبيراً من العاطفة ، والجهد ، والعناية لكل هذه الأمور؟ ربما هو يفعل ذلك بسذاجة ، مؤمناً بحماس طفولي في قوته الذاتية ، ومقتنعاً بأنه يمكن أن يكون للقدر تأثير عليه؛ أو من المحتمل أنه يقوم بهذا بدافع الشك ، مقتنعاً في أعماقه بعبث جهوده ، ولكنه في الوقت نفسه موقن أن العمل والجهد ، والاختيار وعذاب النفس هي أفضل وأكثر حياة ، وأكثر جاذبية ، أو على الأقل أكثر متعة من التحجر في الاستسلام بإذعان . هذا ما فعلته بالضبط في بحثي الأحمق عن غرفة رغم قناعتي العميقة بعدم جدوى وخواء فعلي الأخرق ، وهكذا واصلت نقاشاتي الطويلة مرة بعد أخرى حول الغرفة التي سأختارها ، مذكراً نفسي بكل وعي ، بالجيران والأبواب ، والأبواب المزدوجة ، وحول هذا وذاك . إنها لعبة كنت ألعبها ، ورياضة ازج نفسي فيها ، كلما تعاملت مع هذه الأسئلة الصغيرة والعادية ، أسلم نفسي إلى وهم اللعبة ، وقواعدها الخيالية التي تقول إن الأشياء من هذا النوع هي أشياء سهلة المنال بوجه عام وتستحق التدبير المنطقي . وفي عملي هذا ، تصرفت بنفس مهارة أو غباء طفل يشتري قطعة حلوى ، أو مقامر يضع رهانه وفق نظام

حسابي ، كلنا نعرف أننا في مثل هذه المواقف نواجه الصدفة المحضة ، ومع هذا نتصرف بدافع حاجة نفسية عميقةكما لو أنه من غير الممكن وجـود أمر كالصدفة ، كما لو أن كل شيء في العالم كان خاضعاً لحكمنا المتوازن وسيطرتنا .

لذا ناقشت بالتفصيل مع الشابة اللطيفة كل ما يخص أمر الخمس أو الست غرف الخالية . كانت إحداهن تجاور كما عرفت غرفة يشغلها عازف كمان ، يتدرب لمدة ساعتين كل يوم ـ لا بأس فعلى الأقل كان هذا أمراً محدداً بوقت ، حاولت جاهداً في الخيار الآخر أن أجد مكاناً يبعد أكبر مسافة ممكنة عن تلك الغرفة والطابق .

وعلى أية حال ، كنت أملك فيما يخص حالات واحتمالات الأصوات الصادرة عن الفندق حاسة وقدرة على التنبؤ ، ربما لا ينظر إليها المهندسون المعماريون بنفس الأهمية التي أراها فيها ، باختصار فعلت ما كان ضرورياً ، وما كان عقلانياً ، وتصرفت بحذر وبوعي ، وبالطريقة التي ينبغي للعصابي سلوكها عندما يختار حجرة نوم ، وبالنتيجة المتوقعة التي قد يعبر عنها بشيء كهذا بالطبع ، لم تجد نفعاً وكان عليّ أن أواجه في هذه الغرفة نفس الإزعاجات والخيبات الموجودة في الغرف الأخرى ، ولكنني رغم هذا أشعر أنني قد أديت واجبي ، وتحملت العبء أما الباقي فسأتركه بين يدي الله . في نفس الوقت قال الصوت الآخر الأكثر رقة في أعماقي كالمعتاد: « ألم يكن من الأفضل أن تترك الأمر كله إلى الله وتكف عن هذا التمثيل؟» مع أنني أصغيت إلى الصوت كعادتي ، إلاّ أنني لم أسمعه ، وقد حدث الإجراء بصورة مقبولة فقط لأني كنت في مزاج رائق ، ورأيت برضا صندوق ثيابي الخيزراني مختفياً في رقم ٦٥ ، ومضيت في طريقي فقد كان هذا وقت زيارتي للطبيب .

ولكن مهلاً ، ثمة أمور أخرى سارت مساراً طيباً أيضاً ، وحين أتأمل الأحداث التي مرت بي يمكنني الاعتراف أن شيئاً من الخوف كان ينتابني حول إمكانية نجاح هذه الزيارة ، ليس لأني أخاف بعض التشخصيات المفزعة للمرضى ، وإنما لأن الأدباء ، حسب اعتقادي ينتمون إلى المرتبة الروحية؛ وأرى أن لهم مكانة راقية بين البشر ،وأصاب بأسى عميق لأية خيبة يسببونها لي وربما كنت اتقبلها بكل بساطة من قاطع تذاكر في سكة حديد أو من موظف في بنك أو حتى من محام ، أما من طبيب فهذا شيء آخر ، لانني اعتقد أن في الطبيب ، ولا أعرف بالضبط السبب في ذلك ، بعض آثار تلك الفلسفة الإنسانية التي تنتمي إليها المعرفة اللاتينية والإغريقية ، ونوعاً من التحضيرات الفلسفية التي لم تعد تتطلبها معظم المهن الأخرى في يومنا الحاضر . وكنت بهذا الشأن ، أنا الممتلىء حماسة في العادة لكل ما هوجديد وثوري ، محافظاً تماماً ، أطالب الفئات المثقفة ثقافة عالية بمثالية معينة ، واستعداداً ما لفهم وتفسير الفائدة المادية باستقلالية تامة باختصار كنت أطالبهم بشيء من الإنسانية ، رغم معرفتي أن هذه الإنسانية لم يعد لها وجود في الواقع ، وحتى أن ممثليها لن يوجدوا بعد حين إلاّ في التماثيل الشمعية .

بعد انتظار قصير ، اقتدت إلى غرفة جذابة جداً ومزخرفة بشكل يدل على ذوق انعشت فيّ مباشرة شعوراً بالثقة . بعد أن توقفت طرطشة الماء المألوفة في الغرفة المجاورة ، دخل الطبيب الذي كان ذا وجه ذكي يعد بالتفهم وصافحنا بعضنا بشكل ودي يليق بملاكمين دمثين قبل بدء المباراة . إبتدأنا المعركة بحذر ، كل يحاول سبر غور الآخر مختبرين ضرباتنا الأولى باحتراس . كنا ما نزال فوق أرض حيادية ، ونقاشنا يدور حول التغييرات الكيميائية في الخلايا الحية للجسم ، وحول التغذية ، والعمر ، والمرض المبكر ، والتعرق غير المؤذي . وما هي إلاّ كلمات محددة تلك التي التقت عندها نظراتنا لتكشف

عن تأهب للنزال . كان في حوزة الطبيب عدد من مصطلحات لغة الطب السرية التي لم أكن أستطيع فك رموزها إلاّ بشكل غامض ، ولكنها ساعدته فعلياً في جعل تفسيراته أنيقة وقوّت موقعه على نحو ملحوظ في مواجهتي . إلاّ أنه وبعد دقائق قليلة صار من الجلي أمامي أنه لم يكن ثمة داع للخوف مع هذا الطبيب، من تلك الخيبة المرعبة التي كانت تسبب ألماً فظيعاً لأشخاص على شاكلتي ، وبالأخص مـــع أطبائهم: فخلف المظهر الكاذب الآسر للذكاء والثقافة ، يفاجأ المرء بعقائدية صارمة تفترض منذ العبارة الأولى أن وجهة نظر المريض ، وطريقة تفكيره ، والمفردات التي يستعملها ما هي إلاّ ظواهر ذاتية محضة بينما يمتلك كل ما يقوله الطبيب شرعية موضوعية كاملة . كلا ، فهنا كنت اتعامل مع طبيب يستحق عناء الصراع من أجل الوصول إلى تفاهم معه . فهو لم يكن ذكياً فقط بالمعنى الحرفي للكلمة وإنما كان حكيماً إلى درجة يساء تقديره فيها حتى الآن ، فقد كان يمتلك شعوراً قوياً قياساً إلى كل القيم الفكرية. يحدث بين الأشخاص المثقفين والناضجين باستمرار أن يفهم أحدهم ذهنية ولغة وعقائدية ومثيولوجيا الآخرين على أنها أمور ذاتية ، ومجرد قيم نسبية ، ومحض تشبيهات عابرة . ولكن على كل فرد أن يتوصل إلى هذا الإكتشاف المتعلق به ويطبقه على نفسه ، ويمنح نفسه مثلما يمنح خصمه الحق في أن يتبع السلوك المحتوم الذي تمليه عليه ذاته وطريقة تفكيرة وحديثه . أي ينبغي لأي شخصين يتبادلان الأفكار ، أن يبقيا دوماً بفعلهما هذا واعيــين لهشاشة أدواتهما ، وغموض جميع الكلمات ، وإستحالة التعبير الدقيق الصادق إضافة إلى ضرورة الإستسلام الكامل للذات ، والإحتراس المتبادل العميق والشهامة الفكريـــة .

هذا الموقف الرائع ، الذي ينبغي حقاً أن يصبح ممكناً كضمانة بين

الشخصيات المفكرة ، يحدث فعلاً بندرة مخيفة للغاية حتى أننا نبتهج في أعماقنا لأي إقتراب منه ، أو حتى لأي إدراك جزئي له . وفي حضرة إختصاصي الأمراض الباطنية هذا ، توهج فجأة شيء يشبه إمكانية حدوث مثل هذا الفهم وهذا التبادل .

ظهرت نتائج تحليلات الدم وأشعة إكس (X) مطمئنة . القلب طبيعي ، التنفس رائع ، ضغط الدم هادىء جداً . ومن ناحية أخرى ، بانت علامات جلية لعرق الأنسا ، وقليل من ترسبات التهاب المفاصل ، وحالة تبعث على شيء من الأسى للجهاز العضلي كله . ثم اعقبها وقفة قصيرة لحديثنا بينما كان الطبيب يغسل يديه للمرة الثانية .

وكما هو متوقع ، كانت هذه الوقفة نقطة تحول ، تركنا الآن المنطقة المحايدة ، وبدأ نظيري الهجوم حين سألني بنبرة حذرة وبلا مبالاة واضحة:

ـ ألا تعتقد أن مصدر آلامك قد يكون ـ جزئياً الحالة النفسية؟ ها قد عدنا ، وحدث ما توقعته وعرفته مقدماً . فالنتائج الموضوعية لم تبرر بما يكفي إدعاءاتي الألم ، ثمة شك هنا بشكل زائد في رهافة الشعور ، وردود أفعالي الشخصية لآلام التهاب المفاصل لم تتوافق مع الردود الطبيعية المتوقعة ، لذا اعتبرت مريضاً بالعصاب ، حسناً ، وتنتهي المعركة عند هذا الحد .

وبنفس الحذر واللامبالاة ، بينت للطبيب بأني لا أؤمن بدور العامل النفسي الجزئي في حدوث الآلام والأمراض . ففي علم الأحياء وعلم الأساطير الخاص بي يكون «العامل النفسي» نوعاً من العوامل المساعدة التي تضاف إلى العوامل الجسدية وإنما يكون هو القوة الرئيسية ،ولهذا اعتبر أن كل حالة في الحياة ، وكل شعور بالفرح والحزن وكذلك كل مرض وكل سوء حظ نصادفه ، والموت كلها منشأها النفس ، وتنبع من الروح . فلو تفاقم الالتهاب

حول مفاصل إصبعي ، فروحي هي السبب ، مبدأ الحياة المبجل ، الـ «هي» التي في داخلي ، التي تعبر عن نفسها في مادية مطواعة فلو تألمت الروح ، فلها أن تعبر عن ذلك بطرق شتى فهي إذا ما أخذت عند شخص ما صيغة الحامض البولي المتهيء لتفسيخ «الأنا» ، فلها أن تحقق الغرض نفسه عند آخر عبر إدمان الكحول ، وهي عند ثالث يمكن أن تتجمد على شكل أونص من الرصاص تهشم على حين غفلة داخل الجمجمة ، في الوقت نفسه أجدني قد سلمت بوجوب اقتصار مجمل احتمالات المساعدة التي يقدمها الطبيب في معظم الحالات على حصر التغييرات المادية أو الثانوية ومقاومتها بنفس الطرق المادية .

وحتى هذه اللحظة كنت لا أزال أضع في اعتباري إحتمال أن يتخلى الطبيب عني في وقت الشدة ، وبالتأكيد لن يقولها لي بصراحة: «سيدي العزيز ، إن ما قلته هو الهراء بعينه» . بل من المحتمل أنه سيوافق وعلى وجهه ظل ابتسامة مجاملة يراعي فيها مشاعري ، وربما سيتفوه بشيء تافه عن تأثير المزاج ، على روح الفنان بشكل خاص . وعلاوة على هذه المناقشة المطولة ربما سيلقي أيضاً بعبارة بغيضة« قيم يصعب التكهن بها» وستكون هذه العبارة هي المحك ، الميزان الدقيق لقياس الصفات الروحية ، والتي يصفها رجل العلم العادي بأنها«قيم يصعب التكهن بها» . فهو يستخدم دائماً هذه العبارة المريحةعندما يتعلق الأمر بقياس ووصف مظاهر الحياة ، والتي لا تبدو أزاءها أساليب القياس المادية الحالية في منتهى البدائية فحسب ، بل ولا تضاهيهابأي حال عزيمة ومقدرة المتكلم . وفي الحقيقة أن ما يعرفه العالم الطبيعي عموماً قليل جداً؛ فمن بين الأشياء الأخرى التي يجهلها هو أنه توجد لهذه القيم الزائلة والمتغيرة على وجه التحديد والتي يدعوها«بالقيم التي يصعب التكهن بها» ، خارج حدود العلم الطبيعي ، أساليب للقياس والتفسير قديمة ومتطورة للغاية ، ويجهل كذلك أن جميع المآثر

التي قدمها كل من توما الأكويني(*) وموزارت كانت تتمثل ، كل في لغته الخاصة وبدقة متناهية ، في تلك الأمور التي توصف بأنها «صعبة التكهن» .

هل كنت أتوقع من طبيب منتجع هذه المعرفة الحاذقة ، رغم أنه قد يكون لا يضارع في مجال اختصاصه؟ نعم كنت أتوقع ذلك ، فأنا رغم كل الأشياء لم أكن محبطاً ، لأنه كان يتفهمني . لقد أدرك هذا الرجل أنه لم يكن في حضرة عقيدة غريبة ، وإنما كان أمام لعبة ، وفن وموسيقى ، حيث لم يعد ثمة وجود لمنافسة أو تساؤل فيما إذا كان المرء على حق ، بل وجود صدى إما متجاوب أو غيابة . ولم يفشل ، فقد فهمني وتعرف عليّ ، ليس لأنني على صواب ، بالطبع ذلك شيء لم اتمنّ حدوثه مطلقاً ، وإنما لكوني باحثاً ومفكراً وقطباً مضاداً وزميلاً يمتلك ملكة عقلية مختلفة بعيدة كل البعد عن مجاله ، لكنها تساويه في الكفاءة .

ارتفعت معنوياتي إلى أعلى مراحلها الآن ، بفضل نتائج اختبارات ضغط الدم والتنفس ، فليكن كيفما يشاء الجو الممطر ، وعرق الأنسا والعلاج ، فأنا لم أسلم من نفسي الى البرابرة ، بل كنت في حضرة إنسان ، وزميل ، ورجل ذي عقل مرن قادر على التمييز! وهذا لا يعني أني كنت أعوّل على تكرار الحديث معه في المدى البعيد ، أو تبادل الرأي معه حول المشاكل ، ابداً ، فلم يكن ذلك مهماً ، رغم أنه يبقى احتمالاً لطيفاً؛ كان يكفي أن هذا الرجل هو الذي منحته أن يفرض سلطته عليّ لفترة من الوقت ، وكان عليّ أن أثق به لأنه في رأيي يحمل ديلوما في النضج الإنساني . سأدع الطبيب لهذا اليوم يستمر في اعتباري مريضاً يتمتع بحيوية فكرية ، وإن كان لسوء الحظ عصابياً بعض

---

* توماس أكويناس - (١٢٢٥ - ١٢٧٤): - راهب فيلسوف ولاهوتي إيطالي ، وضع مذهباً فلسفياً يعرف بـ «التومائية» .

الشيء؛ وبإمكاني تصور مجيء الساعة التي سيتفحص فيها بفضول الطابق العلوي من صرحي حيث ستشتبك معتقداتي وفلسفتي الذاتية جداً في مناورة ومنافسة مع معتقداته وفلسفته . ومن يدري ربما ستخطو نظرتي حول العصاب المبنية على ما جاء به نيتشه وهامسون(١) خطوة إلى الأمام ، ولكن لا يهم ، فلم يكن ذلك شديـد الضرورة . فشخصية العصابي لا ينظر إليها كشخصية مريض ، برغم الألم الذي يقاسيه ، بل حالة تسام إيجابية للغاية ـ وهذه كانت فكرة جميلة . ومع هذا ، فإنه من المهم جداً أن يعيش الحالة بدلاً من وضعها في صيغ . ودعت الطبيب وأنا أشعر بالرضا ومزود بعدد من وصفات العلاج الطبية . كان الجدول في مفكرتي يعطي التوجيهات التي يجب أن أباشر بالتزامها غداً في الصباح الباكر ، ويعد بكل أنواع استعادة الصحة والأشياء المسلية: كالحمامات ، وجرعات الدواء ، والعلاج بالإنفاذ الحراري ، ومصباح الكوارتز ، والرياضة البدنية العلاجية . وبذا لن يكون ثمة متسع للشعور بالضجر .

كان الفضل في جعل يومي الأول في المنتجع يصل إلى ذروته في ظهيرة جميلة يعود إلى مضيفي . وفي العشاء أصبت بالدهشة وأنا أجد نفسي أمام وجبة كريمة احتفالية تضم أطعمـة شهية لم أتذوقها منذ أعوام ، مثل طبق نيوكي (٢) مع كبد دسم ، واليخنة الإيرلندية ، ومثلجات الفراولة . وفيما بعد جلست مع صاحب الفندق نتبادل الأحاديث الشيقة أمام زجاجة من النبيذ الأحمر ، في غرفة أنيقة وقديمة وحول طاولة أثرية من خشب الجوز . وقد

(١) كنوت هامسون: - (١٨٥٩ - ١٩٥٢) روائي وكاتب مسرحي وشاعر نرويجي . يعتبر أبرز زعماء الثورة الرومانتيكية المحدثة في النرويج

(٢) نيوكي - طبق إيطالي من الملفوف والجبن .

استمتعت باكتشاف صدى سريع الاستجابة في رجل غريب ، من أصل مختلف ومهنة مختلفة وطموح وأسلوب في الحياة مختلفين . سعدت لأنني كنت قادراً على مشاركته اهتماماته وافراحه ومشاركته هو كذلك في الكثير من آرائي . لم يعبر أحدنا للآخر عن ادعاءات متغطرسة ، وإنما سرعان ما وجدنا نقاط اتصال فالتقينا على وضوح سرعان ما تحوّل إلى مشاركة وجدانية .

في تلك الليلة ، وبينما كنت في نزهة قصيرة على الأقدام قبل أن آوي إلى الفراش ، شاهدت النجوم تنعكس في بِرَك المطر الصغيرة ، ورأيت زوجاً من الأشجار المعمرة في غاية الجمال يتمايلان في الليل على شاطيء يتناهى خرير مياهه بعمق . ومما لاشك فيه أن هذا المنظر سيكون بمثل هذه الروعة في الغد أيضاً ، ولكنه في هذه اللحظة كان يملك ذلك السحر ، وتلك الفتنة التي لا تتكرر والتي تشع من أرواحنا ، ولا تتوهج فينا ،كما يقول الإغريقيون ، إلاّ حين ينظر إلى طريقنا أيروس(*) .

روتين اليوم :

لو شرعت في وصف مسار يوم اعتيادي في المنتجع ،فسأختار ، لأكون منصفاً ، يوماً عادياً ، بلا أحداث متطرفة ، نوعاً من الأيام شبه الغائمة ، واللطيفة نوعاً ما ، يوماً طبيعياً خالياً من الأحداث الخارجية غير الإعتيادية ومن الأعراض والنوبات الداخلية غير الطبيعية . لأنه توجد هنا ، ليس بالنسبة لأديب متوتر الأعصاب فحسب ، بل لجميع المصابين بعرق النسا كله وتبعاً لحالتهم ولمرحلة علاجهم ، أيام مليئة بالألم والكآبة ، وأيام مريحة ، ناعمة تغمرها السعادة

(*) أيروس : اله الحب .

والأمل المزدهر ، وأيام نثب مرحاً فيها ، وأخرى نجرُّ أنفسنا فيها أو نلزم الفراش واليأس ينخر في قلوبنا .

ومهما يكن حجم الحرص الذي قد أكون التزمته في إعادة تنظيم يوم عادي ، حسن المسار ، طبيعي ، يوم بسيط خال من الأحداث ، فلا بد أن أفضي باعتراف مولم ، يخص كل يوم ، حتى أيام المنتجع التي تبدأ ، للأسف بالصباح: فلم يكن للصباح قيمة بالنسبة لي ، هذا الذي تغنى به الشعراء في العديد من القصائد الرائعة . وقد يكون لذلك علاقة مع أبلغ محنة ونقيصة ، نومي السيء ، وذلك مع كل مظهر من مظاهر وجودي ، وفلسفتي ومزاجي الخاص وشخصيتي ، هذه الأمور كلها تعيني ومن الصعب عليّ أن أقر بها ولكن ما المعنى الذي من الممكن أن تحمله الكتابة إذا لم يكن وراءها النزوع نحو الحقيقة؟

الصباح ، ذلك الوقت الرائع الصيت بطراوته ، والبدايات الجديدة ، والدافع الغض البهيج ، هو وقت مميت لي ، ومصدر اغاظة وازعاج ، فأنا والصباح لا نحب بعضنا . إلاّ أني في الوقت ذاته ، لست مجرداً من بعض الفهم وشيء من التقمص العاطفي لفرحة الصباح المشرقة تلك التي مجدتها بشكل ذكي وواضح الكثير من قصائد ايخندروف وموريك . فقد التقيت أنا أيضاً بشاعرية الصباح ، في القصائد ، والرسومات ، والذاكرة ، واحتفظت منذ طفولتي بذكرى باهتة بعض الشيء عن بهجته الحقيقية ، رغم أني منذ سنوات عديدة إلى الآن لم أشعر بالسعادة في أيّ صباح منها . وفي أكثر الإشادات شهرة ببهجة الصباح العذبة التي اعرفها هي أشعار إيخندروف[1] التي وضع

---

(١) جوزيف ايخندروف ـ (١٧٨٨ ـ ١٨٥٧) شاعر الماني رومانسي كتب الرواية القصيرة وشعر الطبيعة الغنائي .

وولف لحناً ليصاحبها ، بعنوان «الصباح ، هو ذا بهجتي» ، استمعت الى تنافر طفيف في أنغامها ، فرغم الروعة التي تبدو فيها ورغم أن مزاج ايخندروف الصباحي قد أقنعني تماما ، إلاّ أنني لا أستطيع الإيمان الكامل في فرح هوغو وولف(١) الصباحي ، وأظنه قد زج نفسه في حنين شاعري حزين بدلاً من أن يكتشف فعليا بهاء الصباح .

فكل الأشياء التي تجعل من حياتي عبئاً ثقيلاً تكتنفها الصعوبات وتجعلها معضلة خطرة بغيضة ، كانت تعلن عن نفسها بكثير من الضجيج في الصباح ، وتنتصب أمامي مثل مارد . وكل ما يجعل من حياتي عذبة ، وجميلة وغير اعتبادية ، وكل الصفات المحببة ، وجميع الأشياء الساحرة ، وكل الموسيقى تنأى في الصباح ، ولا تكاد تدرك ، وكان من الصعوبة الاستماع اليها حتى كقصة زاخرة بالبطولة أو مثل أسطورة ومن عمق نومي المتناهي في ضحالته والمتقطع في أغلب الأحيان أوقظ نفسي دون أن تحلق بي مشاعر الإنبعاث وإنما أحس بأني مثقل ، مجهد ، متهيب دون وقاء أو درع يحميني من أنقاض العالم الذي يحيطني ، العالم الذي يفرض كل ذبذباته على أوتار صباحي المرهفة ، كما لو أنها كانت تأتي عبر مكبر صوت ضخم ، يعصف بأصواته في وجهي من خلال بوق . في منتصف النهار فقط وما بعده تعود الحياة لتصبح محتملة وطيبة مرة أخرى ، أما في الأيام ذات الحظ السعيد ، في أواخر الأصيل وفي المساء فتكون رائعة ، متلألئة ، طليقة ، تخترق الروح مع ضياء الله المريح الممتليء بالنظام

---

(١) وولف هوغو - (١٨٦٠ - ١٩٠٣) مؤلف موسيقي نمساوي وضع ألحاناً لما يزيد على ٣٠٠ أغنية .

والتناغم ، والسحر والموسيقى ، ويكـون تعويضاً ذهبياً لآلاف والآف الساعـات السيئة .

خططت من ناحية أخرى لإستغلال الفرصة كي أتحدث عن السبب الذي يجعل هذه المعاناة من الأرق ومأساة الصباح تلك تبدو لي ليس مرضاً فقط ، بل وإنما كذلك ، وأتساءل لمَ أخجل من هذه الحالة ، ولكن في الوقت نفسه أشعر أنها لا بد أن تكون بهذه الطريقة ، وبأنني لا أجرؤ عل طرح هذه الأمور جانباً أو نسيانها ، ولا أجرؤ كذلك على «طرحها» بواسطة الأساليب المادية لأنني بحاجة إليها كمحرض وحافز متجدد دائم لحياتي الحقيقية ولمهمتها .

ومن بين أيام حياتي الإعتيادية ، يكون لليوم في حمامات بادن نفع خاص : فكل يوم من أيام العلاج يبدأ بواجب صباحي مهم ورئيسي ، مهمة سهلة ، نعم ، ومقبولة التنفيذ وأقصد بها الإستحمام . فحين استيقظ صباحاً ، ولا يهم في أية ساعة ، ينتظرني هذا الواجب الأول والفائق الأهمية ، فهو ليس بالأمر المغيظ ، ولا يشبه ارتداء الملابس أو أداء التمارين الرياضية أو الحلاقة أو قراءة الرسائل ، بل هو «الإستحمام» ، العمل المنعش ، الدافيء ، الباعث على الاسترخاء . أجلس على الفراش، ودوار طفيف يطرق في رأسي ، أحرك أطرافي الصدئة ثانية بحركات قليلة حذرة ، ثم انهض ، أرتدي ردائي واتمشى ببطء في الممر الساكن شبه المعتم باتجاه المصعد ، الذي سينزل بي عبر الطوابق الى القبو ، حيث توجد منازع الإستحمام . هنا تكمن المسرّة . دفء عذب رائع يخيم على الدوام ، في القبوات الحجرية الغارقة في القدم والتي تردد الصدى على نحو هادىء . ففي كل مكان كانت المياه الساخنة تتدفق من الينابيع ؛ ودائما ما كان يخالجني شعور غامض دافىء بأنني في كهف ، يشبه ذلك الذي كنت أحسه وأنا صبي صغير حين كنت أصنع كهفاً من طاولة

وكرسيين وزوج من أغطية السرير أو السجاد . في المنزع الذي حجز لي يوجد حوض حجري البناء يغوص عميقاً في الأرض ممتلىء بالماء الساخن المتدفق مباشرة من الينابيع ، هبطت بتمهل درجتين حجريتين صغيرتين ، وأصبحت اقف عكس اتجاه عقارب الساعة الرملية وانغمرت لذقني في الماء الساخن المر الذي كانت تفوح منه قليلاً رائحة .كبريت خفيفة . وعالياً فوقي ، في القبة الاسطوانيــة لحجيرة ضخمة البناء والتي تذكرني على نحو غريب بزرقة الأديرة ، ينهمر ضياء النهار عبر ألواح زجاج النوافذ الشفاف؛ وهنالك في الأعلى ، بطابق يعلوني ، وخلف الزجاج الحليبي اللون ، يكمن العالم ، نائياً ، أنيساً ، لا يصل اليّ منه أي صوت. كان الدفء الرائع للمياه الغامضة يتلاعب من حولي ، مستمراً في تدفقه لآلاف السنين، نابعاً من خزانات الأرض المجهولة ومنصباً في مجرى رفيع يصل إلى حمامي . وطبقاً للتوجيهات ، ينبغي علي أن أحرك أطرافي في الماء قدر استطاعتي، وأؤدي التمارين الرياضية وحركات السباحة . فعلت ذلك لدقائق قليلة ، بدافع الواجب ، إلاّ أني بعدها استلقيت بلا حركة ، مغمض العينين ، وغائباً في شبه اغفاءة ، مراقباً تقاطر الرمال الهادىء في الساعة الرملية .

ورقة ذابلة تطايرت إلى الداخل من خلال النافذة الصغيرة ، ورقة صغيرة من شجرة لم أعد أذكر اسمها ، تتمدد على حافة حوضي ، نظرت إليها ، استقرأت خطوط عروقها . وأوردتها ، وتنشقت جوهر الفناء الفريد الذي نرتعد أمامه والذي بدونه لن يكون ثمة شيء جميل . إنه لأمر خارق كيف يدعم الجمال والموت ، والمتعة والفناء بعضها ، ويتحدان في قوة ! شعرت بجلاء كأن شيئاً حسياً يلفني ويسكن داخلي . أنه الحد الفاصل بين الطبيعة والروح . ومثلما هي الأزهار عابرة وجميلة ، ومثلما هو الذهب دائم وممل ، كذلك هي جميع

انتقالات الحياة الطبيعية ، زائلة وجميلة ، بينما الروح خالدة وضجرة . شعرت هذه اللحظة أنني أرفض الروح ، ولا أراها أبداً حياة خالدة بل كموت خالد ، شيء متحجر ، لا نفع فيه ، لا معالم له، ومن الممكن فقط أن يسترد كيانه وحياته بالاستسلام لخلوده. ينبغي أن يتحول الذهب إلى زهرة ، وأن تتحول الروح إلى جسد وإلى نفس من أجل أن تحيا . كلا، ففي ساعة الصباح العذبة هذه وسط الساعة الرملية وبين الورقة الذاوية ، أريد أن أصبح عابراً ، أريد أن أصير طفلاً وزهرة.

ذُكّرت بأنني عابر بعد نصف ساعة من الاستلقاء في الفيض الدافىء حين حان موعد النهوض . طلبت الخادم ، الذي ظهر وقدم منشفة الحمام الدافئة . فوقفت في الماء وشعور الزوال يغمرني ، ويهدّ جميع أطرافي لأن هذه الحمامات منهكة للغاية . وعند محاولة النهوض بعد حمام يطول ثلاثين أو أربعين دقيقة لم تكن الركبتان أو الذراعان ليستجيبا إلاّ ببطء وبجهد . بعد أن تسللت خارج الحوض ، القيت المنشفة فوق كتفي وحاولت أن ألف جسدي بقوة ، وأن أؤدي بعض الحركات المنشطة، لاشجع نفسي ولكني لم أستطع أن أتدبر الأمر جيداً فارتميت على أقرب كرسي ، وأنا أشعر أن عمري مائتا عام ، وقد احتجت إلى وقت طويل لأجبر نفسي على الوقوف، وبعد أن وضعت قميص النوم والرداء عليّ مرة ثانية ، غادرت المكان.

تقدمت عبر الأقبية الساكنة ، وأنا أستمع إلى طرطشة المياه هنا وهناك خلف أبواب المنازع ، واستمع إلى صوت غليان الماء في ينبوع الكبريت تحت الزجاج بين الصخور الصقيلة المطلية بلون يميل الى الصفرة . رويت لي حكاية محيرة عن هذا الينبوع ، قيل إنه كان يوجد دائماً فوق حافته الحجرية قدحان لخدمة النزلاء ، أو على الأصح كانت الحكاية بهذا الشكل بالضبط : لم يكن

القدحان موجودين هناك ، فكلما كان يأتي نزيل ليروي ظمأه من الينبوع يفاجأ باختفائهما مرة أخرى فيهز رأسه، بقدر ما يستطيع المريض بعد استحمامه على أداء مثل هذه الحركة، ويطلب المساعدة ، وفي الحال يظهر المضيف أو النادل أو الخادمة المسؤولة عن غرف النوم أو مرافق الحمام أو صبي المصعد، ويهز الجميع رؤوسهم كذلك عاجزين عن فهم ما حل بهذين القدحين الغامضين . ويجلب بسرعة في كل مرة قدحاً جديداً ، يملؤه النزيل ، ويفرغه ، ويعيده فوق الصخرة، ثم يغادر ولو عاد بعد ساعتين لاحتساء جرعة أخرى من الماء ، فلن يجد القدح هناك . كان أمر اختفاء الأقداح المحير هذا بالنسبة للمستخدمين أمراً مغيظاً ويعني لهم عملاً إضافياً وكان لكل منهم تفسيره الخاص لحيلة الأقداح هذه ، ولم يكن أي منهم مقنعاً بحق . فصبي المصعد يقول بكل سذاجة إن النزلاد عادة ما يأخذونها معهم ، الى الغرف ولكن الخادمة لا تعثر عليها عند تنظيفها اليومي لغرفهم . وباختصار ، لم يستطع أحد حل لغز هذه الحالة، وبالنسبة لي فقد وقع هذا الأمر معي لحد الآن ثماني أو عشر مرات بحيث كنت في كل مرة اضطر لطلب قدح جديد . وبما أن فندقنا يستضيف ما يقرب الثمانين نزيلاً ، وما دام هؤلاء المرضى، الوقورون، الرفاق الكهول المصابون بالتهاب المفاصل والروماتيزم ليسوا على الأرجح من سرق الأقداح، فأنا أعتقد أن السارق قد يكون جامعاً باثولوجياً(*) أوكائناً غير إنسي ، عفريت الينبوع أوتنيناً ، ومن المحتمل أنه يفعل ذلك ليعاقب مستغلي المياه ؛ وربما في يوم ما ستعثر صدفة روح محظوظة ، فقدت طريقها في الأقبية المقنطرة، على المدخل الذي يؤدي إلى البرج الخفي حيث يتراكم جبل كامل من الكؤوس ، فطبقاً لحساباتي المتحفظة ، لا بد من وجود ألفي قدح على الأقل مخزونة هناك خلال سنة واحدة.

(*) الباثولوجي : الإختصاصي في علم الأمراض.

أملأ اللحظة قدحي عند الينبوع وأشرب الماء المر الدافىء وشعور الإرتياح يملؤني . وعادة ما أجلس أثناء فعل ذلك ثم اعاني لاستحث عزيمتي وانتصب واقفاً من جديد أجر نفسي إلى المصعد ، ورأسي مزدحم بالانطباعات اللطيفة عن الواجب الذي أديته والإسترخاء الذي جنيته ، لأني في الإستحمام وشرب المياه اكون قد نفذت فعلاً أكثر أوامر اليوم أهمية. ومن ناحية أخرى ، وما زال الوقت مبكراً ، السابعة أو السابعة والنصف على أبعد تقدير ، وثمة كثير من الساعات المتبقية حتى مجيء الظهيرة ، وأنا على استعداد لتقديم أي شيء لو كنت أعرف تعويذة سحر بإمكانها أن تحّول ساعات الصباح الى ساعات مسائية.

كانت أنظمة العلاج حتى هذه اللحظة تسير في صالحي ، فقد وصفوا لي بعد الحمام ضرورة العودة من جديد الى الفراش . وكان ذلك يتفق تماماً مع النعاس الذي اشعر به بعد الإستحمام ، إلاّ أن الحياة في هذا الوقت تكون قد ابتدأت في الفندق منذ فترة طويلة ، فالطوابق تردد صدى الخطوات المتسارعة لخادمات الغرف والندلاء وهم يحملون الفطور ، وكذلك ضجة اغلاق الأبواب . ونتيجة لكل ذلك يصبح النوم مستحيلاً سوى للحظات فقط، فلم أكن قد اكتشفت بعد سدادة الأذن التي من شأنها أن تحمي حقاً أذن المؤرّق اليقظة والحساسة.

ولكنه يبقى أمراً ممتعاً أن يستلقي المرء ثانية ، ويغلق عينيه مرة أخرى، غافلاً عن كل الأفعال البليدة المطلوب منا عملها كل صباح : ارتداء الملابس الممل، الحلاقة المضجرة ، عقد ربطة العنق السخيفة ، القاء تحية الصباح ، قراءة الرسائل والتخطيط لممارسة نوع من النشاط ، واستئناف روتين الحياة الآلي برمته من جديـــــد .

في هذه الأثناء ، استلقيت في الفراش وأنا أستمع إلى ضحكات جيراني وشتائمهم وأصوات غرغرتهم . جاءني صوت دقات الجرس في الممر ووقع اقدام الخدم وهم يتراكضون ، فأدركت لحظتها إنه لا معنى لتأجيل المحتم أكثر من هذا . إنهض إذن ، يا فتاي ، وتناول طعامك ! نهضت ، واغتسلت ، وحلقت ذقني وأنجزت كل تلك الفعاليات المعقدة الضرورية لارتداء الملابس والأحذية . خنقت نفسي بياقة القميص وحشرت ساعتي في جيب صدريتي، وزينت نفسي بالنظارات فعلت كل ذلك وأنا أشعر باحاسيس المحكوم عليه الذي ظل لعصور يتبع روتيناً مقرراً ويعرف في سريرته أن هذا الحال سيستمر طوال حياته ، ولن تكون لها نهاية أبداً.

ظهرت في الساعة التاسعة في حجرة الطعام ، نزيل صامت شاحب اللون، جلست عند طاولتي المدورة الصغيرة ، وبلا كلام حييت الفتاة الجميلة التي جلبت لي القهوة ، ودهنت نصف رغيف الفطور بالزبد ، ووضعت النصف الآخر في جيبي . فتحت الرسائل الموضوعة في صحني ، واقحمت الفطور في حلقي والرسائل في جيبي ، وحين نهضت رأيت أمامي مريضاً ضجراً ينتظر في الممر ، راغباً أن يفتح الحوار معي وقد ابتسم من على بعد ابتسامة مشجعة ، بل حتى بدأ في التحدث بالفرنسية ؛ عندها مررت من جانبه بسرعة وبكل عزم وأنا أتمتم «المعذرة» ودلفت في عجل إلى الشارع .

هنا وفي حديقة المنتجع أو في الخمائل استطعت أن أنجح تماماً في أن أهزم الصباح بالتوق إلى العزلة ، وأحياناً في النجاح بالعمل ؛ أعني أنني كنت أجلس وأدون بعضاً من أفكاري التي ما زالت تتسكع في ذهني منذ ساعات الليل. كنت أقضي معظم الوقت في التمشي ، فرحاً بنصف الرغيف الذي في جيبي لأن معظم متعي في الصباح (وبالطبع ، هذا التعبير قوي جداً) هي إن افتت

هذا الخبز وأطعمه للعديد من طيور الحساسين والقرقف(*). وعندما أفعل ذلك، كنت اعتبرها مسألة مبدأ لا أفكر بأن هناك في المانيا على مبعدة أميال قليلة، اختفى مثل هذا الخبز الأبيض ، حتى عن موائد الأغنياء ، وحرم الالاف منه تماماً،وكنت أمنع هذه الفكرة البالغة الوضوح من التسرب إلى وعيي وغالباً ما أجد هذا المنع مضنياً لي للغاية.

تحت الشمس أو تحت المطر ، في خضم العمل أو التمشي ، استنفدت أخيراً بطريقة ما وفي مكان ما ساعات الصباح الأولى ،لتحل رائعة النهار ، ويحين موعد وجبة الظهيرة . بإمكاني أن أؤكد أني لست بذلك الشخص النهم إلاّ أن هذه الساعة كانت مقدسة ومهمة ، حتى بالنسبة لي أنا العارف بمتع الروح والزهد ويبقى هذا الأمر بحاجة إلى تمعن أكبر.

وكما أشرت مسبقاً في المقدمة ، إن جزءاً من مزاج وطريقة تفكير مريض الروماتيزم والتهاب المفاصل الذي غادر شبابه، هو وعيه بإستحالة فهم العالم حسب الخطوط المستقيمة ، وامتلاكه إحساساً واحتراماً للتناقضات ، ولضرورة وجود الأضداد ، والنقائض ولو تركنا جانباً أسس هذه النقائض الفلسفية العميقة ، لوجدنا أن العديد منها تجسد بجلاء مذهل في حياة منتجع بادن . وثمة الكثير من الأمثلة التي يمكن الإستشهاد بها . وإذا كان عليّ أن أختار أبسطها فلن أذكر إلاّ الدكات العديدة المنتشرة في كل مكان من بادن . فهذه الدكات كانت تدعو جميع المرضى للجلوس وأخذ قسط من الراحة ، لمن كانوا يجهدون بسهولة ومن كانت سيقانهم لا يمكن الاعتماد عليها كلياً. وكان المريض يلبي بكل لهفة هذه الإشارة الخفية الودودة . إلاّ أنه ما يكاد يجلس لدقيقة حتى يبدأ يكافح خوفه الشديد من النهوض ثانية ، لأن صانع هذه

(*) القرقف : طائر صغير قصير المنقار .

الدكات الكثيرة المحب لفعل الخير ، الفيلسوف المتبحر والساحر ، قد صنعها من الحديد. ويفاجأ المصاب بعرق النسّا الجالس فوقها أن أكثر جزء حساس من جسده المعتل سيتعرض لتيار بارد ما حق ، فتجبره غريزته على الفرار بسرعة . لذا تذكره هذه الدكات بمدى حاجته الى الراحة وتنذره بعد مضي دقيقة أن جوهر الحياة ومنبعها هما الحركة وأن المفاصل الصدئة ليست بحاجة إلى الراحة بقدر حاجتها الى التمرين.

من الممكن سرد الكثير من مثل هذه الأمثلة ولكن هنا وأشد بروزاً من أي مكان آخر، تجد روح بادن ، التي تتحرك دائماً بين التناقضات ، وسيلة التعبير عن ذاتها في منتصف النهار في ساعات الأصيل في حجرة الطعام . حيث يجلس عشرات المرضى ، كل منهم قد جلب معه عرق نساه والتهاب مفاصله ، كل منهم قدم إلى بادن لهذا السبب وحده ، ليتخلص قدر الإمكان من علته الجسدية عن طريق العلاج . أية حكمة بسيطة ومستقيمة ، وغضة ، ومتزمتة ، وعملية ، مبنية على تعاليم واضحة وبسيطة لعلم الكيمياء والفسلجة، سينصح هولاء المتألمون باتباعها بكل قوة إضافة إلى الحمامات الساخنة ، ووجبة طعام خفيفة اسبارطية (*) خالية من اللحم . والابتعاد عن المسكرات ، حمية تفقد الشهية ، ولو كان ممكناً حمية صيام . إلاّ أن الناس في بادن لا يفكرون بمثل هذه الطريقة المباشرة الفتية التي لا لبس فيها . فبدلاً من ذلك اشتهرت بادن ولمئات السنين بمطبخها الدسم والشهي بقدر شهرة حماماتها ، وفي الواقع أنه في عموم البلاد كلها لا توجد سوى مدن أو حانات قليلة حيث يأكل الناس بشكل جيد جداً وبهذه الوفرة كما في تلك التي في بادن التي تقدم ضروب الطعام الى

(*) اسبارطية : ـ منسوب إلى اسبارطة المدينة الرومانية القديمة . متسم بالبساطة والاقتصاد في الانفاق والكلام وبالبعد عن الترف وضبط النفس والصرامة والجلد.

المرضى الذين يقاسون من الام أيضية . فهنا يقدم فخذ الخنزير الشهي الذي يؤكل مع نبيذ ديزيليه(*) الأبيض وشرائح اللحم الطرية المسلوقة والمغمسة في الطحين التي تقدم مع خمر بوردو؛ وما بين الحساء واللحم المشوي، تعوم سمكة السلمون المرقطة بشكل يثير الشهية ، ويتبع مجموعة اللحوم الوفيرة قطع رائعة من الكعك والحلوى والقشدة.

حاول الكتّاب القدماء تفسير خصوصية بادن العريقة هذه بشتى الطرق وفي الحقيقة أن تقدير واستحسان الحالة الراقية التي يحظى بها المطبخ هناك كانت من اليسير بمكان . إذ يتحقق كل واحد من المرضى الألف من ذلك مرتين في اليوم؛ ولكن الأصعب هو شرحها ما دامت الأسباب تمتلك طبيعة معقدة للغاية. وسآتي عل ذكر أهمها في اللحظة هذه . ولكن أولاً أود أن أنبذ بشدة تلك الشروحات الجافة والمنطقية التي غالباً ما يجدها المرء أمامه . مثل ذلك كثير ما يتناهى الى الاسماع من المفكرين السوقيين بأن تقاليد الطعام الجيد في بادن ، الذي هو حقا يخالف أكثر الأمور منفعة للمرضى، قد تطورت عبر السنين وكان سبب وجودها هو المنافسة بين فنادق المنتجع المختلفة ، وعلى الأقل ، فمن مصلحة كل صاحب نزل أن لا يتخلف عن منافسيه . إن هذا الجدال الرخيص والسطحي لن يصمد عند المحك لمجرد إنه تجنب جوهر المشكلة وحاول أن يتجاهل شأن الأصل الفعلي لمطبخ بادن الجيد بالنسبة الى التقاليد والى الماضي . وعل الأقل هل سترضينا الفكرة المضحكة القائلة بأن رغبة أصحاب النزل في جني الربح هي المسؤولة عن الطعام الجيد! كما لو أن أي صاحب فندق سيكون مولعاً في أن يزيد على نحو كبير ما يدفعه إلى القصاب والخباز وبائع الحلويات، ولا سيم هنا في بادن حيث يملك كل صاحب فندق في المنتجع قوة

• ديزيلية . نبيذ أبيض سويسري.

مغناطيسية لجذب النزلاء . ذلك الإغراء الآسر الذي لم يطل مفعوله منذ قرون، تلك القوة الموجودة في قبوه الخاص بهيئة ينابيع معدنية ساخنة!.

كلا ، ينبغي أن نتعمق على نحو أكثر عمقاً لنشكل فرضيتنا حول هذه الظاهرة . فلا يكمن السر في أعراف وتقاليد الماضي ولا في حسابات أصحاب النُزُل، ولكنه في عمق تركيب الكون كواحد من النقائض الأبدية التي ينبغي التسليم بها . فلـــو كان الطعام في بادن رخيصاً وضئيل القيمة على نحو تقليدي ، لكان بإمكان أصحاب النزل أن يوفروا ثلثي مصروفاتهم وفي الوقت نفسه لبقيت فنادقهم تضج بالنزلاء ، الذين ما كان الطعام غاية لهم بل جاءوا مدفوعين بالآم الفقرات القطنية (١) الحادة . ولنفترض جدلاً بأن الناس في بادن يعيشون وفق المنطق ، ويحاربون الحامض البولي وتصلب الأنسجة بالتقشف والصيام وليس عن طريق الحمامات فحسب ، فماذاستكون النتيجة المتوقعة؟ من المحتمل أن مــا سيحدث هو تحسن صحة المريض في المنتجع ، خلال وقت قصير ، وفي أرجاء البلاد كلها لن يكون ثمة أثر لعرق النسّا ، والذي رغم كل شيء ، ومثل كل أشكال الطبيعة ، له الحق في امتلاك الوجود والاستمرار وستصبح الحمامات لا ضرورة لها ، والفنادق بحاجة ماسة الى الترميمات. ولوجاز لنا ان نعتبر أن هذه الخسارة النهائية غير ذات أهمية أو يمكن تعويضها ، فإن غياب مرض التهاب المفاصل وعرق النسّا من نظام الكون، وتبديدتدفق هذه الينابيع القيمة ، لن يفيد تقدم العالم في شيء بل على العكس من ذلك تماماً.

إلى جانب هذا التفسير الذي يقرب من أن يكون لاهوتياً ، فلنفكر بالتفسير النفسي . من منا نحن نزلاء المنتجع سيكون راغباً - بالإضافة إلى

(١) nervus ischiadicus عبارة لاتينية

الحمامات والتدليكات والقلق والضجر في تحمل الصيام والتقشف ؟ كلا فنحن نفضل أن نستعيد نصف صحتنا فقط ، على أن تكون الأشياء المحيطة بنا أكثر راحة وفرحاً بعض الشيء ؛ فلسنا صغاراً لنشترط مطالب تعجيزية على أنفسنا وعلى الآخرين ، وانما نحن كبار حاصرتنا بقوة قيود الحياة واعتدنا أن نكون بلا استقلالية عالية. فلنفكر بالمسألة بجدية : هل سيناسب كل منا ويريحه لو أنه تماثل للشفاء، بل وبرىء تماماً وكلية عن طريق علاج مثالي ، ولم يعد قريباً من حتفه؟ لو قلبنا النظر في هذه المسألة بوعي ، فسيكون الجواب: كلا . كلا ، نحن لا نريد أن نتعافى كلياً ولا نريد أن نعيش إلى الأبد.

وبلا شك ، لو سئل كل فرد منا عن نفسه فقط لربما أجاب بنعم بدلاً من الرفض . ولو وجه السؤال لي أنا ، الكاتب هسه، المريض في المنتجع ، فيما إذا كنت اتفق مع أن الكاتب هسه ينبغي أن يتجنب المرض والموت، وفيما إذا كنت أعتبر أن استمراره الأبدي أمرٌ جيد وضروري ، لربما كنت أجيب عن هذا السؤال في باديء الأمر ، بزهو كما يفعل الكتاب، بكلمة نعم . ولكن ما أن يوجه لي هذا السؤال نفسه بما يخص الآخرين، المريض مولر، وليحراند المصاب بعرق النسّا، والهولندي في رقم ٦٤، فسأجيب بلا تردد، بكلا. أبداً، ففي الحقيقة ليس من الضروري أن نعيش نحن العجائز الذين لم نعد اشخاصاً في منتهى الجمال ، إلى الأبد ،حتى لو كنا غير مبتلين بالتهاب المفاصل. بل حتى سيكون الحال مهلكاً ، وفي غاية القبح والملل كلا سنكون سعداء في موتنا، فيما بعد أما اليوم فنحن نفضل أن ننعم، بعد الحمامات المنهكة، وبعد صدر النهار القاتل بشكل مجهد، بقسط من الراحة ، ونقضم جناح دجاجة ، وننزع الجلد عن سمكة كبيرة ، ونتناول كأساً من النبيذ الأحمر.

هكذا نحن ، جبناء ، ضعاف ، مغمسون في ذواتنا، ارواحنا ، التي هي

أرواح المصابين بالروماتيزم والشيخوخة ، هي أيضاً روح بادن، فنحن نرى تقاليد الطعام في بادن مبررة من وجهة النظر تلك على السواء.

والان ، أليس هذا إثباتاً وتبريراً كافياً لحياتنا الراقية ؟ وهل يطلب تقديم أسباب أخرى ؟ يوجد المئات منها، ولتذكر سبباً إضافياً واحداً بسيطاً للغاية: الحمامات المعدنية «المستنزفة» ؛ أي التي تشعرك بالجوع، وبما أني لم أكن مجرد نزيل في المنتجع وشخص ذواقة لطعامه، وإنما كنت في أوقات أخرى أبحث عن القطب المعاكس لكل ذلك وأجرب متع الصيام ، ولا يثقل ضميري الاشتراك بهذه الشراهة لمدة ثلاثة أسابيع، على الرغم من العالم الذي يتضور جوعاً وعلى حساب العمليات المتصلة ببناء البروتوبلازما ودثورها.

لقد شردت بعيداً. فلنعد الى روتين اليوم . أجلس هناك عند مائدة الغداء، أراقب السمك، واللحم المشوي والفاكهة تتعاقب الواحدة بعد الأخرى، وفي الفترات التي بينها، كنت احدق طويلاً وبتأمل في سيقان النادلات، وهن يرتدين الجوارب السوداء، وكنت اتفرس متمنعاً ولكن ليس لفترة طويلة في ساقي رئيس النّدل. فهما يمثلان منظراً نفسياً ومصدر راحة عميقة لنانحن المرضى جميعاً فهذا النادل بالمناسبة، وينبغي معرفة هذا ، سيد مقبول جداً، قاسى ذات يوم من مرض الروماتزم الحاد جداً والمؤلم حتى أنه لم يعد قادراً على السير، وقد تعافى من المرض تماماً بعد أن أنهى فترة علاج في بادن ، وقد عرفنا جميعاً بحكايته هذه التي قصها بنفسه للعديد منا. لذا كنا كثيراً ما نحدق في ساقي رئيس الندل مستغرقين في تفكير عميق، وأما سيقان الصبايا النادلات بالجوارب السوداء، فكانت بطبيعتها نحيلة وخفيفة الحركة دون الاستعانة بأي علاج، وكان ذلك يبدو لنا جديراً حتى بتأمل أعمق.

وبما أني كنت أعيش لوحدي تماماً، فإن وجبات الطعام كانت هي الفرصة الوحيدة لي لأتعرف على رفقتي النزلاء بشكل أفضل نوعاً ما. وبالطبع لم أكن أعرف اسماءهم ولم أتبادل معهم إلاّ كلمات قليلة، إلاّ إني أراهم وهم يجلسون ويتناولون طعامهم. وذلك عرفني بالكثير عنهم. فالهولندي، جاري الذي كان صوته يأتيني عبر الجدار كل مساء وكل صباح ويسرق النوم من أجفاني لساعات ، كان يتحدث هنا عند مائدة الطعام بنبرات واطئة جداً لدرجة أني لم أكن لأميز صوتـــه لولا أنه كان قادماً من غرفـــة رقم ١٦٤! أوه، يا له مـــن شاب وديع !

كانت بعض الشخصيات في مسرح الظهيرة تمتعني كل يوم بحدة أشكالها وتنوّع أدوارها. توجد هنا عملاقة من هولندا ، يصل طولها إلى أكثر من ستة أقدام ووزنها في منتهى الثقل، ملوكية في مظهرها، جديرة بلعب دور أميرة المنتجع. كانت هيئة جسدها فخمة ولكن إيماءاتها كانت تفتقر إلى الرهافة إذ كانت تغنج على نحو غريب وتثير الإزعاج، ويكاد مظهرها أن يكون مفزعاً حين تدخل إلى الصالون متكئة على عكاز دقيق ورفيع ومزخرف، ويتوقع من يراه انكساره في أية لحظة. وأظنه كان مصنوعاً من الحديد.

يوجد هنا أيضاً سيد رزين بشكل بغيض وأراهن أنه على الأقل عضو في المجلس الوطني، فقد كان رجلاً فاضلاً ، شريفاً ، وطنياً بكل ما في الكلمة من معنى، جفناه السفليان محمران بعض الشيء ومتدليان مثل جفني القديس برنارد الأمين، وظهر رقبته عريض ومتييس ، لا يجفل تحت أي لطمه ، تملأ جبهته التجاعيد وتملأ محفظة جيبه أوراق نقدية كثيرة، محسوبة بعناية. وأما قلبه فكان مملوءاً بالمثل العليا الرفيعة ، التي لا شائبة فيها والمترمتة في نفس الوقت. وفي ليلة مرعبة ، حلمـــت أن هذا الرجل كـــان أبي وكنت واقفـــاً

أمامه يستجوبني أولاً لافتقاري الى الشعور الوطني؛ وثانياً لخسارتي خمسين فرنكاً في المقامرة ؛ وثالثاً لإغوائي فتاة . وفي اليوم الذي اعقب هذا الحلم المفزع كنت متلهفاً جداً لألتقي الحضور المادي لهذا السيد الذي كنت ارتعد أمامه بشدة في حلمي . كان من شأن رؤية هذا السيد أن تشفيني، لأن الواقع ، دون شك كان أشد إيلاماً بكثير من صور كوابيسنا. ربما كان سيبتسم لي أو يومئ برأسه أو يطلق مزحة مع النادلة، أو على الأقل سيصبح عبر هيئته الجسدية الصورة الكاريكاتورية لحلمي . ولكن ما أن حل منتصف النهار وشاهدت هذا النبيل المتجهم في غرفة الطعام ثانية، دون أن يومىء أو يبتسم لي، بل كان يجلس منشدها أمام قنينة نبيذه الأحمر،وكل ثنية في جبينه وخلف رقبته تعبر عن اخلاقية وتصميم ، حتى شعرت بخوف رهيب منه . وفي المساء صليت داعياً أن لا أحلم به مرة أخرى.

ومن جهة أخرى، كم كان السيد كيسلرينج نبيلاً ،ومحبوباً ، يفيض جاذبية . رجل في ريعان شبابه، ولا أعرف مهنته ، ولكنه دون شك كان إسبانياً من طبقة النبلاء الدنيا(*)، أو شيء من هذا القبيل . كان شعره الأشقر الفاتح الحريري ينسدل متموجاً حول جبهته الصافية ، وغمازة خده الضاحكة تفتن العين بعذوبتها، كانت عيناه الطفوليتان الزرقاوان اللامعتان تنمان عن حماسة وفرح ، ويده يد شاعر تنزلق برقة فوق صدرية انيقة الألوان .لا زيف يمكن أن يسكن هذا القلب، ولا دافع دنيء يمكن أن يلون نبل هذه الملامح الشاعرية. مشرق من الرأس حتى أخمص القدمين مثل فتاة رينوار ، ولا بد أن يكون كيسلرينج في سنوات شبابه قد اشترك كثيراً في لعبات كيوبيد العبثية، ذلك الرفيق الرائع. ولكن كم أذهلني وخيب ظني هذا الفتى العذب عندما أراني في

(*) الهيّدلج : أسباني من طبقة النبلاء الدنيا.

ساعة الغسق بغرفة مليئة بالدخان مجموعة صغيرة من صور الجيب الإباحية ، تعوزني الكلمات لوصفها.

وأما أكثر من رأيت في حجرة الطعام تشويقاً ووسامة من النزلاء على الإطلاق فلم يكن اليوم موجوداً، وقد شاهدته لمرّة واحدة فقط عندما كان يجلس قبالتي طوال الأمسية حول مائدة طعامي المدورة الصغيرة ، عيناه بنيتان تشعّان جَذَلاً ويداه نحيلتان بارعتان . كان زهرة الشباب والبهاء الوحيدة وسط جميع المرضى.

رفيقي العزيز، إرجع حتى نتمكن من تناول هذا الطعام اللذيذ معاً، ونتذوق النبيذ الطيب ونشيع البهجة في حجرة الطعام بحكاياتنا وضحكاتنا!.

كنانحن النزلاء نتفحص أحدنا الآخر كما هو متعارف عليه في أي منتجع صيفي، وما يفرق هنا هو أن الأزياء والأناقة لم تكن تلعب إلاّ دوراً ضئيلاً. فكل ما كنا نتوق إليه هو أن نستمر في تتبع حالة صحة رفاقنا المرضى، لأننا كنا نرى أنفسنا تنعكس فيهم. فلو حظي السيد الكهل في رقم ٦ بيوم طيب وكان قادراً على المشي بنفسه من بابه حتى المائدة، نبتهج جميعاً، ولو سمعنا بأن فروافلوري عجزت عن مغادرة فراشها لهذااليوم ، فستهتز رؤوسنا أسفاً لذلك.

بعد الانتهاء من تناول طعامنا بما فيه الكفاية ومن تفحص أحدنا الآخر لساعة من الزمن ، كنا نكف على مضض عن هذه المتعة ونغادر حجرة راحتنا وبعدها يبدأ بالنسبة لي أيسر جزء من اليوم . ففي حالة الجو الطيب أخرج إلى حديقة الفندق، إلى بقعة خفية حيث أضع فيها كرسياً مركباً قابلا للطي، وجنبه دفتر ملحوظات وقلم رصاص وكتاباً لجان بول(*). وعادة ما تبدأ مداواتي عند الساعة الثالثة أو الرابعة، ويعني ذلك أن علي أن أظهر في عيادة الطبيب وأن

جان بول - جون بول فريدريك ريتشر (١٧٦٣ - ١٨٢٥) اشتهر بالاسم المستعار جان بول وهو كاتب الماني، كتب الحكايات الخيالية الشعبية.

يعتني بصحتي مساعدوه وفقا لأحدث الأساليب حيث أجلس تحت مصباح الكوارتز متلهفاً للحصول على أقصى فائدة من الطاقة الشمسية لهذا الفانوس السحري، وأن أقرب أكثر الأجزاء اعتلالاً من جسدي قدر الإمكان من فتحة الاشتعال . وقد احرقت نفسي عدة مرات بفعلتي هذه. فضلاً عن ذلك ، كانت مساعدة الطبيب التي لا تعرف التعب من العلاج بالإنفاذ الحراري، تثبت الوسادات والموصلات الكهربائية بمعصمي ومن ثم تديره ، وفي نفس الوقت كانت تضرب عنقي وظهري بوسادتين متشابهين ، ولم يكن بوسعي فعل شيء سوى الصراخ وقت يلسعني الحرق أكثر مما ينبغي. خلال هذا العلاج كانت توجد أيضاً إمكانية - وهذا اغراء مضاف - أن يدخل الطبيب وان نتبادل الأحاديث معاً؛ وحتى لو لم يتحقق هذا الأمل في تسعة عشر يوماً من ضمن عشرين ، فإنه يبقى أمراً يستحق الأخذ بعين الاعتبار.

قررت أن اتمشى قليلاً، وبينما كنت أجتاز البوابة الخارجية لحديقة المنتجع عرفت من اعداد الناس المحتشدة أن ثمة عدداً آخر من الحفلات الموسيقية تقام في الكازينو بشكل منتظم ، ولكنني لم أحضر أية واحدة منها حتى الآن . فذهبت الى الكازينو ووجدت جمهوراً غفيراً حاضراً هناك، وهذه هي المرة الأولى التي أصادف فيها المرضى كوجود مادي، إذا جاز القول. مئات من رفقتي ، رجال ونساء ، يحتلون الكراسي، بعضهم وضع أمامه الشاي أو القهوة، والآخر يمسك في يده الكتب أو حياكة الإبرة، وجميعهم يستمعون إلى فرقة موسيقية صغيرة كانت تعزف في أبعد مكان من القاعة بكل نشاط .كنت في بعض الأحيان أقف عند المدخل اتطلع واستمع الى الموسيقى، لعدم وجود مقعد فارغ. كنت أرى الموسيقيين منهمكين في عزف المقطوعات الصعبة التي كان مؤلفوها على الأغلب غير معروفين ، ولم تكن مقدرتهم على العزف هي

السبب في فشل اثارة انسجامي مع ادائهم. ففي الواقع، ادى العازفون عملهم على أتم وجه ـ ولهذا السبب بالذات كنت اتمنى لو عزفواموسيقى مقبولة بدلاً من كل تلك المقطوعات البارعة، والقطع المقتبسة، والمعدلة لتلائم آلاتهم. إلاّ أني حقيقة لم أكن أتمنى ذلك أيضاً ولن أكون أكثر سعادة ، لو بدلاً من هذه المقتطفات المسلّية من كارمن أو من «الخفاش»[1] عزفت رباعية شوبرت أو اللحن الثنائي لهاندل . والحق أن ذلك سيكون حتى أكثر سوءاً. وفي ذات مرة توجب علي أن أتحمل ذلك في ظروف مماثلة حين كان عازف الكمان الأول في أوركسترا المقهى يعزف مقطوعة باخ «جاكونا»[2] في قاعة تتناثر فيها اعداد قليلة من الحضور وبينما كان عازف الكمان هذا مندمجاً في عزفه، التقطت مسامعي الأصوات التالية وفي وقت واحد : سيدان يدفعان الى النادلة حساب طعامهما، ويعدّان قطع النقود المعدنية فوق المائدة؛ سيدة تتدفق حيوية تطالب باسترداد مظلتها من حجرة الملابس محدثة جلبة من حولها؛ طفل مرح في حوالي الرابعة من عمره كان يعبث بالمائدة المكتظة بالقناني والاقداح ، والأكواب والملاعق مصدراً أصواتاً حادة وقصيرة، أمرأة عجوز ضعيفة البصر كانت تدفع بصحن المعجنات إلى حافة المائدة وقد افرغت نفسها على نحو رديء. كل حادثة من هذه الحوادث بحد ذاتها كانت مصادفة فعالة تستحق تعاطفي وانتباهي. إلاّ أن تزامن هجومها مع إغواءات الكثير من المؤثرات السمعية كان يفوق مقدار استجابتي النفسية لها. والموسيقى هي المسؤولة عن ذلك فمقطوعة باخ «جاكونا»(*) كانت لوحدها تسبب الازعاج ـ كلا، ومع كل التقديرللعازفين في الكازينو! ولكن في رأيي أن هذه الحفلة الموسيقية كانت

---

(١) Die Fledermans

(٢) Chaconne

تفتقر الى أمر رئيسي : «القصد». فلا يشكل في نظري وجود مئتي شخص يعانون من الضجر ومن الحيرة في كيفية قضاء وقت الظهيرة سبباً كافياً للموسقيين الجيدين ليعزفوا مقاطع معدلة لتلائم آلاتهم من أوبرات شهيرة . وما كان ينقص هذه الحفلة الموسيقية هو ببساطة العاطفة، والروح : الضرورة ، والاحتياج المضطرم ، وتوتر النفوس المتحرّقة لأنعتاقها عبر الفن ورغم هذا ، قد أكون مخطئاً في ذلك . وعلى أية حال، سرعان ما رأيت أن جمهور المستمعين الذي كان بالأحرى متبلد الحس، لم يكن حشداً متجانساً بل مؤلفاً من كثير من الأرواح المتفردة. وأحد هذه الأرواح كان يتفاعل مع الموسيقيين بحساسية مرهفة، في مقدمة القاعة، وقريباً جداً من منصة قائد الاوركسترا العالية، حيث يجلس صديق يهيم بالموسيقى، سيد ذو لحية سوداء، ونظارات أنفية ذهبية اللون ينحني الى أقصى الوراء في كرسيه، مغمض العينين ورأسه الجميل يتمايل بترنح مع إيقاع الموسيقى، وما أن أوشكت المقطوعة على الانتهاء حتى جفل ، وفتح عينيه فجأة واندفع في أول عاصفة تصفيق، ولم يرضه التصفيق وحده وإنما نهض واعتلى المنصة ، واستطاع أن يشد انتباه قائد الفرقة ، وأن يغمره بثناء حماسي وسط تصفيق الحشد المتواصل.

تعبت من الوقوف ولم تأسرني الموسيقى مثلما فعلت مع الرجل المتحمس الملتحي ، فأخذت أفكر بالرحيل خلال فترة الاستراحة الثانية ، وفي هذه الأثناء سمعت صوتاً محيراً يأتي من الغرفة المجاورة . سألت مصاباً بعرق النّسا يقف قربي وعلمت بأن تلك كانت قاعة قمار، فأسرعت إلى هناك فرحاً. وبالضبط هنا ثمة شجيرات نخيل ومقاعد مدورة فاخرة تنتشر في زوايا الغرفة، وحول طاولة خضراء كبيرة كانوا يلعبون الروليت. اتجهت نحو الطاولة المحاطة بحشد من المتفرجين الفضوليين ومن بين اكتافهم استطعت أن أشاهد جزءاً مما يجري.

كان رئيس الطاولة أول من انتبه إليّ. سيد حليق الذقن ، سترته سوداء تبلغ الركبتين ، في عمر يصعب تحديده ، شعره بني ومظهره هادىء رابط الجأش، يملك مهارة مدهشة في تحريك النقود بسرعة البرق من أية زاوية من زوايا الطاولة إلى الأخرى، بيد واحدة ، مستعيناً بعصا مطاطية غريبة او مِدَمَّة(1).

كان يتلاعب بمدمّة النقود المرنة مثل صياد سمك السلمون المرقط الماهر وهو يمسك صنارته، وكان بإمكانه أيضاً قذف النقود في الهواء على شكل قوس كي تستقر تماماً في الزاوية المطلوبة . وخلال هذه الفعاليات كلها التي تتحكم في ايقاعاتها صيحات مساعده الشاب، الذي يلاحق الكرة بنظراته ، كان رئيس الطاولة الهاديء ، حليق الذقن ، ذو الوجه المتورد تحت الشعر البني الذي كان يفتقد الحيوية إلى حد ما يبقى ساكناً بثبات خالياً من أي تعبير. راقبته لفترة طويلة يجلس هناك دون حركة فوق كرسيّه الصغيرو غريب التركيب ذي المقعد المائل . وراقبت كيف تتحرك عيناه الحادتان لوحدهما في وجهه الجامد، وكيف يقذف القطع النقدية في عبث بيده اليسرى ويجمعها هازلاً بيده اليمنى بالمدمة وينقلها بخفة إلى الزوايا . كانت القطع المعدنية الفضية الكبيرة منها والصغيرة تتراكم أمامه ولم يكن بمقدور حتى شتينس أن يمتلك المزيد . ومرة بعد أخرى كلن مساعده يرمي الكرة التي تتدحرج في الفجوة المرقمة ، ويحث الحشد أن يلعب ، ويعلن ان الرهانات قد تمت، ويحذر أنه «لن يكون هناك المزيد منها»(2) ويواصل رئيس الطاولة الوقور اللعب والعمل .

كنت قد رأيت ذلك مراراً قبل سنوات مضت، في زمن أسطوري بعيد يسبق الحرب، في أعوام رحلاتي وتجوالي، وفي العديد من مدن العالم . رأيت هذه

---

(1) مِدَمَّة : أداة زراعية على شكل مشط تستخدم في تسوية التربة وجمع الأوراق والأعشاب.

(2) هذه العبارة جاءت بالفرنسية "Rien ne va plus"

النخلات والمقاعد المنجّدة ، وهذه الطاولات الخضر والكرات ، ومن ثم فكرت بالوجوه الوسيمة المتوردة لمقامري تورجنيف وديستويفسكي لأشيح وجهي عنها وانصرف . أما هنا ، فقد استوقفني أمر واحد بينما كنت واقفاً أتابع ما يجري ذلك أن اللعبة بأكملها كانت تدور من أجل تسلية السيد ذي السترة السوداء لا غير . كان يرمي بقطعهِ المعدنية ، ويدفعها من (٥) إلى (٧) ، ومن عدد فردي إلى زوجي، ينفق ما يربحه ، ويكسب بسرعة ما خسره، ولكن كلها كانت نقوده، فلم يدخل احد من المتفرجين رهاناً، جميعهم كانوا مرضى في المنتجع ، وأغلبهم من مناطق ريفية، ويتابعون ببهجة وإعجاب كبير، مثلما كنت أفعل أنا ، دوران السيد الرابط الجأش ويستمعون الى صيحات مساعده، التي كان يطلقها باللغة الفرنسية وببرودة جليدية ، وعندما وضعت فرنكين في أقرب زاوية إلي من الطاولة، مدفوعاً بالرثاء ، استدارت نحوي خمسون عيناً مجفلة أزعجتني لدرجة أنني بالكاد استطعت انتظار فرنكيّ حتى يختفيان تحت المدمّة لاتمكن من المغادرة بسرعة.

أمضيت اليوم بضع دقائق أيضاً أمام نوافذ مخزن في شارع باده . ففي عدد من المحلات هناك، يمكن لنزلاء المنتجع أن يبتاعوا تلك الحاجيات التي كانت تبدو ضرورية لهم؛ بطاقات بريدية، أسود وسحالي من البرونز،منافض سكائر عليها صور شخصية لرجال مشاهير (حتى يستطيع المشتري، مثلاً ، أن يسلي نفسه يومياً بسحق سيجارته المشتعلة في عين ريتشارد فاغنر(*)) ، والعديد من الأشياء الأخرى التي لم أجازف بإبداء رأي فيها. فرغم مراقبتي الطويلة لها لم اتمكن من معرفة طبيعتها وغرضها ؛ فالكثير منها يبدو ملائماً لمتطلبات

(*) ريتشارد فاغنر : - (١٨١٣ - ١٨٨٣) مؤلف موسيقي الماني . أدخل الدراما إلى الأوبرا.

العبادة عند القبائل البدائية . وقد أكون مخطئاً ، فمثل هذه الأشياء مجتمعة كانت تشعرني بالحزن، لأنها تبين لي بكل وضوح ، بأني رغم رغبتي الصادقة في أن أكون إنساناً اجتماعياً، ما زلت أعيش خارج عالم الطبقة المتوسطة الحقيقي، ولا أعرف عنه شيئاً ، وإني رغم كل الجهود التي بذلتها طيلة أعوام في الكتابة ، لن أكون قادراً حقاً عل فهم هذا العالم بعد الآن، بنفس القدر الذي أعجز فيه عن جعل نفسي واضحاً له . حينما كنت أتطلع إلى نوافذ المخازن التي لم تكن تعرض أشياء يحتاجها المرء كل يوم لكن أشياء من الممكن تسميتها هدايا ، ومواد كمالية ، وأخرى عابثة ، ويتتابني الرعب من غرابة هذا العالم . فمن بين مئات الأشياء ، هناك عشرون أو ثلاثون فقط أستطيع أن أدرك بشكل مبهم غرضها ومعناها ولم تستعمل ولا يمكنني أن أتخيل أن شيئاً واحداً منها يستحق الاقتناء . وقد دفعني البعض منها للتساؤل فترة طويلة: هل يوضع ذلك في قبعتك؟ أو في جيبك؟ أو في قدح جعة ؟ أيخص نوعاًمن ألعاب الورق ؟ صور وكلام منقوش وشعارات ومقتبسات أتت من عوالم خيال مجهول تماماً وبعيد المنال بالنسبة لي . وأيضاً هناك الرموز المبجلة المشهورة التي استخدمت بطريقة لا يمكنني فهمها أو تبريرها . فتمثال بوذا المنحوت أو بعض تماثيل الآلهة الصينية ، الموضوعة فوق مقبض مظلة امرأة ، كمثال على هذه الأشياء ، هي بالنسبة لي وستبقى أشياء محيرة، غريبة ، تسبب الضيق بلى خارقة للطبيعة ؛ ولا يمكن أن تحسب تدنيساً واعياً ومقصوداً للمقدسات. ولكن أية نزوة أو احتياج أو حالة روحية دفعت المزودين أن يتزودوا بهذه الأشياء الحمقاء ودفعت المشترين لابتياعها . هذا ما تلهفت لمعرفته وما لم استطع اكتشافه بأية وسيلة . أو خذ المقهى العصري الذي يتجمع فيه الناس حوالي الساعة الخامسة! بإمكاني أن أفهم تماماً كيف يمكن أن يجد الأثرياء متعة في احتساء الشاي والقهوة وشراب

الشيكولاتة بالكريمة المخفوقة مع معجنات شهية غالية الثمن. ولكن لم يسمح البشر ، الأحرار في امتلاك قدراتهم أن يعكر متعتهم بهذه الأشياء موسيقى مضجرة ، دخيلة ، مفرطة في عذوبتها تحاصرهم مقاعد ضيقة، غير مريحة ، لا تغري بالجلوس الى حد لا يوصف،ومحشورة في غرف ضيقة ممتلئة جداً، ومكتظة بالزخارف والتصاميم غير الضرورية . لا أعرف لماذا يجب عليهم أن يجربوا هذه الأشياء ليس باعتبارها أشياء مزعجة ومقلقة للراحة ومتناقضة بل على العكس كأمر يستحق الإعجاب والبحث عنه. هذا ما لم أتمكن من فهمه أبداً، وقد اعتدت على أن أعزو فشلي كما أشرت سابقاً إلى عقليتي المصابة بشيء من الفصام . وظل هذا الأمر يقلقني باستمرار وكان نفس هولاء الأثرياء والمتأنقين الجالسين في هذه المقاهي والذين تمنعهم موسيقى ذات عذوبة لزجة من الكلام،من التفكير، بل وتكادتمنعهم من التنفس، والمحاطين بأجواء مثقلة بالترف، بالرخام والفضة والسجاد، والمرايا . نفس هؤلاء الناس يستمعون في المساء ببهجة ظاهرة إلى محاضرة عن البساطة النبيلة لأسلوب الحياة اليابانية، وتعلو مناضدهم في المنزل كتب أساطير النساك ومواعظ بوذا وقد طبعت وجلّدت علي نحو جميل. وأنا بالتأكيد لا أتمنى أن أكون متعصباً أو معلماً اخلاقياً ولا تغويني كل سهولة حتى الكثير من الخطايا الجسورة والخطرة . ويفرحني أن أرى الناس سعداء، فمن الممتع أن تحيا مع أناس مبتهجين - ولكن هل هؤلاء حقاً أناس مبتهجون وهل يستحق الرخام، والكريمة المخفوقة والموسيقى جميعاً عناء أي شيء؟ ألا يقرأ هؤلاء الناس ذاتهم - ذو الأطباق العامرة بأنواع الأطعمة الممتازة الشهية، الذين يقف أمامهم خدم يرتدون بزات مميزة - في صحفهم تقارير المجاعات، والثورات وإطلاق النيران والاعدامات؟ ألا

يمكن أن يكون هنالك خلف النوافذ الكبيرة البلورية لهذه المقاهي عالم مضرج بنزيف الفقر واليأس، مليء بالجنون والانتحار؛ بالخوف والفزع؟ حسناً ، نعم ، فأنا أعلم أن ذلك كله ينبغي أن يوجد ، وأنه في شكل من الأشكال صحيح ، وإن الله يريده هكذا . إلاّ إنه أمر أعرفه فقط بالطريقة التي يعرف فيها المرء جدول الضرب وهو ليس نوعاً مقنعاً من المعرفة . وفي الواقع ، لقد وجدت أن كل ذلك ليس صحيحاً على الإطلاق أو لا يتفق مع مشيئة الرب، فهو الجنون والرعب بعينه.

ضجة مزعجة في رأسي. عدت إلى المخازن التي تعرض البطاقات البريدية المصورة ، هنا أعرف طريقي جيداً . أجد في نفسي الجرأة لأقول بأني قد تفحصت البطاقات البريدية التي تحمل صوراً من بادن بطريقة شاملة تماماً، في محاولة مني لأحصل على معرفة أفضل بمريض المنتجع العادي، كي أقدر نفسيته عن طريق دلائل احتياجاته هذه. وتوجد فعلاً مجموعة من الصور الجميلة لمناظر بادن القديمة، وكذلك مجاميع لوحات قديمة وكليشيهات محفورة لمشاهد الاستحام التي يستنتج منها المرء بأن الاستحمام في بادن في الأزمان القديمة كان يوخذ مأخذاً أقل جدية وأقل تحفظاً ، وربما أقل ارتباطاً بالصحة من اليوم ،ولكنه فقط على سبيل التعويض. كانت الحياة وعملية الاستحمام آنذاك بالتأكيد أكثر امتاعاً ، وجميع هذه المناظر القديمة بكل ابراجها والسطوح الجملونية ، وطرازها، تحرك في داخل النفس شعوراً شفيقاً بالحنين الى الوطن رغم أنه من الطبيعي أن لا يرغب المرء بالعودة للعيش في تلك الأزمنة. فصور المدن هذه ، ومشاهد الشوارع ، والحمامات ، سواء كانت تعود الى القرن السادس عشر أو الثامن عشر، تشيع بصمت وعذوبة حزناً هادئاً حقيقياً.

وفي جميع هذه الصور ، لأن كل ما فيها جميل، وفوق كل شيء يبدو السلام سائداً فيها بين الطبيعة والبشر ولم تكن تبدو المنازل والأشجار في حالة حرب مع بعضها البعض . فالجمال والاتساق يلف كل شيء، من أيكة شجرات جار الماء(*) إلى أثواب الفتيات الريفيات، ومن البوابات ذات الشرفات إلى الجسور والينابيع وحتى إلى كلاب الصيد الهزيلة التي تتجول على عمود الامبراطورية التذكاري ، تجد أشياء مضحكة وغبية وتافهة في العديد من هذه الصور . ولكن لا تجد ما هو قبيح، وما هو حاد؛ فالبيوت تصطف قرب بعضها مثل أحجار الحقول أو مثل الطيور وهي تجثم في صف فوق الدرابزون، بينما في المدن الحديثة يصرخ كل منزل تقريباً في وجه المنازل الأخرى ، ويتنافس معها، ويحاول أن يزيحها عن طريقه بعنف.

وأذكر كيف امتلأت ذات مرة ، وفي مأدبة رائعة حيث كان يرتدي كل الحاضرين أزياء تعود إلى عصر موزارت ، عينا حبيبتي وعلى حين غرة بالدموع، وحين سألتها فزعاً عن السبب أجابت : «لا ينبغي أن يصبح كل شيء بمنتهى القبح في أيامنا هذه؟ فواسيتها بقولي إن حياتي لا تكن سيئة على الإطلاق فهي أكثر حرية ، وأكثر غنى وأكثر رحابة من تلك الأيام . فتحت الشعر المستعار الفاتن كانت ترزح القملات ، وخلف فخامة القصور المغلفة بالمرايا والثريات يوجد بشر جياع مضطهدون ، وذلك كله في صالحنا إذا احتفظنا من تلك الأيام بالأجمل فقط ـ وهو ذكرى الجانب المرح من يوم الأحد. ولكن ليس كل يوم يكون المرء منطقياً بهذا الشكل.

(*) جار الماء : ـ شجر حرجي يألف الماء.

لنعد إلى البطاقات البريدية : ففي هذا الجزء من البلاد ثمة مجموعة خاصة من البطاقات البريدية المصورة لا تفتقر إلى الأصالة أبداً، وتدعى هذه المنطقة في اللغة بـ «أرض اللفت(*)». وتستعرض السلاسل المختلفة من الصور مشاهد شعبية من كل نوع، من المدرسة ، ومن حياة الجيش ، نزهات عائلية، مباراة في الملاكمة، وقد صور الناس جميعاً فيها بما يشبه نبات اللفت فترى عشاقاً من اللفت، ونزاعات بين اللفت واجتماعات لفتية وبلا شك ، فإن هذه البطاقات تتمتع بشعبية واسعة ، إلا إنها رغم ذلك لم تثر فيّ أيّ شعور بالفرح . وإلى جانب المناظر التاريخية والصور اللفتية ، لا بد أن أذكر مجموعة كبيرة ثالثة، وهي المشاهد الجنسية. وقد يظن المرء أنه من الممكن في هذا المجال، الحصول على أمر ما ، بعض الخصوصية ، شيء من الحيوية ومن العنفوان الذي يمكن اضفاؤه على العالم الداكن لنوافذ المخازن عند وضع هذا النوع من الصور. إلاّ إني توقفت عن التطلع إليها بعد الأيام القليلة الأولى، فقد صعقت لرؤية حياة الحب تعالج باختصار بالغ في عالم الصور هذه. فالمئات منها في هذه المجموعة تمتاز بسذاجة تبعث على الاسى والخجل. هنا أيضاً كنت قد فقدت صلتي بكل ما قد يوحي بالذوق الشعبي فلو كلفني أحدهم بجمع صور تمثل الحياة العاطفية، كنت بالتأكيد سأجمع صوراً مختلفة تماماً . فالصور المعروضة هنا، تفتقد الى ما يبعث عل الإثارة الجنسية الخالصة وكذلك الى شاعرية اللعبة شبه الخفية. ولكن ما تراه سائداً هو اجواء الخطوبة العذبة الخجلة ؛ وأزواج العشاق يرتدون ملابس من طراز حديث اختيرت بعناية ، وعرسان بسترات صباحية وقبعات عالية في الغالب، وباقات زهور تزين أيديهم ، وأحياناً يضاف إلى هذه قمر يشع وتحت الصور أبيات من الشعر لتوضيح الموقف ، مثال ذلك:

(*) Turnip Land

«آه أيها الكائن الجميل ، في ضوء القمر»

أرى حنيني للنعمة منعكساً في عينيك.

شعرت بخيبة كبيرة؛ فمن الواضح أن صانع هذه البطاقات البريدية كان مدركاً فقط لجانب تقليدي غير هام من الحب . ومع هذا فقد لاحظت بعض الأبيات التي تمثل الشعر الشعبي في زمننا ذلك ، وهذا مثال عليه:

«يد بيد مع حبيبتي

ذلك هو تصوري عن وحدة الروح المقدسة»

قد يبدو هذا الشعر لنا خالياً من النبوغ إلاّ أنه كان يتمتع بقيمة راقية مقارنة مع الصورة التي يصاحبها. فتاة يانعة ، رأسها مقتبس بكل وضوح من نموذج مصنوع من الشمع عند حلاق الشعر، تجلس فوق دكة تحت شجرة ، يقف أمامها سيد شاب يرتدي ملابس فاخرة وقد انهمك في وضع قفازاته أو خلعها.

واليوم أيضاً أقف ثانية لوهلة أمام هذه الصور، ينتابني شعور بالأسى والضجر، ورغبة عارمة قوية بأن القي عالم الحفلات الموسيقية التي تثير الاستحسان قطعاً ، والمقامرين ، والعشاق التقليديين ولاصور اللفتية ، برمته ورائي. اغلقت عيني دونه وتضرعت إلى اللّه في قلبي من أجل الخلاص ، لأنني أحسست بأني لست بعيداً عن هجمة الشعور بالخيبة العميقة والقرف البليد من الحياة. ومما يثير حزني، أنه دائماً ما كان يكتسحني ، في الوقت الذي أحاول فيه بإيمان حقيقي وبجدية أن اتجنب عزلتي ، وسبل النساك ، وأشارك غالبية البشر أفراحها وأتراحها .

وقد مدّ اللّه يد العون لي . فما كدت أغلق عيني وأنأى بقلبي بعيداً عن عالم المنتجع واللفت وكلي لهفة روحية لكلمة، لصوت من تلك العوالم الأخرى، والأكثر الفة إلى نفسي والأكثر قداسة، حتى حل وحي الخلاص. فقد كانت في فندقنا زاوية قصية لا يعرفها النزلاء وضع فيها مضيفنا ، الذي كان يملك العديدمن مثل هذه الأفكار الانيسة ، حيواني الدّلق الصغيرين في قفص سلكي ذي سعة مريحة ، شعرت فجأة بشوق لرؤية الدّلفين واستسلمت لهذه الرغبة باندفاع أعمى ، فعدت مسرعاً إلى الفندق للبحث عن قفص الحيوانات هذا . وما كدت أصل إليهما حتى كان كل شيء على أتم وجه ، فقد وجدت الشيء ذاته الذي كنت بحاجة إليه في تلك اللحظة الحرجة. فهذان الكائنان الجميلان والنبيلان المفعمان بالثقة والفضول كما الأطفال ، كانا من السهل ملاطفتهما حتى يخرجان من وكرهما ليبدءا بالتسابق منتشين بقوتهما وخفتهما كانا يقفزان قفزات جامحة عبر القفص الواسع، ومن ثم يقفان بالقرب مني عند الأسلاك ، وقد أخذا يتنفسان بصعوبة من خلال خطمهما الوردي اللون ويتنسمان بدفء ونداوة فوق يدي . ولم أكن احتاج أكثر من أن اتطلع في أعين الحيوانات الصافية هذه وأرى هذه التحفة الرائعة المكسوة بالفرو ، أفكار الرب هذه ، وأشعر بأنفاسهم الحية الدافئة، واشم رائحتهم الحادة الوحشية الضارية - كان ذلك كافياً ليقنعني بالوجود القوي لجميع الكواكب والنجوم الثابتة ، وكل غابات النخيل والأنهار الاستوائية . وكان الدلقان ضمانتي لذلك، رغم أنه كان من الممكن أن تكون رؤية أية سحابة عابرة ، أو أي ورقة من عشب أخضر برهاناً كافياً ، إلاّ إني كنت بحاجة إلى مثل هذا البرهان الأكبر قوة .

كان الدلقان أكثر إقناعاً من البطاقات البريدية المصورة ، ومن الحفلات

الموسيقية ، وصالات القمار . وما دام هنالك حيوانات دلق ، وهنالك رائحة العالم البدائي، وما دامت هنالك الغريزة والطبيعة يبقى العالم ممكناً أن يحيا فيه الشاعر ، جميلاً وواعداً . أخذت نفساً عميقاً وشعرت أن الكابوس قد تبدد، ضحكت على نفسي ، وجلبت قطعة سكر للدلّقين ، وانطلقت من جديد ، أهيم في المساء . كانت الشمس قد اقتربت من حد الجبال المكسوة بالغابات ، وغطت برقة السماء الزرقاء غيمة ذهبية صغيرة كانت تشع تألقاً وطفولة فوق وادي أثامي ؛ ابتسمت ، وشعرت بأن الساعات الهنية تقترب ، فكرت بحبيبتي ، ولهوت بأبيات الشعر المنبعثة من الداخل ، شعرت بالموسيقى ، وأحسست بالسعادة والهيام يتدفقان عبر العالم ، وبكل تبجيل القيت عن كاهلي كل هموم اليوم، أتنقل من شكل إلى آخر ، طيراً ، وفراشة ، سمكة سحابة تمر عبر عالم الأشكال السعيد ، الزائل ، الذي يشبه الطفولة.

لن أقدم هنا أي تقرير عن تلك الأمسية ، التي عدت متأخراً فيها إلى البيت متعباً وسعيداً فقد تنهار كل فلسفتي عن مرض عرق النسّا لو فعلت ذلك . عدت جذلاناً ، منهكاً ، أغني . وحتى النوم ، تصور ، لم يهرب مني تلك الليلة ، حتى النوم ، ذلك الطائر الهياب، بل اقترب بطمأنينة وحملني بعيداً فوق جناحيه الزرقاوين إلى الجنة.

الهولنـــــدي :

كنت أحاول منذ أمد بعيد إرغام نفسي على كتابة هذا الفصل وقد حان وقت فعل ذلك .

منذ اسبوعين ، انتقيت بعناية وحكمة لا مثيل لهما غرفة تحمل رقم ٦٥،

ولم يكن اختياراً سيئاً بشكل عام . فورق الحائط ذو ألوان مشرقة ومقبولة للنظر، والسرير موضوع في فجوة بجدار الغرفة، التي كانت تسرني بمجملها بسبب تناسقها الغريب والمبتكر ، وإضاءتها الجيدة ولكونها تطل على النهر وعلى مزرعة الكروم، ولأنها تقع من أعلى طابق من المبنى ، فلا أحد يعلوني ، ولا تكاد ضجة الشارع تصل إلي. لقد أحسنت الاختيار . وازددت طمأنينة أيضاً حين سألت عمن يسكن الغرف المجاورة، فعلى أحد الجوانب تعيش سيدة عجوز ، لم يتناهى أي صوت من غرفتها إلى مسامعي . وأما على الجانب الآخر في الرقم ٦٤ فيعيش الهولندي ! وخلال أثني عشر نهاراً ، واثنتي عشرة ليلة مريرة ، أصبح هذا السيد مهماً للغاية ، بل وأكثر من مهم ، إذ أصبح شخصية أسطورية بالنسبة لي، إله زائفاً، شيطاناً ، شبحاً لم أستطع أن أهزمه إلاّ في الأيام القليلة الماضية.

لا أحد كان سيصدقني القول لو حكيت عنه . فهذا السيد القادم من هولندا الذي تعارض مع عملي ، وحرمني النوم ليالي، لا هو بالمجنون الذي اشتد اهتياجه، ولا بالموسيقي المتحمس . فهو لا يعود إلى غرفته ثملاً في ساعات غير متوقعة ، أو يضرب زوجته أو يتشاجر معها، وهو لا يصفر أو يغني ، وفي الواقع أنه حتى لا يغط في نومه ، أو على الأقل ليس بالصوت العالي الذي يمكنني سماعه. فهو رجل يعتمد عليه، مطيع للقانون ، غادر سن الشباب،ويعيش على نحو نظامي وكأنه الساعة وليس له عادات سيئة ظاهرة - كيف يمكن إذن لهذا المواطن المثالي أن يجعلني اعاني بهذا الشكل ؟

ولكنه ممكن، نعم أنه ، وياللحسرة ، حقيقة . فسبب تعاستي أمران رئيسيان وهما : هناك باب يفصل بين الغرفتين ٦٤و٦٥ ؛ وهو بلا ريب ، باب مغلق بل ومقفل أيضاً، تعترضه منضدة ، وهو بأية حال باب سميك ، وكان

هذا سوء حظ، ولا يمكن التخلص منه. وأما الثاني فكان أسوأ : فقد كان للهولندي زوجة، هي أيضاً لم يكن من الممكن إخراجها عن العالم أو من الرقم ٦٤ بأية وسيلة شرعية. وثمة أيضاً سوء الحظ غير الإعتيادي الذي جعل جاري،مثلي ، ينتمي إلى العدد القليل نسبياً من نزلاء الفندق ، الذين يقضون أكبر جزء من أيامهم في الغرف .

أما لو كانت تصحبني زوجة ، أو لو كنت معلم غناء أو أملك بيانو أو كماناً ، أو بوقاً ، أو مدفعاً أو طبلة، لكنت قد بدأت الحرب ضد الهولندي ببعض الأمل في النجاح، ولكن الموقف هو كالتالي: خلال ساعات اليوم الأربع والعشرين لا يسمع الزوجان الهولنديان أي صوت يصدر عني، كنت أعاملهما مثلما يُعامل الملوك أو المصابون بمرض خطير وامنحهما باستمرار هبة الصمت التام المطبق الذي لا يمكن تصوره. وكيف أرجعا لي هذا الفضل ؟ كانا يمهلاني ست ساعات يومياً يخلدان فيها إلى النوم كل ليلة من الساعة الثانية عشر حتى السادسة صباحاً وكان عليّ أن أكرس هذه الساعات للعمل أو للنوم أو للصلاة أو للتأمل. وأما الساعات الثماني عشرة الباقية من اليوم فليس لدي أدنى تحكم فيها، فهي لا تنتمي إليّ ، بمعنى من المعاني ، ليس لهذه الساعات الثمانية عشرة اليومية وجود في غرفتي وإنما توجد فقط بالغرفة رقم ٦٤. فطوال الثماني عشرة ساعة هناك ثرثرات وضحكات ، وأصوات دورة المياه واستقبال ضيوف . ولم يكن هنالك إطلاق للأسلحة النارية، أو عزف موسيقى ، ولا كانت تجري مباراة في الملاكمة، يجب أن أقر بذلك . ولا كان أي تفكير ، وأية قراءة، وأي تأمل ، وأي سكون . كان سيل أحاديثهم يتدفق باستمرار وغالباً ما يوجد أربعة أو خمسة أشخاص، وفي الأمسيات يتجاذب الزوجان الحديث مع بعضهما حتى الساعة الحادية عشرة والنصف. ثم يأتي صوت اصطكاك الأقداح والأواني

الصينية ، وصوت تنظيف الأسنان وتحريك عدد من الكراسي ولحن الغرغرة ، وبعدها يبدأ صرير الأسرة ، ثم يحل الصمت (فلتضع ذلك في اعتبارك مرة أخرى) وحتى حوالي السادسة صباحاً . ينهض في هذا الوقت أحد الزوجين ، ولا أعرف إن كان هو أم هي، ليرج الطابق . يذهب إلى غرفة الحمام ، ليعود بعدها لفترة قصيرة ؛ وفي غضون ذلك ، تكون ساعة استحمامي قد حلت ، وفي الوقت الذي انتهي منه ، يتدفق سيل الأحاديث وأصوات الحفيف والضحكات وتحريك قطع الأثاث وهلم جرا دون انقطاع حتى قبل منتصف الليل بقليل .

لو كنت إنساناً منطقياً ، طبيعياً أشبه الآخرين، لكان باستطاعتي أن اكيّف نفسي بسهولة مع هذا الوضع . وبما أن أثنين أقوى من واحد ، فليس أمامي سوى أن استسلم ، وأقضي اليوم في مكان آخر غير غرفتي، في حجرة المطالعة أو في حجرة التدخين، في الممرات، في الكازينو ، في المطاعم ، كما يفعل معظم النزلاء. كنت أخلد في الليل إلى النوم دون عناء، وعوضاً عن ذلك، تتسلط علي عاطفة مضينة ، وسخيفة ومهتاجة لقضاء معظم ساعات النهار وحيداً على منضدتي أصارع لأفكر، وأصارع لأكتب، وغالباً فقط لأمزق فيما بعد ما كتبته؛ وفي الليل تتملكني رغبة عارمة جامحة للنوم، إلاّ أن النوم بالنسبة لي عملية معقدة قاتمة تتطلب ساعات، ومن ثم فإن نومي خفيف جداً، وقليل جداً ، وفي غاية الرهافة، ومن الممكن ان يحوله صوت تنفس إلى هشيم . ولو أعياني التعب في الساعة العاشرة أو الحادية عشرة، وكنت على وشك الرقاد، فلن اتمكن من النوم رغماً من هذا طالما كان جاراي الزوجان الهولنديان يواصلان حياتهما الاجتماعية. وبينما أنا أنتظر ، مرهقاً ومتحرقاً

لحلول منتصف الليل، وإلى أن يمنحني الرجل القادم من الهاك(*) الإذن بالنوم في النهاية ، أصبح بسبب الإنتظار والتنصت ، والتفكير بعمل الغد في منتهى الصحوة والانفعال لدرجة أن أكبر جزء من ساعات الهدوء الممنوحة لي تنقضي قبل أن أتمكن أخيراً من الذهاب إلى الفراش.

هل أحتاج ان اقول بصراحة اني أعلم كم انا غير منطقي في مطالبتي الهولندي ان يدعني انام مدة اطول؟ أينبغي ان اقول كم انا مدرك تماماً انه غير مسؤول عن نومي المضطرب او ميولي الفكرية؟ فانا اكتب هذه الملحوظات عن بادن، لا لأتهم الآخرين، او لابريء نفسي وانما لأدون التجارب، حتى لو كانت تجارب محرفة بشكل غريب لأنسان مضطرب عقلياً. والسؤال الآخر الأكثر تعقيداً في المبررات للمضطرب عقلياً ، ذلك السؤال البغيض والمروع الذي يناقش أن المرء إذا ما أصيب بالإضطراب العقلي في ظروف زمنية وثقافية معينة، فإنه لا يستحق الإجلال والإحترام أكثر من ذلك الذي يكيف نفسه لأحوال ذلك الزمن مضحياً بكل مثله العليا ـ هذا السؤال المقزز ، الذي واجه كل العقول المميزة منذنيتشه ، وسأتركه دون جواب في هذه الصفحات ؛ وعلى أية حال فهو يشكل موضوع جميع كتاباتي تقريباً.

ونظرا للظروف التي ذكرتها آنفاً ، أصبح الهولندي يشكل مشكلة لي. ولا أستطيع أن أفسر لنفسي كلياً لماذا أنا منشغل في تفكيري وحديثي بالهولندي وحده. إذ يوجد ، قبل كل شيء ، زوجان إثنان ، ولكن سواء كان بسبب التودد الغريزي للنساء الذي يجعلني أشعر بأني أكثر تسامحاً معهن من الرجال ، أو سواء كان صوت الرجل ووقع أقدمه الثقيل جداً هما حقاً الشيئان اللذان يزعجانني بشكل خاص ، فإنها ليست «هي» إنما «هو» ، الهولندي سبب

* Hague: مدينة في هولندا ـ أو الهاخ كما يلفظها الهولنديون.

معاناتي . وإلى حد ما ، فإن هذا الإغفال الغريزي للمرأة من مشاعر الكره التي أحملها ومن نظرتي إلى الرجل بشكل اسطوري على أنه عدو ، وغريم ، يستند إلى دوافع أساسية في غاية العمق: فالهولندي ، المفعم بالصحة والحيوية ، ذو المظهر المتــرف ، والسلوك الجليل ، ومحفظة جيبه الممتلئة ، هو بالنسبة لي دخيل ، وعدو بسبب كيانه المتفرد .

هو سيد يقرب عمره من الثانية والأربعين متوسط القامة ، قوي ، قصير البنية ، ويترك انطباعاً حسناً بأنه رجل معافى وسوي، وجهه وجسده ممتلئان ودائريان ، رغم أنهما لا يلفتان النظر إلى حد كبير ، ويبدو رأسه ، الكبير ، المهيب مع جفنيه المجهدين نوعاً ما ، وكأنه يضغط بشدة على الجسد ما دام يستند على رقبة قصيرة لا تكاد ترى . ورغم أنه كان يتحرك برصانة ، وسلوكه مثير للإعجاب إلاّ إن قوته وثقل وزنه لسوء الحظ يجعلان تحركاته وخطاه تعبر عن نفسها بشكل توكيدي وتصل الأسماع بوضوح أكثر مما يتمناه المرء في جاره، كان له صوت خفيض هادىء ولا تنوع يذكر في نبرته أو جهارته. ولو أخذت كامل شخصيته بتجرد فإنهما تعطي انطباعاً وقوراً ، موحياً بالثقة والطمأنينة؛ انطباعاً جذاباً على الأغلب. وأما الناحية المزعجة فيه، وهي حقيقة أنه كان عرضة لنزلات برد صغيرة (وهذا ينطبق على جميع نزلاء المنتجع) تجعله يسعل ويعطس بقوة؛ وعبر هذه الأصوات كـان النشاط والحيوية يجدان متنفساً لهما .

ولذا فإن هذا السيد القادم من «هاك» كان سيء الحظ لأنه جاري ، وفي النهار كان العدو، المزعج وغالباً المدمر لجهودي الفكرية ، وأما في جزء من الليل فهو العدو المبدّد وعبئاً علي في كل يوم يمضي . فقد مرت عدة أيام مشمسة دافئة منحتني فرصة العمل في الهواء الطلق. ففي غيضة صغيرة نائية بحديقة

الفندق ، وحقيبة أوراقي فوق ركبتي ، ملأت صفحات بالكتابة ، ومحصت أفكاري ، وطاردت أحلامي حين قرأت برضا كتاب جان بولتي . وأما في الأيام الممطرة الباردة ، وثمة الكثير منها ، فكنت أجد نفسي طوال اليوم وجهاً لوجه مع عدوي الرابض خلف الجدار ، بينما أنا منكبٌ على طاولتي مركزاً في عملي بصمت في . كان الهولندي يندفع بسرعة إلى أعلى وإلى أسفل يصق في الحوض ، ويرمي جسده فوق كرسيه ، ويحدث زوجته ، ويضحك معها على النكات الملقاة ، ويضيّف صحبه . غالباً ما كانت هذه الساعات بالنسبة لي ساعات مزعجة للغاية ، ورغم أن العمل بحد ذاته كان معيناً لي بشكل كبير . فأنا لست بطلاً في العمل ولا أستحق جائزة للجهد الذي أبذله ، ولكني ما أن أدع نفسي تنساق وراء رؤية ما أو سلسلة أفكار متعاقبة إذا ما أجهدت نفسي في محاولة إعطاء شكلٍ لهذه الأفكار ولو بعد مقاومة لأزمة عند ذاك أنقب عنها بلا هواده غير مدرك لأي شيء آخر قد يبدو مهما لي في ظروف أخرى . كانت هناك ساعات من الممكن أن تقيم هولندا بأكملها احتفالا كنسياً في رقم ٦٤ وما كنت بالكاد لألحظ ما يدور ، لأنني كنت مفتوناً ، ومأخوذاً بلعبة الناسك المتوحدة والخيالية والممتعة، لاهث الأنفاس في سباق خلف أفكاري وقلم حبر مسعور في يدي ، أركب الجمل ، واختار من فيض تداعي الأفكار والمعاني وأتصيد بدأب الكلمة الملائمة. قد يهزأ القارىء، إلا أن الكتابة بالنسبة لنا نحن الكتّاب ، هي في كل وقت عمل مجنون ومثير، رحلة في مركب صغير بعرض البحر تحليق متوحد عبر الكون ، وعندما يحاول المرء أن يختار كلمة واحدة من بين ثلاثة يعرضن أنفسهن ، يصارع في الوقت نفسه ليمسك إحساس وروح الجملة التي ينشؤها بالكامل. وبينما هو يصوغ الجملة في التركيب الذي اختاره ويحكم رتاجات بنائه الشامخ ، يجاهد في ذات الوقت

لكي يبقى بذاكرته روح واتساق الكتاب بأجمعه؛ إنه لنشاط مثير. ومن تجربتي الخاصة ، توصلت إلى أن هنالك نشاطاً آخر يكتنفه نفس هذا التوتر والتركيز؛ وهذا وحده فقط يمتلك هذه الخصوصية وهوالرسم . فالأمر متشابه : أن تمزج كل لون مستقل مع اللون الذي يجاوره بعناية وانسجام فهو أمر ممتع وسهل، ومن الممكن تعلمه ومن ثم تجربته في أي وقت . ولكن علاوة على ذلك ، فإن تمثل أمام ذهن المرء الأجزاء غير المرسومة وغير المنظورة بعد من كامل اللوحة وأن يأخذها بعين الاعتبار وأن يخوض تجربة كل الاختلاجات المتشابكة لحبكة مرهفة، فهذا أمر صعب لدرجة تثير الذهول وقلما يكون النجاح حليفه.

فالعمل الأدبي في طبيعته يتطلب قدرة مرهقة على التركيز بحيث يصبح من الممكن تماماً أن يتغاضى الكاتب في خضم الإندفاع الإبداعي المكثف عن العوائق والفوضى الخارجية . والمبدع الذي لا يستطيع العمل إلا وهو على كرسي وفير، تحت أفضل إضاءة ، مستعملاً لوازم الكتابة التي ألفها ، والورق الخاص وهلم جرا، هو موضع شك لديّ . وبالتأكيد ، كلنا يبحث بشكل غريزي لتوفير كل أجواء الهدوء ووسائل الراحة ، ولكن عندما لا تكون في متناول اليد ، فينبغي المضي دونها . وهكذا كثيراً ما كنت أنجح في الكتابة بوضع مسافة واقية أو جدار عازل بيني وبين رقم ٦٤ يحميني لساعة منتجة ، ولكن ، ما أن يبدأ الإرهاق بالتسلل اليّ، مساهمة معه الحاجة المتراكمة للنوم على نحو كبير ، حتى تبدأ الضجة في الغرفة المجاورة مرة أخرى.

كان حالي مع النوم أسوأ بكثير مما هو مع العمل . ولن أفسر هنا نظريتي عن الأرق المستندة الى الجانب النفسي البحت . ولكن فقط سأقول أن حصانتي الوقتية ضد هولندا ، وتركيزي بعيداً عن الرقم ٦٤ ، كانت تنجح بين حين وآخر أثناء العمل ويتم ذلك بمساعدة قواي السامية . وأما محاولاتي للنوم فقد

جانبها الحظ الطيب هذا .

كلا ، فلو كان المصاب بالأرق ، ضحية لأوجاعه فترة طويلة من الزمن ، مثل حالة بقية الناس الذين يعانون من الإجهاد العصبي المتطور ، فإنه سيوجه مشاعر الرفض ، والكراهية ، والرغبة في التدمير ، ضد نفسه مثلما يوجهها ضد محيطه القريب . وبما أن المحيط المباشر بالنسبة لي كان يقتصر عل هولندا، فقد تراكمت خلال هذه الليالي المؤرقة مشاعر الرفض، والمرارة ، والحقد تجاه هولندا . مشاعر لم يكن من الممكن تبديدها في النهار طالما كان التوتر والاضطراب مستمران بثبات ، فلو كنت مستلقياً في السرير أعاني من الأرق بسبب الهولندي ، ولو كنت محموماً بسبب الإجهاد ، والتلهف المنهك لقسط من الراحة، وسمعت جاري الهولندي يمشي بخطواته الواسعة الثقيلة الثابتة القوية مؤدياً حركاته الراسخة النشيطة ويتكلم بصوت قوي ، عندها أشعر بكراهية عنيفة له .

ومع هذا ، وحتى وسط سلسلة الأحداث هذه ، بقيت واعياً إلى حد ما لحماقة حقدي وكان بإمكاني دوماً أن أبتسم بين الحين والآخر ولدقائق قليلة على هذا الشعور ، وبهذه الطريقة أخفف من حدته. إلاّ إنّ الموقف يصبح مهلكاً حين يكون الحقد المجرد موجهاً فقط صوب ما يقلق نومي ، وصوب إنفعالي ، وصوب الباب غير السميك ، ويصبح خلال اليوم أكثر فأكثر إستحالة لأن يكون حيادياً ويمكن تمييزه، عندها يتنامى تدريجياً ويصير بليداً أكثر فأكثر ، وأحادي الجانب وشخصياً . وفي النهاية ، لم يعد ذو نفع لي أن أقول لنفسي إن الهولندي بريء لا علاقة له بالأمر ، فأنا ببساطة أكرهه و ليس فقط حين تكون خطواته الثقيلة ، وأحاديثه ، وضحكاته التي تصلني في آخر الليل غير مراعية حقاً لمشاعر الآخرين ، كلا ، فأنا الآن أكرهه بشكل حقيقي صادق يشبه ذلك

الكره الخالص ، الساذج ، البليد الذي يشعره صاحب المخزن المسيحي الفاشل الضئيل تجاه اليهود ، أو مثلما يكـره الشيوعي الرأسمالي . حقد الأبله ، الحيواني ، اللاعقلاني ، الجبان في الجوهر أو الحسود الذي استهجنه دائماً في الآخرين ، والذي يسمم السياسة والأعمال ، والحياة العامة ، والذي كنت اعتبر نفسي غير قادر عليه. فلم أعد أكره مجرد سعال الهولندي ، وصوته ، وإنما أكرهه لذاته ، لشخصيته بعينها ، ولو حدث والتقاني خلال اليوم في مكان ما ، وكان راضياً لا يخامره شك ما ، فإنه سيكون بالنسبة لي لقاء مع عدو ومجرم بكل معنى الكلمة ، ويتطلب استدعاء كل فلسفتي لأمنع نفسي من التنفيس عن مشاعرها ، كان وجهه الناعم ، السعيد ، وجفناه الثقيلان ، وشفتاه المكتنزتان بالفرحة وبطنه البارزة تحت صدرته الأنيقة ، ومشيته وسلوكه ، كل هذه سوية كانت ذميمة وبغيضة لي. وأكثر ما كنت أكرهه هو الإشارات التي لا تحصى لقوته ، وصحته ، ومناعته ؛ وضحكته ، ومزاجه الجيد ، وقدرة حركاته ، واللامبالاة المترفعة لنظرته الخاطفة ، وكل ما شابه هذه الدلائل على تفوقه البيولوجي والاجتماعي . ومن الطبيعي أنه لأمر سهل أن يكون المرء معافى ومبتهجاً وأن يلعب دور السيد الراضي عن نفسه لو كان نهاراً وليلاً يفترس من نوم الآخرين وقوتهم ، يزدرد ويستمتع بالسلوك الهادىء لجيرانه وضبطهم لأنفسهم، لو كان ليلاً ونهاراً يجعل الهواء يرتجف في المنزل بسبب نبرات صوته وذبذباته ووفقاً لنزوته . فليأخذ الشيطان هذا السيد القادم من هولندا ! تعود الى ذهني كذلك ذكرى الهولندي الطائر(*) ألم يكن هو أيضاً إبليساً لعيناً وروحاً للعذاب ؟ وأذكر بالأخص ذلك الهولندي الآخر الذي وصفه ذات مرة الشاعر «مولتاتولي» ذلك الشره البدين، اللاهث خلف المال

(*) الهولندي الطائر ـ بحار هولندي خرافي حكم عليه بمواصلة الإبحار حتى يوم القيامة.

والذي كان مصدر ثروته ووداعته المرحة مستمداً من استغلال الملاويين(*) آه مولتاتولي أيها الشجاع !

سيكون بمقدور أصدقائي الذين يعرفون طريقة تفكيري ومشاعري ، ومعتقداتي وعالم مخيلتي ،تفهم كم عانيت في هذا الوضع غير المشرف ،وكم أتعبني وعذبني جدياً هذا الحقد الإجباري الذي حملته لرجل بريء، وأثقل بالهم قلبي - وفي الحقيقة ، لم يكن ذلك سبب براءة «عدوي» والظلم الذي كنت الحقه به وإنما بشكل رئيسي بسبب لا عقلانية سلوكي ، والتناقض الأساسي العميق بين مشاعري الفعلية وكل ما عرفته ، وآمنت به وبجلته ، ولكي أكون دقيقاً ، لم أؤمن بعمق بمبدأ في دنياي ، ولم أقدس يوماً فكرة قدر تقديسي للإنسجام ، الإعتقاد بإن كل ما في الكون يشكل وحده تامة مقدسة ، وإن الأنا تأخذ ذاتها في غاية الجدية . لقد عانيت من ألم كثير كثير في حياتي ، وفعلت الكثير مما هو غبي وغير سار إلاّ أني كنت أستطيع مرة بعد أخرى تحرير نفسي ، ونسيان «أناي» والاستسلام لشعور التوحيد ، وادرك أن الفرق بين الداخل والخارج ، بين «الأنا» والعالم ، ما هو إلاّ وهم ، وكنت استطيع الدخول تلقائياً مغمض العينين إلى الإنسجام والوحدة . لم يكن أمراً يسيراً أبداً بالنسبة لي، فليس ثمة من تعوزه القدرة على التعمق في المقدسات أكثر مني . إلاّ أني، ومرة بعد أخرى ، كنت التقي بتلك المعجزة التي اعطاها اللاهوتيون المسيحيون اسماً جميلاً «النعمة الالهية» ؛ تلك التجربة المقدسة للمصالحة مع النفس ، والتوقف عن التمرد ، والرغبة في الإنسجام والتي لا تعني في واقعها سوى الاستسلام المسيحي «للأنا» والإدراك الهندوسي للوحدة . والآن ها أنا من جديد مملوء بالكره والعدائية . وبالتأكيد ، يوجد آخرون يعيشون الحالة نفسها ،

(*) الملاوي - أحد أبناء شبه جزيرة الملايو.

ولم أكن لوحدي ، فثمة حيوات كاملة لملايين من البشر لم تكن سوى معركة ، توكيد مولع بالحرب للأنا ضد العالم المحيط بهم ، والذين كانت فكرة الوحدة والحب ، والإنسجام ، مجهولة لهم ، ستبدو في نظرهم غريبة وسخيفة وضعيفة ؛ بلى فإن كل المعدل التطبيقي لدين الإنسان المعاصر يتلخص في تمجيد الأنا ومعاركها . فليس بمقدور أحد أن يشعر بالراحة في هذا التعظيم للأنا وصولاتها غير مخلوقات الطبيعة الساذجة ، القوية ، الكاملة، أما بالنسبة للعقلاء، ومن اكتسبوا رؤيتهم عبر الألم ، وبالنسبة للعقول التي حصلت على تميزها من خلال المعاناة ، فمن المحرم عليهم أن يجدوا السعادة في هذه المعركة لأن السعادة بالنسبة لهم يمكن إدراكها فقط عبر استسلام الأنا ، وعبر تجربة الوحدة . فبلا شك أن هؤلاء البشر السذج الذين يحبون أنفسهم ويكرهون اعداءهم ، هؤلاء الوطنيون الذين لم يحتاجوا أبداً للريبة بأنفسهم لأن كل البؤس والأذى يوجد في بلدهم. إنهم بلا شك ليسوا المسؤولين عن هذا أبداً ، وإنما بيطبيعة الحال هم الفرنسيون أو الروسيون أو اليهود ـ ولا يهم من ، فقط ثمة آخرون دائماً ـ هم «الأعداء» ! ربما هؤلاء الناس الذين يمثلون تسعة أعشار من مجمل الناس الأحياء ، كانوا فعلاً سعداء في دينهم البربري البدائي ، وربما هم يعيشون حقاً في سعادة يحسدون عليها وفي حياة يسيرة متحصنين بغبائهم ومقتهم العنيف للتفكير ـ مع أن ذلك كله كان بالنسبة لي موضع شك كبير ، فأنى لي أن أجد قصبة(*) قياس مشتركة لسعادتهم وسعادتي ، ولشقائهم وشقائي؟

كانت ليلة طويلة ، طويلة بشكل معذب تلك التي خطرت لي فيها هذه الأفكار . إضطجعت في الفراش مهتاجاً ومنهكاً ، ضحية للجار الهولندي ،

قصبة : قياس للطول يساوي ٥٫٥٠ يارده ٥٫٥٢٩ متراً.

الذي كان يسعل ويبصق ،ويندفع جيئة وذهاباً ؛ شعرت وعيني مجهدة من القراءة الطويلة (وماذا كنت سأفعل غير ذلك؟) إنه لا بد من أن توضع الآن وبشكل واضح نهاية لهذا الوضع ، لهذا العذاب والاعتداء الصارخ ، وما كاد هذا الخاطر وهذه القناعة أو القرار ، يومض في ذهني ، مشرقاً وبارداً مثل أشعة شمس الصباح ، وما كدت اتخذ موقفاً مجدداً وحازماً أمام روحي - وهو إنه ينبغي فوراً احتمال ما يجري إلى النهاية ولا بد من إيجاد نتيجة له - حتى برزت في رأسي مباشرة وعلى نحو غير متوقع الخيالات الجامحة المألوفة والشائعة والمعروفة جيداً لكل من يعاني من إرهاق الأعصاب في لحظات من الألم الخاص. وبدا إنه لا توجد سوى طريقتين ، من الممكن ان تخرجاني من هذا الموقف البائس ويجب أن أختار أحداهما : إما أن أقتل نفسي أو أن أصفي الحساب مع الهولندي ، أقبض عليه من حنجرته واقهره . (في هذه اللحظة عاد سعاله وبقوة مؤثرة .) كانت كلتا الفكرتين جميلتين ومهدئتين رغم أنهما طفوليتان بعض الشيء . كانت ثمة جاذبية في فكرة قتل المرء لنفسه بأحد الأساليب المعتادة التي كثيراً ما تطرأ على البال ، والتي يصحبها إحساس الإنتحار المميز : «سينفعك جيداً لو قطعت الآن حنجرتك » أما الفكرة الأخرى فكانت جذابة أيضاً : فبدلاً من مهاجمة نفسك ، اقبض على الهولندي ، اخنقه أو اطلق عليه الرصاص حتى الموت وعش كمنتصر على حيويته الوحشية غير الفطنة.

سرعان ما انطفأت هذه الخيالات الساذجة للتخلص إما (من) نفسي أو (من) عدوي . فيمكن أن يستسلم المرء لها لفترة قصيرة ، ويتطلع إلى الأمان في تخيلات يتمنى حدوثها لكنها سرعان ما تذوي وتفقد سحرها.

وبعد تجول قصير عبر هذه المتاهات ، تفقد الأمنية قوتها ولا بد من الإعتراف أن رغباتي كانت مجرد إثارة خيال عابر فأنا لم أرد حقاً فنائي أو فناء

الهولندي. وكان انتقاله من شأنه أن يكون كافياً تماماً ، أخذت أحاول تصور هذا الانتقال . أشعلت الضوء ، وأخرجت دليل سفري من درج المنضدة قرب السرير، وتحملت عناء وضع خطة رحيل متواصل يستطيع الهولندي بها أن يرتحل مبكراً في الصباح التالي ويصل إلى موطنه بأسرع ما يمكن .ومنحتني هذه المهمة بعض المتعة ؛ فقد رأيته ينهض في البرد القاسي للصباح الباكر ، وسمعته يسحب سيفون دورة المياه لآخر مرة في رقم ٦٤ ، يضع جزمته الطويلة ، ويضرب الباب وراءه بقوة وهو يصعد إلى القطار ، يتشاجر مع رجال الجمارك في بازل في الساعة الثامنة من ذلك الصباح ،وكلما نأى به تفكير حسبما يرغب بعيداً كلما شعرت بتحسن ولكن ما أن وصل إلى باريس خارت قوى مخيلتي وتهشمت الصورة كلها إلى أجزاء قبل أن يصل هذا الرجل إلى حدود هولندا .

إلا أن هذه لم تكن إلا تسلية أمضي الوقت بها فالعدو ، العدو الذي في داخل نفسي ، لا يمكن التغلب عليه بهذه الطريقة البسيطة جداً ، والباهظة الثمن جداً . ولم تكن هي مسألة أخذ ثأر من نوع ما من الهولندي ، بل ببساطة كانت مسألة تحقيق موقف إيجابي تجاهه يليق بي . فالمهمة كانت واضحة تماماً : ما كان علي فعله هو أن أهدم كراهيتي الخالية من المعنى ، وأن أحب الهولندي ، فأجعله بهدا يصق ويتذمر وسأكون متفوقاً عليه، وصامداً أمامه . ولو نجحت في أن أحبه ، عندها لن يعود كل ما يتمتع به من صحة وحيوية ذا منفعة له، ومن ثم سيكون ملكي ،ولن تعود صورته تتعارض مع فكرة الوحدة . إلى العمل إذن ، فالهدف يستحق العناء؛ والأمر يعود إليّ في أن أستفيد جيداً من ليلتي المسهدة !

ومع أن المهمة كانت يسيرة إلاّ أنها صعبة بالقدر نفسه . وقد امضيت

تقريباً بدون مبالغة كل تلك الليلة يقظاً بحلها . كان عليّ أن أحوّل الهولندي ، وأعيد بناءه ، أن أجدده ، أعيد صياغته من موضوع لكراهيتي،من مصدر لألمي إلى موضوع لحبي واهتمامي ، وتعاطفي ، واخوتي . وإذا لم انجح ولم اتمكن من خلق درجة الحرارة الضرورية لإعادة صهره، عندها سأشعر بالضياع ، وسيبقى الهولندي لاصقاً في حنجرتي ليخنقني في الأيام والليالي القادمة . كان ينبغي أن أنفذ المقولة الرائعة لا غير ، «أحبب اعداءك »، فلقد تعودت منذ زمن بعيد أن أتعامل مع هذه الحكمة القسرية بشكل غريب في العهد الجديد ليس بشكل اخلاقي ، وليس كأمر ـ «عليك أن » بل كإقتراح ودي من إنسان كل حكيماً بحق ، ومن نصحنا بقوله «جرب فقط أن تتبع هذه الحكمة حرفياً » وستندهش كم ستكون ذات فائدة لك» . وأعلم أن النصيحة لا تحوي فقط اسمى مطلب اخلاقي ، وإنما أيضاً أكثر التعاليم النفسية ذكاء للسعادة ، وكذلك تكمن كامل نظرية الحب في العهد الجديد ، إضافة إلى جميع معانيها الأخرى في الأساليب النفسية المدروسة بعناية فائقة. وفي هذه الحالة، لا يكون بوسع أصغر المحللين النفسيين سناً وأكثرهم سذاجة إلا أن يؤكد ، إنه لأمر جلي ؛ إن ما يقف بيني وبين خلاصي طلب غير متحقق ، وهو أن أحب عدوي.

حسناً لقد نجحت . ولم يبق الهولندي عظمة في حلقي . فقد أعدت تشكيله . لم يكن ذلك سهلاً ، وتطلب مني العرق والجهد واستغرق ساعتين أو ثلاثاً في أشد ساعات الليل مشقة.

بدأت باستدعاء الشخصية البغيضة أمام ذاكرتي في أوضح تفصيل ممكن،حتى أني لم اغفل لا يداً ، ولا أصبعاً في يده ، ولا حذاء ، ولا حاجباً ولا غضناً في خده ، حتى رأيته كاملاً أمامي ، وحتى استوليت عليه تماماً في الداخل واستطعت أن أجعله يسير ، يجلس ، يضحك ، ويأوي إلى النوم .. تصورته

وهو ينظف أسنانه بالفرشاة في الصباح ، ويغفو فوق وسادته في الليل ، ورأيت جفنيه والتعب يتسلل اليهما شيئاً فشيئاً ، ورقبته تسترخي ورأسه يميل بوداعة . ربما استغرق ذلك مني ساعة من الوقت لأصل إلى هذا الحد . إلا إني في هذه المرحلة كنت قد أحرزت تقدماً كبيراً . فعندما يحب الشاعر شيئاً ما يعني أن يمسك به في مخيلته ، يبعث الدفء فيه ، ويرعاه ، ويلعب معه ، ويشبّعه بروحه وينفخ الحياة فيه بنفسه . وهذا ما فعلته مع عدوي حتى انتمى إلي واقتحمني ومن المحتمل إنه لولا عنقه القصير جداً ما كنت نجحت ، إلا أنه جاء منقذاً لي . كان بإمكاني أن أعري الهولندي من ملابسه أو أن أكسيه ، وألبسه النِّكْرز(*) أو معطف الصباح ، أجلسه في زورق تجذيف أو عند مائدة الغذاء ، كنت أستطيع أن أجعله جندياً ، أو ملكاً ، أو شحاذاً ، أو عبداً أو عجوزاً ، أو طفلاً ، وفي كل هذه الأقنعة المختلفة كان يملك عنقاً قصيراً وعينين بارزتين بعض الشيء . كانت هذه الصفات المميزة هي نقاط ضعفه ،وهي ما كان ينبغي أن أمسكه منها . وقد انقضى وقت طويل حتى نجحت في جعل الهولندي أصغر سناً ، وحتى استطعت أن أراه أمامي زوجاً فتياً ، وعريساً ، وطالباً لم يتخرج بعد، وتلميذ مدرسة . وحين ارجعته أخيراً إلى غلام صغير ، أثار عنقه ذاك عطفي للمرة الأولى ،وقد كسب قلبي عبر طريق العطف الرقيق عندما رأيت هذا الصبي القوي المملوء بالحيوية بسبب القلق لوالديه نظراً لتلك الإشارة الطفيفة لاستعداده لداء الربو . وعن طريق العطف الرقيق واصلت تحركي إلى الأمام في حياته ، وقد تطلب شيئاً من المهارة لأتمكن من تخيل أعوام ومراحل المستقبل . وعندما توصلت لرؤية الرجل كاملاً ، وهو أكبر سناً بعشرة أعوام ، ومصاب بالسكتة للمرة الأولى ، أصبح كل ما يتعلق به وعلى حين غرة مؤثراً ؛ شفتاه

---

* النكرز ـ بنطلون قصير واسع مزموم عند الركبة

المكتنزتان ، جفناه الثقيلان ، وصوته ذو الطبقة الثابتة عموماً . كان كل شيء يستعين بعطفي ، حتى قبل أن يعاني الموت في خيالي المركز . وصرت أحس بفنائه وضعفه ، وضرورة موته ؛ أحس بها بقوة مختلطة بالإحساس الأخوي نحوه لدرجة إني فقدت منذ أمد بعيد كل مقاومة تجاهه.

غمرني الفرح بعدها . اغلقت عينيه بقوة واغمضت عيني ، لأن الصباح كان قد أتى وكنت معلقاً مثل شبح بين الوسائد ، مستنفذ القوى تماماً من جراء ليلتي الطويلة التي امضيتها في الخلق الشعري.

وفي أثناء النهار والليل التاليين كان لدي تأكيد وافٍ لحقيقة أني قد قهرت الهولندي . فبإمكان صديقي الآن أن يضحك أو يسعل ، وأن يظهر معافى كما يشاء ، بإمكانه أن يذرع المكان محدثاً جلبة أو يسحب الكراسي من حوله أو يطلق النكات. فما عاد بإمكانه ازعاج رباطة جأشي. كنت أستطيع العمل خلال النهار على نحو مقبول ، وفي الليل كنت قادراً على الرقاد بشكل مقبول كذلك.

كان انتصاري عظيماً ، ولكني لم استمتع به طويلاً . ففي الصباح الذي اعقب ليلة النصر ، رحل الهولندي فجأة ، وبذا عاد مرة أخرى ليكون هو المنتصر . فقد تركني في خيبة أمل غريبة ، لأني لم أعد أملك نفعاً بحبي وصفاء نفسي اللذين عانيت حتى فزت بهما. فرحيله ، الذي تقت اليه بشدة ذات مرة ، أصبح يسبب لي الألم الآن بشكل ما.

احتلت مكانه في الرقم ٦٤ سيدة صغيرة شاحبة ذات عصا مغلظة بالمطاط كنت نادراً ما أراها أو أسمعها . كانت جارة مثالية ، لم تزعجني ولم تثر غضبي ولا كراهيتي . إلا أني، والآن فقط وحين أستعيد الماضي أستطيع أن أعترف بهذا . فلعدة أيام كانت جارتي الجديدة مصدراً مستمراً للخيبة فأنا أفضل كثيراً أن يعود رجلي الهولندي ثانية . الرجل الذي كنت قادراً أخيراً

علـــى حبـــه.

الكآبـــة :

حين أتذكر التفاؤل الذي كان يملأ روحي في أيامي الأولى في بادن، وأملي وفرحي الطفوليين في ذلك الوقت ، والثقة الساذجة في هذا العلاج وحتى خداع الذات الأكثر طيشاً ، الذي يبعث الرضا في النفس والزهو الصبياني الذي جعلني اعتبر نفسي شاباً نسبياً ومعافى ، ومريضاً واعداً بالشفاء لا يعاني إلاّ آلاماً طفيفة ؛ ولو استرجعت حالة التهور والمزاج العابث الذي طبع تلك الأيام الأولى، وإيماني - الذي يشبه أيمان زنجي بدائي - في الحمامات ، وفي اعتدال مرضي، عرق النسا، وقابليته للشفاء ، وفي الينابيع الدافئة ، وفي طبيب المنتجع ، وفي العلاج بالانفاذ الحراري والمصباح الكوارتزي : عند ذاك لا أقوى على مقاومة رغبة الوقوف أمام المرآة ومدّ لساني لنفسي . يا آلهي كيف تبخرت تلك الخيالات وكيف تلاشت تلك الآمال! وما الذي تبقى من ذلك الوافد المنتصب القامة ، اللين العريكة ، ذي الابتسامة العذبة الذي كان يعبث بعكازه من ملقا ، مفتوناً بنفسه وهو يمشي بخطى رشيقة سريعة في شارع باده؟ إنه قرد حقيقي هكذا أراه الآن . نعم ، فما الذي بقي من تلك الفلسفة المتفائلة المصقولة بشكل براق، والمنغمسة في شؤون الدنيا والمتكيفة معها، التي كنت ألهو وأزين نفسي بهما كما كنت أفعل تماماً مع عصاي من ملقا!.

وما زالت العصا على حالها ، دون شك ولكن حدث في الأمس أن عرض علي مرافق الحمام أن أضع واحدة من تلك الطويقات الجلدية اللعينة حول طرف عصاي الجميلة ، فما كان مني إلاّ أن رفضت عرضه هذا بغير ارتياح ولكن من يدري فيما إذا كنت سأوافق غداً لو كرر هذا العرض ؟ .

أشعر بآلام فظيعة ، ليس أثناء المسير فحسب ، بل والجلوس كذلك ،

ومنذ اليوم الذي سبق الأمس قضيت معظم وقتي تقريباً راقداً في الفراش . وفي الصباح ، بعد أن أخرج من استحمامي ، كان ارتقاء الدرجيتن الصغيرتين يتطلب مني بذل جهد كبير ؛ أسحب نفسي بصعوبة مستنداً على درابزين السلم متنفساً بعسر أتصبب عرقاً، ولم استطع لف جسدي بمنشفة الحمام إلاّ بشق الأنفس ، متهاوياً بعدها على الكرسي لوهلة من الزمن . كان ارتداء خفّي غرفة النوم ووضع الروب على جسدي مهمة ثقيلة بشكل مقيت، أما السير إلى ينابيع الكبريت ومنها إلى المصعد ، ومن المصعد إلى غرفتي فكانت رحلة مؤلمة شاقة بشكل رهيب ، ولا نهاية لها. في هذه الحملات الصباحية كنت أستعين بأية مساعدةة تخطر على البال كأن استند على مرافق الاستحمام، وعلى عضادات الأبواب ، وعلى كل درابزين يصادفني ، متلمساً طريقي على طول الجدران ، ومحركاً أطرافي وظهري دون أي همٍ جمالي ، في تلك الطريقة الثقيلة الحزينة ، المترنحة بعض الشيء، التي راقبت ذات مرة بعين فكهة متعاطفة تلك السيدة العجوز (آه ، وكم كان ذلك زمناً بعيداً يفوق الوصف) وهي تسير وشعرت برغبة في تشبيهها بأسد البحر . ولو حصل أن حلت لعنة مزحة عابثة وانزلت العقاب على رأس المتهكم ، فقد حدثت هذه المرة بالتأكيد.

عندما أجلس في الصباح على حافة السرير ، شاعراً بالخشية من المهمة الموجعة للانحناء لشد رباط حذائي، أو الاستحمام ، حين يحل بي تعب منهك ويبدأ النعاس بمداعبة أجفاني ، استريح على كرسي في مهجع الحمام ، عندئذ تخبرني الذاكرة أنه من وقت قصير مضى لا غير ، وبضعة اسابيع فحسب كانت ثمة صباحات ما أكاد انهض فيها من الفراش ، حتى أبدأ بأداء تمارين تنفس قوية ومضبوطة؛ أشد صدري واسحب بطني الى الداخل كما لو كنت ارتدي حزاماً ، اسيطر على تنفسي المحتجز، لأسمح له بالفرار بشكل أيقاعي وكأنه صادر من آلة المزمار (أوبو) . لا بد أنها حقيقة ، إلا إني يصعب على

تصديقها الآن ، وبأني ذات مرة وبهذين الساقين المتصلبين والركبتين المتيبستين كنت قادراً على الوقوف مرتجفاً على رؤوس أصابعي . وكنت قادراً على ثني ركبتي بشكل عميق وبطيء وعلى اداء بقية التمارين الرياضية البارعة .

وقد قيل لي ، دونما شك ، وقت ابتدأت العلاج بأنني سأواجه ردود الأفعال هذه ، وأن الحمامات كانت مرهقة للغاية ، وأنه قد حصل مع الكثير من المرضى أن ازدادت آلامهم في بداية العلاج. حسناً ، وأومأت برأسي متفهما ما قيل لي . ولكن أن يكون الإرهاق بهذه الدرجة الموجعة ، وتفاقم الألم بهذا الحجم والظلم، فهذا ما لم اتوقعه ابداً . ففي خلال اسبوع تحولت إلى رجل عجوز ، يجلس في أرجاء الفندق والحديقة ، فوق الدكات المتناثرة هنا وهناك ، ودائماً يعاني من النهوض في قدميه مرة ثانية . والذي لم يعد يرتقي السلم بعد الآن ، ويساعده صبي المصعد في الدخول والخروج منه .

ومن الخارج أيضاً ، انهالت جميع أنواع الخيبات. ففي مدينة زورخ التي تبعد بضعة أميال ، يعيش عدد من الأصدقاء المقربين إليّ ، الذين يعرفون بمرضي وبعلاجي هنا ، وقد تمادى أثنان منهم في الوعد بزيارتي حين التقيتهما في الطريق إلى المنتجع . ولكن لم يأت أحد منهم وبالطبع لن يأتي أي منهم ؛ فما كنت أعول عليه واستمتع به ما هو إلاّ مثل جديد على تمسكي بالطفولة التي يتعذر عليّ التخلص منها .كلا ، سوف لن يأتوا بالتأكيد ، إلاّ إني أعرف كثرة الأعمال التي ينبغي عليهم إنجازها ، كل هؤلاء المساكين المعذبين ، يأوون في أغلب الأحيان إلى فراشهم في وقت متأخر بعد العودة من المسرح أو المطعم. وبعد اكرام ضيوفهم ؛ لقد كانت حماقة مني أن أفكر بالأمر وشيئاً صبيانا تماماً

أن أكون واثقاً بأن هؤلاء الناس سيجدون متعة في زيارتي ، أنا المريض الذي يبعث على الضجر . ولكن من عادتي أن افترض مسبقاً أكثر الأشياء دهشة، وأتعلق بأكثر التوقعات تطرفاً ؛ فما أكاد التقي بشخص أجده متعاطفاً حتى أنسب اليه أفضل الصفات ، نعم ، وأتوخاها فيه وأصاب بخيبة الأمل وأشعر بالحزن لو لم يظهر ذلك قريباً . وهذا ما حدث أيضاً ، مع سيدة شابة تتمتع بقسط من الجمال في الفندق والتي كنت اتحدث معها بغير كلفة لمرات عدة ، وكانت تروق لي كثيراً . بعد أن ذكرت لي هذه السيدة عدداً من الأعمال الرديئة للرواية غير الجادة كأسماء لكتبها المفضلة ، جفلت للحظة ، ولكن سرعان ما قلت لنفسي أن كوني اختصاصياً وخبيراً في الشؤون الأدبية لا يمنحني الحق بادعاء الأحكام النقدية والفهم في هذا المجال عند الآخرين . ابتلعت عناوين هذه الكتب ، وعنّفت نفسي . ورحت أعزو كل ما هو طيب ونبيل إلى السيدة . ولكن في مساء الأمس فقط ، وفي حجرة الإستقبال تماماً ، ارتكبت هذه السيدة جريمة! كانت سيدة مقبولة ، مرحة ، وحتى جميلة ، امرأة لم تكن أبداً تضرب طفلاً في حضوري أو تضطهد حيواناً ، ولكنها بسيماء هادئة وبعينيين برئيتين ، جلست أمام البيان وبيدين غير متمرنتين إلا إنهما قويتان هزمت ثم ذبحت موسيقى المينوويت(*) الساحرة التي تعود الى القرن الثامن عشر ! ارتعبت وشعرت بالحزن ، وتصاعدت الدماء إلى رأسي من الإحساس بالخزي . إلاّ إن أحداً غيري لم يلحظ أن أمراً بغيضاً قد حدث . جلست لوحدي مع مشاعري السخيفة . أواه ، كم اشتاق لوحدتي ، لكهفي الذي لم يكن يجدر بي تركه ، حيث الألم والتعاسة هناك أكيدان ولكن لا الات بيان ، ولا أحاديث أدبية ، ولا رفقة مثقفين !

(*) المينوويت : رقصة كلاسيكية بطيئة رزينة لشخصين.

أصبح العلاج بأكمله ، وكل ما في بادن ، يثير قرفي بدرجة مخيفة جداً فالغالبية العظمى ممن أعرف من بين نزلاء فندقنا ليسوا هنا للمرة الأولى، فقد زار الكثير منهم الحمامات للمرة السادسة ، وللمرة العاشرة ووفقاً لقوانين الإحتمال فسوف أخوض نفس هذه التجربة ، نفس ما حدث لجميع الذين يعانون الآلام الأيضية : فسوف تزداد حدة هذه الآلام على نحو مهلك من عام إلى آخر ، وسيذعن الأمل في العلاج إلى أمل اكثر تواضعاً وهو عسى ان تمنحني هذه العلاجات على الأقل ارتياحاً مؤقتاً في كل عام . ومن دون شك ، لم يحد الطبيب عن تأكيداته ، ومن ثم ، وقبل كل شيء ، إنها مهنته ؛ ولو بدونا نحن المرضى في الظاهر بصحة جيدة واعطتنا انطباعاً بأننا نعيش في رفاهية مفعمة بالصحة إلى أبعد حد ، فهذا بفعل الطعام الدسم والمصباح الكوارتز الذي أكسب بشرتنا سمرة جذابة . لذا فنحن نبدو مثل أولئك الذين عادوا للتو من أعالي الجبال في أوج نضارتهم.

وبمرور الأيام، تنهار معنويات المرء أيضاً ، في أجواء الحمامات التي تبعث على الكسل والوهن وأما العادات الأسبارطية[١] القليلة التي اكتسبتها عبر السنين ، كالتنفس وأداء التمارين الرياضية ، وتفضيل الغذاء القليل ، فقد ذهبت ادراج الرياح . وفضلاً عن ذلك ، وبتحريض مباشر من الطبيب فقد اختفى على الأغلب تماماً الأندفاع الأول للعمل ورصد ما يدور حولي ولا يعني ذلك أن «علم الحمامات النفسي»[٢] هذا يشكل خسارة كبيرة - بل على العكس ، فمنذ البداية لم يكن عملاً ، ولا محاولة مخططاً لها للتأليف

---

(١) اسبارطي - شخص عظيم الجلدَ والشجاعة ، متسم بالنشاط والاقتصاد في الانفاق والكلام وبالبعد عن الترف وبضبط النفس وبالصرامة والجَلَد.

(٢) كان هذا العنوان الأصلي لهذا الفصل.

"Psychologia Balnearia

وإنما هي ببساطة وظيفة ، تمرين صغير يومي للعين والرسغ . إلا أن الكسل تكفل بالأمر، فأنا الآن استهلك حبراً قليلاً ولو لم أحقق انتصاري على الهولندي ، الذي تحول بحد ذاته إلى حالة صعبة غير متجانسة لكنت انتهيت بلا محالة إنساناً فاسقاً ، قذراً وفي الكثير من الحالات ، لا بد إني كنت كذلك فعلاً. فقبل كل شيء ، استحوذ عليّ خمول وكسل شرس ، وأبعداني عن كل ما هو جيد ومفيد ، ولا سيما عن أي جهد جسدي ، مهما كان خفيفاً . لم أكن أستطيع أن أحمل نفسي على السير مسافة قصيرة جداً إلا بشق الأنفس وبعد وجبات الطعام ، كنت أضطجع طيلة ساعات فوق سريري ، أو فوق مقعد طويل (الشيزلنغ) مثلما أفعل تماماً بعد الحمامات وأخذ العلاجات . وأما عن حالتي الفكرية فلن أتمكن من رؤيتها بوضوح كاف إلاّ في وقت لاحق لو حدث وإن القيت نظرة على هذه الملحوظات الساذجة التي عذبت نفسي بها لساعة من الوقت بين فترة وأخرى بدافع من بقايا متخلفة من شعور الواجب. أنا الآن مجرد تكوين من الخمول والضجر والنعاس لا غير.

كذلك لا يجدر بي أن أهمل اعترافاً آخر أكثرخزياً وهو أني لم أكن أميل لا إلى العمل ولا إلى التفكير وكنت بالكاد اقرأ ، وكان فقداني لكل نضارتي ونشاطي الذهني والجسدي سيئاً بما فيه الكفاية، إلا أن الأسوأ منه كان ما زال بانتظاري . بدأت استسلم إلى الجانب السطحي والتافه ، العقيم والكرية من حياة المنتجع المتراخية . وعلى سبيل المثال ، كنت اتناول في الظهيرة مختلف الأطباق الدسمة اللذيذة ، ليس فقط من أجل المشاركة العابثة والشعور بالتفوق الداخلي أو على الأقل بالسخرية ، كما كنت أفعل في البدء، كلا ، كنت آكل والتهم - رغم إني لم أعد آعرف ما هو طعم الجوع بعد - ألوان الطعام المتنوعة الشهية لمرتين في اليوم بالنهم الأحمق المتعذر التحكم فيه للبرجوازي الضجر

والسمين غير المحبوب؛ وفي المساء احتسي النبيذ في العادة، وقبل الخلود الى النوم اكتسبت عادة احتساء زجاجة من الجعة، وهذا ما لم أفعله في الحقيقة منذ عشرين عاماً. ففي البداية كنت آخذها كدواء للنوم كما وصفوها لي ، إلاّ إنني ابتدأت منذ أيام اشربها بدافع العادة والنهم . لا يمكن تصديق السرعة التي من الممكن أن يتعلم المرء فيها ما هو شيء وسخيف ، وكم من السهل أن يتحول إلى كلب تافه وإنسان شره بدين يشبه الخنزير.

ولم تقتصر موهبتي في الفساد إطلاقاً عل الطعام والشراب ، والاستلقاء بسكون وعدم فعل أي شيء ، فقد تعانق الإنغماس في الملذات الجسدية والكسل، مع الانغماس الفكري . وقد حدث ما لم أحسبه ممكناً : فأنا لم اتفاد فقط السعي الفكري وراء كل الطرق الشاقة، والصعبة والخطرة ، بل واشعر بالفتور والنهم ، وأنشد من الأمور الفكرية المتع التافهة والنزوية ، الجوفاء بسذاجتها والمفتقرة للمغزى ، والتي كنت أتجنبها وامقتها دوماً وبسببها كنت من حين لآخر أشجب وأحتقر البرجوازي وساكن المدينة خاصة ، وزمننا وحضارتنا عامة . اقتربت من المستوى العادي للمرضى تقرباً حميماً حيث لم أعد بعد الآن أشعر نحوهم بالكره والتحاشي لهوهم، بل على العكس كنت أبحث عنه وأشارك في بعضه ، ولن يطول الأمر بي حتى أبدأ في قراءة قائمة أسماء النزلاء (وهذه كانت بالنسبة لي من بين جميع تسالي المرضى أكثرهــا حيرة لي) ، وأقضي ما بعد الظهيرة بطوله منهمكاً في القيل والقال مع فراو مولر عن الآم روماتزمها وعن كل أنواع ادخال السوائل في الأوردة[1] الكفيلة بمحاربته ، وأرسل لأصدقائي البطاقات البريدية التي تحمل صورة زفاف عروسين أو تلك البطاقات ذات الشخصيات اللفتية الجريئة.

---

(١) ادخال السوائل في الأوردة (التشريب)

صرت أحضر باستمرار الحفلات الموسيقية التي تقام في الكازينو ، والتي تجنبتها بكل حذر لفترة طويلة . كنت أجلس على كرسي مثل الآخرين تماماً واستمع إلى الموسيقى الشعبية وهي تنساب،وإحساس لذيذ يخالجني أن فترة من الزمن تنساب معها بشكل مسموع وملموس ، زمن نملك منه نحن المرضى ما يكفي لتبذيره . غالباً ما كانت الموسيقى بحد ذاتها تستهويني وتفتنني، وكذلك السحر الحسي الصافي للآلات القليلة التي كانت يُحسن العزف عليها، ولكن لم تكن لأي من سمات أو مضامين المقطوعات أن تتغلغل إلى وعيي. وأما فقرات البرنامج الضحلة التي كانت من شأنها مثل بقية الحفلات من نفس الطابع والطراز أن تثير اشمئزازي في أوقات أخرى ـ فقد بدأت استمع إليها الآن طوال الوقت دون انزعاج وحتى النهاية . كنت أجلس لربع ساعة ، وأحياناً لنصف الساعة ، مرهقاً في وضع رديء ، وسط حشد ضجرين مثلي ، وكنت استمع مثلهم إلى الزمن وهو ينساب ، ومثلهم اكتست سحنتي تعبيراً ضجراً ، ودون تفكير كنت أهرش مثلهم رأسي أو عنقي ، وأسند ذقني على مقبض عصاي أو أتثاءب ، ولوهلة قصيرة فقط تنتفض روحي متمردة مثل حيوان السهوب الذي يصحو فجأة ويجد نفسه في الأسر ولكنه ما يلبث أن يميل رأسه وينام مواصلاً الحلم سراً ، بدوني ، لاني قد انفصلت عنه منذ أن جلست على هذا المقعد في قاعة الحفلات الموسيقية.

الآن فقط ، وحين أصبحت كلياً جزءاً من هذا الحشد ، ونزيلاً عادياً من نزلاء المنتجع وشخصاً محافظاً سئماً وكئيباً ، الآن فقط شعرت كم كان الأمر مضحكاً وتافهاً حين أقمت نفسي في الصفحات الأولى من هذه المقالة ممثلاً طبيعياً لهذا العالم وللعقل.لقد فعلت ذلك بشكل ساخر، والآن فقط وأنا انتمي فعلياً الى هذا العالم الطبيعي العادي، وحين أجلس فاقد الحس في قاعة الحفلة

الموسيقية ، استهلك الموسيقى الشعبية بنفس الطريقة التي يستهلك الناس الشابي أو جعة البيلسنر(•)، الآن فقط أشعر لمرة أخرى بمقدار القوة والمرارة التي أكره فيها هذا العالم . لقد صرت أكره واحتقر نفسي وأهزأ منها في هذا العالم ، وما عدت احمل هذه المشاعر تجاه الآخرين . كلا ، فالتفاهم مع هذا العالم ، والانتماء إليه ، وإيجاد مكان لي فيه وتذوق الراحة بين أحضانه - وهذا ما أحس به في هذه اللحظة بكل عرق في كياني - لم يخلق لي ، وهو أمر محرم ، وإثم طِبقاً لكل الأشياء الرائعة والمقدّسة التي عرفتها والتي تشكل سعادتي جزءاً منها . لهذا السبب لا غير ولمجرد انني في هذا العالم وقبلته ، لهذا السبب أشعر بمثل هذا الحزن الشبيه بالموت ! ومع ذلك فما زلت متعلقاً به ، والخمول الذي أعاني منه هو أقوى من نفاذ بصيرتي والبطن البدينة المتراخية أقوى من روحي المحتجة بتهيب.

بين الحين والآخر كنت أدع نفسي تنساق في الأحاديث مع رفقتي المرضى . وبعد الإنتهاء من تناول وجبات الطعام نقف في الممر لبعض الوقت ونبدي آراءنا المنسجمة مع بعضها تماماً حول الموقف السياسي، وسوق الأوراق المالية، وعن الجو والمنتجع ، وكذلك عن فلسفتنا عن الحياة والمسؤوليات العائلية: فلا بد أن يكون للشباب من يتولى أمره ، ولا بأس أن يخوض المرء سلسلة من التجارب الصعبة، وغيرها من الأراء من هذا القبيل متخمة بالطعام اللذيذ. كانت روحي تتمرّد بين الحين والآخر ، وتتحول الكلمات إلى سخط في فمي . عندها لا أملك إلا أن ابتعد مسرعاً أبحث عن عزلة لي مهما كلفني الأمر (وآه ، كم كان ذلك صعب المنال هنا) . وعموماً فقد اقترفت أنا أيضاً هذه الآثام ضد الروح، واتحمل كذلك ذنب مشاركتي في الأحاديث السخيفة

(•) البيلسنر - جعة خفيفة مع نكهة قوية من عشب الجُنـجُل المعمر.

التي لا هدف لها. كما أحمل ذنب إذعاني الكسول الغبي.

وهناك نوع آخر من اللهو بدأت اعتاد عليه هنا وهو السينما . قضيت حتى الآن عدداً من الأماسي معها، وقد كنت قد ذهبت إليها في المرة الأولى لمجرد الاختلاء بنفسي والهروب من الثرثرة ، ولأفر أيضاً من تأثير عالم الهولندي . وأما في المرة الثانية فقد ذهبت من أجل الاستمتاع ، وللرغبة في اللهو (ألفت نفسي كلمة «اللهو» الآن بعدما لم يكن لها في السابق مكاناً بين مفرداتي!) . ذهبت إلى هناك لمرات عديدة، وقد اغوتني وبعثت الخدر في بهجة العين وهي تتابع حركة الصور، ولم اتقبل باستسلام اكثر البدائل إثارة وبعداً عن القلب إضافة إلى الدراما الزائفة التي تصحبها موسيقى شنيعة فحسب ، بل تحملت جسدياً وفكرياً وطأة الأجواء الكريهة للمكان . صرت قادراً على تحمل أي شيء واستيعاب أي شيء ، حتى لوكان من أكثر الأشياء بلادة وقبحاً . كنت أتابع لساعات فلماً عن نفوذ زوجة امبراطور قديم مع مكملات من المسرح والسيرك والكنيسة والعبيد والأسود ، وقديسين ومخصيين . كنت أجلس في مقعدي واراقب القيم والرموز العليا : العرش والصولجان ، اردية كهنوتية وهالات القداسة، وكرة الامبراطورية التي يعلوها الصليب، إضافة إلى كل سمات وحالات الروح الممكنة والمستحيلة ، ومئات من البشر والحيوانات جمعت كلها لغرض اثارة الضحك ولغرض الاستعراض . هذا العرض الذي كان من الممكن أن يكون رائعاً لولا أنه قد قلل من قيمته الحوار المترجم المطبوع على الشريط المطول إلى حد السأم والسخيف تماماً ، وشوهته محاولة تصويره بطريقة مسرحية زائفة، وألحق العار به وانتقص من قدره جمهور متحجر القلب أحمق (كنت أنا أيضاً أشكل جزءاً منه) . وفي لحظات كثيرة يكون الفلم على

درجة من القرف بحيث تجعلني أهم بالفرار. لولا أنه ليس سهلاً على مصاب عرق النّسا أن يركض فأبقى وأتابع المهزلة حتى نهايتها ، ومن المحتمل أنني سأذهب غداً أو بعده إلى هناك مرة أخرى، ولن يكون من العدل أن انكر الأشياء المتعة أيضاً التي شاهدتها في السينما، ولا سيما البهلوان الفرنسي والشخص الظريف الذي كان يملك افكاراً رائعة أفضل من معظم الشعراء. فما اشجبه ،وما يثير غضبي وقرفي ، ليس هو السينما ، وإنما كوني لوحدي ، أنا زائر السينما . فمن الذي اجبرني على الذهاب إلى هناك ،وتحمل الموسيقى الفظيعة ، وقراءة الحوار المطبوع الضحك ، وعلى الاستماع الى صهيل الحشد، اخوتي الأكثر نقاءاً؟ فقد رأيت في ذاك الفلم الطويل عشرات او ما يزيد من الأسود الرائعة المفعمة بالحياة والحيوية ،وما أن مضت دقيقتان حتى رأيتهم يسحبون فوق الرمال ، جثثاً هامدة ، وسمعت نصف الجمهور وهو يستقبل هذا المشهد الحزين المروع بقهقهات عالية! أيوجد إذن في المياه الحارة هنا شيء من الملح، وشيء من الحامض ، وبعض الطباشير ؛ شيء يتساوى الناس فيما بينهم ؟ ويضع الكابح ضد كل الأشياء السامية والنبيلة والقيمة ، ويزيل كل الموانع عن ما هو دنيء ومبتذل ؟ انحني خجلاً ، وفيما بعد في الوقت الذي تلا عودتي إلى السهب الذي أعيش فيه ، قطعت عهوداً محددة على نفسي.

هل انتهيت اللحظة من قائمة عاداتي السيئة والرذائل التي اكتسبتها حديثاً . كلا ، فلم أصل النهاية بعد . لقد تعرّفت كذلك على لعبات الحظ ، ولعبت في عدة مناسبات عل الطاولة الخضراء بمتعة وإثارة ، واشتركت أيضاً في لعبة الماكنة التي تزود بالقطع الفضية عبر فتحات صغيرة متعددة تبتلع هذه النقود.ولسوء الحظ لم استطع اللعب حقاً كما ينبغي لأنني لا أملك المال الكافي ، وما استطعت تدبيره كنت أراهن به . وقد نجحت في اللعب قرابة

الساعة الكاملة وانتهيت ولم أخسر أكثر من فرانك واحد أو فرانكين . وبالطبع لم يمنحني هذا النوع من اللعب تجربة المقامر الحقيقية ، إلاّ إني أيضاً شممت من عبير هذه الزهرة ، المقامرة ، ويجب أن اعترف إنها أشاعت فيّ فرحة هائلة، ولا بد أن أقر أيضاً بأنني لم أشعر بالذنب تجاه ما فعلت ، كما حصل في الحفلات الموسيقية والأحاديث مع المرضى ومع أسود السينما ؛ بل على العكس ، فالنكهة الكامنة في هذه الرذيلة السيئة السمعة التي ينفر منها المجتمع تروق لي بشدة وأشعر بالأسف العميق لأنني لا أستطيع أن أدخل مراهنات أجني من ورائها ربحاً أكثر.

وأما مشاعري أثناء اللعب فتشبه شيئاً كهذا : كنت أقف في البدء لفترة قصيرة عند حافة الطاولة الخضراء اتطلع إلى الحقول المرقمة وأنصت إلى صوت الرجل عند عجلة الروليت . والرقم الذي ينادي به ، والذي قد اختارته الكرة المتدحرجة ، فقبل لحظة مضت كان رقماً مُصْمَتاً سخيفاً بين الكثير من الأرقام الأخرى ؛ أما الآن فقد أخذ يشع توهجاً ودفئاً في صوت الرجل، وفي الثغرة التي استقرت فيها الكرة ، وفي آذان وقلوب المستمعين . وقد يظهر الرقم أربعة (١) أو خمسة أو ثلاثة ، ويرن في أذني وإدراكي ، ولن يلتمع فوق مسار الكرة المخروطي الدائري فحسب ، بل فوق الطاولة الخضراء على السواء . فلو ربح الرقم ٧ سيبدأ العدد ٧ ذو اللون الأسود القاتم وفي حقله الأخضر الخاص بالتألق المرح لثوان معدودة ، وسيلقي تلك الأرقام الأخرى في العدم ، وتصبح عندئذ مجرد احتمالات ، فهو لوحده المتحقق والحقيقة المحرزة فالوصول إلى تحقيق الممكن، وانتظاره والاستغراق فيه كان هو روح اللعبة ، بعد أن راقبت

---

(١) الأرقام أربعة ، خمسة ، ثلاثة ، جاءت بالفرنسية.

واستمعت لدقائق معدودات وبعد أن بدأت انجذب إلى اللعب . وها هي أولى اللحظات الجميلة والمثيرة بشكل مدهش تحلّ : أعلن عن الرقم ٦ ولم أفاجأ به ، وكان وقعه مؤاتياً ورفيقاً للغاية، وحقيقة كما لو كنت اتوقعه بالتحديد نعم ، كما لو كنت أنا من استدعاه وأحدثه وخلقه : ومنذ تلك اللحظة انهمكت روحي في اللعب ، واستشعرت القدر ، وأحسست أني على وفاق مع الحظ ، ولا بد من الاعتراف ، أنه كان شعوراً فرحاً ، فهو جوهر وقوة جذب اللعبة كلها .وهكذا سمعت رقم ٧ ، ثم الرقم (١) ثم ظهر الرقم ٨ ، ولم أفاجأ أو أشعر بالخيبة مؤمناً بأني قد توقعت تلك الأرقام بالضبط ، والان وقد حصل التماس وصرت على صلة مع التيار وبإمكاني أن أدع له نفسي ليجرفها معه. ألقيت نظرة ثابتة على الحقل الأخضر ،وقرأت الأرقام وعلقت عيني على أحدهم ، سمعته ينادي بعذوبة (بعض الأحيان يكون ثمة رقمان في آن واحد)، ورأيته يومئ اليّ بكل رقة ، وما كنت أملك سوى أن أضع قطعي النقدية فوق ذلك الرقم . وحتى إذا لم يظهر ، فليس ثمة شعور بالخيبة أو الخذلان ، فبإمكاني الإنتظار . فسيظهر رقماي ٦ أو ٩ في الوقت المناسب . فعلاً ففي المرة الثانية أو الثالثة ، ظهر حقيقة . وكم هي رائعة لحظة الفوز هذه . لقد ناشدت القدر واستسلمت له ، وآمنت بأنك على صلة مع السر العظيم ، وراودك إحساس أنك متحالف بود معه ـ انظر، إنه لحقيقة ، إنه لشيء مؤكد فقد اتقدت خيالاتك الصامتة السرية ، وصورتك الذهبية الصغيرة المخفية التي كنت تتوق إليها ، فقد حدثت المعجزة وهاجسك صار واقعاً . ووقع اختيار كرة السعادة العظيمة على رقمك ، وأعلنه الرجل الواقف عند العجلة وقذف اليك بحفنة من القطع الفضية في قوس وهاج ، إنه لأمر رائع على نحو استثنائي وإنه لبهجة

صافية لا تعتمد على المال ، لأنني أنا من كتب هذه السطور لم احتفظ بفرانك واحد من كل ماربحته . فقد كانت اللعبة تزدردها جميعاً ثانية ، إلاّ إن لحظات الفوز الجميلة تلك ما تزال تتألق كلما تأملت الماضي ، لحظات الانجاز المدهشة تلك ، المتكاملة والمرضية بشكل طفولي ، الرائعة والنفيسة . كل منها شجرة عيد ميلاد كاملة ومزينة على نحو بهي ، وكل منها معجزة ، متعة بالغة ، بل وأكثر من هذا ، متعة للروح ، تأكيداً وإثباتاً وتعميقاً لغزيرة الحياة البعيدة الغور. ومن المؤكد أن بإمكان المرء أن يجرب المتعة نفسها، والسعادة الباهرة ذاتها ، وبمستويات أسمى ، وبإشكال أكثر نبلاً وتمييزاً : مثل وميض الإدراك العميق للحياة ، ولحظة الانتصار الداخلي ، وأهم من ذلك كله لحظة الخلق ، ولحظة الاكتشاف ،والالهام الذي يباغت كالبرق والشعور بالإمتلاء تلك اللمسة المؤثرة التي تخلفها ضربة الحظ في عمل الفنان، كل ذلك يشبه تجربة الربح في المقامرة كما الصورة وانعكاسها . ولكن كم مرة سيقابل المرء حتى ذلك الذي يتمتع بحظ كبير وموهبة عالية مثل هذه اللحظات الأشد قرباً من صفات الإله . وكم من مرة حدث لنا نحن رجال العصر المتعبين أن ضاهى شعور بالقناعة وبإحساس السعادة المرضية ، قوة وبهاء هناءة الطفولة البهيجة ؟ إن هذه التجارب هي ما ينشدها المقامر ، حتى لو بدا إنه يجري وراء المال . فطير الجنة والفرح صار في غاية الندرة في حيواناتنا الهادئة التي تعوزها المتعة والقيمة ، وهو ما يحاول المقامر أن يصطاده ، وما يثير الشوق الخامد في عينيه .

تأرجح الحظ في الصعود والنزول ، ففي لحظات كنت أتواجد تماماً معه، أجلس أمام الكرة المتدحرجة وأجني الربح ، وشعور قيم بالإثارة يتدفق مرتعشا خلال جسدي لتتلاشى بعدها ذروة الحالة . كنت أضع في جيب بنطلوني حفنة

كبيرة من القطع النقدية التي كسبتها ، واستمر في المراهنة مرة بعد أخرى ، وتداعى شعور اليقين الذي كان يسكنني شيئاً فشيئاً . وثب رقم ١ ورقم ٤ وقد فاجآني وكانا يحملان العداء لي والسخرية . انتابني القلق والخوف حيث أراهن على الأرقام دون أي إحساس داخلي بها ، واتردد لفترة طويلة بين الزوجية والفردية منها ، إلاّ أني واصلت الرهان مكرهاً حتى خسرت نقودي كلها . وأدركت لا في وقت لاحق فحسب ، وإنما في الوقت عينه ، في وقت اللعبة ذاته ، عمق التشابه ، فقد رأيت في اللعبة نسخة من الحياة ، فالأشياء تجري تماماً بالطريقة نفسها، حيث يمنحنا الهاجس المبهم اللامنطقي تحكماً في أشد القوى السحرية بأساً ، ويطلق أعظم الطاقات . وحيث يفتر الحس السليم ، ويسود الحس النقدي والفكر ، ويصمدان لفترة في محاولة للاحتفاظ بسطوتهما ، إلاّ أنه في النهاية يحدث ما كان ينبغي أن يحدث رغم أنوفنا . فالمقامر الذي وهن ، واجتاز نقطة تألقه ولم يتوقف عن اللعب رغم ذلك ، والذي لم يعد يقوده إيما حدس أو أي موهبة للثقة العميقة في النفس ، هو تماماً مثل الرجل الذي لا يعرف أي طريق يتخذ حين تواجهه مواقف مهمة في الحياة . وبدلاً من أن ينتظر ويغمض عينيه ، يفعل ما هو خطأ من جراء حسابات محضة واجهاد ذهنه والافراط في ارهاقه . وواحدة من أضمن قواعد اللعب على الطاولة الخضراء هي هذه : عندما ترى أحد رفاق اللعب قد غلبه الأعياء ولازمه الحظ السيء ، وكان قد راهن في البداية على هذا الرقم لمرات عدة ومن ثم انقلب إلى غيره على نحو مفاجيء ـ عند ذاك راهن في كل مرة على الرقم الذي ألح في طلبه هو من غير طائل ثم تركه ممتلئاً بالقرف ؛ فإن هذا الرقم سوف يكسب بالتأكيـــد .

إن اللعب من أجل المال يختلف بشكل يدعو للاستغراب عن جميع التسالي الأخرى للطبقة الوسطى والمنتجع . فهنا عند الطاولة الخضراء ، لا تقرأ الكتب ، ولا تدور الأحاديث المملة ، ولا تحاك الجوارب كما في الحفلات الموسيقية وفي حديقة الكازينو ، ولا يوجد من يتثاءب ولا من يهرش عنقه. وفي الحقيقة ان المصابين بالروماتزم لا يجلسون حتى. فهم يقفون ، ويقفون على أرجلهم بشكل بطولي لفترات طويلة ومؤلمة ، وهم من يتجنبون ذلك بحذر شديد ، في أوقات أخرى ، وفي صالة المقامرة هذه لا تطلق النكات على نحو مفاجيء ولا تدور الأحاديث حول المرض أو حول بوانكاريه(•) ، فنادراً ما تسمع ضحكة ، بل نجد حشداً ، يتسم بالجدية يتهامس فيما بينه يقف حول طاولة اللعب ، ويبدو صوت الرجل المعلن خفيضاً وقوراً ، وتتناهى خشخشات قطع النقود الفضية وهي تصطدم مع بعضها خافتة ضعيفة فوق الطاولة الخضراء . وهذه المهابة ، وهذا التعقل والسمو ، يجعل هذه اللعبة أكثر جاذبية على نحو لا يقاس مع باقي أنواع التسليات التي يبدو الناس فيها ضاجين ، مهملي الثياب وتحكمهم الفوضى . يسود صالة القمار مزاج اللهو الرضي الذي يطبع أيام العطل . يدخل النزلاء الصالة بهدوء يعتريهم شيء من الإرتباك وكأنهم يدخلون إلى كنيسة ، لا يجرؤن على الكلام سوى بالهمس متطلعين بخشية إلى السيد ذي السترة المذّيلة، والذي يتسم سلوكه بالنموذجية بخلاف مسلك الرجل العادي ، كمن يشغل منصباً هاماً أو مركزاً مشرفاً.

ليس بإمكاني هنا أن أتفحص الدواعي السيكولوجية لهذا المزاج الاحتفالي ، والوقار الرائع الخيّر ، فقد امتنعت منذ زمن طويل عن الزعم بأن

(•) (١) بوانكاريه - (١٨٥٤ - ١٩١٢) جول هنري بوانكاريه : فيزيائي ورياضي وعالم فلك.

(٢) - (١٨٦٠ - ١٩٣٤) ريمون بوانكاريه : سياسي فرنسي، رئيس الجمهورية (١٩١٣ - ١٩٢٠).

«علم الحمامات النفسي» الذي وضعته أنا يخص أي نفس أخرى غير نفسي، ومن المحتمل أن الموقف المقدس ، الموقر الحافل بالهمسات ، والهابة والإنتباه المكرس الذي يسود صالة القمار ، قد جاء ببساطة من حقيقة أن الناس لا يهتمون بالموسيقى ، أو الفن المسرحي أو أي من مثل هذه السخافات، قدر اهتمامهم بأكثر الأشياء جدية وعشقاً وقداسة في نظرهم : المال . ولكن كما قلت ، ليس في نيتي أن أتفحص ذلك ، فهو يقع خارج دائرة اهتمامي ، وأكرر ما قلت ليس غير ، فالمقامرة بخلاف أي من ألعاب اللهو الشعبية الأخرى ، تجري في جو لا يخلو من الهيبة بينما في السينما ، مثلاً ، لا يبذل الجمهور جهداً يذكر للتحكم بتعابير السرور أو القرف الكلامية منها أو المبهمة. أما المقامر ، فحتى في اللحظات التي يكون فيها الإنفعال أشد عنفاًومنطقية وله ما يبرره ، وذلك يحدث أثناء ربحه النقود وخسارته لها ، فيشعر أنه ملزم أن يحافظ على انضباط نفسه وعزتها . فقد شاهدت نفس الناس الذين يستقبلون خسارة عشرين سنتيماً (*) في لعبة الورق التي يلعبونها يومياً بتفجرات مزاج سيء ، وبالشتائم واللعنات ، لكنهم يخسرون مئات المرات قدر ذلك عند طاولة الروليت ولا أجرؤ على القول «دون تحريك أهدابهم» ، لأنها ترتعش بعنف ولكن دون أن يثيروا ضجة أو يضايقوا من يجاورهم بهتافات غير لائقة .

ونظراً لأن الحكومات الرشيدة مهتمة بأية مساهمة من شأنها تثقيف الناس وتشجيع ودعم كل المؤسسات التي تخدم هذا الغرض ، ورغم أن الخبرة تنقصني تماماً في هذا المجال ، إلاّ أنني أجد في نفسي الجرأة هنا لا للفت إنتباه الخبراء إلى الحقيقة أنه لا توجد لعبة أو تسلية أو لهو برمكانه أن يربي المشارك فيه

(*) السنتيم ١٠٠/١ من الفرنك.

على ضبط النفس ، والهدوء والذوق إلى الدرجة هذه مثلما تفعل لعبة الحظ في صالة المقامرة العامة.

ورغم أن القمار يبدو لي ملائماً لمزاج المرء ، نعم ، ومفيداً ، إلاّ إن الفرصة قد واتتني لتأمل جانبه القاتم ، أو بالأصح لأجربه بنفسي . فحين يعارض اقتصاديو العالم مراراً المقامرة بمثل هذا التعاطف الإنفعالي المتزمت ، أجد أن حججهم لا تمت للموضوع بصلة . فهم يقولون أن المقامر يعيش في خطر ربح المال بسهولة كبيرة ولذلك فهو يتعلم احتقار قداسة العمل ، ومن ناحية أخرى هو في خطر خسارة جميع نقوده . وثالثاً ، وبمراقبته الطويلة لتدحرج الكرات والقطع النقدية، من الممكن أن ينسى المفهوم الأساسي لأخلاقية الطبقة الوسطى الاقتصادية ، وأن يبجل المال بشكل مفرط . كل ذلك صحيح ، من دون شك ، ولكنني لا أستطيع أن آخذ هذه المخاطر المختلفة في منتهى الجدية . وبالنسبة لي ، كعالم نفسي ، فيبدو الأمر أن للعديد من المصابين بأضطرابات نفسية خطرة ، لا تمثل الخسارة المفاجئة لثرواتهم ولا إنهيار أيمانهم بقدسية النقود ، سوء حظ لهم بل على العكس إنها من أضمن الطرق ، بل هي الطريقة الوحيدة الممكنة للخلاص ، تماماً كما هو نقيض للعبادة المكرسة للعمل والمال التي تهيمن على حياتنا الحاضرة . يبدو الإحساس بعبث اللحظة والتسليم للحظ ، والثقة بنزوات القدر ، مرغوباً تماماً وأمراً نفتقده جميعاً بشدة .

كلا ، ففي رأيي أن الخلل في المقامرة هو شيء نفسي تماماً ، وهذا هو ما يجعلها رذيلة رغم جوانبها الرائعة الأخرى . ووفقاً لتجربتي الشخصية السارة للغاية ، إنه لأمر مثير ومبهج أن تقضي عشرين دقيقة كل يوم تحت توتر الروليت وفي أجواء المقامرة الزائفة تماماً . إنها بلسم حقيقي ، للروح السئمة ، الخاوية المنهكة ، ومن أفضل الأشياء التي جربتها . فالعيب في المقامرة (وتشترك المقامرة

في هذا العيب مع استخدامات الكحول المقبولة بنفس الطريقة) يكمن فقط في أن كل الإثارة الممتعة تأتي من الخارج وهي إثارة الية ومادية بحتة، والخطر الكبير يتجلى عندما يضع المرء ثقته في آلية الإثارة الفعالة بثبات فإنه قد يهمل ويفقد في النهاية جهده الخاص ، ونشاطه الروحي. فعندما يزج الإنسان روحه في فعل عبر الوسائل الالية الصرفة العجلة الروليت بدلاً من التفكير ، والحلم ، أو التخيل ، أو التأمل ، فسيكون الحال تقريباً مثلما يستفيد المرء من الحمام ومدلك الجسد ويكف عن بذل جهوده الذاتية في الرياضة والتمارين البدنية. وبنفس الطريقة تكون الإثارة في السينما ، فهي تستعيض باشباع العين المادي الصرف عن مساهمة المرء البصرية الفنية ، والإكتشاف والإنتقاء ، والإحتفاظ بالذاكرة بكل ما هو ممتع وجميل - وذلك كله يستند على الخدعة ذاتها.

كلا ، فكما يحتاج المرء إلى داء التمارين إضافة إلى المدلك ، كذلك تحتاج الروح بشكل قاطع وحاسم إلى انجازاتها الذاتية ، عوضاً عن المقامرة وكل الأشياء المثيرة الجذابة الأخرى . لذا ، فإن كل جهد حيوي من هذا النوع أفضل مئة مرة من لعبات الحظ : تمرين دقيق وواضح في التفكير والاستظهار ، تخيل بعين مغلقة صوراً مرئية ماضية ، إعادة تنظيم ما حدث أثناء النهار في وقت الخلوة المسائية ، التداعي الحر للأفكار والإستغراق في الأحلام . أضيف ذلك لمنفعة أنصار الصالح العام ، وكتصحيح أورده بشأن الذي تقدم من اقتراح رجل غير متخصص ، إني في هذا المجال ، ذي الخبرة والثقافة النفسية المحضة ، لست رجلاً غير متخصص ، بل بالأحرى خبيرٌ عريقٌ وأكاد أكون مخضرماً.

ها ، قد همت ثانية بعيداً عن موضوعي ؛ ومن الجلي أن هذه الملاحظات قد قدر لها الفشل في التوصل الى نتيجة أمام أي مشكلة وحيدة ، ولكنها نجحت في ربط الأفكار الفرضية والتداعيات التي تلح عليّ . ومع هذا ، ربما

يكون بأمكاني الأفتراض أن هذه ما هي إلاّ جزء من نفسية نزيل المنتجع.

لقد تخليت عن موضوعي ، الممل جداً ، من أجل أن امتدح قليلاً لعبات الحظ ، وقد كان في نيتي أن أطيل هذا المديح لأنه صار من الصعب عليّ العودة إلى موضوعي ولكن لا بد أن أعود إليه . لنعد إلى هسه ، نزيل المنتجع ، ولننظر ثانية إلى هذا السيد العجوز ، الذي أصبح الآن قانعاً ، ذي الجسد المتراخي في هيئته والمتعب ، والمشية العرجاء. هذا الرجل لا يروق لنا ، وليس بإماكننا أن نحبه ، وأن نتمنى بقلب صادق حياة لا نهاية لها أو حتى استمراراً طويلاً لحياته التي لم تكن نموذجية أو مشوقة . ولن يكون لدينا اعتراض لو أنه غادر المسرح تماماً ، حيث أنه لزمن طويل لم يخلف في نفوسنا انطباعاً مرضياً . فلو حدث ، مثلاً ، في أحد الصباحات أن استسلم للعبة أثناء الاستحمام ، وأنزلق تحت الماء ، وبقي هنالك فلن نجد ذلك سبباً للحزن.

ورغم كل شيء ، فلو أبدينا مثل هذه اللامبالاة تجاه نزيل المنتجع هذا ، فنحن نشير إلى وضعه الحالي لا غير ، وإلى حالته الجسدية الحاضرة . ولا ينبغي أن نغض الطرف عن الاحتمال القائم دوماً بأن حالته هذه من الجائز ان تتغير ، وإنه من المحتمل أن يعاد حسابها بقاسم جديد . هذه المعجزة المجرّبة كثيراً في السابق ، من الممكن أن تحدث في إيما لحظة . فلو هززنا رؤوسنا ونحن ننظر إلى المريض هسه ووجدناه مهيئاً للهلاك ، فلا ينبغي أن ننسى عند ذاك أننا من الممكن أن نؤمن بهذا المصير ولكن ليس بمعنى الالغاء بل بمعنى التحول فقط ، لأن أساس وتربة جميع آرائنا ، بالإضافة إلى نفسيتنا ، هو الإيمان بالله ، وفي الاتحاد ـ ومن الممكن أن نجدد الوحدة ثانية عبر الفضيلة والادراك ، حتى في أشد الحالات يأساً . فليس ثمة عاجز ليس في مقدوره بخطوة واحدة ، حتى لو كانت هذه الخطوة عبر الموت ، أن يتعافى مرة ثانية وأن يشترك في خضم

الحياة. ولا يوجد آثم لا يستطيع بخطوة واحدة ، حتى لو كانت خطوة عبر حكم الإعدام ، أن يصبح طاهراً والهياً . وليس هنالك بشر مهمومون وتائهون ومنحطين بشكل ظاهر للعيان ، ممّن لا تستطيع تلميحه، معروف أن تجدهم وتحولهم إلى أطفال سعداء في لحظة واحدة . أتمنى أن يبقى إيماني هذا ، ومعرفتي هذه في الذاكرة دائماً وأثناء كتابة هذه الصفحات وقراءتها كذلك . ولن يعرف كاتبها ، في الواقع ، أين يجد الشجاعة ، والمبرر ، والجرأة لإنتقاداته ونزواته ، لارائه التشاؤمية ونظرياته النفسية ، إذا لم يكن ادراك الوحدة يحتل موقعاً في روحه كقوة موازية لا يمكن قهرها . بل على العكس ، فكلما تماديت في الإيغال في جانب واحد، كلما كشفت نفسي أكثر ، وازداد نقدي قساوة،واشتدت رغبتي في الاستسلام لأهوائي ، وأشرق نور المصالحة في الجانب المعاكس ببريق أكثر اشراقاً . فلولا هذا التوافق اللانهائي ، المتقلّب على نحو مستمر من أين لي أن أجد الشجاعة للتفوه بكلمة واحدة ، أو لإصدار الأحكام . أو لأحس بالحب والكرة واعبر عنهما ، أو لأعيش ساعة واحدة ؟

التحســـن :

سينتهي علاجي عما قريب . وشكراً للرب ، فالأمور تسير للأفضل ، وفي تحسن ، فطوال اسبوع كامل ، كنت أشعر بالضياع التام وغارقاً في الشقاء. فلا شيء أمامي سوى المرض ، والتعب ، والضجر ، والقرف من نفسي. فقد كنت على وشك وضع حلقة جلدية حول طرف عصاي ، وكدت أن أبدأ في قراءة القائمة التي تحوي اسماء النزلاء. وبدلاً من سماع الموسيقى الشعبية لربع أو نصف الساعة ، كنت على وشك أن استوعب الحفلات الموسيقية التي تستغرق ساعة كاملة أو ساعتين ؛ وبدلاً من احتساء قنينة جعة

واحدة في المساء كنت على وشك شرب اثنتين . واقتربت من القمار حتى بعثرت كل ما املكه من نقود في الكازينو. إضافة إلى هذا فقد سمحت لنفسي أن ترتبط إلى حد ما مع جيراني في حجرة طعام الفندق ، هؤلاء الظرفاء والمقبولين من النفس ، الذين لم أكن لهم احتراماً ، وكان بمقدوري تعلم الكثير منهم لولا أنني ارتكبت نفس غلطتي القديمة حين حاولت أن أفعل ذلك عبر التحاور معهم . فالحوار مع أناس ليس للمرء علاقة حميمة بهم يكون تقريباً على الدوام في منتهى العقم ومخيباً للآمال. وثمة حقيقة أخرى الى جانب هذه، فلسوء الحظ يرى فيّ الغرباء الذين يتحدثون معي الخبير ويظنون أن عليهم أن يعرجوا في نقاشهم على الأدب والفن ، ومن الطبيعي عندئذ أن يكون الحديث هراءً ، ويرى المرء عندها أكثر الأشخاص فتنة من ذلك الجانب الذي لا يمكن فيه تمييزهم عن الآخرين إلا بنسبة إحدى عشر من مجموع إثني عشر.

وعلى رأس هذه كانت الآلام والطقس الرديء الذي كنت أصاب فيه كل يوم بزكام جديد ، (الآن فقط فهمت نزلات البرد المستمرة عند الهولندي)، والعلاج المهلك ـ الإرهاق بعينه ـ تلك كانت سلسلة أيام لا يمكنني التفاخر بها. غير أن هذه السلسلة ، وكما يحصل مع مثل هذه الأمور ، انتهت ببساطة في أحد الأيام . وحل يوم كنت فيه بغاية الإرهاق نتيجة الألم لدرجة أنني لازمت الفراش ولم يكن بمقدور أحد أن يقنعني حتى بأخذ حمامي اليومي . كنت مضرباً عن ذلك ولم أفعل شيئاً غير الاستلقاء ، ولكن ليوم واحد فقط ، وفي اليوم التالي ، أخذت الأمور تتحسن . وكان ذلك اليوم الذي حدث فيه هذا الانعطاف جديراً بأن يذكر لأن التغيير والانقلاب فيه جاءا عل نحو مباغت ومفاجيء تماماً . بأمكان الإنسان أن يخرج من أي وضع ، مهما كان بغيضاً ، فقط لو رغب هو في ذلك أولاً . لذا لم يخالجني أنا أيضاً الشك أبداً حتى خلال

أشد أوقات هذا العلاج مللاً وإزعاجاً وحتى في خضم كآبتي كلها ، بأني سأزحف ثانية خارج هذا المستنقع . عملية التسلل هذه إلى الخارج ،والغزو البطيء والمجهد للعالم الخارجي ، والبحث حسبما أعرف كانت طريقاً ممكناً على الدوام ، بل إنها كانت طريق المنطق ، الممكن جداً ، والجدير بالثناء إلاّ إني عرفت هذه التجارب المبكرة بوجود طريق آخر لا يمكن البحث عنه ، بل يمكن إيجاده فقط ، هو طريق الحظ ، المنة الألهية . والمعجزة أن تكون المعجزة هذه قريبة مني اللحظة ، وأن يكون بمقدوري التحرر من الحالة المخزية لهذه الأيام التعيسة، ليس عبر الطريق الرئيسي الشاق والمغبر للمنطق أو الجهد الواعي لواعي ، وإنما محلقاً فوق أجنحة ، وعلى طول طريق المنة الآلهية الذي تحفه الزهور ، فذلك أمر لم يكن أجرؤ أن آمل به .

في اليوم الذي حرضت نفسي فيه من جديد لنبذ الحذر الذي أصابني وقررت أن أواصل العلاج والحياة كنت أشعر بالتأكيد بشيء من الراحة ولكني لم أكن في مزاج جيد على الإطلاق . فساقاي تئنان ، وظهري يؤلمني وموخرة عنقي متيبسة ،وكنت أنهض بصعوبة وكان الطريق إلى المصعد وإلى الحمام شاقاً والعودة منهما كذلك. وحين حلت الظهيرة أخيراً وأنا أتوجه إلى حجرة الطعام متبرماً ودون شهية ، أصبحت واعياً لذاتي فجأة، وفجأة لم أعد مجرد نزيل في المنتجع يجرجر أطرافه الثقيلة بوجه كئيب هابطاً سلالم الفندق ، وإنما كنت في ذات الوقت شاهداً على نفسي . فوق إحدى درجات السلم العديدة ، حدث على حين غرة أن رأيت هذا النزيل الفاقد الشهية يزحف نازلاً السلم ، يضع يديه عاجزاً فوق الدرابزين ، ورأيته يدلف إلى حجرة الطعام تاركاً وراءه رئيس الندل الذي استقبله بترحاب . كثيراً ما مررت في السابق بهذه الحالة من الوعي فرحبت بها فوراً كعلامة حظ . ففي وسط هذه الفترة المجدبة التي تبعث

على الضيق حلت هنا ثانية وبشكل مفاجيء .

جلست على كرسي في حجرة الطعام الشديدة الإضاءة عند مائدتي الموحشة الصغيرة المدورة ، وفي الوقت نفسه رأيت كيف كنت أجلس ، وكيف كنت أعدل الكرسي من تحتي وأنا أعض شفتي بعض الشيء من جراء الألم الذي يسببه الجلوس ، ومن ثم كيف أمسكتُ اناء الزهور بآلية ونقلته إلى مكان أقرب إليّ قليلاً ، وكيف أخرجت ببطء وتراخ منديل المائدة من حلقته . كان النزلاء الآخرون يدخلون هنا وهناك ، ويجلسون عند موائدهم الصغيرة مثل الأقزام في حكاية «قطر الندى» ويسحبون مناديلهم خارج حلقاتها . غير أن النزيل همه بقي الهدف الأساسي لأناي المتفحصة . كان النزيل همه بسيمائه الدالة عل ضبط النفس المشبعة سأماً ، يسكب قليلاً من الماء في قدحه ، ويكسر قطعة صغيرة من الخبز ، لمجرّد تمضية الوقت ، لأنه لم يكن ينوي شرب الماء أو أكل الخبز ؛ كان يغرق الحساء بملعقته ويحدق بعين لا بريق فيها في الموائد الأخرى المتناثرة في القاعة الكبيرة ، ويلقي نظرة على الجدران المزينة بالمناظر الطبيعية ، ويراقب رئيس الندل وهو يسرع عبر الحجرة ، وينظر الى النادلات الحسناوات بأثوابهنّ القصيرة السوداء ومئزراتهن البيض. بضعة من النزلاء يجلسون عند موائد أكبر حجماً نسبياً في جماعات أو في أزواج ؛ غير أن معظمهم كانوا وحيدين أمام أطباق المائدة الموحشة بملاحهم الصارمة التي يبدو عليها الضجر العميق ، يسكبون ببطء قليلاً من الماء أو النبيذ في أقداحهم ، ويمسكون الخبز ويسحبونه ، ويلقون بنظرة منطفئة على موائد الآخرين ، ويتطلعون إلى أعلى إلى الجدران المرسومة بالمناظر الطبيعية ، ويراقبون رئيس الندل المسرع والنادلات الحسناوات في اثوابهن السوداء ومآزرهن البيض . فوق الجدران تنتظر المناظر الطبيعية الجميلة ، ودودة ، صامتة ، يشوبها شيء من

الارتباك . ومن سقف القاعة حتى الأسفل يوجد خلق بديع لمزخرف منسي نوعاً ما، أربعة رؤوس فيلة ملونة تتطلع ، ودودة مرتاحة غالباً ما كانت تمنحني البهجة في أيامي الأولى ، لأنني صديق ومخلص للآلهة الهندوسية وقد رأيت في هذه الرؤوس الإله الفيل ، جانيساً ، الرائع الذكي الذي ابجله كثيراً . وفي كثير من الأحيان أفكر ملياً لم قيل لي في طفولتي بأن فضيلة النصرانية تكمن أساساً في حقيقة أنها لا تعرف أية آلهة أو تماثيل تشبه الآلهة. فكلما تقدمت في السن وازددت حكمة ، رأيت خسارة هذا الدين الكبرى تكمن في افتقاره إلى آلهة أو رموز تشبه الآلهة ، باستثناء ماري الكاثوليكية الرائعة . كنت سأمنح الكثير ، على سبيل المثال ، لو كان الحواريون يتمتعون بشتى أنواع القوى العظيمة ورموز الطبيعة بدل أن يكونوا واعظين مضجرين نوعاً ما ومثيرين للخوف . وقد وجدت بديلاً واهناً للغاية لذلك ، إلاّ إنه يبقى بديلاً محتفى به ، في حيوانات المبشرين.

إن الشخص الذي يراقبني ويراقب النزلاء وكل الآخرين ، ويراقب هسه وهو يأكل ضجراً ، ورفقته النزلاء وهم يأكلون أيضاً بضجر ، لم يكن هو النزيل هسه المصاب بعرق النّسا ، بل كان بالأحرى الناسك العجوز النافر قليلاً من مخالطة الآخرين ، وكان الذئب المنعزل هسه والمتجول المخضرم والشاعر ، صديق الفراشات والسحالي والكتب والأديان القديمة . هسه ذاك الرجل الذي واجه العالم بإصرار وقوة ، والذي يتحول إلى إنسان مضطرب بعمق ما أن يكون عليه أن يحصل عل وثيقة إقامة تملؤها السلطات أو حتى كان عليه ن يملأ استمارة الاحصاء الرسمي السكاني . هسه هذا العجوز ، وهذه الأنا التي غدت مؤخراً غريبة وضائعة بعض الشيء ، رجعت مرة أخرى الآن وعادت لمراقبتنا. فهي تلاحظ النزيل هسه الفاقد لشهيته كيف يقطع سمكة لذيذة وهو يلهو

بفتور بشوكته ويضع في فمه لقمة بعد أخرى بمزاج عكر ودون إحساس بالجوع ، وتراقب كيف يحرك قدح الماء والمملحة الى الخلف والأمام ، دون أي حاجة اليهما. وبلا أدنى معنى وكيف أخذ يمد قدميه تحت كرسي يسحبها إلى الوراء ثانية في اللحظة ذاتها ، وترى كيف ينتظر رئيس الندل والشابات الحسناوات باهتمام بالغ أناساً ضجرين ، رغم أن لا أحد منهم كان جائعاً . وكيف أن في الخارج عالماً مختلفاً ، وخلف نوافذ القاعة البارزة الشديدة القوار ، كانت السحب تتدافع في السماء . كل ذلك شاهده المراقب السري ، وفجأة بدت له جميع الترتيبات في منتهى الشذوذ والتهريج والهزل ، بل حتى الغرابة ؛ تلك الخزانة الشمعية الصغيرةالتي تضم التماثيل البشرية القلقة والمتصلبة التي لم تكن تحيا في واقع حالها . ذاك هسه الضجر الذي يأكل طعامه بلا شهية ، وأولئك الأشخاص الضجرون الآخرون . كان مضحكاً بشكل لا يحتمل وأحمق على نحو لا يطاق ، هذا التظاهر بالوقار الذي لا معنى له ، وكل هذه الفوضى المتراكمة فوق بعضها من الطعام ، والخزف ، والأقداح ، ومن الأطباق الفضية والنبيذ والخبز والخدمة ، كلها من أجل قلة من نزلاء متخمين منذ زمن طويل والذين لا يمكن لطعام ولا لشراب ولا منظر غيمات تذروها الرياح ان تشفي سأمهم وسوداويتهم.

كان نزيل المنتجع هسه يرفع قدحه فقط لمجرد أحساسه بالسأم ، فهو يقربه إلى شفتيه دون أن يحتسي في الحقيقة شيئاً منه. لقد كان يضيف لكل الأفعال الأخرى الفوضوية ، الالية ، الزائفة لوقت الطعام فعلاً جديداً . وحين تتوحد مجموعة الأنا ، الأكولة والأنا الراصدة ، يتحتم عليّ في لحظة أن أضع قدحي جانباً ، لأني أخذت ارتعش من الداخل بسبب الانفجار المباغت لرغبة عارمة بالضحك ، وفرح طفولي خالص ، ورؤية مفاجئة للسخف اللامتناهي لهذا

الموقف كله . فلوهلة رأيت أن في صورة حجرة الطعام هذه الملأى بالأشخاص المعتلين ، الكئيبين ، المدللين الخاملين(هذا إذا افترضنا أن أرواحهم تشبه روحي)، تنعكس حياتنا المعاصرة كلها. حياة تخلو من أي دافع قوي كان ، وتمضي مرغمة فوق دروب ثابتة ، ولا بهجة فيها ولا صلة لها بالله أو بالسحاب في السماء . طوال دقيقة فكرت بالآلاف من حجرات الطعام التي تتشابه تماماً فيما بينها ، وبمئات الآلاف من المقاهي المزدحمة بموائد الرخام المرقط والضاجة بالموسيقى العذبة الآسرة التي تضوع بالرغبة العارمة. فكرت بالفنادق والمكاتب وبفن العمارة كله ، والموسيقى وكل الأعراف التي يعيش جنسنا البشري في أطرها . وبدت لي كل هذه مساوية في أهميتها وقيمتها للعبث الممل ليدي الكسولة بشوكة السمك، لنظرات عيني الخالية من المحبة التي تتنقل بعدم ارتياح وبلا جدوى هنا وهناك عبر حجرة الطعام ، وعلى الرغم من كل شيء لم تبد لي كل هذه مجتمعة ، حجرة الطعام والعالم ، والمرضى والإنسانية مرعبة ومأساوية على الإطلاق حتى لوهلة واحدة ، بل مضحكة بشكل مهول ليس إلاّ فكل ما تحتاج فعله هو أن تضحك ويتلاشى مفعول السحر ، وتتحطم الآلية. عندها يندفع الرب والطيور والغيمات الى قاعتنا المقفرة ولا نعد نحن النزلاء دائمي الحزن ، نجلس حول موائد المنتجع بل نزلاء الله السعداء عند موائد العالم ذات الألوان المتعددة.

في اللحظة تلك وضعت قدحي جانباً بأسرع ما يمكن فقد كانت هناك ضحكة مجلجلة أحس بها تهزني وتغمرني من الداخل . وقد بذلت جهداً جباراً للسيطرة عليها ، كيما تنفجر. آه ، كم خبرنا ذلك ونحن صغاراً ، ونحن نجلس عند المائدة ، أو في المدرسة أو الكنيسة ، ونمتليء حتى انوفنا وأعيننا برغبة عارمة ومبررة تماماً للضحك ومع هذا لا نجرؤ على إطلاقها ويكون علينا أن

نعالج الموقف بطريقة من الطرق آخذين بنظر الاعتبار المدرس ، ووالدينا والقوانين والأنظمة . كنا نصغي وننصاع دون رغبة منا إلى أولئك المدرسين ، والآباء ، وكنا نهاب بدهشة فائقة وما زلنا حتى يومنا هذا . إذ إنه من المفروض أن تستند انظمتهم وتعاليمهم الدينية والأخلاقية إلى تعاليم المسيح الذي هو يبارك الأطفال أكثر من أي واحد آخر ، أيفترض حقاً أنه كان يقصد فقط الأطفال المثاليين ؟

في المرة هذه نجحت أيضاً في السيطرة على نفسي وبقيت هادئاً وتحملت ببساطة الضغط الكابس عل حنجرتي وأنفي الذي أخذ يقرصني ورحت أبحث جدياً عن متنفس أو منفذ صغير ،وعن طريقة مباحة وممكنة لما كان سيختفي لو لم افعله. أيكون ملائماً أن أقرص رئيس الندل قرصة صغيرة في ساقه عندما يقترب ، أو أن أرش النادلات بقليل من الماء الذي في قدحي؟ كلا ، لن ينفع ذلك فكل شيء كان محرماً ، إنها الحكاية القديمة كما كان بالضبط قبل ثلاثين عاماً .

في الوقت الذي كنت أفكر فيه بذلك وضحكة معلقة في الجزء العلوي من حنجرتي ، كنت أحدق باتجاه المائدة المجاورة لي حيث امرأة لم أكن أعرفها ، سيدة ذات هيئة عليلة وشعر أشهب ، وعصا المقعدين تستلقي قرب الجدار الذي بجانبها . كانت منهمكة في اللهو بحلقة منديل مائدتها ، وفي تلك اللحظة بالذات سادت القاعة إحدى الوقفات القصيرة التي تحدث أثناء الوجبة ، وكنا جميعاً نستغل وسائلنا المعتادة لملء الوقت. كان أحد الرجال يقرأ بدأب في صحيفة قديمة ؛ ومن الممكن أن ترى بوضوح أنه يعرف ما فيها عن ظهر قلب ومع هذا كان يلتهم مرة بعد أخرى اخبار مرض الرئيس وتقرير نشاطات اللجنة الثقافية في كندا ، وامرأة عجوز كانت تخلط كميتين قليلتين

من المساحيق في قدحها ، وهي أدويتها التي ينبغي أن تأخذها بعد الطعام. كانت تبدو واحدة من عجائز القصص الخرافية المفزعات اللاتي يمزجن الجرعات السحرية ليؤذين الآخرين ، الأكثر جمالاً. وسيد انيق يبدو عليه الاجهاد وكأنه إحدى شخصيات تورجنيف الروائية أو توماس مان ، المتميزة الكئيبة، كان يتفحص أحد المناظر الطبيعية المرسومة على الجدران . إلاّ أني ما أزال معجباً بعلاقتنا أكثر من البقية ، فقد كانت تتخذ وضعاً ،كعادتها ، لا يشوبه شائبة وبمعنويات عالية ، أمام صحنها الفارغ دون ن يبدو عليها الغضب أو الضجر. ومن ناحية أخرى كان ذلك السيد المتزمت الأخلاق ذو الغضون والرقبة الضخمة يجلس فوق كرسيه وكأنه يمثل بوزنه محكمة جنايات كاملة. وكان يبدو مكتئباً كما لو أنه قد أصدر لتوه حكماً على ابنه الوحيد بالموت ، بينما كان في الواقع قد التهم للتو صحناً من نبات الهليون . وأما السيد كيسلرينج ، المتورد الوجه ، الذي ما يزال يبدو حتى اليوم وسيماً ومشرقاً رغم كونه قد هرم قليلاً ويكسوه شيء من الغبار ، فلم يكن يبدو عليه أنه يتمتع بيوم طيب ، وبدت الغمازة التي تزين وجنته الطفولية غير محكمة ، ولا ضرورة لها مثل الرزمة الصغيرة للصورالمثيرة في جيب صدره . كم كان غريباً ومضحكاً ذلك كله ! لم كنا نجلس هنا بهذه الطريقة وننظر ونكشر ؟ لم نجلس وننتظر مزيداً من الطعام في الوقت الذي توقف فيه الجميع عن الشعور بالجوع ؟ ولمَ كان كيسلرينج ذلك الشاعر يمشط شعره بفرشاة جيب صغيرة جداً ؟ ولم يحمل في جيبه هذه الصور الحمقاء ، ولم كان ذلك الجيب مبطناً بالحرير ؟ كل هذه الأشياء كانت في منتهى الزيف وغير محتملة . وكانت جميعها تمثل اغواء عنيفاً للضحك .

وهكذا كنت جالساً أتمعن في وجه السيدة الهرمة ، ومن ثم وعلى حين غرة تخلت عن حلقة منديل مائدتها ونظرت اليّ ، وبينما كنا نحدق ببعضنا

لبرهة أخذت ضحكة تتصاعد إلى وجهي ولم أكن استطيع كبحها ، فابتسمت لها ابتسامة عريضة بطريقة ودودة جداً ، وأدى كل الضحك المتراكم في داخلي الى فتح فمي وانفلتت الضحكة من عيني . لا أعرف ما دار في خلد المرأة وقتها ، ولكن رد فعلها كان رائعاً . في البداية خفضت عينيها بسرعة والتقطت لعبتها ثانية على عجل ، وبدأ القلق يعتري ملامح وجهها ، وبينما كنت أرقبه باهتمام بالغ ، أخذت قسماته تزداد التواءً أكثر فأكثر ، وترتسم عليها أغرب تكشيرات رأيتها في حياتي . لقد كانت تضحك ! تلوي قسمات وجهها ضحكاً وتعود لتكبتها. كانت تصارع رغبة لا تقاوم في الضحك الذي انتقل إليها مني كالعدوى.! وعلى هذه الحال جلسنا هناك ـ حيث كنا معروفين لرفاقنا نزلاء الفندق كشخصين رصينين كهلين ـ مثل تلميذي المدرسة عند منضدتهما، ننظر أمامنا ، ونختلس النظرات إلى بعضنا ، وقسمات وجهينا تتحرك وترتعش في محاولة لاحتواء ضحكاتنا . انتبه الينا إثنان أو ثلاثة من الجالسين في القاعة وبدأوا في الإبتسام ، مستمتعين وهازئين بعض الشيء ، كما لو أن لوحاً زجاجياً لأحد النوافذ قد انكسر وإنسابت السماء الزرقاء والبيضاء إلى الداخل من خلاله ، سرى لدقائق عبر القاعة مزاج فرح مدغدغ وابتسامات عريضة علت الوجوه ، كما لو أن كل الموجودين قد انتبهوا اللحظة أيضاً كم سخفاء ومضحكين كنا، بشكل يفوق الوصف ، نجلس في مقاعدنا بكل الوقار والسوداوية المضنية التي يفرضها جو المنتجع .

منذ تلك اللحظة، سارت الأمور معي على خير ما يرام من جديد ، فلم أعد مجرد نزيل في المنتجع ، واختصاصي في وضعيتي كمريض وفي خضوعي للعلاج ، بـل غدا المرض والعلاج الآن يحملان أهمية ثانوية . ومما لا شك فيه، انني ما أزال أعاني الآلام، ذلك ما لا أستطيع نكرانه . ومن ثم ، ومن أجل الله ؛

فلأدع الآلام توجعني ؛ فقد تركت المرض يتولى أمره بنفسه ، فأنا لست موجوداً هنا لأدلله طوال اليوم .

بعد الإنتهاء من الطعام ، تكلم معي نزيل في الفندق ، سيد عدائي جداً ، متعنت في رأيه، كثيراً ما كان يعطيني الصحف ويفرض صحبته عليّ ؛ منذ فترة قصيرة فحسب ، وفي جدل طويل ممل للغاية حول نظام المدرسة والتعليم ، أبدت كل مبادئه وآراءه الثمينة بلا تردد وبتواضع جم ظهرت هذه الشخصية الآن مرة أخرى من مكمنها المعتاد في الممر ووضعت نفسها في طريقي .

ـ قال : «نهاراً طيباً . إنك تبدو اليوم في غاية السرور ! »

ـ «بالتأكيد ، أنا مسرور . فقد شاهدت أثناء طعام الغداء الغيوم تتحرك عبر المساء ، ومنذ تلك اللحظة حتى الآن كان في رأيي أن هذه الغيوم مصنوعة من الورق وأنها جزء من زخرفة حجرة الطعام ، وفرحت جداً عندما اكتشفت أن ثمة هواء وغيمات حقيقية كانت تندفع الى البعيد أمام ناظري ، لا تحمل أرقاماً ولا بطاقات أسعار معلقة عليها . بإمكانك أن تتخيل مقدار فرحي لذلك . فالواقع ما زال قائماً ، في وسط بادن ! يا للروعة !»

آه ، كم كان بعيداً عن السرور وجه هذا السيد وهو يستمع إلى هذه الكلمات !

ـ أجاب «حسناً . حسناً» ، خرجت من فمه مطولة مستغرقة دقيقة كاملة، « فأنت تظن أن الواقع لم يعد له وجود ! إذن هل لي أن أسألك فقط ما الذي تعنيه بالواقع ؟ » .

ـ قلت «أوه» هذا سؤال فلسفي معقد . ولكن يمكنني في الحقيقة أن أجيب عليه ببساطة شديدة . فأنا أفهم الواقع ، أيها السيد العزيز على أنه إلى حد كبير نفس الشيء الذي يدعى على نحو مختلف «بالطبيعة» وعلى أية حال لا أقصد

بالواقع ما يحيطنا هنـا في بادن بشكل دائم ، ولا حكايات الدواء والمرضى ، ولا القصص الشاعرية لمرض الروماتزم والتهاب المفاصل ولا النزهات وحفلات الكازينو الموسيقية ، وألوان الطعام المقدمة ، والبرامج المتبعة ، ولا مرافقي الاستحمام ونزلاء المنتجع» .

ـ لم لا يشكل النزلاء بالنسبة لك واقعاً إذن ؟ خذ ، مثلاً ، أنا الرجل الذي يتكلم معك ، ألست واقعاً ؟ »

ـ «أنا آسف ، فبالتأكيد انا لا أريد الإساءة اليك ، ولكن في الحقيقة ، بالنسبة لي أنه لا واقع لك ، وكما قدمت نفسك اليّ، فأنت تفتقر الى تلك الصفات المميزة المقنعة التي تجعل ما ندركه ونجربه وكل ما يحدث أشياء حقيقية. انت موجود ، أيها السيد ، وهذا ما لا أستطيع نكرانه . إلاّ إن وجودك يكمن في مستوى يفتقر في نظري إلى الواقع الزماني والمكاني . ويمكنني القول بأنك موجـود على مستوى الورق ، والمال ، والاعتمادات ، والمباديء الأخلاقية ، والقوانين ، والفكر ، والجدارة بالإحترام . فأنت الرفيق الزماني والمكاني للفضيلة ، وللضرورة المطلقة ، للعقل وربما كنت مرتبطاً بمفهوم الشيء في ذاته(*) ، أو مرتبطاً بالرأسمالية . ولكنك لا تملك الواقع الذي أجده مقنعاً في حالة كل حجر وشجرة ، كل ضفدع طين وكل طين. بمقدوري أيها السيد أن أمنحك احترامي واستحساني اللامحدودين ، وبإمكاني أن أشكك بك أو اعتبرك سليماً . ولكن من المستحيل لي أن أجربك ، ومن المستحيل تماماً أن أحبك ، فأنت تشارك هذا القدر مع اقربائك ومع أقرب الأقرباء الذين

(*) Thing- in itself الشيء أو مفهوم الشيء كما هو في ذات نفسه أو كما يبدو للعقل المحض (في الفلسفة الكانتية).

يستحقون ذلك ،ومع الفضيلة والعقل ، والضرورة المطلقة ، ومع كل المثل الإنسانية أنت عظيم . وكلنا يشعر بالفخر بك ، لكنك لست حقيقة » .

فتح السيد عينيه على سعتهما وقال «لو حدث الآن من قبيل الصدفة أن شعرت بسطح يدي يلامس وجهك ، الا يقنعك ذلك بحقيقتي؟ » .

- «لو أقدمت على هذه التجربة ، فستسيء اليك، لأنني أفوقك قوة ، وفي اللحظة هذه أشعر بأنني متحرر بشكل رائع من كل الموانع الأخلاقية ، أضف إلى ذلك أنك لن تحقق غرضك بتقديمك البرهان بهذا السخاء ، فبلا شك ، سأدخل في تجربتك ومعي جهاز حفظ الذات المدهش في تناسقه. لن يقنعني هجومك بواقعيتك ، وبوجودك ، وبالهدف والروح اللذين يسكنان داخلك ؛ فلو أوصلت المسافة بين قطبين كهربائيين بذراعي أو بواسطة ساقي، فسأعرض نفسي مباشرة إلى صدمة كهربائية، إلاّ أني لن أحسب التيار الكهربائي شخصاً ، وكائناً من نوعي » .

- « تتمتع بحساسية الفنان المرهفة ، وبالطبع تمنحك هذه حقاً معيناً للخروج عن الأعراف وفيما يبدو أنك تكره وتهاجم التفكير الميال الى التأمل والمفاهيم ولكن أيها الشاعر كيف يتفق هذا مع الكثير الكثير من آرائك ؟ فقد قرأت ما كتبت من العبارات والمقالات والكتب التي ناديت فيها بعكس هذا تماماً ودعمت العقل والفكر بدلاً من تأييدك الطبيعة اللاعقلانية والعرضية إذ كنت تناقشت الأفكار وتبرز المبدأ الفكري كمبدأ أسمى ، فماذا عن ذلك الآن ، هـا ؟ »

- «أحقاً، فعلت ذلك ؟ نعم قد يكون هذا صحيحاً . إنه لمن سوء حظي ، كما ترى ، أنني أناقض نفسي باستمرار . الواقع يفعل ذلك دائماً ، ولا يفعل ذلك فقط الفكر والفضيلة وأنت . يا سيدي الصغير المحترم سأضرب

لك مثلاً: فمن الممكن بعد فترة من المشي النشيط في وقت الصيف ، أن تتملكني كلياً رغبة في شرب كوب من الماء ، لأعلن أن الماء هو أروع الأشياء في العالم وما أن تمضي ربع ساعة من الزمن حتى يصبح الماء أقل الأشياء أهمية بالنسبة لي في العالم. وأشعر بنفس الشيء تماماً تجاه الطعام ، والنوم ، والتفكير . فعلاقتي ، مثلاً بما يدعى «الفكر» هي بالضبط مثل علاقتي بالمأكل أو المشرب في بعض الأحيان. يخلو العالم من شيء يجذبني بهذه القوة ويبدو لي أنه بالغ الحتمية ، كجذب الفكر، وإمكانية التجرد والاحتكام إلى المنطق والأفكار . ومن ثم أعود ثانية حين أتشبّع به وأحتاج إلى الضد وأتوق إليه ، وأشعر بالغثيان من الفكر برمته مثل طعام فاسد . عرفت من التجربة بأن هذا الموقف يعتبر موقفاً غير مقبول ، إلاّ أني لم أكن قادراً أبداً على فهم السبب . وكما ينبغي علي باستمرار أن أتناوب بين الأكل والصيام ، والنوم والصحوة ، كذلك علي أن أتأرجح بين المذهب الطبيعي والمذهب العقلي ، يبين التجربة والأفلاطونية ، بين النظام والثورة ، بين المذهب الكاثوليكي وروح الاصلاح ولكن يبقى المرء طيلة حياته قادراً بثبات على إحترام الفكر والاستهانة بالطبيعة ، ثورياً دائماً وغير محافظ أبداً . أو بالترتيب المعاكس ، بالتأكيد يبدو هذا كله لي ، فاضلاً للغاية وجديراً بالثقة وراسخاً ، إلاّ أنه في ذات الوقت يبدو أمراً مهلكاً وبغيضاً ومجنوناً ، كما لو أن المرء لديه رغبة دائمة في الأكل أو في النوم فقط طوال الوقت ومع هذا فإن كل الأحزاب السياسية والفكرية ، الدينية والعلمية ، تستند على الإفتراض المسبق القائل إن مثل هذا السلوك المعتوه هو ممكن وطبيعي ! وأنت ، أيضاً ، يا سيدي ، تجد من غير اللائق أن أعشق بعنف في ساعة واحدة الفكر وأعزو المستحيل اليه وفي وقت آخر أمقته وأبصق عليه ، وأنشد عوضاً عنه بروده الطبيعة وتنوعها ! ولم لا ؟ لم تجد كل ما هو طبيعي بلا

خصوصية وكل ما هو مزدهر وبديهي غير مقبول ؟ لو أستطعت أن تفسر لي هذا ، فسأقر بسرور شفهياً وفي الكتابة بأنني قد هزمت في كل المواقع . وسوف أمنحك مقداراً من الواقع بالحجم الذي أستطيعه ، سأعيرك؛ هالة الواقع الكاملة ولكن كما ترى ، فإنك ببساطة عاجز عن تفسير ذلك لي ! فأنت تقف هناك ، وتحت صدرتك توجد بلا شك وجبة طعام كنت قد تناولتها ، ولكن لا قلب هناك ، وفي جمجمتك المزيفة ببراعة يقبع عقل دون ريب ، ولكن لا وجود للطبيعة فيها . لم أرَ في حياتي شيئاً غير حقيقي لهذه الدرجة المضحكة مثلك ، مريض الروماتزم ، نزيل المنتجع ! فالورق يتلامع من خلال عروات ازرارك وتغادر الفطنة محياك ، وليس ثمة في الداخل غير ورق الصحف وقوالب الأعراف ، «وكنت» وماركس ، وأفلاطون وقوائم الضرائب ، فإذا نفخت ، فستتلاشى ! ولو فكرت بحبيبتي أو حتى بزهرة ربيع صغيرة صفراء اللون ، فذلك يكفي لأن يعدك كل البعد عــن الواقع ! أنت لســت بشيء ، ولست بإنسان وإنما أنت فكرة ، وتجريد عقيم .

ورغم إنني قد انفعلت في الحقيقة بعض الشيء إلاّ أنني بقيت في أحسن حالاتي . وعندما مددت ذراعي وقبضتي مطبقة بأحكام كي أثبت بهذا الشخص لا واقعيته ، أخترقته قبضتي مباشرة فتلاشى. عندها فقط انتبهت عندما توقفت ، بأنني قد تركت الفندق دون أن أضع قبعتي ، واتجهت حتى ضفة النهر المنعزلة وهناك وقفت وحيداً تحت الأشجار الجميلة ، والمياه تبقبق وتخر ، ومرة ثانية وجدت نفسي مخلصاً في عواطفي إلى القطب المضاد للفكر ، وهائماً في الداخل بثمالة في حب عالم الصدفة البليد الذي لا نظام يحكمه وفي تفاعل بقع الشمس والظل الملقى على الأرض المضيئة المزهرة ، وفي الألحان العذبة الكثيرة للمياه المتدفقة . آه كم أعرف هذه الألحان ! وما زلت أذكر ضفة نهرٍ جلست

عليها في الهند وكنت ارافق رجلاً عبارة عن عجوز نسيت اسمه . فمنذ الف عام مضت ، كنت منتشياً بأفكار التوحد ومنتشياً بالقدر نفسه بتلاعب التنوع والصدفة معـاً فكرت بحبيبتي ، فكرت بذلك الجزء الظاهر من إذنها تحت الشعر ، وكنت مستعداً من أعماقي لرفض وتهديم جميع المذابح التي شيدتها إلى الأبد للعقل والأفكار ، وبدلاً منها أشيد مذبحاً جديداً في شرف ذلك النصف الظاهر من الأذن المتشح بالغموض. ومن أجل عالم يكون رغم توحده مليئاً بالتنوع ، وبجمال ممكن التحقق عبر الزوال فقط ، وفضيلة لا يمكن أن يمارسها سوى الآثم ، ومن أجل هذه ومئات الحقائق الأخرى العميقة الأبدية ، تصلح الأذن الجميلة أن تكون تماماً رمزاً وعلامة مقدسة مثل أي إله كأزيس ، وفيشنو ، أو زهرة اللوتس(*).

يا لهمسات النهر تحتي في مضجعه الحجري ، وكيف يشدو ضياء الظهيرة بحيوية فوق الجذوع المبقعة لأشجار الدلب !وكم هو رائع أن تكون حياً ! لقد خمدت تلك الرغبة المجنونة في الضحك بحجرة الطعام وطواها النسيان ، وتحجرت الدمعات في مقلتي ، ومن همسات النهر المقدس تناهى اليّ اللوم. كان قلبي يفيض سكينة وامتناناً . للمرة الأولى الآن صار بإمكاني وأنا أتمشى جيئة وذهاباً تحت الأشجار رؤية جحيم التذمر ، والخطأ والألم ، والحماقة التي عشتها مؤخراً ! يا الهي ، كم بدوت جديراً بالشفقة ، ويالسهولة التي تحولت فيها الى مخلوق وضيع مثير للإشمئزاز ! شيء من المرض ومن الألم، وأسابيع قليلة من الحياة في المنتجع وفترة من الأرق ، جعلتني أغرق حتى عنقي في مزاج سيء وفي يأس مطبق . أنا من استمع الى صوت الآلهة

(*) ايزيس ـ آلاهة الأمومة والخصب المصرية.

فيشنوا ـ ثاني أقاليم الثالوث المقدس.

الهندوسية ! كم هو رائع أن يرفع عني أخيراً هذا السحر الشيطاني وأن يحيطني الهواء ، وأشعة الشمس والواقع ، وأن استمع ثانية إلى الأصوات المقدسة ، وأشعر بالورع والحب ينبضان في قلبي !

استعدت في مخيلتي بتيقظ تلك الأيام المخزية التي كنت فيها قلقاً ومنشدهاً ، حزيناً لاهيا نوعا ما بكل السخافات التي سيطرت عليّ . أبداً لم أعد بحاجة لزيارة الغرفة التي تتدفق منها مياه العلاج أو قاعة القمار الجليلة ولم أعد متردداً كيف أقضي وقتي ، فقد انتهى مفعول السحر.

ولو تأملت الآن ، قبل إنتهاء مدة علاجي بفترة قصيرة كيف حصل أن حدث هذا ، ولو بحثت عن علة انهياري وكل تجاربي المهينة ، فلن احتاج إلاّ لقراءة أية صفحة من هذه الملحوظات كي أتبين السبب بوضوح. لم يكن خيالي ولا أحلام يقظتي ولا افتقادي إلى السلوك الأخلاقي وتحمل المسؤولية المدنية هي المسؤولة بل كانت الحال على العكس تماماً ، فقد كنت حسن الأخلاق إلى أبعد حد ، وفي منتهى التعقل وذا عقل مدني ! غلطة قديمة ، ارتكبتها مئة مرة فيما مضى وندمت عليها بمرارة ، حدثت لي من جديد هذه المرة ، فقد اردت أن أكيف نفسي لسلوك محدد ، وأردت أن أنفذ مطالب لم يفرضها أحد عليّ على الإطلاق واردت أن أكون أو أن أمثل ما لم أكنه ببساطة ، لذا فقد تكرر ثانية استخدامي العنف مع نفسي ، ومع الحياة كلها.

ولكن بأية طريقة أردت أن أكون ما لم أكنه ؟ لقد جعلت من عرق نساي أمراً مميزاً ، ولعبت دور المصاب بعرق النّسا ، ونزيل المنتجع ، ونزيل الفندق المتكيف مع محيطه ، عوضاً عن أن أكون ما أنا عليه فقط. لقد أخذت بادن ، والعلاج ، ومحيطي والآلاف في أطرافي مأخذا جدياً للغاية ، وكنت مقتنعاً بأنني لا بد أن من أتعافى عن طريق التكفير الذي أخذ شكل العلاج ، وعبر

درب التوبة ، والعقاب ،والتظاهر ، وعن طريق الاستحمام والاغتسال ومن خلال الطبيب والسحر البرهمي . كنت اريد أن أحقق ما يمكن تحقيقه فقط عن طريق الفضيلة.

هذا ما حدث معي دوماً ، حتى تلك النظرية النفسية للحمامات التي أوجدتها في المياه الفاترة هي نوع من الخدعة ، ومحاولة لاستخدام العنف الفكري مع الحياة ؛ كان لا بد أن تخفق وتقتضي الثأر ، فلست ، كما تخيل لي لوهلة ، ممثلاً لنفسية المصاب بعرق النّسا الخاصة، وليس ثمة وجود لهذه النظرية النفسية على الإطلاق ، وليس هناك شيء اسمه حكمة الناس في سن الخمسين ، التي توهمتها في المقدمة . من الممكن جداً أن يكون تفكيري اليوم يختلف إلى حد ما عما كان عليه قبل عشرين عاماً ، إلاّ أن مشاعري وكياني ، أمنياتي وآمالي لم تختلف ، فهي لم تصبح أكثر اتقاداً ولا أكثر بلادة . فاليوم ، كما في الماضي ، يمكنني أن أتحول إلى طفل ، إلى شيخ ، في عمر سنتين هذه اللحظة ، وفي عمر ألف سنة بعد حين . وبقيت محاولاتي لتكييف نفسي مع العالم النموذجي ، وتمثيل شخصية المريض محاولة لأن أصالح نفسي مع عرق النّسا وبادن عن طريق الأساليب النفسية.

ثمة طريقان للخلاص : طريق النزاهة للشخص المستقيم ، وطريق السماحة للآثم . وقد ارتكبت ثانية ، أنا الآثم ، خطأً محاولة الوصول إلى الخلاص عبر الاستقامة ، لن أنجح أبداً . فالحليب حلو المذاق لا يستطيبه إلاّ المستقيمين ، وهو سم لنا نحن الآثمين يثير الحقد في نفوسنا .

إنه مقدّر لي أن أجرب هذه المحاولة وارتكب هذا الخطأ ،مرة بعد أخرى حالها حال الأمور الفكرية تماماً . فقدري أنا الشاعر أن أجدد باستمرار محاولاتي؛ أن أهزم العالم بالفكر بدلاً من الفن . ومرة بعد أخرى ، كنت أقوم

بهذه الجولات الطويلة الشاقة الموحشة ، وبهذه المحاولات في المنطق وانتهي الى الألم والارتباك ، إلا أنه كانت تتبع هذا الموت دائماً ولادة جديدة ، دائماً كنت أُهذَّبُ بالعفو ، وحينها لا يغدو الألم والارتباك سيئين ، وتتحول الطرق المضللة إلى طرق صالحة ، والهزائم إلـى أشياء قيمة ، لأنهم القوا بي إلى القلب الأمومي ، وجعلوا من الممكن لي أن أجرب الغفران مرة ثانية .

لذا سأتوقف عن اعطاء الدروس الأخلاقية لروحي ، وسأكف عن الهجوم على تجارتي مع العقل والنظريات النفسية وعلى تجاربي مع العلاج، وعلى هزائمي ويأسي ، لن اتحسر عليها بعد الآن ، ولن أعود إلى إتهام نفسي كل شيء تغير للأحسن . إني استمع الى صوت الله ثانية وكل الأشياء طيبة.

ولو تطلعت اليوم حولي في الغرفة رقم ٦٥ ، أجد أن أمراً ممتعاً قد حدث. فقد جربت بالحدس نوعاً من الشعور بالحنين عند اقتراب مغادرتي ؛ وأحسست مقدماً بشيء من الألم لتركها . فكم ملأت على هذه المنضدة الصغيرة صفحات بكتاباتي ، وأحياناً كان الفرح يغمرني حين أشعر أنني أفعل شيئاً ذا قيمة ، وأحياناً أخرى ينتابني اليأس والجحود ، ورغم هذا كنت منهمكاً بالعمل ، في محاولاتي للفهم والتفسير . أو على الأقل للإعتراف بنزاهة. وكم مرة قرأت جان ـ بول في هذا الكرسي المريح ! وكم تمددت في هذا السرير الموضوع في فجوة الجدار ، أرقاً نصف ليلة ، ليلاً بطولة مستغرقاً مع نفسي ، اتشاجر معها ، وأبرز لها ، وأجرب أحزاني مثل استعارة ، مثل احجية ينبغي في بعض الأوقات أن يكون حلها وتفسيرها واضحاً ! كم من الرسائل استلمت وكتبت هنا ، رسائل من وإلى أشخاص مجهولين . ظهرت شخصيتي المتجسدة في كتبي قريبة اليهم ، فهـم الذين ينشدون في تساؤلاتهم وتسليمهم ، في اتهامهم واعتراضهم لمن يبدو لهم قريباً ما نشدته في اعتراضاتي

وشعري : الوضوح ،والرضا ، والتبرير ، وحرية جديدة ، ونقاء جديد للحياة ! وكم زارتني هنا في هذه الغرفة الصغيرة العديد من الأفكار ، والنزوات ، والأحلام هنا وفي الصباحات الكئيبة المتعبة كم أيقظت نفسي من أجل الاستحمام ، شاعراً بالموت المسبق في أطرافي المتيبسة التي تؤلمني بشدة ، وأقرأ مخطوطة الفناء ؛ هنا في الكثير من الأماسي الطيبة نسجت أوهامي وتقت للعراك مع الهولندي ، هنا في ذلك الصباح البهيج قرأت مقدمة نظريتي النفسية الى حبيبتي ، ورأيت سعادتها تجاه الإشارة الصغيرة التي تنم عن تقدير جان ـ بول ، الذي كانت تحبه أيضاً حباً جماً . وعموماً كان كل هذا الوقت في بادن ، وهذا العلاج وهذا التأزم ، والشفاء ، فقدان التوازن هذا بالنسبة لي فترة هامة جداً من الزمان .

ومما يثير الأسف في نفسي هو أنني لم أستطع أن أتعلم الإحساس بهذا الحب وبهذا الشعور العائلي تجاه غرفة الفندق الصغيرة هذه قبل ثلاثة أو أربعة أسابيع ماضية ؟ لكنني ينبغي أن اتقبل الأشياء كما هي . ويكفي أنني اليوم قادر على تقبل وحب هذه الغرفة والفندق ، الهولندي والعلاج وجعلهم ملكاً لي . وبينما كانت أيامي في بادن تقترب من نهايتها ، أصبحت أرى أن المكان هنا غاية في الروعة ، وأظن أن بأمكاني العيش لشهور عديدة أخرى ، ولا بد حقاً أن أفعل ذلك بالضبط لو أردت أن أعوض فقط عن الأشياء التي أثمت بها ، تجاه نفسي ، تجاه جيراني ، عل المائدة وفي الغرفة المجاورة لغرفتي . لم أشك في بعض الأيام الكئيبة تماماً حتى في الطبيب وفي أخلاص ضماناته، وفي الآمال التي قدمها لي؟ حقاً ، إن العديد من خصالي بحاجة الى التهذيب ، فمن أهلني ، مثلاً للامتعاض من معرض الصور الشخصي للهر كيسلرينج ؟ هل من المحتمل أني كنت حكماً للاخلاق؟ ألا أملك أنا نفسي هوايات قد لا تروق لأي شخص

ولمَ لم أرَ في ذلك السيد الأخلاقي ذي التجاعيد إلاّ البرجوازي ، الأناني والحاكم المتواقح على الآخرين ؟ كان بمقدوري كذلك أن أجعل منه كاثوليكياً ، وشخصاً هاماً ، وبطلاً يتمتع بأسلوب مأساوي ، تحطمه قسوته ، ويعاني من استقامته ، وهلم جرا . آلاف الاسقاطات بحاجة إلى الإصلاح ، وآلاف الآثام وأفعال البغض بحاجة للتكفير عنها ـ لولا أني تخليت للتو في هذه اللحظة عن طريق التكفير ونذرت نفسي للغفران حسناً ، إذن ، لندع الآثام تبقى آثاماً ، ودعنا نفرح إذ نجحنا لوهلة في عدم تجميع أية آثام جديدة ! حين التفت ثانية الى جحيم الأيام التعسة الماضية . أجد بين النزلاء صورة بعيدة وصغيرة صورة شبحية تنعكس: هسه نزيل المنتجع ، الشاحب المغموم القلب ، يجلس أمام طعامه والإنزعاج باد عليه ، شخص مسكين لا يملك فطنة أو خيالاً ، قاتم بفعل الأرق ، كائن بلا حب ، معتل ، هسّه الذي ليس به عرق نسا ، بل أن عرق النّسا مستحوذ عليه . انصرف عن هذه الذكرى ، مرتعشاً سعيداً بأن هذا الشخص قد مات الآن ولا يمكنه أن ينهض ثانيـة ليكون في مواجهتي . فعسى أن يرحمـه الله !

لو أخذ المرء أقوال العهد الجديد لا على أنها تعاليم فقط بل تعبيرات حول الحكمة العميقة عن أسرار أرواحنا بشكل غير عادي ، فإن أكثر الأقوال حكمة على الإطلاق ، هي العبارة الموجزة عن فن العيش كله والسعي وراء السعادة هي « أحبب جارك كما تحب نفسك» وهذه العبارة بالمناسبة ، موجودة في العهد القديم أيضاً . فمن الممكن أن يحب المرء جاره أقل من نفسه ـ فيتحول عندها إلى إنسان أناني ، واستغلالي ، ورأسمالي ، وبرجوازي ، وبالطبع يستطيع أن يجني المال والقوة ولكن بقلب لا يعرف طعم السعادة الحقيقية ، لأن أروع

أفراح الروح وأكثرها بهجة وضعت بعيداً عنه . ولو كان بإمكانه أن يحب جاره أكثر مما يحب نفسه ـ عندها يصبح شيطاناً ولكنه يبقى ممتلئاً بالحقد وعدم الرضا تجاه نفسه ، ويعيش في جحيم يزيد هو يومياً من إستعمال سعيرها . فالتوازن في الحب من الناحية الأخرى والقدرة على الحب دون التخبط هنا وهناك ، ذاك هو الحب للذات غير المسروق من أحد ، إنه حب الآخرين الذي لا ينتقص من «أنا» المرء الخالصة أو يضطهدها ! فالسر في كل السعادة وكل البركة يكمن في هذه المقولة . ولو أراد المرء ، فبإمكانه أن يحيل هذا القول إلى جانبه الهندوسي ويعطيه هذا المعنى : أحبب جارك ، لأنه نفسك ! وهذه ترجمة مسيحية لـ tat tvam asi (*) (الذي هو أنت). آه ، كل الحكم في منتهى البساطة . وقد تم التعبير عنها منذ القدم وصيغت بطريقة دقيقة خالية من الغموض ! لـمَ تعود الينا في بعض الأوقــات في الأيام الطيبة فقط ، ولم لا تعود دائمــاً ؟.

تأمل أحداث الماضي :

بعيداً عن بادن، أدون هذه الصفحات الأخيرة . فقد عدت مرة أخرى إلى شهبي - ورأسي مزدحم الان بالمشاريع والخطط الجديدة ـ عدت ثانية إلى صومعتي المنعزلة ، فهسه نزيل المنتجع ، والحمدلله ، قد مات ولم يعد يعنيني بعد الآن . وقد احتل مكانه الآن هسه المختلف كلياً عنه ، رجل عنده بالتأكيد مرض عرق النسّا ، ولكــن هو يمتلك عــرق النّسا وليس عرق النسّا هــو الذي يمتلكـــــــه .

(*) كلمات لاتينية.

حين تركت بادن ،كان الرحيل صعباً حقيقة علي إلى حد بعيد . فقد تعلقت بمختلف أنواع الأشياء والبشر ، تعلقاً ينبغي أن أضع حداً له اللحظة بغرفتي ، بمضيفي ، بالأشجار على ضفة النهر، بالطبيب الذي أثبت نفسه بشكل رائع في جلستي الأخيرة معه ، بحيوانات الدلّق ، بالنادلات الجميلات الودودات ، روزني ، وترودي ، وغيرهن ،بصالة القمار ، بوجوه وشخوص الكثير من رفاقي المتألمين . إلى الوداع ، مساعدي عند آلة الإنفاذ الحراري الودود الذي كان يتحلى بمزاج رائق على الدوام ومستعد للمساعدة باستمرار ! وداعاً أيتها الماردة القادمة من هولندا ، وأنت أيضاً ، أيها البطل ذو الشعر الأشقر كيسلرينج !

كان فراقي عن مضيفي في هايليجنهوف ظريفاً على نحو خاص . كان يستمع مبتسماً إلى عبارات امتناني ، ومديحي لفندقه ، ومن ثم سألني إن كان الطبيب راضياً عني وعن علاجي ؛ وعندما اخبرته بأنه قد أثنى كثيراً عليّ ومن المؤمل أن أشفى تماماً ، لذا استطيع أن أغادر بادن الآن وكلي ثقة بالنفس ، اتسعت ابتسامته إلى خبث مقبول ، ووضع يده فوق كتفي بطريقة ودية وقال : «نعم إذهب في دربك بثقة ! أهنئك ولكن أنظر ، فأنا أعرف أمراً قد لا تعرفه أنت : ستعود ثانية ! »

سألت « أعود ثانية ؟ إلى بادن ؟

قهقه عالياً وهو يقول : نعم بالتأكيد . نعم بالتأكيد كلهم عادوا معافين أو غير معافين، حتى الآن كل من سبقوك قد عادوا . وفي المرة القادمةستكون أنت الزبون الدائم.

لم يغب عن بالي حديث الرحيل ذاك، ربما كان على حق . وربما سأعود لبعض الوقت ، وربما للكثير من المرات . إلاّ أنني لن أكون كما كنت عليه هذه المرة. سأستحم ثانية ، وسأتلقى العلاج الكهربائي من جديد ، وسآكل جيداً مرة أخرى ، وأصاب بالكآبة وأدمن الشراب أو أقامر إلاّ أن كل شيء مع هذا سيكون مختلفاً تماماً ، كما جاءت عودتي هذه المرة في التفاصيل الصغيرة سيكون كل شيء بالضبط مثلما كان ، وبصورة عامة سيكون كل شيء متشابهاً ، ومهما سيكون جديداً ومختلفاً فستشرق النجوم الأخرى فوقه لأن الحياة ليست تخميناً ، ولا هي مسألة حسابية بل إنها معجزة . وعلى هذه الشاكلة كانت حياتي كلها . كل شيء عاد من جديد ، الاحتياجات ذاتها ، الرغبات والأفراح ، نفس الاغواءات ، وظل عقلي يصطدم بنفس الزوايا أصارع نفس التنينات ، وأطارد ذات الفراشات ، وأكرر دوماً نفس الأبراج والظروف ، ومع ذلك كانت لعبة جديدة أبدية ، تتكرر باستمرار بشكل جميل ، وخطر ، ومثير فقد كنت متعجرفاً الف مرة ، ومنهوك القوى وأحمق بنفس المقدار وشعرت الف مرة بالهرم واللامبالاة. ومع أن كل الأشياء كانت تعاود رجعتها إلاّ أنها أبداً لم تكن ما كانت عليه . فالتوحد الذي أقدسه الكامن وراء التنوع هو ليس وحده مضجرة ، فكرية كئيبة ، غير عملية . بل في الواقع هو الحياة ذاتها ، المليئة بالعبث ، والألم ، والضحك وهو ممثل في رقصة الاله شيفا الذي جزأ العالم برقصته إلى أجزاء صغيرة ، وفي العديد من الصور الأخرى . فالتوحد لا يعارض أي تمثيل ، وأي تشبيه . بإمكانك أن تدخله في أي وقت ، فهو ينتمي الـسيك في كل لحظة ؛ حين لا تعرف الزمان ، ولا المكان ، ولا المعرفة ، ولا الجهل ، وتتخل عن الأعراف ، وتليق بالحب ، وتخضع لكل الآلهة

وكل البشر ، والعوالم ،والعصور ففي هذه اللحظات تعرف التوحد والتنوع في آن واحد وترى البوذا والمسيح يمران أمامك ، وتتكلم مع النبي موسى وتشعر بشمس سيلان تلسع جلدك وترى القطبين يتصلبان في الجليد . في هذه الفترة القصيرة كنت هناك لعشر مرات منذ عودتي من بادن .

لم أصبح معافى تماماً ولكن كنت أشعر بتحسن والطبيب مرتاح ، ولكنني لم أشفَ ، وقد أتنكس في أية لحظة ، بغض النظر عن التحسن الفعلي لا بد أيضاً أن أشكر بادن لحقيقة أنني قد توقفت الآن عن إصراري عل التبرم من عرق النسّا ، بل أجده منتمياً اليّ. فقد جاء موعد استحقاقه تماماً مثل بداية زحف الشيب إلى رأسي ، ومن غير الحكمة أن أحاول ببساطة محوه أو إزالته عن طريق السحر . فلنكن سمحي الخلق وسنفوز عبر المصالحة !

لو رجعت يوماً إلى بادن فسوف أنزل الى الماء الدافـيء على نحو مختلف ، وأعيش مع جيراني بشكل مختلف ، وستكون لي هموم مختلفة والأعيب مختلفة ، وسأكتب بشكل مختلف في مذكراتي . سأرتكب أنواعاً جديدة من الخطايا وأجد طريقي إلى الرب بدروب جديدة وسأتخيل دائماً أنني أنا من ، يفعل ،ويحيا ، ويفكر ولكني رغم هذا سأعرف بأنه « هو » .

وحين أعود الآن إلى أسابيع العلاج القليلة الماضية ، يستيقظ في داخلي، كما يحدث مع كل نظرة تأملية لأحداث الأمس ، ذلك الوهم المبهج للتفوق ، للفهم ، للقدرة على التمييز بعمق التي يتمتع بها بقوة كل إنسان في شبابه وفي كل مرحلة جديدة من حياته . أرى معاناة «أناي» التي ماتت منذ عهد قريب وآلام جسدي ومتطلباتي النفسية ، ملقاة ورائي ؛ وقد انتصر الحال الراكد.

وظهر لي هسه الذي تصرف منذ فترة قصيرةبطريقة مضحكة للغاية، واقفاً بعيداً أسفل من هسه اليوم المتقد الذكاء الذي يلتفت إليه . وأرى كيف كان رد فعل هسه ، نزيل المتنجع ، مبالغاً فيه أزاء رغباته المكبوتة وعقدة ، وأتناسى أن هذه التوافه تبدو لي الان صغيرة ومثيرة للضحك فقط لأنه لم يعد لها وجود .

ولكن ما هو الكبير أو ما هو الوضيع ، وما هو المهم أو غير المهم ؟ فالأطباء النفسانيون يعتبرون الشخص المضطرب عاطفياً الذي يستجيب بحساسية وبعنف للاضطرابات الصغيرة ، والإثارات الصغيرة ، والجروح الصغيرة لمشاعر الاعتداد بنفسه في الوقت الذي قد يحتمل هذا الشخص ذاته برباطة جأش الآلام والصدمات التي تعتبرها الأكثرية في غاية السوء . ويعتبرون أن من بإمكانه أن يدوس بقدميه مرة بعد أخرى دون أن ينتبه لما يفعل ، ويستطيع أن يتحمل أردأ أنواع الموسيقى ، وأشد أنواع فن العمارة بعثاً للأسى، وهواء ملوثاً ما بعده تلوث دون شكوى أو تذمر ، ويضرب الطاولة أمامه ويستدعي الشيطان حين يخسر مبلغاً تافهاً من المال في لعب الورق ، شخصاً سليماً وطبيعياً . في الحانات كثيراً ما رأيت رجالاً يتمتعون بسمعة طيبة أو يعتبرون أسوياء ومحترمين حين يخسروا في لعبة ما لا سيما إذا كانوا يعتبرون شريكهم في اللعب هوسبب هذه الخسارة ـ يبدأون بالشتم ويشتاطون غضباً بتعصب شديد ، وخشونة فظة ، وبعناد يشبه عناد الخنازير ، حتى أنني كنت أشعر برغبة تدفعني أن أهرع إلى أقرب طبيب من أجل أن يزودني بشهادة تثبت رأيي بهؤلاء المتعوسين . في الواقع توجد شتى أنواع المعايير ، من الممكن أن يسلم المرء لكل منها بشيء من الشرعية ، ولكن أن يعتبر أياً منها مقدساً ، سواء كان معياراً للعلم أو للأخلاقية العامة في اللحظة الراهنة ، فهذا شيء لا أستطيع حمل

نفسي علـــى الاقتنـــاع بـه .

إن الشخص الذي يمكنه أن يضحك مــن أعماقه على الصورة الذاتية لهسه ، نزيل المتنجع وأن يجد هذا الشخص مضحكاً بلا جدال (وأيضاً مصيباً تماماً) سيندهش هذا الشخص نفسه لو رأى فجأة شخصاً يتميز بطرق تفكير خاصة وردود أفعال يومية فريدة تجاه محيطه وقد وصفها وحللها بدقة وتفصيل ومثلما قد يتحول تحت المجهر ، شيء كان بعيداً عنه لا مرئياً أو قبيحاً ، كأن تتحول لطخة طين الى سماء رائعة مرصعة بالنجوم ، كذلك من الممكن أن تتحول تحت مجهر علم نفس حقيقي (وهو أمر لم يوجد بعد) أصغر إيماءة للروح - هي دائماً بمنتهى السوء أو الغباء أو الجنون خلاف لذلك - إلى حالة مثيرة مقدسة تستحق التفاني ، لأن المرء سيجد فيها بوضوح مثالاً ، وأنموذجاً استعارياً لأكثر الأشياء التي نعرفها قداسة : للحياة . سأبدو معتداً بنفسي إذا ما قلت بأن جميع جهودي الأدبية لسنوات عديدة لم تكن سوى كفاح للوصول إلى ذلك الهدف البعيد ، وحس داخلي ضعيف وواهن بعلم النفس الحقيقي ذاك المتمتع بعين شاملة لا يظهر أي شيء تحت نظرتها تافهاً أو أحمق أو قبيحاً بل يبدو جليلاً ومقدساً ، وتبقى تلك هي الحقيقة بمعنى من المعاني .

وبينما أودع الآن هذه الصفحات ، أتفحص بنظرة أخيرة الفترة التي عشتها في بادن ، حيث خلفت ورائي عدم رضا ، وشوكة ، وألماً . لا يتعلق هذا الألم بحماقاتي ، وافتقاري للصبر ، أو انفعالاتي ، وأحكامي القاسية ؛ وباختصار فهو لا يخص أياً من نواقصي واخفاقاتي الإنسانية التي أعرف كم هي حالة مشروطة وضرورية . كلا ، فحزني ، وشعوري بالفراغ والألم ، له علاقة بهذه المذكرات ، وبهذه المحاولات لتدوين جزء صغير من حياتي بالصدق

والصراحة الممكنة. أشعر بالإضطراب والخجل ، ولا بد أن اعترف بذلك ليس من جراء آثامي ورذائلي بل ببساطة بسبب فشل تجربتي في التعبير، وثمرة جهودي الأدبية الهزيلة جداً .

وفي الواقع أن ثمة نقطة محددة تماماً تتجذر فيها خيبة أملي . وربما أنجح في جعل ذلك واضحاً بالتشبيه لذلك . لو كنت مؤلفاً موسيقياً فبإمكاني دون صعوبة ما أن أكتب لحناً لصوتين لحناً يتكون من سطرين ، ومن صفين من درجات النغم ومن الرموز الموسيقية التي يتوافق أحدهمـا مع الاخر ، ويكمله ، ويتصارع معه، ويقيده ، إلاّ إنهما وفي كل الأحوال وفي كل لحظة ، وفي كل نقطة في السلسلة يتمتعان بأكثر العلاقات المتداخلة عمقاً وبأقوى تأثيرمتبادل . وكل من يستطيع قراءة الموسيقى يمكنه أن يقرأ لحني الثنائي وأن يرى ويسمع دائماً مع كل نغمة النغمة المضادة لها ، شقيقتها ، عدوتها ، نقيضتها. هذا هو ما أعنيه ، هذا الصوت المزدوج ، والمتضادات التي تتدافع باستمرار ، وهذا الخط المزدوج ، ذلك ما وددت ان اعبر عنه بطريقتي الخاصة، في الكلمات وقد أجهدت نفسي في المحاولة إلى أبعد حد ، ولم أفلح ولكنني سأواظب للوصول اليه ولو كان ثمة ما يضفي على أعمالي التوتر والثقل فلن يكون غير هذا الهم المكثف للأمر المستحيل ، وهذه المعركة الشرسة من أجل شيء عصي على الكينونة . أريد أن أجد تعبيراً للثنائية وأود أن أكتب فصولاً وجملاً يكون اللحن ونقيضه دائماً حاضرين فيها بآن واحد ، حيث يقف التوحد فيها إلى جانب كل تنوع ، والجدية بجانب كل مزحة. بالنسبة لي ، تكمن الحياة في ذلك ليس إلاه، وفي التقلب بين القطبين ، وفي المسافة الممتدة ما بين محوري العالم الرئيسيين . أود أن أشير دوماً بمسرة الى تنوع العالم الفائق الروعة. ومثلما يردد

مذكراً على الدوام أن جوهو هذا التنوع هو الوحدة أحب أن أبين باستمرار أن الجمال والقبح ، الضياء والظلام ، الخطيئة والقداسة هي نقائض للحظة واحدة على الدوام ، ما تلبث أن تندمج إحداهما بالأخرى . إن أرقى تعابير الجنس البشري هي هذه العبارات القليلة التي تم فيها التعبير عن هذه الثنائية بأيماءات سحرية. هذه الأقوال والحكايات الرمزية القليلة الغامضة التي عرفت فيها نقائض العالم العظمى كضرورة وكوهم في وقت واحد . فتعاليم اللاوتسي الصينية أوجدت العديد من مثل هذه الأقوال التي يبدو فيها قطبي الحياة للحظة خاطفة وهما يتلامسان أحدهما مع الآخر وهذه المعجزة ذاتها قد تحققت في العديد من أقوال المسيح بطريقة أكثر نبلاً وبساطة وأكثر دفئاً حتى لم أعرف شيئاً آخر في العالم له مثل هذا التأثير العميق. وينبغي للدين ، والتعليم ، ومدرسة علم النفس أن تطورباستمرار. وخلال آلاف الأعوام ، عقيدة الخير والشر ، الصواب والخطأ، على نحو أكثر براعة وحزماً ، وأن يكون أقصى غاياتها بلوغ الاستقامة والطاعة ، لتصل في النهاية عند الذروة إلى الادراك الحسي السحري بأن تسعة وتسعين شخصاً صالحاً هم أقل قيمة في عيني الله من آثم واحد لحظة التوبة .

وربما أني ارتكب خطأ كبيراً من جانبي بل خطيئة ، لو اعتقدت ان علي أن أرهق نفسي كي أنادي بهذا الادراك العميق الرفيع الشأن. وقد تكمن تعاسة عالمنا المعاصر في ذلك بالذات ، إذ تبذل هذه الحكمة الرفيعة رخيصاً في كل شارع ، وفي كل كنيسة وطنية تلقى اضافة إلى المواعظ التي تدعو الى وضع الثقة بالسلطات ، وفي تجميع النقود. وفي التحلي بالزهو القومي ، موعظة الايمان بمعجزة المسيح . ويمكن لمستودع العهد الجديد الذي يحوي اكثر الحكم قيمة وأكثرها خطورة ، أن يُشترى من أي مكان بل وحتى ان المبشرين يوزعونه

مجاناً . ربما ينبغي لمثـل هذا التبصر والحدس اللامعقول ، والجريء ، بل والمفزع ، مثل ذاك المتضمن العديد من أحاديث المسيح ، أن يبقى متوارياً بعناية وأن يحاط بالجدران الواقية . وربما يكون أمراً جيداً ومرغوباً فيه لو كان على المرء أن يضحي بسنوات من عمره وأن يخاطر بحياته من أجل أن يتعلم واحدة من هذه الأقوال العظيمة ، مثلما عليه أن يفعل من أجل القيم العظيمة الأخرى في الحياة. لو كانت الحال على هذه الشاكلة (مر كثير من الأيام التي آمنت فيها أنه كذلك) لكان الكاتب الجدي للرواية الشعبية يتصرّف بشكل أفضل وأكثر ملاءمة من ذلك الذي يناضل من أجل إيجاد تعبير عن الخلود .

هذه هي معضلتي وتلك هي المشكلة. يمكن قول الكثير عنها ، ولكن من غير الممكن حلها ولن يكون ممكناً لي أبداً أن أجمع قطبي الحياة معاً عنوة ، وأن أسجل الصوتين الثنائيين في لحن الحياة . ومع هذا سأستجيب للصوت الآمر الغامض في داخلي وسأدعه يرغمني مرة بعد مرة على أن أقوم بالمحاولة ، هذا هو النابض الرئيسي الذي يحرك ساعتي الصغيرة .



الرحلة الى نورمبرغ

١٩٢٦

لم يحالف الحظ كثيراً كاتب ذكريات السفر هذه كي يعد من ضمن اولئك الذين بإمكانهم أن يقدموا مبررات واضحة لأفعالهم ؛ ولا هو كان محظوظاً بما يكفي ليصدق أن مثل هذه المبررات موجودة سواء لنفسه أو للآخرين . فالمبررات كما تبدو لي ، دائماً مبهمة ، فالسببية لا تسود في الحياة ابداً ، بل في الفكر فقط . وبلا شك ، فإن الانسان المثقف ثقافة كاملة ، والذي يتمتع بطبيعة ناضجة تماماً قبل أوانها ، ينبغي ان يكون قادراً على ادراك سلسلة الاشياء المترابطة السببية في حياته وان يقتنع عند تأمله الأسباب والدوافع التي يرتضيها وعيه على انها الوحيدة، لانه سوف ينسجم بشكل تام وكلي مع وعيه. ومع ذلك فانا لم أصادف مثل هذا الشخص او مثل هذه الآله ، وانا أسمح لنفسي ان أكون متشككاً مع البشر الآخرين من أمثالنا ، حول الحوافز المزعومة لأي فعل أو حدث . فلا يوجد انسان واحد يتصرف بدافع «المبررات»، فهم يتظاهرون بفعل ذلك لا غير ويحاولون جهدهم ، بدافع من الخيلاء والفضيلة ، اقناع الآخرين ان هذه هي الحقيقة . واما في حالتي ، على

الاقل ، فقد كنت قادراً في كل لحظة مرت ان احدد ان وراء أفعالي دوافع تكمن في مناطق ليس بإمكان عقلي او ارادتي التسلل اليها . ولو سألت نفسي اليوم عن السبب الحقيقي لسفرتي الخريفية من تسينو الى نورمبرغ - تلك السفرة التي استمرت شهرين - اجد نفسي في حيرة حقيقية ؛ وكلما تمعنت في التفكير بهذا السبب كلما ظهرت المبررات والدوافع تزداد تشعباً وتجزئة وانقساماً لتمتد في النهاية عائدة بي الى الاعوام البعيدة ، ولكن ليس كسلسلة اسباب متعاقبة على خط مستقيم ، وإنما اقرب الى شبكة مؤلفة من مثل هذه السلاسل المتعاقبة ، لذا اجد في النهاية ان هذه الرحلة العرضية وغير المهمة في حد ذاتها ، تبدو محكومة بلحظات لا تحصى من بواكير حياتي .

ضمن هذا النسيج لم افهم الا القليل من عقده الاكثر تشابكاً . فمنذ عام مضى عندما كنت في شغابيا لفترة قصيرة ، اشتكى احد اصدقائي الشغابيون ممن كان يعيش في بلابويرن بأنني قد اهملت زيارته . ووعدته اني خلال سفرتي القادمة الى شغابيا سأؤدي هذا الواجب المنسي . لو نظرنا لهذا الامر من الخارج ، لكان هو المحرك الاول للسفرة . ولكن حتى هذا الوعد كانت له جذور ومبررات غير مباشرة ، كما ادركت ذلك بوضوح فيما بعد . فرغم حبي لفكرة رؤية صديق قديم يتمتع بزيارتي ، فانا انسان محب للراحة ينأى بنفسه عن الرحلات والتجمعات . ومن الذين لا تجذبهم الا قليلاً فكرة القيام بسفرة الى قرية ريفية صغيرة ، نائية . كلا لم تكن مجرد الصداقة او حتى المجاملة التي جعلتني اقطع هذا الوعد ، ثمة شيء يتجاوز ذلك . فوراء اسم بلاوبويرن يكمن السحر والغموض، وفيض من الاحداث الماضية، والذكريات، والاغواءات . ويأتي في المرتبة الاولى ان بلاوبويرن مدينة ريفية عتيقة اثيرة

---

(١) «القزم الخرافي» قصة الكاتب ادوارد موريك(١٨٠٤ - ١٨٧٥)

(٢) «هاينريخ الاخضر» سيرة ذاتية للروائي السويسري «لغوتفريد كيلر»(١٨١٩ - ١٨٩٠) .

للقلب سكنها الشغابيون ، وهي مركز مدرسة الدير الشغابية مثل تلك التي التحقت بها في صباي . اضافة الى ذلك ، توجد في بلاوبويرن وفي نفس ذلك الدير اشياء شهيرة وقيمة تستحق الرؤية ، ولا سيما المذبح القوطي . وبالطبع ، لم يكن اغراء تاريخ الفن كافيا ليدفعني الى التحرك . ولكن في غمرة تعقيد بلاوبويرن ، كان يوجد صدى لشيء آخر ، شيء يبدو لاول وهلة شغابياً ، وله طابعٌ شاعري ، وبالنسبة لي كان يتمتع بفتنة استثنائية : فبالقرب من بلاوبويرن في بلاوتوف كانت تعيش ذات مرة الفاتنة لاو ، وقد سبحت الفاتنة لاو هذه تحت الارض من بلاوتوف حتى قبو في نوننهوف ، وظهرت في ينبوع مكشوف تطفو في الماء حتى نهديها ، كما ادلى مؤرخها بذلك . هنا في الخيالات الآسرة التي تحوم حول الأسمين الساحرين بلاو ولاو ، نشأ حنيني الى بلاوبويرن . ولم استطع - الا في وقت طويل لاحق - ان ادرك السبب واتحقق من ان مرأى بلاوتوف والفاتنة لاو واستحمامها في قبو نوننهوف هي دوافع رغبتي ، ومن هذا المصدر نشاء قبولي للسفرة الى بلاوبويرن . وتيقنت بشكل تام ان كل اولئك البشر المثيرين للحسد القادرين على تقديم مبررات لافعالهم هم في الحقيقة الذين لا تحثهم او توجههم هذه المبررات ، بل كانت دائماً علاقاتهم الغرامية هي وراء ذلك ، وليس انا فقط ولن اتردد في الاعتراف بعشقي الخاص هذا ، لانه يعود الى اكثر سنوات شبابي عنفواناً وجمالاً . فحين كنت يافعاً ، وجّه خيالاتي الشعرية الحسية رمزان أنثويّان كنماذج سامية في الشعر ، كلاهما كانا جميلين ، وغامضين ، وكلاهما تغمر جسديهما المياه ، وهما الفاتنة لاو من «القزم الخرافي» [1] والجميلة جودث في حمام «هاينريخ الاخضر» [2] .

لم اكن قد فكرت في اي منهما لسنوات عدة ، ولم اذكر اسميهما ، ولم

---

١ ـ القزم الخرافي : قصة الكاتب إدوارد موريك (١٨٠٤ - ١٨٧٥)

٢ ـ هاينريخ الأخضر : سيرة ذاتية للروائي السويسري «الغوتفريد كيلر» (١٨١٩-١٨٩٠)

اعد قراءة قصتيهما . وفجأة وانا افكر في كلمة بلاوبورن ظهرت لي الفاتنة لاو ثانية ، في الماء تطفو حتى نهديها ، وذراعاها البيضاوان يسترخيان فوق حافة القبو الحجرية . ابتسمت ، وعندها عرفت تماماً الدافع وراء سفرتي . بالاضافة الى الفاتنة لاو ، التي ما كنت اجرؤ الا قليلاً ان آمل لقاءها في موطنها السابق ، فقد امتزجت مع هذه الاصداء والخيالات ذكرى صباي وعالم الاحلام المفروض عليه ، وذكرى الشاعر موريك ، والامثال ، والالعاب ، والحكايات الخرافية الشفاهية العتيقة ، ولغة طفولتي ومشاهد الطبيعة فيها . لم يكن منزل عائلتي ولا لمدينة اعوام طفولتي مثل هذا السحر علي ، فقد عاودت زيارتهما كثيراً جداً ، وفقدت كليهما بشكل تام . اما هنا في الصور التي يثيرها صوت بلاوبورن ؛ فقد تجمعت كل الاواصر التي ما تزال حية والتي تربط قلبي بالصبا ، والوطن ، وبأناسي . كل هذه الصلات ، والذكريات ، والعواطف تقف تحت رمز فينوس ، الفاتنة لاو . ولا يمكن بالتأكيد ، تخيل سحر اشد تأثيراً من هذا .

حتى تلك اللحظات ، كان ذلك كله ما يزال غافياً في اعماقي ، ولم يجد اي شيء منه طريقه الى وعيي ، وكل ما لاح في البدء كان وعداً ـ استطيع ان أفيه في عامين او عشرة اعوام . وفي احد ايام الربيع وصلتني دعوة لقراءة بعض النصوص امام الجمهور في أولم . ولو كانت هذه الدعوة قد وصلت في اية لحظة اخرى ، لكنت عنيت بها بنفس الطريقة التي اتبعها مع كل الدعوات الاخرى ، اعتذر عنها ببطاقة بريدية مهذبة وينتهي الامر . ولكن دعوة أولم لم تأت في لحظة عشوائية بل في لحظة خاصة ، جاءت في وقت كانت الحياة تمنحني قدراً من المتاعب غير الاعتيادية. فأينما وجهت وجهي لا ارى الا المخاوف ، والالتزامات ، والضجر ، ولا توجد دلائل مبهجة فكان من الطبيعي

ان ارحب باية فكرة للتغيير ، او للتحرك ، او للفرار . لذا لم اكتب البطاقة المهذبة تلك بل اعدت قراءة الدعوة من اولها الى اخرها ، وعلى غير توقع ، بزغت فجأة فكرة ان أولم تقع جوار بلاوبويرن . تركت الدعوة فوق منضدتي ليوم او يومين ، ومن ثم قبلتها ، شرط ان لا يكون موعد القراءة في جو الشتاء البارد بل في الخريف او الربيع . وقد عين الناس في أولم الموعد في بداية تشرين الثاني ووافقت عليه ، دون ان استبعد التحفظ الفكري الصغير الذي كنت اعامل به جميع الارتباطات البعيدة ، الفكرة السرية : «لو حان الموعد ، فبأمكانك دوماً ان تبرق اعتذاراتك» .

حل الربيع وتشرين الثاني ما يزال بعيداً في الأفق ولم افكر كثيراً في ذلك الموعد ؛ فقد استحوذت علي افكار واهتمامات اخرى ، اكثر قرباً واكثر مثاراً للجدل والنقاش ، ولو حدث ان تذكرت بين الفينة والأخرى أمر أولم ، فلا يعتريني غير شيء من الاسف فقط لاني قد سمحت لنفسي مره اخرى ان تغويها مناسبة لا اؤمن بقيمتها والتي ستتحول في النهاية الى واجب مضجر . فقد يضطر المغنون والفنانون والممثلون الذين يكون عملهم الفعلي هو الظهور امام الجمهور ، ان يعتادوا الضرورة المتعبة لالزام انفسهم بالعمل ستة اشهر او عام قبل ان يظهروا في يوم معين او ساعة معينة . كما انه جزء من مهنتهم ايضاً ان يفصلوا انفسهم عن اي مزاج واية نزوة ويدعوا العنان لفنهم . اما بالنسبة الى الكاتب ، ساكن القرية الهادئة الذي نادراً ما يرتحل ، رجل المكتب ، ففكرة ان عليه في الثاني عشر من الشهر الذي يلي الشهر القادم القيام بقراءة عامة دون اخفاق في هذه او تلك المدينة ، من الممكن ، وتحت ظروف معينة ، ان تبدو له تلك الفكرة مرعبة . كم من السهولة ان ينقلب الحال في وقت يكون مناسباً جداً للعمل ، وان تكون هذه هي ساعات العمل المفضلة التي ينتظرها المرء

طويلاً دون طائل - وعندها في وسط افضل اعمال المرء يكون عليه ان يضع كل شيء جانباً لأيام ، ويحزم حقائبه ، يراجع جداول مواعيد السفر ، يسافر ، ينام في اسرة الفندق في مدن غريبة ، ويقرأ قصائده بصوت عال للغرباء ، تلك القصائد التي من المحتمل ان لا يشعر في لحظة قراءتها بأية صلة بها والتي قد تبدو انها قد فقدت شيئاً ما وأصبحت مبتذلة! لذا فالشاعر كثيراً ما يدفع ثمناً غالياً لو سمح لنفسه ، بدافع الغرور ، والرغبة في الربح ، او حب السفر ان تغويه القراءة امام الجمهور .

فالاشخاص المنهمكون في عمل منهجي ، منظم ، ويبدأون اشغالهم بشكل معتاد في وقت محصور بين الساعة الثامنة والثانية ، والذين هم - حال تلقيهم برقية - على استعداد ليشرعوا في رحلة طويلة باقصر وقت ممكن ربما لا يكفيهم لاستعدادات السفر ، من الذين يعني لهم أن ما بعد ظهيرة حرة توجد جنة صغيرة ، ومن الذين يكرسون انفسهم لاستجماماتهم والساعة في ايديهم . مثل هؤلاء الاشخاص لا يملكون ادنى فكرة عن الطرق الكسولة والفوضوية والنزوية التي يمضي الشاعر فيها حياته المبهمة! وبلا شك يوجد شعراء واعون لواجبهم ، يكرسون انفسهم للعمل بنظام معين وبمثابرة ، منكبين ساعات عنيدة على مكاتبهم ، يبدأون العمل في وقت محدد كل صباح ، اناس دربوا انفسهم ليكونوا بلا احساس تجاه الطقس والازعاجات الصوتية القادمة من الخارج وكذلك تجاه امزجتهم الخاصة وكسلهم . أنا مستعد أن أحل أشرطة أحذية هؤلاء الابطال الرائعين ، ولكن ان اتشبه بهم فهذا بالنسبة لي عمل ميؤوس منه . اما فيما يخصني ، فانا اعتقد انه لا يوجد شخص محترم ومجد يقبل بمصافحتي لو عرف كم هي ضئيلة قيمة الوقت لديّ ، وكيف ابعثر الايام ، والاسابيع ، نعم ، والاشهر ، وبأية حماقة أضيع حياتي . فلا يمكن لصاحب عمل ، ولا

لمكتب ، ولا لقوانين ان تحدد متى علي ان انهض في الصباح ، او متى آوي الى الفراش في الليل ، او متى اريد ان اعمل او آخذ قسطاً من الراحة ، فليس لعملي موعد محدد لانجازه ، ولن يكون هنالك اي فرق يذكر سواء امضيت ما بعد الظهيرة فقط في نظم قصيدة ذات ثلاثة مقاطع او أمضيت في ذلك ربع العام . فعندما اشعر بيوم انه اجمل مـن ان اضيعه في العمل ، اعامله باحترام بان اذهب في نزهة على القدمين ، او ارسم بالالوان المائية ، او لا افعل شيئاً البتة . وحين يبدو لي يوماً في منتهى الكآبة او خانقاً جداً ، بارداً او دافئاً اكثر مما ينبغي للعمل عندها أمضيه مستلقياً على الاريكة اقرأ او املأ الصفحات بالرسومات بالالوان الشمعية التي تضج بخيالات معقدة ، او ابقى في الفراش فقط ، خصوصاً ان كان الوقت شتاءً وكنت اشعر بالوجع . ولو حدث ان اضعت قلم الحبر او شعرت بحاجة لتأمل العلاقة بين الاساطير الهندوسية والصينية ، او قابلت اثناء نزهة المشي الصباحية سيدة جميلة ، عندها تنتفي اي فكرة للعمل . من ناحية اخرى ، ورغم ان العمل ليس هو غايتي الأساسية ، وهو بغيض لي بشكل جوهري ، تبقى المشقة في ان تكون على استعداد مستمر للعمل هي في نظري التزام مهيب . وهكذا ، فانا املك وقتاً لفعل لا شيء ، ولكنني لا املك وقتاً للرحلات ، وللأمور الاجتماعية او الصيد او غيرها من الاعمال اللطيفة ـ كلا ينبغي ان اكون دائماً قرب غرفة عملي ، وحيداً ، دون ازعاج ، ومستعداً في اية لحظة للمهمة المحتملة . فلو حدث ان دعيت الى العشاء في لوكارنو مساء الغد ، فسوف يزعجني هذا ، فكيف اعرف ان مساء الغـد لن يجلب لي لحظة محلقة من تلك اللحظات النادرة والجميلة وقت يشدو لي الطائر السحري ، وحين يشتعل الشوق للعمل؟ وبالنسبة لكسول كهذا ، الذي رغم ذلك يود قبل كل شيء ان يحصل على ضمان سري في ان يكون كل يوم مستعداً للعمل،

قلما يوجد شيء اكثر اقلاقاً له من ان يعرف قبل شهور ان في كذا وكذا موعد مقرر سلفاً وفي كذا وكذا مكان يكون عليه اداء مهمة معينة فيه .

ولو كان الامر يحمل اية اهمية لي لأبرر حياتي الفوضوية والمبددة ، فاستطيع ان اقدم بعض الحقائق على سبيل التبرئة . فأقول اني في لحظة العمل الفعلي ، ومع ان هذه قد تأتي لمرات قليلة فقط خلال العام ، لا يعد للطقس ولا لمشكلة تخص الصحة ، ولا الاهتياج ، ولا النهار ولا الليل وجود بالنسبة لي ، فيومها اصبح متعصباً مثل اي ناسك هندي ، أنسى العالم وانسى نفسي ، ملقياً اياها في دوامة العمل الهائلة ، التي أخرج منها فيما بعد ، منهكاً ، وضئيلاً ، ومحطماً . كذلك استطيع ان أشير الى ان تبديد الوقت لا يرجع الى الكسل وعدم التنظيم فحسب ، بل هو احتجاج واع ضد الحكمة الأكثر جنوناً وقداسة في عالمنا الحديث وهي : الوقت من ذهب . هذه العبارة في حد ذاتها صحيحة تماماً ، فمن السهل ان يحول المرء الوقت الى مال ، مثلما بامكانه بسهولة تحويل التيار الكهربائي الى ضياء وحرارة . واما الجانب الجنوني المبتذل في اكثر الامثال الانسانية حماقة هو ببساطة هذا الامر - ان يعتبر «المال» وبشكل قاطع قيمة عليا . ولكن اسمحوا لي ان أغفل التبرير الذاتي . فأنا في الحقيقة ، رغم كل البراهين الظاهرية التي قد تفيد العكس ، رجل كسول ، ومتلاف للزمن ، ومراوغ مرتاح البال بالعمل ، ولن اشير الى بقية المعاصي . وسواء آثرت ازدراء المقابل او حسده ، فلن يعرف انسان غيري كم هو عزيز علي أن ادفع مقابل خطاياي . واظن ان هذا يكفي . لكن مع ذلك يتوجب فعلاً ان اقول كلمة حول حكمة ان «الوقت من ذهب» ، لانها ذات علاقة وثيقة بقصة رحلتي . وقد بلغ شعوري بالاشمئزاز ، من مسألة الايمان بالعالم المعاصر ومن العالم المعاصر ذاته ، والذي اعني به الثقافة الآلية عموماً ، مبلغاً عميقاً بحيث انني

كلما سنحت لي الفرصة ابرأ بنفسي ان تتكيف مع قوانينه . بينما اليوم ، مثلاً ، يعتبر انجازاً ان تسافر الف كيلومتر واكثر في يوم واحد ، وانا اعتبر ان الامر لا يستحق ان يتحمل الانسان ما يزيد عن الأربع او الخمس ساعات في عربة قطار متحرك ، على الاكثر . وقد تطلبت مني سفرة اسبوعاً بينما انجزها الآخرون في يوم وليلة . واما بالنسبة للأصدقاء الذين يتوزعون هنا وهناك ويكونون مضيفيّ اثناء رحلتي ، فقد يسبب ذلك شيء من الضيق لهم في بعض الاحيان . فما ان يغمرني الشعــور بالراحة بمكان ما ، حتى ابدأ في الغالب ، اصارع ، لايام عديدة ، حنين السفر لمكان ابعد ، حيث حزم الحقائب ، وحيث كل ما ينبغي فعله من اشياء كريهة مرهقة في المحطة وفي القطار . من بين المعتقدات الاساسية في حياة الكثير من الحكماء ، توجد هذه الوصية : عش كل يوم كما لو كان يومك الاخير . حسناً ، ومن بوده ان يقضي يومه الاخير يتنشق السخام ، ويجر وراءه الحقائب ، ويقاوم ابواب المحطة الدوّارة ليدخل ، وينجز جميع الاعمال المضحكة التي تشكل جزءاً من السفر في السكك الحديدية ؟ والامر الوحيد الممتع في ذلك هو انك توضع في مكان مغلق دون تمييز مع بقية الناس . ولكن، رغم ان هذا الوضع قد يكون جميلاً ، الا انه في الغالب يفقد سحره بعد مضي ساعات قليلة . ولو حلت عليك الصدفة السعيدة ووجدت نفسك تجلس في العربة جنب شخص شاء القدر ان يكون صديقك الحميم الذي بدونه لن يكون بمقدورك العيش ، وسوف تكون أخرق لو لم تفلح في الحال بأقناعه ان يخرج معك عند بعض المحطات الفاتنة ويساعدك ان تقرر ان كان العشب والازهار ، السماء الزرقاء والغيوم ما تزال موجودة . ولا يمكنني ان انكر ان السفر على طريقتي لا يجعل المرء يتقدم بسرعة كبيرة ومن المحتمل ان تفوح منه رائحة العصور الوسطى ؛ فلو حدث ان قررت الذهاب الى برلين (وقد نجحت لحد

الآن في تجنب ذلك) ، فستحتاج السفرة في الاقل الى اثنى عشر يوماً . وينبغي للمرء ان يكون بعيداً عن التحضر تماماً في سلوكه لكي يقيم طريقة السفر هذه ويكون قادراً على رؤية مزاياها العظيمة . وبالتأكيد فإن لها مساوىء ايضاً : فالسفر على طريقتي ، مثلاً ، يكلف غالياً الى حد ما ، ولكن من ناحية اخرى ، فان رحلاتي قد منحتني الكثير من الاشياء المرضية التي لن يكون من الممكن الحصول عليها بالوسائل الحديثة . وانا مستعد كل الاستعداد، من اجل مثل هذه الاشياء المرضية، ان اتحمل هذه النفقات ، فانا اقدرها بدرجة كبيرة جداً لكوني عاشقاً للمتعة وبشكل لا يصدق . انه قدر الكثير من البشر ان يخبروا الحياة في الغالب حزناً وألماً ، ليس نظرياً فحسب ، في نمط من التشاؤمية الادبية الفنية ، وانما في الجسد وفي الواقع . هؤلاء الاشخاص الذين ، ويالحسرتي ، انتمي اليهم، يتمتعون بموهبة على تجربة الالم تفوق تجربة السعادة ؛ فالتنفس والنوم ، الأكل والهضم ، وأبسط الوظائف الحيوانية جميعاً ، تسبب لهم الالم والكرب بدلاً من المتعة . ولكن ، ورغم كل هذه ، ووفقاً لقانون الطبيعة ، فإن هؤلاء الناس يشعرون في دواخلهم بدافع تأكيد الحياة ، والشعور بلذة الالم ، وليس للأستسلام . لذا فهم مأخوذون بشكل غير عادي بكل ما من شأنه ان يمنحهم شيئاً من الفرح ، ويمكنه ان يبهجهم قليلاً ، ويجعلهم يشعرون بقليل من السعادة والدفء ، وهم ينسبون الى هذه الأشياء الممتعة كلها قيمة لا يراها الانسان البسيط والمعافى ، الطبيعي ، والنشيط . في الواقع ان الطبيعة ـ بهذه الطريقة تمنح الكائن شيئاً في منتهى الجمال والتعقيد يحمل كل امرىء له اعتباراً ما الا وهو المرح .عند هؤلاء المعذبين، عند هؤلاء المستضعفين تماماً ، والعاجزين تماماً ، عاشقي الفرح بكل ما في الكلمة من معنى ، الباحثين عن الراحة، يبرز من وقت الى آخر ما يدعى بالدعابة، بلورة لا تنمو الا في الالم العميق المتأصل

الا أنها مع هذا تنتمي الى احدى افضل الابتكارات الانسانية . فالمرح الذي يبرز عند المعذبين ليتمكنوا من تحمل آلام الحياة بل حتى لكي يتغنوا بمآثرها كان له، بشكل يدعو للاستغراب ، تأثير عكسي على الآخرين ، الاصحاء غير المعذبين ، كما لو انه كان تفجراً للضحك والفرح النهم في الحياة ؛ فيأخذ الأصحاء بلطم افخاذهم ويصدرون صيحة كالصهيل ومن ثم ينكمشون دائماً شاعرين بجرح في مشاعرهم ما ان يقرأوا ـ من وقت الى آخر ـ تقريراً كهذا ، ان الممثل الهزلي (س) الذي يحبونه كثيراً والناجح قد سقط فريسة لنوبة كآبة على نحو غامض .

ولو اخذت عني فكرة متساهلة بكوني اتمتع بوقت فراغ كبير جداً وانني اقفز من موضوع الى آخر ، سأعود في الحال الى موضوعي الرئيسي . او في حالة فشلي بفعل ذلك ، فاسأل نفسك فقط : هل يوجد اي شيء ذو أهمية فيما ينبغي ان يقوله رجل مثلي عن رحلة ، رجل يكره القطارات ، ومع ذلك يتخذها وسيلة للتنقل ، كسول يبدد ايامه في البحث عن اللهو والالعاب ، ويقبل الدعوات لقراءة النصوص امام الجمهور رغم انه يرتاب جداً في امر هذه الفعالية ، رجلٌ أصبح الرفض لديه والهزء بالحياة الجادة ، الحقيقة ، المعاصرة ، النشيطة ، المحترمة نوعاً من اللعبة المقرفة ؟ كلا ، ما الذي يمكن ان يقوله مثل هذا الحالم حول رحلة قد لا يكون لها اي علاقة به ، وكل من يعطي اذنا صاغية الى هذا المهرج يعرض نفســه لمخاطرة. ان المهرج ، وكما يفعل الكتاب الساخرون، قد يغيب عن بالِه مرة اخرى موضوعه المزعوم وسيكون عليه ان يبحث بمشقة عنه . وربما يكون هــو نفسه نوعاً من الكتاب الساخرين ، وهؤلاء ، جميعاً ، مهما كتبوا ، يتخذون عناوينهم ومضامينهــم ذرائع ليس الا ؛ امــا في الحقيقــة فهم جميعــاً لا يملكون الا موضــوعاً واحداً : الحزن الاستثنائي .

ولو جاز لي ان استعمل هذا التعبير ، براز الحياة الانسانية ، مدهشة هي الحقيقة ان هذه الحياة البائسة من الممكن ورغم كل شيء ان تكون رائعة جداً وثمينة .

أما الظروف التي رافقت رحلتي فهي : كان الصيف قد قدم ، ولم يتحول لحن حياتي في تلك الفترة الى لحن عذب ، ومن الخارج هجمت علي الهموم من جميع الجهات ، وفقدت وسائل الراحة والمتعة القديمة المفضلة لدي ، الرسم والقراءة ، الكثير من سحرها ، لانني كنت اقاسي الماً متواصلاً في عيني ، شيئاً بالتأكيد ، كنت احسه في الماضي ، الا انه الآن كان جديداً في درجة حدته واستمراره . شعرت بوضوح انني قد صرت ثانية عند النهاية المؤسفة لانجاز كنت اتمنى ان يتحقق ولا بد لحياتي ان تسير تحت علامة ما جديدة لأحقق معنىً مرة ثانية . عبر العديد من الأعوام والكثير من التضحيات، كنت قد نجحت في خلق ملاذ لنفسي حيث بامكاني ان اجلس مختبئاً لوحدي في وكري ، امارس لعباتي وآثامي ، افكر واحلم ، اقرأ ، ارسم ، احتسي النبيذ ، اكتب ـ والآن وبتحقق هذه الامنية ، وتمتعي بهذه التجربة حتى الثمالة فقد آلمتني عيناي ايلاماً شديداً ، ولم يعد عملي ، بما في ذلك القراءة والرسم ، مصدر سعادة لي . ومن هذه الحالة ، التي ما ان تحولت الى امر لا يطاق واخذت تحرقني بنيرانها ، حتى تخرج حاله جديدة ، ومحاولة جديدة للحياة ، وتجسيد جديد كذاك الذي كثيراً ما مررت به في السابق . صرت الآن امام مسألة تذوق آلامي حتى النخاع ، مغمض العينين ، جاعلاً نفسي صغيراً ، متقبلاً القدر . لذا فمن وجهة النظر هذه كانت الرحلة الى أولم التي كان من المقرر القيام بها في بداية تشرين الثاني موضع ترحاب كبير . وحتى لو لم تجلب شيئاً اخر ، فانها ، ستجلب التغيير ، ومناظر جديدة ، واناس جدد . فهي تعترض العزلة . وتجبر المرء ان يشارك ، وان يكون يقظاً ، وتقوده الى العالم الخارجي . رائع جداً، فالرحلة

كانت مرغوباً فيها . بدأت في الحال بوضع الخطط . قبل القراءة في أولم ، اردت زيارة بلاوبويرن أولاً دون قيد أو شرط . وأردت الذهاب الى هناك ، الى الفاتنة لاو والى صديقي ، لا أحمل معي ما تقتضيه الصدفة من همة مثبطة وقرف كالذي يعتريني في الغالب بعد الانتهاء من القراءات العامة . وهكذا تحتم علي ان اغادر في نهاية تشرين الاول . كان الطريق بين قريتي في تسينو الى بلاوبويرن طويلاً ، فتوجب علي ان اتخذ الترتيبات اللازمة لتجزئة هذه الرحلة الطويلـــة الى مراحل صغيرة مرضية ، لتصبح ممتعة وسائغة . على اية حال ، عزمت التوقف في زيورخ ، فلدي اصحاب هناك وحين استطيع ، دون ان اعرض نفسي الى مخاوف العيش في الفندق ، ان انغمس قليلاً في حياة المدينة ، في الموسيقى ، في النبيذ الجيد ، السينما ، وربما المسرح . ومن ناحية اخرى تبين لي ، كلما حسبتها عن قرب اكبر ، ان الرحلة ستكون مكلفة جداً ، وان المكافأة الشرفية للقراءة في أولم لم تُهيأ لرجل من الممكن ان يترك ايام رحلته على راحتها بحيث تمتد الى اسابيع . لذا ، لم اعترض حينما جاءت - على غفلة - دعوة اخرى من أوغسبورغ للقراءة امام الجمهور . فحسب علمي ، ان أوغسبورغ كانت على مبعدة ساعتين في القطار من أولم ، ولهذا لم تعد هنالك حاجة الى التوقف عند منتصف الطريق . وقد حددت ان تكون قراءة أوغسبورغ بعد الانتهاء من اولم بيومين ، وهكذا توصلنا الى تسوية للامر . وأصبحت رحلتي الآن أكثر اهمية بعض الشيء واكثر احتمالاً ، لاني لن ارى الآن أولم وأوغسبورغ فحسب ، المدينتين الشغابيتين الجليلتين ، بل من المتوقع ان اذهب من أوغسبورغ الى ميونيخ ، حيث يعيش الكثير من الاصدقاء ، وحيث قضيت اياماً طيبة منذ عدة أعوام بعيدة.

اعلنت مخططاتي بشكل مؤقت لأصدقائي في زيورخ ، وأولم ، وميونخ ؛ وقد جاءت الأجابات المتحمسة والدعوات مكملة الى رغبتي في الترحال . كذلك فانني بعد تفكير طويل اتضح لي انه ليس من المستحيل ان اقطع المسافة من زيورخ الى بلاوبويرن في يوم واحد . وبالتأكيد سيتحتم علي في هذه الحالة ان اغادر في الساعة السابعة او الثامنة صباحاً . وقد بدت هذه الساعة لي مبكرة على نحو مزعج بالنسبة لأواخر تشرين الاول ، الا اني مع هذا استطيع ايضاً ان اقوم بتضحية صغيرة ؛ ارتسمت ابتسامه على شفتي ، ودونت مواعيد القطار .

لم تكن مهنتي الرئيسية خلال اشهر الصيف الادب بل كانت الرسم ، لذلك فقد جلست ، بالقدر الذي تسمح عيناي به ، امزج بعناية كبيرة الألوان المائية تحت اشجار الكستناء ، عند طرف غابتنا الجميلة ، ارسم لوحات لتلال وقرى تسينو المتألقه التي تخيلت قبل اربعة اعوام ماضية انني اعرفها معرفة عميقة اكثر من اي انسان على سطح البسيطة ، والتي اصبحت ، منذ ذلك الحين ، على علاقة حميمة معها . ازدادت محفظة صوري سمكاً ، ومثل كل عام ، وبذات السلاسة الخفية ازداد اصفرار الحقول ، واشتدت برودة الصباحات الباكرة ، وازداد لون اماسي الجبال قرمزية ، فكان علي ان امزج مزيداً من اللون الذهبي والاحمر مع لوني الاخضر . وفجأة صارت حقول الذرة جرداء ، واستدعت الارض الحمراء Caput mortuum واشتعل جنون الازهار ، وتلألأت اكوام الذرة باللون الذهبي والأشقر الشاحب ، وقدم ايلول ، وعمّ الصفاء أيام اواخر الصيف . لم اسمع في وقت آخر من العام صوت الغناء كما سمعته آنذاك ، ولم اشرب في اي وقت آخر من العام الوان الارض بهذا الظمأ وبهذا الاستغراق ، مثل خبير في تذوق الخمور يفرغ آخر

كأس من خمر معتق رائع . اضافة الى هذا ، فقد حققت بعض النجاحات الصغيرة في رسمي ، التي كنت ارجوها الى حد ما ؛ فقد بعت بعضاً من اللوحات ، ووافقت مجلة المانية شهرية ان ازيّن بالتخطيطات مقالة بقلم احد الكتاب عن المناظر الطبيعية في تسينو . وكنت قد اطلعت مسبقاً على مسودات الطبع للصور وتسلمت أجرة الفنان ، وكانت تدور في بالي بعبث فكرة أنه ربما ما زال في الامكان ان انجح في الهرب من الأدب بشكل نهائي ، وان اكسب قوتي بدلاً منه من مهنة الرسم التي تروق لي اكثر . كانت تلك بعض من ايام جميلة . ولكنني وفي غمرة الفرح ، اجهدت عيني ، ولم يعد بامكاني مواصلة الرسم ، وابتدأت كثير من علامات الخريف في الظهور؛ انذاك هزمني القلق . لو كان حقاً وضع حياتي الراهنة في حالة تدهور ، ولو كنت قد عزمت التغيير ، والتحرك ، والسفر ، فلن يكون هناك داع للانتظار الطويل . لذا فقد قررت الرحيل في نهاية ايلول .

فجأة صرت امام الكثير من الاشياء التي يجب علي عملها . فالرحيل في هذا الوقت المبكر يعني حزم الحقائب لمدة اسابيع عديدة ، وليس في نيتي ان اعيش حياة المسافر في هذا الوقت. وعوضاً عن ذلك افضل التوقف براحة هنا وهناك ، ربما لأرسم او لأكتب . على اية حال يجب ان اصحب ادوات الرسم معي ومجموعة لابأس بها من الكتب . كذلك لا بد ان اتحقق من حالة البذلات والقمصان ، أخيط الأزرار المقطوعة ، اصلح الثقوب ، فكل خزانات ثيابي وجراراتي مفتوحة على مصراعيها ؛ وبعد ان تهيأ لي انني اكملت كل شيء ، اتضح ان بذلتي السوداء التي كنت سأرتديها امام الجمهور في حالة سيئة وتحتاج الى الكثير من التصليحات . وقبل ان اغلق صندوق الثياب ، تسلمت دعوة اخرى للقراءة في نورمبرغ ، مع اقتراح ان اذهب الى هناك مباشرة من

اوغسبورغ . وهذا امر يتطلب التمعن فيه .. فقد كانت نورمبرغ توافق رحلتي بشكل ممتاز وكانت اضافة جديدة إلى أولم واوغسبورغ لا يمكن الاستغناء عنها إلا بصعوبة بالنسبة لرحلة ثقافية بين المدن . لهذا فقد قبلت الدعوة ، ولكن بعد الانتهاء من اوغسبورغ بخمسة ايام وليس بيوم واحد . وهذه الفترة الفاصلة من المحتمل ان تسمح لي ان اقطع المسافة بين اوغسبورغ ونورمبرغ بشكل مشرّف .

والآن يمكنني الرحيل . كانت زيورخ هدفي الاول . وقررت بعدها ان احجز غرفة في فندق في بادن ، حيث ينابيع الكبريت الشافية ، ولأُقضي بعض الوقت تحت العلاج الخفيف . ولكن ما ان سبقني صندوق ثيابي الكبير في الذهاب ، وكنت متهيئاً للرحيل مع حقيبتي اليدوية حتى بدأت شمس ايلول تشرق بتألق كبير ، وكانت الكروم متحفة بعناقيد العنب الزرقاء الناضجة ، فصار من الاثم الرحيل الى زيورخ الباردة الكئيبة . ولكني لم اتوقف كثيراً امام التفكير بمحصول العنب الذي سأفتقده الآن ؟ ففكرة فك الحقائب والعدول عن الذهاب ، والزحف ثانية عائداً الى الشرنقة الفائقة النمو التي اريد الهرب منها بأية طريقة ـ كان شيئاً لا اطيق التفكير فيه . ولكن في لوكارنو ، كان لدي اصحاب لم ارهم منذ فترة طويلة ويمكنني هناك ان أبدأ حياتي الجديدة دون الاضطرار لتوديع الشمس وعناقيد العنب . فرحلت الى لوكارنو .

لقد كنت عائداً الى مدينة صغيرة والى طبيعة كنت قد عرفت فيها عن كثب منذ اعوام خلت كل نهر صغير وكل اخدود ، وكل حائط صخري في الحقل بشروخه الممتلئة بنبات السرخس الصغير وقرنفلات الغابة ، تلك الطبيعة التي وفرت لي ابان الحرب لثلاث مرات الحماية ومنحتني الراحة وجعلتني اشعر بالسعادة فشكراً لها ثانية . كانت البهجة تشيع بين سكان لوكارنو ، فقد تم

اختيار مدينتهم لانعقاد مؤتمر ديلوماسي ، وكانت المدينة منهمكة في التجديد وتجميل نفسها . كانت رائعة ، ولو كان هير ستريزَمان قد جلس ، خلال اقامته في لوكارنو ، فوق احدى المصاطب الجميلة في الساحة[1] ، لكان قد افسد بذلته ؛ فقد طليت جميعها موخراً بدهان زيتي.

لقد أحسنت الاختيار ، فلوكارنو كانت بداية موفقة لرحلتي . وقد تجردت من حلة رجال الدولة من أجل بضعة أرطال من العنب الحلو حين أكلتها فوق جوانب تل بريونه وكوردولا ، التي تغمرها أشعة الشمس . وبعد أن قضيت مدة طويلة جداً لوحدي تمتعت بغبطة الجلوس مع أصدقائي والتحدث اليهم معبراً في الكلام والنظرات عن تلك الأشياء التي تبعث الحياة في الانسان لحظة بعد لحظة، والتي تفقد أفضل وأكثر عناصرها خصوصية عبر طريق القلم غير المباشر ، ولا يوجد فن أشعر فيه أنني هاو ومبتدىء الى هذا الحد كما في فن الاختلاط مع الآخرين . ولكن لا شيء يفتنني أكثر في هذه السويعات النادرة من وقت استطيع فيه أن أمارس هذا الفن في بيئة ملائمة يوماً بعد يوم ليزداد اشراق الفجر فوق تامارو . وحتى لو لم يعد ذلك الدرب الصغير الرائع الذي يمتد بمحاذاة شاطيء ريفابيانا ، يملك فتنة الوحدة والتيه اللذين تمتعت بهما هناك منذ عشرين أوحتى عشر سنوات ماضية ، إلاّ إنه مع هذا ظل ركن البحيرة هذا ملاذاً دافئاً . ما أن يخلف المرء وراءه الفنادق والطرقات الريفية القليلة المألوفة جداً ويخترق الريف الجبلي الشاهق الوعر ، حينها يكون خارج اوربا وخارج الزمن ، في صحبة الحجر والدغل ، السحالي والأفاعي ، في ريف فقير لكنه يبعث الشعور بالدفء والود مليء بالألوان ، وبأشياء ساحرة رقيقة وأشياء انيسة. هنا وفي الأعوام الماضية درست السحالي والفراشات والجراد ،

جاءت كلمة الساحة بالايطالية Piazza

واصطدت العقارب وافراس النبي ، وقمت بمحاولاتي الأولى في الرسم . وكان يصاحبني كلب شارد يدعى ريو ، فقد امضيت عبر تجولات الريف أياماً طيبة حامية . كل مكان كان يحتفظ بشذى ذلك الزمن وفي كل مكان اختبأت الذكريات الصغيرة المفاجئة ، ركن من بيت ، سياج الشجيرات الذي يطوق الحديقة ، تحدثني عن ساعات التأمل التي بعثت في الشفاء والتي امضيتها في أقسى مرحلة من بواكير حياتي . وفيما عدا بلدتي الأم في الغابة السوداء ، كانت هذه المقاطعة التي تحيط لوكارنو المكان الوحيد الذي منحني الشعور بالموطن ، وما زال شيء منه عالقاً في نفسي .. يمنحني الفرح .

بقيت في لوكارنو أربعة أو خمسة أيام وسرعان ما أحسست منذ اليوم الثالث بواحدة من فضائل السفر التي لم أحسب حسابها مطلقاً . ولم اتسلم بريداً ! فكل المخاوف التي تحملها الرسائل معها، وكل الادعاءات ، والمطالب اللامعقولة المفروضة على عيني ، وقلبي ، وعلى مزاجي ، فجأة لم يعد لها وجود ! واعرف ، طبعاً إن هذه حالة مؤقتة ستنتهي عند وقفتي التالية ، حيث سأمضي وقتاً أطول بعض الشيء . عندها سيتحتم عليّ أن اتسلم الفوضى كلها، وعلى الأقل الرسائل التي أرسلت خلفي . ولكن لليوم ، وللغد ولليوم الذي يليه ، ليس لدي أي بريد . كنت إنساناً ، طفل الله ، تنتمي عيناي وافكاري ، ساعاتي وامزجتي ، لي ولي وحدي ولأصحابي . لا ناشر يحذرني، ولا رسام يسألني عن عودة مسودات الطبع ، ولا صائد إمضاء ، ولا شاعراً شاباً ، ولا طالب ثانوية يطلب المشورة حول مقالته ، ولا رسائل تهديد تنضح بذاءة من احدى جمعيات المعتوهين الجرمان ، لا شيء من هذا القبيل ، ولا شيء غير السكينة والسلام ! يا آلهي ، فحين يبقى الانسان دون بريد لمدة يومين، يمكنه ان يلحظ للمرة الأولى أية كومة من النفاية وتفاهة عسيرة الهضم

عليه أن يبتلعها يوماً بعد آخر طيلة حياته . ومثلها بالضبط ترك قراءة الصحف لفترة من الزمن (وقد نجحت في فعل ذلك على مدى اعوام الآن) ؛ ويدرك المرء شاعراً بالخزي أية سخافات دنيئة يبدد فيها كل يوم ساعات الصباح ، مفسداً عقله وقلبه ، من الافتتاحية الى قائمة البورصة وكم هو لطيف بدلاً من كل ذلك أن يكون قادراً على تقرير ما سيفكر به ، وما سينساه ، وما يتخيله ، وفقاً لنزوة اللحظة ! واهم من كل شيء : أن لا يذكر باستمرار بالأدب ، بحقيقة الانتماء إلى طبقة . والى حرفة إلى مهنة مريبة ذات سمعة غير محترمة ، مهنة لا تتمتع بتقدير لائق ، وأنه قد ارتكب ذات مرة وفي هوس الشباب المبهم خطر تحويل الموهبة الى مهنة ! حسناً من المؤكد أنه يمكنني القول إنني قد استمتعت بهذا الفصل المحظور بوعي وبتأمل ، وكثيراً من الأوقات ، بعبث أيضاً ، مع إمكانية أن يكون الوضع دائماً ، ومن خلال اللجوء إلي بعض الحيل أجعل نفسي نائياً بلا عنوان ، وبذلك استرجع تلك السعادة التي يتمتع بها دون أن ينتبه اليها كل عصفور ضئيل يحلق تحت السماء ، وكل دودة صغيرة في الأرض وكل صبي صانع أحذية : أن لا يكون معروفاً ، وأن لا يقدم التضحيات الى الحمقى المولعين بالمشاهير ، وأن لا يجبروا على العيش في هواء الحياة العامة القذر والمضلل والخانق ! اوه لقد حاولت مراراً الانسحاب من هذه الخدعة واجبرت على أن أدرك في كل مرة أن العالم لا يرحم . فما يريده من الشاعر ليس قصائده وأفكاره بل عنوانه وشخصيته ، ليبجلونه ، ومن ثم يركلونه بالأرجل ، ليكسونه بالزينة ومن ثم يجردونه منها ، ليمتعوا أنفسهم معه ومن ثم يبصقوا عليه بنفس الطريقة التي تعامل بها فتاة سيئة السلوك دميتها . وذات مرة نجحت بمساعدة الاسم المستعار لمدة عام على وجه التقريب أن أجد متنفساً لأفكاري وخيالاتي في ظل هذا «الكاتب الوهمي» ، دون أن أثقل بالشهرة والخصومة ، ودون أن يعكرني التشوية المغالى فيه . ولكن بعدها انتهى كل شيء ، فقد غُدر بي ،

واحتشد الصحفيون حولي افواجاً ، وصوبت البندقية الى رأسي فكان لا بد من الاعتراف . انتهت غبطتي القصيرة ، ومنذ ذلك الحين عدت «هسه» الكاتب الشهير ، وكل ما استطعت فعله لأثأر لنفسي هو أن أبذل جهداً عظيماً في كتابة مثل هذه الأشياء التي لا يستطيع التمتع بها إلاّ القلة القليلة جداً ، وهكذا ومن وقتها نعمت بحياة أكثر سكينة نوعاً ما .

ورغم هذا لم ابتعد تماماً عن ذاكرة هواة الأدب فقد حياني بحماسة أحد القراء الذين تعرفت عليهم كمؤلف لرواية «بيتر كامنسند» . وهكذا وقفت أمامه محمر الوجه ، فما الذي يمكن أن أقوله للرجل ؟ هل أقول له إنني لم أعد أتذكر هذا الكتاب ، وإنني لم أقرأه خلال خمسة عشر عاماً ، وإنه قد اختلط في ذاكرتي بشكل كبير بقصيدة «عازف بوق زاكنجن»[1] ؟ وأكثر من هذا ، لم يكن الكتاب بحد ذاته هو ما أكره بل بالأحرى التأثير الذي كان له على حياتي ؛ وكي أكون دقيقاً ، كان ذلك بسبب النجاح غير المتوقع تماماً الذي حققه والذي زجني بشكل دائم في عالم الأدب ، الذي لم أفلح في تخليص نفسي منه رغم الجهود اليائسة التي قمت بها . لن يتمكن هذا القارىء من استيعاب شيء من هذا ، وسوف يفسر كرهي لشهرتي الأدبية (وأعرف هذا من تجربة سيئة) كتظاهر وتواضع مغناج . كان سيسيء فهمي في كل الأحوال، لذا لم اتفوه بكلمة ، واحمر وجهي قليلاً ولذت بالفرار ما أن سنحت الفرصة.

عندما واصلت رحلتي ، عزمت أن أضع نهاية محددة لمفارقتي الصيف والجنوب وأن أسافر بلا توقف إلى زيورخ . كنت مستعداً أن أجرب

---

(١) قصيدة (عازف بوق زاكنجن) هي قصيدة وجدانية ملحمية كتبها جوزيف فيكتور بن شفل.

منفعة لطيفة أخرى للسفر ؛ وهي أن أدرك أن استغراق المرء برحلة ما يجعل قول «وداعاً » أمراً يسيراً . وفي أوقات أخرى ، وحين غادرت صديقي في لوكارنو عائداً إلى بلدتي ، كان يلازمني شعور بأننا لن نلتقي إلاّ بعد فترة طويلة ، ودائماً، ما كان الفراق شعور صعباً ومحزناً لي . وفي هذا ، أيضاً أنا لست رجلاً حضارياً ، وفي هذا لا اترفع عن مثل هذه المشاعر والأحساسيس وأمقتها، بل بالأحرى أسأل نفسي : ما الذي يجعلنا نعيش حقاً ، وأين نجد حياتنا إذا لم تكن في مشاعرنا ؟ وما نفع محفظة نقود مليئة وحساب في المصرف ، وملابس مكوية بشكل جيد وفتاة جميلــة ، إذا لـم تثر أي أحاسيس ، وإذا لـم تمس روحـي ؟ كلا ، فرغم كرهي الشديد للحالة العاطفية عند الآخرين ، فأنا أحبها في نفسي وارعاها . فالمشاعر ، والحنان ، وسهولة اهتياج الذبذبات العاطفية ، تشكل في الحقيقة صداقي ، الذي ينبغي أن أدفعه مقابل طريقي في الحياة . فلو كنت معتمداً على قوتي العضلية واصبحت مصارعاً أو ملاكماً ، فلن يفكر أحد انني يجب ان اعتبر القوة العضلية شيئاً ثانوياً . ولو كنت بارعاً في الرياضيات الذهنية وأصبحت مديراً لمكتب ذو شأن ، فلن يطلب أحد أن أصنف المهارة في الرياضيات الذهنية كأمر أقل أهمية . أما ما يطلبه الزمن المعاصر من الشاعر وما يطلبه العديد من الشعراء الشباب من أنفسهم هو أن يكرهوا تلك السمات المميزة التي تصنع الشاعر : انفعال الروح ، القدرة على العشق ، القدرة على الحب وعلى التوقد وعلى استسلام الذات ، وعلى خوض التجربة في عالم الشعور بالجديد وما يفوق العادي ، وأن عليهم أن يكرهوا بشكل خاص ميزاتهم القوية هذه وأن يخجلوا منها ويحترسوا من كل شيء من الممكن أن يدعى «عاطفة» . حسناً ، فلندعهم يفعلون ذلك ؛ إلاّ أني لن اشترك معهم ،

فمشاعري اعز الى نفسي الف مرة من كل الذكاء في العالم وهي وحدها التي حمتني خلال اعوام الحرب من الانضمام إلى عاطفية الاذكياء ، ومن اطلاق النار بعربدة جذلى.

هكذا غادرت بقلب منشرح . فوداع من هذا النوع ، وعندما لا يرتحل المرء عائداً الى وكره بل خارجاً الى العالم ليس فيه ثمة ما يغم النفس ؛ ويشعر المرء بالتفوق على من خلفهم وراءه ، ويقطع الوعود دونما تردد بالعودة سريعاً ، ويصدقها كذلك ،وعلى أية حال يرتحل المرء ويكون في نفس الوقت قريباً من الأحداث . كان هذا الوداع البهيج الذي يتردد صداه في أذني هو الأخير من لوكارنو بينما أنا أسافر إلى سانت كوثاردباز ، وقررت أن لا يرسل بريدي مقدماً الى زيورخ بل أن يبعث به الى بادن.

وعلى امتداد هذا الطريق توجد العديد من الأماكن التي كان لها دورٌ في حياتي : كوشنن ، فلولين ، سوك ، ولا سيما برونن حيث انهى في الصيف الماضي اوتمار شوك مؤلف «بنشسيليا». لقد بقي معي ذلك الأصيل هناك على البيان في حجرته الصغيرة ذكرى متقدة . اجتزت كل هذه المدن وتركت لمدينة زيورخ ان تبتلع نفسي طواعية . وبالتأكيد ، فإن زيورخ هي إحدى تلك الكلمات التي لها معنى مختلف عند كل شخص . وبالنسبة لي كانت تبدو لاعوام عديدة كمدينة آسيوية. فيوجد لي هناك أصحاب عاشوا لعدة أعوام في سيام ، ومن بين مئات الذكريات من الهند ، ومن البحر ، ومن الأماكن النائية ، هجمت عليّ رائحة الرز والكاري محتفية بي ، والتمع بريق خزانة المعبد السيامي الذهبي في وجهي ، وراقبني تمثال بوذا الساكن ، البرونزي . وكان التطواف في هذا الكهف الغريب والخروج منه الى العالم الأنيق المعاصر للموسيقى ، والمعارض الفنية ، والمسرح ، وحتى السينما ، قد أشاع في نفسي

بهجة خالصة استمرت عدة ايام.

وما زلت حتى اليوم أملك موقف القروي البريء تجاه المدينة ، فقد وجدت من الصعوبة أن استوعب عالمها كاملاً ، لذا سمحت لنفسي ان تفتتن وتأسرها التفاصيل ؛ ففي الحافلات تطلعت الى وجوه كثيرة ، وقرأت الملصقات، واعجبت بالميكانيكي أو بالصبي العامل الذي يركب عجلته عبر الشوارع المزدحمة ، ويديه في جيوبه ، وكنت احاول ان اميز اللحن الذي كان يدندن به . راقبت بعناية الشرطي وهو يقف وسط ضوضاء العبور موجهاً المركبات المجنونة بيده المكسوة بالقفازات البيض الكبيرة ، ووجدت نفسي مأسوراً باعلانات مسرح السينما وكنت انظر في نوافذ المخازن الواحدة تلو الأخرى ، وإذهلتني اعداد الكتب ، والالعاب والفراءات ، والسجائر ، وغيرها من الأشياء الجذابة ، ومن بعدها انحرفت الى الشوارع الجانبية بين باعة الفاكهة والخضر ، ومتاجر السلع المستعملة ، نوافذ عرض صغيرة قذرة ملصق عليها صفحات مليئة بالطوابع القديمة ، ومن ثم وصلت ثانية الى الشارع الرئيسي وخاطرت بحياتي وسط السيارات ولكني سرعان ما شعرت بالسرور لاني كنت قادراً أن أجلس في مكان ما وقد نال مني التعب ، وبالتأكيد لن يكون في مقهى أو مطعم حديث بل مكان ما في محل سمك أو حي عتيق ، في نزل صغير مملوء بالدخان حيث يجلس سعاة بريد وعمال النزل في بزاتهم الخارجية الفضفاضة امام اقداح النبيذ الابيض الصغيرة ، وهم يأكلون البسكويت المملح العقدي الشكل أو السجق أو البيض المسلوق الذي كان يوضع بوفرة فوق الموائد . وسواء في ميلان أو زيورخ ، في ميونخ أوجنوا ، عموماً ما كنت أنتهي في مثل هذا المكان في شارع جانبي قذر وعتيق الى حد ما ، في حانة صغيرة لا تتعدى الزينة الموجودة فيها طاسة بسمكتين ذهبيتين او

حزمة من الزهور الورقية ، وعلى الحائط علقت صورة شخصية مصغّرة لنابليون الثالث او لنادي الضاحية الرياضي ، حيث يوجد شيء ما يذكرني بزيارتي الاولى المحرمة الى الحانة خلال ايام الدراسة . فهناك أحتسيت النبيذ الابيض من كأس سميك بلا ساق ، نبيذ جيد ، وتناولت شيئاً من الاشياء الكثيرة الملقاة على المائدة ، كعك الزنجبيل المحلى المكسو بحبات الكرويا ، والبسكويت المملح الطويل العقدي الشكل ، والسجق الصغير الغليظ القوام . في هذه الاماكن يسمع المرء لغة الضواحي العامية تنطق بصفاء ووضوح ومن الممكن معرفة الطبقة التي ينتمي اليها الناس من ملابسهم والبزات التي يرتدونها . دخل سائق سيارة خصوصي يعتمر قبعة فـــراء ، شرب الشنبص[1] وهــو واقف عنـد البار ، ركل الكلب ، ومسح فمه ، ثم اغلق الباب وراءه بعنف ؛ ودلفت امرأة شاحبة الوجه ذات ملابس بالية ، وقفت بتذلل قرب الباب لفترة من الوقت وهي تبحث بحذر عن زوجة صاحب الحانة ، وقد أظهرت تحت مئزرتها قنينة فارغة وابتدأت صفقة هامسة ثم اقتيدت الى الخارج . الصق شاب رأسه على الباب ونادى «هل روبرت هنا ؟ » هز صاحـــب الحانة رأسه : « انه اليوم في حانة سفنتي فايف» . ودخل خادم يحمل كرسياً مغلفاً بقماش البلش[2] الاحمر واصيص شجرة نخيـل ، اسند الكرسي على الجدار ، ووضع النخلة فوق الطاولة ، وجلس تحتها ، واحتسى ضعف الكمية من نبيذ جيد .

ولاسباب لم استطع تحديدها ، اثارت هذه الافعال اهتمامي ، فهل استطيع ان اراقبها لزمن طويل ، أو لزمن مضاعف ؛ لزمن يتضاعف ثلاث مـــرات .

---

(١) الشنبص : مسكر هولندي ثقيل .

(٢) البلش : نسيج حريري او قطني ذو وبرة طويلة وناعمة .

وقد سمح لي ذوقي غير المهذب جيداً بأرتياد السينما كذلك . فانا اليوم انضم لعداد اكثر المخلصين ، كما اظن ، واكثرهم فهماً لشابلن . وكذلك ، فأنا مولع جداً بـ ماسيستا الايطالي ، بينما اتحاشى الافلام التاريخية العظيمة التي يتم فيها ارتداء الملابس التاريخية والتي تتناول قصص محاكمات الامراء ؛ فهي تحاول ان تزود المشاهدين بالثقافة.

اضافة الى هذا ذهبت الى معرض الفن العالمي وقد سعدت أيما سعادة حين رأيت كم هو رائع وقوي تأثير لوحات كارل هوفر وسط الكم الكبير المشوش من الصور الحديثة . بعدها جلست في مقهى بصحبة العديد من الرسامين والكتاب وما لبثت في فترة قصيرة ان اطلعت على كل الاخبار الاخيرة عن عالم الفن ، وهكذا اصبحت حسن الاطلاع لفترة وجيزة في هذا المجال ايضاً .

عدت الى سيام شاعراً بالرضا من كل هذه الرحلات ، واسترحت تحت تمثال بوذا وسط الشالات الصينية . فبالنسبة لزاهد ومدمن عزلة ، تظلّ رؤية الاصدقاء ثانية من افضل اشياء السفر ، اذ تكون محاطاً بالدفء والنية الطيبة ، والاحاديث ، وقرع الكؤوس . فلم افلح مطلقاً في ان اكون اجتماعياً ، وان املك موضعاً في مكان ما واشارك في الحياة ، واحقق نوعاً من التعايش الدائم فيه مع الآخرين . وكتعويض عن هذا ، حالفني الحظ دائماً بالتمكن من العودة الى اصدقائي المقربين لفترات قصيرة مؤقتة ، والتمتع بهناءة التحدث بانفتاح ، دون حذر ودون التطرق للسياسة ، وأن امنح من نفسي . ان بقاء اصدقائي رغم كل شيء مخلصين لي ، حتى المقربين منهم الذين عرفوني في كل حالات جنوني وغرابتي ، هو التبرير الشرعي الوحيد الذي بإمكاني تقديمه لوجودي المضحك بعض الشيء .

مع هذه الايام التي قضيتها في زيورخ انتهى ترحالي لفترة من الوقت . فقد أستقريت في فيرينا هوف في بادن وطالت اقامتي فيها بعض الشيء ، واعددت لوازم الكتابة والرسم ، ووجدت ما يكفي من البريد في انتظاري ، ذلك الذي هربت منه لعشرة ايام . ينبغي الآن ان اكتب هذه البطاقات البريدية ثانية : «سيدي العزيز ، اقدم شكري الجزيل لدعوتك لي للمشاركة معك ، ولكن لسوء الحظ ..» . هنالك دعوات لالقاء المحاضرات كذلك ، وواحدة منها كانت مهمة ؛ دعيت فيها لالقاء محاضرة عن نزوع اوربا الحديثة الكبير الى الشرق ، والهند والصين . من الممكن قول الكثير عن الموضوع ، ولو لم يكن المكان يقع في اقصى شمال المانيا ، ولو كنت اتمتع بأيما موهبة لإلقاء المحاضرات ، لكان ذلك متعة حقيقية لي ان اعرض علامة هذا الحب لآسيا ، بكل بساطته في التركيب وفي المعنى . ولكن القاء المحاضرات ليس شأني ، رغم اني قد جربت ذلك مرة واحدة واستطعت ان اتدبر الامر ، ولكني شعرت في ذلك اليوم بفزع يفوق اي خوف شعرت به في أية مناسبه مهيبة ومهمة طوال حياتي . كلا ، شكراً . «سادتي الأعزاء ، انه لفخر كبير ان تصلني دعوتكم للمحاضرة عن الغرب وعن الشرق ، ولكن من دواعي اسفي ..» .

وصلني كذلك عدد من مخطوطات الشعراء الشباب ، وقطعت في البدء وعداً على نفسي ، رغم انه كان مصحوباً بحسرة ، ان انظر فيها كرامة لله . ولكنني ما ان فرغت من بريد اليوم الثاني ، حتى كانت عيناي قد انتهتا ايضاً معه ، فجلست هنالك بصحبة الالام الموجعة والكمادات المبللة . وعلاوة على ذلك ، فإن احد الشعراء الشباب ارفق مع مخطوطته رسالة لا تثير التعاطف على الاطلاق ، كانت تقطر زيفاً ووقاراً متملقاً واطراءً للحد الذي جعل من السهل علي التنصل منها . ومع هذا فقد كتبت لكل من الشعراء الثلاثة بضعة أسطر

مهذبة اقول فيها بانني وبسبب معاناتي من اجهاد في العين وعدم امتلاكي سكرتيرة ، لم اتمكن ، ويااللحسرة ، من ان اقرأ مخطوطاتهم . بعدها وضعت العنوان والطوابع على المخطوطات واذعنت الى حقيقة الاقرار بان استراحة العشرة ايام كانت غير مثمرة وينبغي علي من جديد ان اكون حذراً جداً في العناية بعيني . لذا كرست نفسي بكل ما اوتيت من حماسة على علاج بادن . وقد وصفت ذلك مسبقاً في مكان آخر واعتبر التكرار هنا دون جدوى . قضيت ساعات عديدة طيبة مع طبيبي ، وفي العديد من الامسيات كان يقول مضيفي ، الذي اعده من بين اصدقائي : هير هسهّ ، «ما رأيك بزجاجة بومار؟».
اثناء ذلك كنت استقبل عدداً غير قليل من الزوار ؛ فقد عاد صديقي القديم بستوريس ، الذي نادراً ما كنت اراه طيلة الاعوام التي مرت ، وقد تساقط شعره واصابه التغيير بقدر ما أصابني ؛ واصطحبني معه ثانية وانا ممتن عبر عالمه الروحي المتوهج عتمة والمملوء بالرموز المقدسة . وقصصت عليه ما حصل لي اثناء تلك الفترة وما حصل للبذور الاولى التي اطلنا التفكير فيها يوماً . ظهر ايضاً لويس المرعب في احد الايام ولفترة وجيزة ، وحقيبة سفره في يدة ، وفي ساعات قليلة فقط ، خطط للذهاب الى جزر باليرك ، حيث الطبيعة الملائمة للرسم ، وحثني بحرارة ان اصحبه ، ومن يومها واخباره مقطوعة عني .

انتهت فترة اقامتي في بادن ؛ اسرع مما تصورت ، وهذه المرة ايضاً ، كما يحدث دائماً ، جلبت معي الكثير لاقرأه ولأعمله . وعلي الآن ان اعود الى حزم الاشياء ثانية . وبدا لي انه من غير المجدي ان اتحمل مشقة جر جميع الكتب والبياضات المتسخة معي الى المانيا ، فوضعت كل ما استطعت الاستغناء عنه في صندوق ملابسي الكبير وارسلته الى الوطن ، واكتشفت في آخر اصيل لي ، اثناء حزم حقيبتي ، اشياء متبقية لا مكان لها . فكان لا بد ان احشر بذلتي

السوداء في صندوق كرتوني واربطه بحبل . وفوق ذلك ، كنت خلال الليالي القليلة الماضية قد نمت بشكل مضطرب ، ولن يلائمني ابداً السفر مبكراً في حوالي الساعه السابعه من الصباح التالي والاتجاه مباشرة الى بلاوبورين ، كما اخبرت صديقي هناك . ولكن حينما وقفت هناك والحقيبة اللعينة في يدي مكتشفاً بأنني قد اخرجت من صندوق الثياب الكبير اشياء لا غنى لي عنها لما تبقى من رحلتي ، تذوقت في اللحظة تلك مره اخرى ماذا يعني ان تقبل الالتزامات دون تفكير . كان من المفترض ان اكون في زيورخ في الساعة السابعة من الصباح التالي ، بينما كنت ما ازال في بادن وقد نلت ما فيه الكفاية من حزم الحقائب ، ولم اكن اتمنى شيئا اكثر من ان اعود الى المياه الكبريتية لثلاثة اسابيع اخرى . وفي الغد ، وبعد ليلة خاصمها النوم (فكيف استطيع ان اخذ منوم «فيرونال» اذا كان على ان اصحو ثانية عند الفجر ؟) ، كان من المفروض ان ابدأ بالسفر الى بلاوبورين ، واغير القطارات في توتلنجن ، واصل الى بلاوبورين بائساً مملوءاً بالغيظ ، وكل ذلك لمجرد ان اقرأ قصائدي ـ بعد يومين ـ بصوت عال في أولم ، امام اناس مجهولين ، ومن ثم في اوغسبورغ وبعدها في نورمبرغ ! بالتأكيد كنت قد فقدت عقلي لازج نفسي في مثل هذه الخطط ! كلا ، لن اسافر الآن الا الى زيورخ وسأقضي الليلة هناك ، واناقش الامر الاخرق كله مع اصدقائي ، وعندها سأكتب ثلاث برقيات لطيفات تنبىء ان هير تينور لن يتمكن ، وياللاسف ، من الحضور بسبب اصابته بزكام حاد . جيد ، شكراً لله .

سافرت الى زيورخ ، حيث طلبت من زوجة صديقي ان تلتقيني ، انتظرتها مسكوناً بالفزع في مطعم المحطة، احتسيت نبيذ الميسون لثلاث مرات، وانا مثقل بصندوق الورق المقوى ، ومثقل بهموم رحلتي . كان الجو بارداً ،

ارتجفت وصار صوتي اجشاً ، فندمت لانني لم ابق في بادن ، وندمت لانني لم اعد منذ مدة طويلة الى تسينو . حسناً ، ها قد جاءت أليسه ، وفي منزلها ، تطلع البوذا الي بنظرة ساخرة عندما كنت احكي متاعبي وشكوكي حول الرحلة التي ابدت ـ زوجة صديقي ـ ضرورة مواصلتها ؛ وبالتأكيد كنت سأندم فيما بعد لو استسلمت وانا اشعر بالقرف لما قالته . القرف ، وما ادراكم ما القرف انتم ايها البشر الاكثر طبيعية ، انتم الذين لا تملكون اية فكرة عما يكون عليه الحال لأمثالنا اذا لم ننم ، واذا كان من المفروض ان ننهض في وقت مبكر جنوني ، ونجلس لساعات طويلة في قطار ، ونهيء برنامجاً لأداء الالتزامات . اعترضت على ما قالت ، واثناء تصاعد حدة الحوار بيننا ، رفضت بشكل قاطع ان انهض في الصباح الثاني وان اركب القطار . رائع ، لقد استسلم الخصم . وهكذا ، سأنعم بنومي صباحاً ، ثم ما يزال هنالك وقت لأرسال برقية .

تنهدت بارتياح ، فقد استرد الليل والنهار وضعهما الطبيعي ، وبعودة صديقي الى البيت ، تناولنا الغداء وشربنا كأساً من النبيذ . وسمحت لنفسي بقرص منوم فيرونال واتفقت على الظهور في ساعة معقولة من الصباح ، بين العاشرة والحادية عشرة . وبدلاً من صندوق الورق المقوى ، اقترضت حقيبة سفر ملائمة صغيرة الحجم فوقها ملصقات جميلة من سيام ، سنغافورة ، جاوا . وبعد الغذاء ، اذعنت لقدري ، وغادرت الى الجانب الألماني . والآن يمكنني ان ارى في غاية الوضوح ، ولو متأخراً ، انها كانت غلطتي منذ البداية حين خططت للرحيل الى بلاوبويرن دون توقف في مكان ما . وحاولت بتلك البطولة الحمقاء ركوب قطار الصباح المبكر . فبدلاً من الذهاب مباشرة الى بلاوبويرن ، كـان من الممكـن ببساطة ان احـل فـي توتلنجن ، وامضي الليلة

هناك ، وهكذا اصل بعون الله يوماً متأخراً عن اليوم الذي اتفقت عليه الى منزل صديقي والى كلوتسله بلاي . جلست في مقصورتي مستسلماً ، وكان ينام قبالتي رجل اعمال بدين ، تغطي ركبتيه بطانية . وخارج النوافذ كانت تمر مناظر طبيعية اعرفها جيداً منذ الاعوام التي قضيتها في بحيرة كونستانس ؛ ظهر نهر الراين وشلالات الراين وظهر رجل الكمارك ومفتش الجوازات ، ظهرت جبال هيكـاو ، وضج رأسي بالأوقـات القـديمـة التي كانت فيها هذه الطبيعة بيتي . وصلنا الى محطة سنجن ، وفجأة خطر في بالي انه من غير اللائق ان امر مرور الكرام ، فما يزال يعيش هنا اصدقاء قدماء . ولكني استطيع بسهولة ان احدد لمَ اخفقت في التفكير بسنجن وبأولئك الاصحاب وانا اخطط لمواصلة رحلتي . فعندي من الاسباب المقنعة التي تجعلني لا احبذ التفكير في السنوات التي قضيتها في بحيرة كونستانس . وبينما كنت افتح النافذه واحـدق في رصيف المحطة ، قدّم رجل يرتدي بزة رسمية نفسه بكل ادب ، واعلن ان القطار سيقف هنا لمدة اربعين دقيقة . رائع ، ترجلت واتصلت بالمدينة هاتفياً ، قدم اصدقائي مسرعين ، رجل وزوجته وابنهما ، طالب الكلية الذي كنت قد رأيته آخر مرة وهو صبي صغير . وقد جرى اللقاء هذا على خير ما يرام ايضاً لكي اتمكن من الذهاب مرتاح الضمير بعد انتهاء مدة الاربعين دقيقة . قبل ان نصل الى توتلنجن ، حل الظلام ، وما ان انيرت الاضواء حتى استيقظ رجل الاعمال السكسوني ، وبدأ يتحدث . كان مستاءً ، فقد قدم من ايطاليا لأجل العمل ، ولاقى في ايطاليا وسويسرا الكثير من الاشياء الخاطئة . والاهم مـن ذلك ، قـال «انظر» لا تستطيع خداعي ، فانا اعرف تماماً ، اعرف بحق . فالحياة ما هي الا خدعة فرضت علينا ، هذه هي ، ويمكنك ان تقول ما يحلو لك ؛ كنت متفقاً تماماً مع فحوى كلامه ولكن لم تعجبني النبرة التي تكلم بها . فبقيت

صامتاً وكنت سعيداً حينما وصلت توتلنجن . الآن انا في شغابيا . موطني ، ومن جديد سأمضي ليلة في مدينة شغابية ، كان يوجد رسول من فندق هناك ، رافقته الى نزل عتيق جيد ، وقبل ان اصل بفترة قصيرة سطع قمر مكتمل تألق فوق الشارع الرئيسي الذي انطلق مباشرة عبر المدينة مثل النرد . لقد كان هو ايضاً يرحب بعودتي وقد أثرّ فيّ ذلك بعمق . سكنت في مبنى ضخم قديم ومهيب ، مشيد بمتانة ، في حجرة مريحة ، فغسلت عيني التي ظلت تحرقني في ماء بارد لفترة من الوقت . وطلبت بعدها حساء الدجاج للعشاء . لقد كان لذيذاً ، ولاني لم اكن قد تعرفت على توتلنجن بعد فقد بدت لي فكرة جيدة ان اتمشى في المدينة قبل الخلود الى النوم . رفعت ياقة معطفي ، اشعلت سيجاراً ، وهمت على وجهي . كنت قد تعرفت على الشارع الرئيسي الذي بدا لعيني صورة بائسة لنموذج المدينة الشغابية في المساء ، لذا اتجهت الى اول شارع جانبي صادفته ، وتعثرت ببعض الاشياء المبعثرة . وفوق منحدر مكسو بالعشب ؛ ظهر فجأة القمر ثانية هناك ، منعكساً في مياه الليل الرائعة السكون ، وبرزت السطوح الجملونية في السماء الشاحبة ، والصمت يمتد في كل مكان ما عدا نباح كلب تناهى اليّ من سياج حديقة خلفية لأحد المنازل . سرت في الطريق على مهل جيئة وذهاباً ، ارتقيت الجسر وغادرته ، وتصاعدت رائحة المياه الباردة الي ، وكانت الجملونات تشبه تلك التي في مدينتي . وعندما كنت افكر في الوطن وبحياتي التافهة وفي الشيخوخة الموحشة ، بزغ القمر ثانية صغيراً ابيضَ في وادي الاسطح الضيق ، وفي تلك اللحظة تذكرت صباي . وربما تكون هذه اللحظة هي التي جعلت مني شاعراً (رغم انني كنت قد كتبت اشعاراً قبل ذلك) . حدثت كالاتي : في كتاب المختارات الادبية الذي كنا نأخذه في سن الثانية عشرة في المدرسة اللاتينية ، كان يحوي القصائد

والقصص الاعتيادية ، والنوادر عن «فردريك العظيم» وايفيرارد الملتحي ، وكنت اقرأ كل ذلك بمتعة ولكن من بين هذه الاشياء كان هنالك شيء اخر ، شيء رائع ، في غاية السحر ، اجمل شيء صادفني في حياتي . قصيدة كتبها هولدرلين ، المقطع الذي يدعى «الليل»[1] آه كم قرأت تلك الابيات القليلة مراراً في تلك الايام ؛ وبحماسة رائعة خفية ، وبأي تهيب كذلك توصلت الى الايمان الراسخ : هذا هو الشعر ! وهذا هو الشاعر ! . اي عمق ؛ واية قداسة ، واية قوة حدثتني للمرة الاولى في لغة أبي وأمي ، وكيف كانت هذه الابيات الشعرية التي لا تصدق ، والتي كنت اراها وانا تلميذ في المدرسة حقاً بلا مضمون ، ترن بسحر النبوة ، سر الشعر !

قــــدم الليـــل ..

مــزدحمــاً بالنجـــــوم ..

النجمـــة المدهشة التي لا تبالي بنا

بزغت ، متألقة ، غـــريبة بين المسكونين بـالمـــوت

فوق قمم الجبــال

حزينـــــــة ورائـــعة .

لم ار مرة اخرى ابداً ، رغم الكم الذي طالعته او الحماسةالتي قرأت بها في شبابي ، كلمات شاعر لها مثل هذا السحر الآسر والأثر الذي خلفته في صباي . وان كان زارا توسترا (زرادشت) قد اعاده اليّ فيما بعد.. ففي العشرين من عمري حدث ان قرأته : فكان له نفس وقع السحر القديم ، فقد ايقظ في ذهني قصيدة هولدرلين تلك التي ضمها كتاب المختارات الادبية ،

---

(١) اسم القصيدة «الخبز والنبيذ»

وتلك الدهشة الاولى التي اعترت روحي الصبيانية التي اثارها الفن .

وهكذا كان مقدراً لهذه الرحلة الى شغابيا والتي ولدت من عتمة الذكريات عن لاو الفاتنة والشاعر موريك ، ان توقظ فيَّ اصداء ايامي المبكرة لتقول لي كيف ان كل شيء قد مد جذوره عميقاً في داخلي واصبح لا مفر منه . وحتى لو لم تمنحني رحلتي شيئاً من الآن فصاعداً سوى الخيبات ، فإن هذه اللحظه ، ، تحت قمر توتلنجن ، والظهور المفاجيء لأبيات هولدرلين ، قد منحاني ما يكفيني .

فالاشخاص الذين على شاكلتي يقنعون بالقليل وفي الوقت نفسه بأسمى الاشياء فقط . فوسط الالم واليأس والقرف المكتوم من الحياة ، نستمع دائماً ومن جديد لوهلة قدسية ، الى كلمة نعم جواباً لتساؤلنا عن معنى هذه الحياة ، التي يصعب احتمالها ـ رغم اننا في اللحظة التي تليها بالضبط قد يهزمنا الفيض المعتم ثانية ويغمرنا ـ وبذلك نتمكن ان نعيش لزمن ما لا لمجرد العيش وتحمل الحياة فحسب ، بل ان نحبها ونتغنى بها .

من قمر هولدرلين والشارع الغافي قرب المياه ، عدت الى النزل ، ارتعش واتنفس الصعداء ايضاً بعد ان يئست من ملاقاة واحد من مقدسات شبابي . ظلت أصداء الابيات الشعرية لفترة طويلة تتردد في الليل ، ولفترة طويلة دأبت على سماع ذلك الصوت القادم من البئر العميقة لصباي . آه لكم فتنني ذلك الصوت ، طيلة تلكم الاعوام ، وكم كان نائياً عن كل طريق قيم ومهم بالنسبة للآخرين ، ـ ذلك اللامنتخب ! كم من لحظات النعيم العميقة التي يصعب توصيلها ، والموحشة قد جلبتها لي تلك الابيات ، الى شعور بالانسانية انبل من الذي ولدنا من اجله ! لقد قادتني الى الصراع «مع» الواقع والانفصال «عنه» ، والى وحدة باردة ، راسخة ، والى هاوية مرعبة لازدراء الذات والى مشاعر

مفرطة مهيبة بالتقوى . ولو حدث اليوم ان الزمني ضغط حياتي المتزايد ان الوذ بالفرار الى الفكاهة وان انظر الى الواقع المزعوم من جانبه الهزلي - حتى ولو كان لمدة وجيزة في مرحلة وسطية - هذا ايضاً تأكيداً على ذلك الصوت المقدس ومحاولة لاجتياز الهاوية لوهلة تمتد بينه وبين الواقع ، بين المبدأ والتجربة ، عبر مد الجسور السريعة الهشة . فالمأساة والفكاهة ليستا نقيضين ، او هما بالاحرى نقيضان لا غير لأن الواحد منهما يحتاج الآخر بعناد جم .

ولو حدث ان وجدت في الصباح التالي بعد وجبة افطار متأخرة ان مدينة توتلنجن قد تجردت على نحو ملحوظ من سحرها ، فالخطأ لا يكمن فيّ فقط وفي عجزي خلال ساعات الصباح عن ان اجد اي شيء له اهمية في العالم بل بالاحرى ، وكما اكد لي شهود موثوق بهم جداً ، في كون توتلنجن على وجه العموم مدينة مضجرة بعض الشيء .ولم يضايقني هذا الامر ، وواصلت سيري رغم كل شيء بمحاذاة الطريق جنب البحيرة عائداً الى تلك الجملونات ، ووجدت ان كل شيء في مكانه الا القمر والا جمال ساعة الليل تلك . لقد جئت هنا في اللحظة المناسبة تماماً في ساعة مباركة ، نادرة على نحو لامتناه ، حينما كانت توتلنجن مدينة حكايات الجن التي يكتنفها الغموض . صار الآن سهلٌ علي ان اغادر المكان ؛ اشتريت شطيرة ، ووجدت حقيبة سفري السيامية في المحطة وصعدت برضى الى القطار ، قطار الاحد المزدحم ، الذي رحل في وادي الدانوب الجميل . رأيت بويرن وفيرنفاج تستلقيان تحت ضياء الشمس المتألق وكنت اتحرق للخروج للتعرّف على هذه الاماكن الجذابة بعمق . ولكنني ادركت ان صديقي في بلاوبويرن ، الذي كان يشعر بخيبة امل لأخفاقي في ان اكــون عنــده امس ، ينتظرني قلق البال ، لذلك اجبرت نفسي على الجلوس هادئاً . اقتحم القطار الضباب الكثيف ، واختفت السماء المشمسة في بعض

منعطفات الوادي ، وصعب علي فك رموز اسماء الاماكن في ارصفة المحطات.
كان الجو كئيباً ضبابياً ايضاً في بلاوتال ، التي وصلت اليها في مستهل الاصيل.
هناك قدم صديقي العزيز ، متأخراً دقيقة واحدة ، وكان يسرع على مدى الطريق الرئيسي العادي الذي يؤدي الى بلاوتال الصغيرة والى اسرار بلاوبويرن التي لا تمنح القادم الجديد أية فكرة بسيطة عنها . وقفنا هناك ونظر كل منا في وجه الآخر ؛ لم يصبح اي منا اكثر وسامة خلال تلك الاعوام ، واظن ان كلينا قد شعر بفرح عميق صادق . وكان ينتابني انا على الاقل ، الذي عشت لعشرين عاماً بعيداً عن موطن صباي ، شعور من البهجة والدفء غير العاديين من فترة لاخرى حين ارى ان هنالك ـ فعلاً ـ قلة من الاشخاص كانوا صبياناً وقت كنت صبياً ، وينادونني بكنية تلميذ المدرسة ، والذين لا استطيع التأثير فيهم بأية طريقة. كم هو مؤثر ومثير للمشاعر ان تكتشف في كل مرة ان الاشخاص الذين عرفتهم في مستهل شبابهم لم يتغيروا على الاطلاق ! وهذا ما حصل مع صديقي . فصداقتنا ترجع الى الزمن الذي كنا نبلغ فيه من العمر اربعة عشر عامـــاً . وقد ظل في مخيلتي يحمل نفس الوجه الصبياني لذلك الزمن ، وحتى لو مشى الآن بطريقة سير الاستاذ المثقلة بالهموم ذي الشارب الضخم والوجه المنهك بعض الشيء وبدايات الشيب ، فلا يمكن لكل هذه ان تخدعني او تؤثر بي . فهو سيظل حتى يوم مماته صديقي التلميذ الذي يبلغ عمره حالي الخامسة عشر ، وبلا شك سأكون انا نفسي الشيء نفسه بالنسبة له . ولقد اسعدني اكتشافي هذا ثانية وتمشينا بمزاج مرح في الطريق الكئيب الى الوادي ، نتبادل الاحاديث اثناء المسير ، وقد لاحظت اننا قد وصلنا دون ان انتبه الى مدينة صغيرة مشرقة مليئة بالمنازل العتيقة تبعث على التأمل ذات أسطح جملونية منقوشة وسقوف مزدهرة . وقد خرجنا منها لنعود ثانية الى منطقة الدير الهادئة

ثم فكرت فجأة بالفاتنة لاو ، وذكرت صديقي بحكايتها وحكاية حمامها الحجري في قبو نوننهوف واخبرته ان هذا القبو وهذا الحمام كانا اكثر الاشياء اهمية في بلاوبويرن بالنسبة لي وطلبت منه ان يصحبني لرؤيتهما في الوقت الذي يتمكن فيه . لكن صديقي لم يكن يعرف شيئاً عن القبو وعن الحمام ، وراودني الشك ثانية الآن بأن هذه الحكاية قد تكون مجرد خلق جميل من مخيلة موريك لا غير . قـــابلنا رجلاً ، وياللغرابة فقد كان ناظراً على الاديرة، يجمع بين الحارس الحي الضمير والخبير بكنوز بلاوبويرن . وعندما بينت له مطلبي وشرحت له بالتفصيل الوضع في حكاية موريك اشرق وجهه . بلى ، حقيقة ، كان ذلك القبو موجوداً وكانت تربطه بيلاوتوف قناة سرية ، وعندما يسمح له وقته سيأخذني معه الى هناك . اتفقنا على ساعة في اليوم التالي ثم دخلنا الى دير قديم يعيش فيه صديقي الآن ، حيث استقبلتنا زوجته وقدمت لنا فوراً وجبة طعام منتصف اليوم التي ابقتها لنا وهي تنتظر مجيئنا. سلطة بطاطا شغابية ونبيذ بيزكهايمر جيد وخفيف ، وللمرة الاولى اشعر انني في شغابيا ، في بلدتي الأم ، اتكلم اللغة الشغابية مرة اخرى ، ولم اعد ذلك السيد المسافر بل كنت اخاً ، ولست ناسكاً احمقاً بل كانوا يسألونني عن هذا وذاك وكنت أزودهم بالأخبار عن زملائي التلاميذ ، والمعلمين الاقدمين ، وابنائهم وبناتهم . وفـــي الديـــر هنا قابلت استاذاً كان ابناً لمدير المدرسة اللاتينية التي كنت ادرس فيها . وكنت اتوقع في الغد لقاء رفيق مدرسة آخر لي ، هو الآن قس البلدة وابنه يدرس في المدرسة هنا . كنت اراقب مضيفي وهو منهمك بالأكل ، يمسد شاربه الكبير ويتبادل الكلمات الواقعية الجليلة مع زوجته ، ورأيت التجاعيد الصغيرة تحيط عينيه ، ولكن ذلك كله لم يشكل فرقاً ، فقد بقي بالنسبة لي

الفتى فلهلم .

قضيت يومين في بلاوبويرن في ملحق إضافي بالدير ذي الطراز المعماري المرعب ، إلاّ إنه أصبح أثيراً إلى نفسي . لم أكن أشعر أني على ما يرام طوال الوقت ، فقد امضيت ليالي لم أذق فيها طعم النوم ، وقاسيت كل أنواع الإزعاجات . فكرت بخشية بالموعد المرتبط به في أولم ، وتذكرت بحنين مختلاي في الجنوب ، وكنت في بعض الأحيان أنظر بحسد تام إلى صديقي، الذي يحتل مركزاً يشغله بفاعلية ، وعنده كل يوم واجبات لينجزها ـ ولكن كل ذلك كان يمر في بالي مروراً فقط ليس بذي أهمية ، بينما كانت كل الأشياء الأخرى مهمة وجميلة على نحو هائل . كان جميلاً أن القى عدداً من علماء الدير ، ممن كنت أثير فيهم شيئاً من الفضول ؛ لأني قد هربت حين كنت طالباً في الدير ، في سن الخامسة عشرة بعد فترة قصيرة من المحتمل ، وما زالوا يذكرونني في أساطير المؤسسة . ولكن ماذا عن ذلك ؟ هل كان هؤلاء الزملاء الوسيمين الشباب بوجوهم الطفولية الناعمة المحبوبة حقاً بنفس أعمارنا عندما كنا تلاميذ في مدرسة الدير ؟ وهل من الممكن ان تضطرب خلف هذه الجباه وقصات الشعر الأشقر الصبيانية نفس المعضلات التي كانت لدينا ذات مرة ، ونفس التحرق للغور في الجدل والفلسفة ، ونفس المثل العليا المتقدة ؟ صديقي أيضاً كان مع الرأي القائل إن شباب اليوم ، الذي يحيا في الدير ، بالمناسبة ، حياة أيسر بكثير من التي عشناها ، هم أقل إكتراثاً بالمشاكل العامة ويعيشون على وجه العموم زمناً لا يكتنفه عوائق شائكة كزمننا . ولكنه ما أن تفوه بذلك حتى لم يعد عزيزي فلهلم فتى الخامسة عشرة ، ولم أعد أنا كذلك ، فقد أحاطت الكثير من التجاعيد أعيننا وبدا الشيب واضحاً في شعرنا على نحو يدعو الى الرثاء.

كانت نزهتنا الأولى الى بلاوتوف هامة جداً ورائعة ، فتحت الأشجار كانت الأوراق الصفراء تطفو فوق المياه الاسطورية ، وكان سياج القضبان المستخدم لصيد الأسماك والجدول ممتلئين بالبط والأوز ، وفي الأرض عميقاً جلست الفاتنة لاو ، تبتسم متوجهة إلى الأعالي عبر المياه الزرقاء ؛ ووقف بمحاذاة المياه وحيداً يائساً نصب تذكاري مضحك يثير الشفقة لملك قديم .
كانت رائحة الوطن ، تفوح من كل شيء ، ورائحة شفابيا ، وكعك الجاودار ، والحكايات الخرافية . ومن جديد ذهلت كيف أن الرسامين الألمان المعاصرين لا يعرفون إلاّ الشيء القليل عن هذه الطبيعة الحية بشكل عجيب ، والمتميزة حقاً .
تتوارى لاو في كل مكان ، وفي كل مكان ينتشر عبير الصبا والطفولة ، والأحلام وكعك الزنجبيل ، وبنفس القدر عبير هولدرلين ، وموريك ، لذا لم آسف لعدم وجود أي نصب تذكارية لها . فقد كان مفهوماً أن هناك في شفابيا دائماً شعراء أكثر من الملوك.

وبالنسبة لرحلتنا الى قبو نونهوف ! فقد قادنا المرشد ألى أسفل سلم عتيق وعبر مدخل منظر باهت الضياء إلى قبو محاط بجدار عالٍ مشيد بجمال ومتانة، وأرانا خانات البوصلة ، والمكان الذي يتدفق منه مجرى الماء الخفي .
وعندما لم احتمل الانتظار سألت عن الحمام فأخرج ضوءاً ومضيا من جيبه ووجهه الى زاوية حجرة مهيبة وكشف عن واحدة من هذه الأشياء الفجة العادية ، رقعة من الاسمنت الموضوع برفق والذي ما يزال جديداً نسبياً ؛ هذا هو إذن حمام لاو ! وأسفل هذه الرقعة الاسمنتية البغيضة بانت المياه السرية الباردة التي عامت فيها الفاتنة لاو ، وهي تتأرجح حتى ثدييها ! ولحسن الحظ فلقد ترك على الأقل المصممون المعماريون حفرة مستديرة وسط الاسمنت مكسوة بغطاء اسمنتي ما أن رفعناه حتى التمع في الضوء الومضي الخافت الماء الأسود لمعاناً خفيفاً ، فأعدنا غطاء الحفرة ثانية إلى مكانه بصمت شبيه بصمت الناس الذين يغطون جثة مدنسة.

لم نثر التساؤل فيما إذا كانت الآلهة قد هجرت حقاً وعلى نحو كلي وتام الشغابيين وآخرين غيرهم ممن ينتمون إلى الحاضر ، وفيما إذا كانوا حقيقة لا يعرفون قيمة ما يمتلكونه في لاو وموريك ، وقيمة هذه العجائب ، التي لا تزدهر بها أي مقاطعة المانية مثل شغابيا . تركنا هذه الأسئلة المحيّرة دون التمعن فيها فقد كنا راغبين في الفرح بما ظل أمامنا في بلاوبويرن لنعثر عليه في كنوز تاريخيــة وأشياء قيمـــة لا يغطيها الأسمنت ، ولسعادتنا كان يوجد العديد منها زرناها جميعاً وتفحصنا هذه الأشياء بمحبة؛ المذبح الشهير ، المكان المخصص في الكنيسة للمنشدين ، والأقواس المذهلة ، والقاعة الكبيرة والملحقة بالكاتدرائية ، وشواهد القبور وفي الليل حينما نمت نوماً خفيفاً لربع ساعة ضئيلة من الزمن ، لم أحلم بلاو وهي تعوم في حمامها ويرتطم رأسها بغطاء الأسمنت بل بأمر لاحدّ لمعزته عندي ، حتى أنني لم أسمح لنفسي بأن تكشفه لاي أحد . لم تكن بلاوبويرن لمجموعة اصدقائنا منهكة على الاطلاق حينما كنا نزور النصب التذكارية التي تعود الى أكثر العصور ورعاً . فكان لنا فيها قروننا الوسطى التي تكمن على نحو اقرب الينا وتمتلك سحراً لا يقل عن سابقتها ، كانت هي صبانا ، وتفحصنا الآن تذكارات ذلك الزمن الاسطوري ، وصور العنف المضحكة ، العزيزة التي لم أكن أنا ، الهارب ، موجوداً فيها ، وغرف المدرسة والمهاجع وقاعات الطعام والرسائل . وتذكرنا بالأخص رفاق صبانا الذين لا نشك الآن بأن أقدامهم قد أخذت توخزهم وخاصة صديقنا الذي يسكن في شارع سويكاور في التنبورغ.

ومن خلال تجربتي وجدت أن علماء اللاهوت وعلماء فقه اللغة الشغابيين لديهم ميل للتأخر عن اللحاق بالقطارات في الوقت المناسب ولكنهم ورغم ذلــك كانوا يلحقون بها في اللحظـــة الاخيرة . هكذا جرى الحال معنــا ،

فقد انتهت القرون الوسطى بسرعة هائلة وكان لا بد أن أغادر للقراءة في أولم . لحقنا القطار بمعجزة ، بحيث أننا لم نف الوداع حقه ، وفي شفق المساء وصلت أولم . خطر ببالي الآن حدث صغير نسيت أن أذكره وقع خلال زيارتي إلى بادن ففي أحد الأيام التي كنت فيها في غرفة استشارة الطبيب قابلت رجلاً من أولم دعاني للإقامة في بيته ، وهو الآن ينتظرني في المحطة ومعه أحد معارفي القاطنين هنا والذي كان قد أراني المدينة للمرة الأولى قبل أكثر من عشرين عاماً . اصطحبني إلى بيت دافيء ضاج بالأطفال والأشخاص اللطفاء ، لم يكن هنالك للغريب وجود ، فكنت ما أزال في شغابيا . ومن ناحية أخرى ، كان اتمام مهمتي يقع على عاتقي الآن وما كدت أصل حتى غيرت ملابسي وبدأت أفكر بالقراءة التي سأؤديها ، فقد فعلت ذلك دونما رغبة ، ودون أن أكون قادراً ، حتى الآن ، على أن أدرك أسباب موقفي . ورغم هذا ، لم أتجرأ على بذل جهد متفان لمهمة فرز الخيوط غير المنتظمة والتي في متناول يدي .

إن كرهي للقراءة أمام الجمهور ليس هو نفور المنعزل عن المناسبات الاجتماعية فقط فمثل هذا النفور يمكن بسهولة جداً تجاوزه بين الحين الآخر ، إلاّ أنه كان من الداخل . فقد واجهت اضطراباً وتنافراً أساسيين ، متجذرين عميقاً ، وكي أوضح الأمر بايجاز وببساطة اكثر ، أقول أن سببه ارتيابي من الأدب بشكل عام ، مما يسبب لي عذاباً عند القراءة بصوت عالٍ بل حتى عذاباً أكبر في عملي الخاص . فأنا لا أؤمن بقيمة أدب عصرنا ، وبلا شك أنا أدرك أن كل عصر ينبغي أن يكون له أدبه كما ينبغي أن تكون لي سياسته ، ومثله العليا ، وأساليبه ، ولكني لا أستطيع أن أجرد نفسي من الايمان الراسخ بأن الأدب الألماني في عصرنـــا هـــو أدب زائل وأمر مشكوك فيه . إنه بذرة نمت في تربة فقيرة ، مهيأة بشكل رديء . وهو بلا شك أدب مثير ، ومليء بالمعضلات ،

ولكنه غير قادر إلاّ بشق الانفس على أن يثمر فاكهة مكتملة ، ناضجة تبقى طويلاً . وبالنتيجة ، لا استطيع إلاّ أن أعتبر فقط محاولات الشعراء الألمان المعاصرين (بضمنهم أنا ، بالطبع) هي التي تنتج ابداعات أصيلة ، وأعمالاً جيدة بحق ، مع انها بطريقة أو بأخرى غير وافية وثانوية ، ففي كل مكان ألاحظ أثر النماذج الخالية من الأصالة ، والمتحجرة . من ناحيةأخرى ، أجد قيمة الأدب الانتقالي والشعر قد أصبحت قابلة للنقاش والجدل ومشكوكاً فيها ، فلم تعبر بضمير حي عن مواطن الضعف وعيون هذا الزمان بأكبر قدر من الصدق الممكن . وهذا هو السبب في أنني لم أعد استطيع استحسان الكثير من اعمال لشعراء اليوم والاستمتاع بها رغم روعتها وبنائها الجيد ، بينما أستطيع التعاطف مع الكثير من الأقوال الأكثر حداثة غير المتقنة والمهملة التركيب ببساطة لانها محاولات ناجمة عن صدق عفوي . وهذا التقسيم يمتد مباشرة عبر عالمي الصغير وعبر ادبي ، فأنا احب الشعراء الألمان الذين ينتمون الى الفترة العظيمة الأخيرة حتى عام ١٨٥٠ ، وأحب الرومانسيين ، جوته ، هولدرلين ، كلايست من كل قلبي ، فأعمالهم بالنسبة لي هي أعمال خالدة . وأنا أقرأ جان بول مرة بعد أخرى وأقرأ برينتانو ، وهوفمان ، وشتيفتر ، وايكندورف ، مثلما استمع مرة تلو المرة الى هاندل ، وموزارت وجميع الموسيقيين الألمان حتى شوبرت. هذه الأعمال هي دائماً اعمالاً متقنة ، حتى لو أنها أصبحت منذ زمن بعيـــد لا تعبر عن مشاعرنـــا ومشاكلنا ، فهي ابداعات متكاملة ، مستثناه من الزمن ؛ وعلى الأقل ، هي ما زالت كذلك لاشخاص غير معدودين في هذا الزمن . تعلمت من هذه الأعمال أن أحب الشعر ، وألحانها كانت مألوفة لي مثل الهواء والماء ، وكانت هي العبر التي وجهت صباي . والآن وقد أدركت ومنذ أعوام عديدة أن لا جـــدوى من تقليد هـــذه النماذج الرائعـــة ،رغم انه لا مفـــر

من محاولة ذلك مرة بعد أخرى ، دون أمل . وأعلم أن قيمة ما نكتبه نحن أشخاص اليوم لا يمكن أن يكمن في امكانية الشكل الذي يظهر ملائماً لعصرنا ولفترة طويلة قادمة ، ولا يكمن في الأسلوب ، وفي التزام الكلاسيكية ، بل بالأحرى نحن لا نملك في غمرة يأسنا ملاذاً آخر سوى ذلك الذي يتمتع بأكبر قدر من الصدق الممكن . بين هذه الاحتياجات للصدق ، للتسليم ، لاستسلام الذات وبين ذلك الاحتياج المألوف لنا منذ الصبا ، للتعبير الجميل ، بين هذين المطلبين يتأرجح في حيرة كل شعر جبلي فحتى لو كنا مهيئين لاعظم حالة صدق حد استسلام الذات - فمن اين لنا أن نجد طرق التعبير عنه ؟ فلن تسعفنا لغتنا الادبية ولا لغة مدارسنا ولا كتابتنا اليدوية التي اتخذت منذ زمن طويل شكلها النهائي . والكتب المعزولة اليائسة مثل كتاب «هذا هو الانسان» Ecce Homo لنيتشه تبدو وكأنها تكشف طريقا ، إلاّ إنها في النهاية تكشف على نحو أوضح بكثير أن لا طريق هناك ، ويظهر لنا أن طريق التحليل النفسي يمنحنا العون وإنه قد جاء بمتطورات ، ولكن حتى الآن لا يوجد مؤلف ، سواء كان محللاً نفسياً أو كاتباً له خبرة في التحليل النفسي ، قد خلص هذا النوع من علم النفس من حصانته الاكاديمية الضيقة جداً ، والمتعنتة والفارغة بدرجة كبيرة جداً .

كفى ، فقد اخذت هذه المشكلة حقها من التعليق . فلو دعيت الآن ، ككاتب ، لقراءة النصوص الأدبية ووقفت والمخطوطة في يدي أمام الجمهور ، فسأكون في مواجهة هذه المشكلة في شكلها الحاد ، التي تحول الأوراق التي في يدي الى نفاية لا جدوى فيها ، وتجعل بحثي عن الصدق المجرد من اعتبارات الجمال ضرورة ملحة . وقبل كل شيء ، سأكون راغباً عندها أن أطفيء

الاضواء واقول للحضور : «ليس لدي ما أقرأه لكم ولا ما أقوله سوى أنني أجاهد كي اخلص نفسي من الأكاذيب . ساعدوني في ذلك ولنذهب جميعاً الى البيت ! .

ورغم هذه الرغبة المكبوتة ، فقد انتهيت من بضعة قراءات عامة ، وسمحت لنفسي أن تقتنع ، الأمر الذي أرضى المشرفين . ولكنني في كل مرة كنت أصعق كيف أن الجهد الضئيل المبذول في القراءة بصوت مرتفع ساعة من الزمن من الممكن ان يستهلك المرء استهلاكاً تاماً ، وغالباً الى حد الانهيار . فلو كان الأمر مجرد أن يقف شاعر مثالي أو خيالي في حضرة جمهور مثالي أوخيالي ، عندئذ سيصبح الحال كله مستحيلاً وسيكون الموقف عندها مأساوياً تماماً ومن الممكن أن ينتهي فقط بأن ينتحر الشاعر أو أن يرجمه الجمهور بالحجارة ، ولكن ، في عالم التجربة الفعلية يبدو كل شيء مختلف بعض الشيء. فهناك من الخداع ، وخاصة مجال للوسيط القديم بين المثالي والواقعي ألا وهو المرح ، وفي مثل هذه الأماسي انتفع كثيراً منه ، من الفكاهة بكل أنواعها ، ولا سيما الفكاهة الساخرة . لنحاول أن نصوغ بإيجاز هذا الانكسارلخيوط الاشعة الصافية ، هذا التكيف الرديء مع الواقع حسناً ، اذن : فالشاعر الذي تراوده اشد الشكوك ايغالاً في نفسه وبقيمة جهوده الشعرية يقف أمام قاعة مليئة بالمستمعين ، الذين بدورهم لا يملكون أدنى فكرة عن العمليات شديدة التعقيد التي تعتمل في نفس المحترم الذي يقرأ امامهم . ولكن ما الذي يمكّن هذا الشاعر من قراءة قصائده بصوت مرتفع بدلاً من الفرار وشنق نفسه ؟ فالذي يجعل ذلك ممكناً له ، وقبل كل شيء ، هو غرور الشاعر . وحتى لو لم يستطع أن يأخذ نفسه ولا جهوده مأخذاً جدياً ، فهو مع ذلك مزهو بنفسه ، لان كل شخص يملك زهواً ، حتى الزاهد ، وحتى من ليس له ثقة بنفسه . أقول

ذلك ليس من أجل التظاهر بالخجل ، فانا أظن قدر تعلق الامر بتجردي عن ذاتي لو تطلب ذلك ، فأنا افوق المستوى العادي في أوروبا : فانا أعرف اكثر من أي شخص الوضع الذي تمتحن فيه «الذات» الخالدة في دواخلنا «الانا» الفانية بكل انتقالاتها المفاجئة وامتعاضاتها و بتعاطف وسخرية وبحيادية ، والا كيف تسنى لي ان اعرض اناي لسخرية قراء أقل معرفة مني؟ ولاني في هذه النقطة بالذات اكثر علماً من الشخص العادي ، وغالباً الى الحد الذي لا يحتمل ، لهذا السبب لا آخذ غرور الشاعر في اعتباري الا بشكل هادىء . أنه اعظم مما يتوقعه المرء من شخص له نزعة الى التفكير ، إلا ان الاعتقاد ان موهبة التفكير والغرور هما شيئان منفصلان ما هو إلا خطأ ، فعلى العكس ليس هناك من هو أكثر غروراً ، وليس هنالك من يستند اكثر على محاكمات الذات وتوكيدها اكثر من المفكر، الذي يشعر حقيقة بحاجة ملحة لمحاكاة ذاته وتوكيدها . هذا الغرور - الذي هو في حالتي ليس اكثر شدة مما عند اي شاعر آخر إلاّ انه يمتلك العديد من القدرات الحصانية - اعانني الآن في هذا الموقف الميئوس منه امام الجمهور الذي لا أملك حقيقة ما امنحه اياه ، في الوقت الذي يتوقع هو شيئاً ما مني. يوجد شيء ما في داخلي ، شيء يتكون ثلثيه من الغرور ، الذي يرفض الاستسلام الى الناس المجتمعين في القاعة ، ويقر بعدم جدوى هذا كله ، وشيء آخر في داخلي يجعل الأمر يبدو ذو قيمة أن تتحكم بهذا الحشد من الناس ، وان تدفعهم لا إلى الفعل ، ولا حتى الى التصفيق ، بل الى الانتباه ، الى الصمت والاصغاء لما اطرحه من افكار والى اشعاري التي يتناقض مغزاها وغرضها تماماً مع مغزى وغرض الجمهور . لذا اطبقت على اسناني وبذلت جهداً عظيماً ، ولأن الفرد في الأمور الفكرية دائماً اقوى من المجموع ، فقد ربحت المعركة . أصغوا اليّ بصمت . فقد اعطيت انطباعاً عن رجل لديه فعلاً ما يقوله . وبالكاد استطعت

ان اطيل ذلك الى ساعة ، إلاّ إنه ينبغي ان اتوقف فقد تهالكت تعباً .

وبالنسبة للمستوى الموحش للتجربة اليومية ، لم يكن ما ساعدني هو غروري الاخرق لوحده ولا رغبتي الشخصية التي تشبه ما لدى الحيوان رغم انها في الوقت نفسه رغبة حاذقة لتوكيد وجودها . فقد اعانني جمهور المستمعين كذلك واعانتني علاقتي به على السواء ، وهذه نقطة اتفوق فيها على الكثير من زملائي ، فجمهور كهذا هو موضع لا مبالاة تامة لي . وحتى لو وقع اسوأ ما يمكن أن يحدث بيني وبين الحاضرين وحتى لو فشلت تماماً وطردت من على المنصة ولاحقني الصفير فلن يهمني ذلك إلا على نحو ضئيل جداً ، فسيشارك شخص ما في داخلي بحماس في الصفير ، ابداً ، فلا يبعث فيّ الموجودون الشعور بالخوف ولا أنا اتوقع الكثير منهم ، فلم أعد غراً ، وأعرف كل ما يتعلق بهذا الأمر . فأنا أعرف بدقة متناهية كم من هؤلاء الحضور سينهالون عليّ بمطالبهم ، أما بشكل شخصي أو في رسائل خاصة ، في امور انانية محضة. وأعرف ذلك الصنف من الناس الذي يتزلف أمام الضيف المشهور ، وبعدها يتقيأ سماً عليه ، وأعرف ذلك الضرب من الناس المتطلعين الذين يطرونك في وجهك ويحترمونك بطريقة مخجلة مغالى فيها جداً ، لكنهم ما أن يلحظوا عدم وجود استجابة لجهودهم هذه ، حتى ينصرفوا على عجل ، واعرف الخبث الذي يتمتع به الرجل ضئيل الثقافة حين يرى أن الاشخاص البارزين والمفكرين هم أيضاً من البشر فيهم ما يضحك ، ويظهر عليهم الغرور أو الاحراج ، أعرف ذلك كله حق المعرفة . فلست ذلك المبتدىء الذي يتصور أن من اجله ، وبسبب شخصيته المتميزة ، قد اجتمع هولاء الناس هنا . وأعرف أنه قد يكون الحال كذلك بالنسبة لرباعي يؤدي اغنية ميودلة ،

واعرف ان خطاباً يلقيه لوندروف قد يجذب عدداً من الناس يفوق ذلك العدد بمئة مرة ، وفي لعبة الملاكمة قد يصل الضعف إلى الف مرة . ولما كنت انا نفسي اعيش خـارج مجتمع الطبقـة الوسطى ولا أساهم فيها الا كضيف فحسب ، لهذا استطيع ان اعتبر الاحترام والنجاح في هذا المجتمع (طالما يجذبني غروري الداخلي اليه) امراً غير هام على الاطلاق . فهنا اتمتع بكل مزايا الغريب والمتنسك الذي يعيش دائماً هنا ونصفه الآخر في الهند الذي لا يمكن اعطاءه اي شيء ،ولا يمكن أخذ اي شيء منه ، وأنا مدرك لهذه المزايا.

ومع هذا فليست قوة الغرور المحركة ولا لامبالاة الغريب التي أشعر بها تجاه الجمهور هي الأشياء الوحيدة التي يمكنني ، رغم أقوى الاعتراضات وأقوى العوائق ، من تأدية القراءة العامة بين الحين والآخر . فثمة شيء آخر ، والشكر لله له علاقة بذلك ، شيء افضل ، الأمر الحسن الوحيد ،، وأعني به الحب . وقد يبدو هذا متناقضاً مع ما قلته بشأن لامبالاتي نحو الحضور ، إلا أنه مع ذلك حقيقة. وكي اكون واضحاً ، في الوقت الذي اتحاشى فيه الجمهور عبر الولادة البارعة للتجربة ، وعبر اللامبالاة الوضعية والحائرة نوعاً ما التي علمتني اياها الخبرة ، فأنا اتوجه بتلك المحبة الفائقة ، وتلك الحماسة الاكثر دفئاً ، صوب الانسان الفرد ، إذا كان هذا الانسان الفرد الذي احببته ، والذي استطيع ان ابـذل مسروراً ما في وسعي من اجله يجلس حقاً في القاعة ، ربما في هيئة صديق ، عندها التفت ببساطة اليه موجهاً كل قراءاتي الى هذا الشخص الواحد لا غير وإن لم يكن حاضراً ، ولا يوجد دليل على وجوده، عندها اتخيله واستحضر صورته أمام عيني ، إما بالتفكير بصديق غائب أو بحبيبة ، أو بأخواتي أو بأحد أبنائي أو عوضاً عن ذلك، اختار أحد الوجوه في القاعة والتي يبدو عليها التعاطف معي . اتشبث بهذا الوجه ، أحبه ، واوجه نـحوه كـل

دفئي ، وكل اهتمامي ، وكل تلهفي لان اكون مفهوماً وهذا هو الطلسم الذي يساعدني.

وفي أولم لم يكن ذلك امراً صعباً، فلم يكن في القاعة بعض الوجوه الودودة والمعروفة ، فحسب ، بل كنت ايضاً وسط الاصدقاء عموماً ، كنت في شغابيا ، في موطني ، لذا لم تكن الامور بذاك السوء . التقينا في مبنى في غاية الجمال ، وفي المتحف البلدي ، الذي نظم مديره هذه المناسبة ؛ ودعاني في اليوم التالي لزيارة المتحف ، وبعد الامسية عاد هو وبعض الاشخاص الى منزل مضيفي لاحتساء كأس من النبيذ وليقضوا بعض الوقت سوية ، لذلك لا استطيع التحدث عن اي مشكل حدث خلال قراءتي كان له ايما صدى مزعج . كنت في غاية الارهاق وفي غاية الفرح ايضاً لان الامسية قد انتهت.

والآن بقي قرابة اليومين وارحل عن أولم ، وقد اكتشفت ان ما يحمله الانسان من ذكرى عن الأشياء الجميلة ، حتى عند الذين يعتبرون انفسهم يملكون ذاكرة مدربة ، ولا يمكن الوثوق به ، لاني كنت قد زرت وانا شاب ذات مرة هذه المدينة الرائعة الجمال والغرابة ، والآن نسيت الكثير مما رأيت ولكنني لم أنس جدار المدينة أو الميتسكرتورم ، أو جوقة المنشدين في الكاثدرائية أو الراثهاوس(*) .

فهذه الصور تراكمت فوق صور الذاكرة المختلفة عنها بعض الشيء ، ومن ناحية اخرى كان يوجد عدد لا يحصى من المشاهد الجديدة التي كنت اراها كما لو أنها المرة الأولى ، منازل الصيادين القديمة التي تقف منحرفة في المياه الداكنة ، منازل الاقزام الخرافيين الصغيرة فوق جدار المدينة ، ومنازل المواطنين الشامخة وسط الطرقات الضيقة ، وهنا جملون غريب الشكل ،

(*) الراثهاوس : قاعة المدينة .

وهنالك مدخل قصر نبيل . ولكني وبعيداً عن هذا كله، لم أعد اتقبل بالأخص تلك المناظر الشهيرة والحديثة البناء ؛ وقد تمت في كومة من التفاصيل من خلال متعة اختلاس النظر من ثقب كامرتي القديمة : كلب بولوني ، وجوه شفابية خلف ستائر النوافذ الزجاجية نصف المسدلة ، شتى أنواع الحلي والتحف الصغيرة زهيدة القيمة المكدسة في نوافذ باعة القرطاسية التي توحي قليلاً بحلول عيد الميلاد ، وهناك شيء كان له دائماً وقع ساحر علي ومعين لا ينضب بالنسبة لي وهو لافتات المخازن . كانت دائماً قراءة الاسم الأول واسماء عوائل المالكين والعاملين في مدينة غريبة ، أمراً ضرورياً وساراً لي ، كما هي الحال مع الروايات التي اقرؤها ، فطالما كانت الاسماء في غاية الاهمية وكثيراً ما كانت ذات فائدة لي. وإنها دون جدال لتجربة غريبة ومشوقة أن أصادف اسماً للمرة الأولى في الحياة الحقيقية كنت قد عرفته من الشعر فقط ؛ لهذا فقد صدمت قليلاً حين رأيت لاول مرة ومنذ عدة اعوام مضت اسم آربوكاست في الزاس ، الاسم الجميل الاسطوري الذي ظننت طيلة سنوات أن موريك هو الذي ابتكره خصيصاً لقصته الثمينة . فمن قراءة لافتات المخازن لا يعرف المرء فقط ، فيما إذا كان معظم من في المدينة من الكاثوليك أو البروتستانت ، وفيما إذا كان فيها الكثير من اليهود أم لا ، بل يعرف ايضاً ولا سيما من الاسماء الكاثوليكية المكتوبـــة شيئاً عن ذهنية واصل سكانها ، عن الأشياء التي يفضلونها ، عن قديسيهم الرعاة لهم . وفي كل مكان كنت اسمع اللهجة الشفابية القويـــة المألوفة ، وفي كل مكان اسمع كلمات لم أكن قد سمعتها منذ زمن طويل . كان ذلك مثلما يلتقي المرء الطباشير أو الحجر الرملي ، الأشجار وزهور العالم الكامن في ذاكرته مرة اخرى كما لو أنه وعلى حين غرة يتذوق ثانية الماء ، والنبيذ والطعام والتفاحة ، والدواء الذي لم يتذوقه طوال

اعوام والذي تلتصق به آلاف الذكريات المغمورة . تمت في خضم هذه الروائح ووسط سحب الذكريات الدفينة . حكوا لي دعابات أولم وحكاياتها ، وفي هذه الاثناء رأيت اطفال مضيفي وأريتهم الحكاية الخيالية التي قرأتها بصوت مرتفع بالأمس ؛ وكانت مكتوبة بخط يدي مع بضعة صور ملونة مرسومة في النص - وقد ساعدتني هذه المخطوطات المصورة على تجاوز الازمة التي رافقت الاعوام التي تضخمت فيها الأسعار . وفي أصيل احد الأيام ذهبنا بصحبة الاستاذ باوم في جولة في متحف أولم التي عادت علينا بمتعة كبيرة .

في غرف مريحة ملأى بأشياء جميلة لافتة للنظر ، شربنا القهوة وأكلت الكعك بمعية أحد المعارف الذي كان في صباي قد أراني أولم للمرة الأولى . معه استغرقت بعمق ثانية مع موريك ، لانه كان يملك عدداً من أشياء موريك الجديرة بالتذكر ، كتب وضع فيها عن البذور التي خطط ان يزرعها في حديقته الربيع القادم ، القليل من الخضر والكثير من الازهار ؛ وأبرز لي حقيبة عتيقة الطراز من القماش المطرز كان قد اخذها باستور موريك معه ذات مرة في رحلاته . في هذا المنزل كان يوجد العديد من الكنوز الصغيرة والتي كانت في موضعها الصحيح . لقد عدت الى المنزل في غاية التعب ، متوتراً ومنهك القوى. فإذا كنت لا أعرف الا بصعوبة ما يعني ان يشعر المرء بأحساس طبيعي، فإن حالي يسوء كثيراً عند السفر - وما هي إلاّ وهلة قصيرة حتى كان شعور الدعة اوالهدوء يلف قلبي.

وفي آخر مساء لي في أولم ، وأنا في طريقي الى الفراش ، استغرقت في التفكير بهذا وذاك مما حدث لي في رحلتي الشغابية ، فكرت في سنجن ، وتوتلنجن ، وبلاوبويرن بأولم ، بالمتحف البديع ، وفجأة تنبهت كم كان ذلك

كله واقعاً تحت تأثير الماضي ، وكم من الأموات قد شاركوا في الحوار ، نعم ، وكيف أن أكثر الاجزاء حيوية قد أملاها علينا الموتى . لقد كان هولدرلين في اللحظة تلك تحت المنازل الجملونية في توتلنجن ، وكان موريك مع لاو الفاتنة . شعرت أيضاً بتأثير آرنيم و«حراس العرش»، وبناة كل المذابح ، وكل مقاعد جوقة المنشدين وشواهد القبور والصروح العظيمة . كما حدث في هذه الرحلة بالضبط كان دائماً وفي كل مكان يحيطني الموتى وما زالوا - الخالدون ، بالأحرى . وهؤلاء الذين ماتوا منذ زمن بعيد ، والذين ظلت كلماتهم حية بالنسبة لي ، هؤلاء الذين ثقفتني أفكارهم وأعمالهم وجعلت العالم الممل جميلاً ومحتملاً ، ألم يكونوا جميعهم غرباء ايضاً ، مرضى ، يقاسون آلالام ، بشر صعبي المراس ، ومبدعين بدافع الحاجة وليس بدافع الفرح؛ رواد ابدعوا يدفعهم القرف من الواقع ، لا القبول به ؟ وهل حقاً أن ساكني المدينة في العصور الوسطى ، الذين كانوا رغم ذلك خبازين وحرفيين ، ينعمون بالراحة والصحة ، بنوا بأجسام سمينة ، هذه الكاتدرائيات ، وهل حقاً كانوا يرغبون فيها ؟ الم يكن سخط الآخرين ، القلة ، هو الذي ارغمهم ؟ ولو كان العالم الحقيقي على حق ، ولو كان الذين على شاكلتنا مجرد اناس منهكي الاعصاب ، ولو كان من الافضل والملائم أن يكون المرء مواطناً ورب اسرة ودافعاً للضرائب ، ويواصل الاعمال وينجب الاولاد ،ولو كان حقاً المصنع والسيارة والمكتب يمثلون ما هو طبيعي وحقيقي ومنطقي للبشر ، لم إذن أبدع هولاء مثل هذه المتاحف ؟ ولماذا استخدموا وكيلاً لحراسة مذبح بلاوبويرن ؟ ولم صنعوا صناديق عرض كبيرة ملأى بالرسومات والفنون التخطيطية بل وحتى يدفعون الأموال عبر المؤسسات الحكومية من أجل ذلك ؟ لم تُمجد هذه الغرائب ،هذا الهراء ، ولعبات الفنانين السقيمة هـــذه التي تحتاج الـــى التأكيد ، لـم تُجمع وتُتابع ، وتُعرض ، وتلقى المحاضرات عنها ، إن لم يكن هنالك شيء جوهري

في هذا العبث ، شيء له معنى ، يستحق ان يوجد حقاً ؟ ولم يشعر مواطنو أولم بالفخر لحالة الصيانة الجيدة لرواق مدينتهم العريق بدلاً من تهديم النفايات القديمة ، وتشييد المصانع والشقق السكنية في مكانها ؟ وأصحاب المصانع حينما يعودون إلى منازلهم من مكاتبهم بسياراتهم راغبين ان تصبح الاشياء اكثر بهجة ، لماذا يتاعوا بالنقود التي حصلوا عليها من مكاتبهم اعمالاً مصورة عن الاديرة القديمة ، لوحات لرسامين كبار متوفين ممن لم يملكوا في حيواتهم ابداً جزءاً من مئة مما تجنيه لوحة واحدة من لوحاتهم اليوم ؟ ولم كان اسمى مديح سمعته في أولم لاي من معمارها الحديث كان ذلك الذي ينسجم بشكل لائق جداً مع نموذج الطرقات العتيقة ؟ ولم يجب أن يكون كل ما ينتمي الى اليوم بهذه القباحة ؟ فمن زيورخ الى أولم ، بقدر ما غيرت يد الانسان الارض وشيدتها ، لم تعد هناك أشياء جميلة تراها العين عدا بضعة جزر صغيرة ذات معمار قديم . وكل ما تبقى محطات ومصانع ومبان سكنية ،ومستودعات للبضائع ، وثكنات عسكرية ، ومكاتب بريد ، كلها قبيحة ومدعاة لليأس وتدفع الناس الى الشعور بالقرف والانتحار.

لم أضع هذه الأسئلة لأوضح أسباب هذا القبح واليأس ، فلست معنياً بنمو السكان (الذي ينبغي أن يوضع حدّ له بكل وسيلة ، بدلاً من تشجيع الدولة والمجتمع له) ولا بالقوانين الاقتصادية (التي هي اليوم نفس قوانين الزمن الذي بنيت فيه الكاتدرائيات القوطية) ولكنني مفتون بالسؤال التالي ليس إلاّ : هل أنت ايها الشاعر المجنون في رحلاتك ، مجنون حقاً ؟ وهل تشعر بالغثيان وتعاني كثيراً من الحياة حتى أنك في معظم الاحيان تكاد لا تشعر برغبة الاستمرار في العيش ، لأنك ببساطة قد أهملت تكييف نفسك مع الواقع «الذي تكون هكذا منذ البدء وسيبقى الى الابد».

ومرة أخرى ، ورغم أنني كنت مستعداً للتفكير بشكل واقعي حتى ولو على حساب نفسي ، كنت مرغماً ان اجيب كما أجبت مراراً في السابق : كلا ، فأنت مصيب الف مرة في احتجاجك ضد هذا «العالم البائس الذي تكوّن هكذا منذ البدء وسيبقى الى الابد» . أنت محق حتى لو مت مختنقاً من هذا العالم بدلاً من قبوله .

ومرة أخرى شعرت بالبرق يومض بين القطبين المتضادين ، فوق الهاوية التي تفصل بين الواقع والمثال ، وبين الواقع والجمال ، أحسست بتأرجح ذلك الجسر البهيج ، الفكاهة . نعم ، فمع الفكاهة من الممكن أن تكون الأشياء محتملة، حتى محطات سكك الحديد ، وحتى الثكنات العسكرية ، وحتى قراءات النصوص الادبية ، فعبر الضحكة ، ومن خلال رفض التعامل مع الواقع بجدية ، ومن خلال المعرفة المتواصلة لقدرته على التدمير ،من الممكن احتماله ، ففي يوم ما ستهجم المكائن مسعورة لتقاتل احداهن الاخرى وتتحرر المستودعات من حمل بضائعها وفي زمن أو آخر وحيث تقف المدينة اليوم سينمو العشب ثانية ، وستنسل من خلاله ابناء عرس وحيوانات الدلق . ابداً ، ليس الانسان ملزماً أن يمجد هذا العالم المضحك بأن يأخذه مأخذاً جدياً !

تركتني سيارة الفندق الكبيرة خلفها في اوغسبورغ أمام باب زجاجي دوار وكانت خلفه تعزف موسيقى في وقت تناول الشاي ، اختراع الانسان المعاصر البارع هذا الذي يمكنه ، حتى في لحظات راحته القليلة واسترخائه ، من التحدث أو الانتباه او التفكير أو حتى يحلله من حالة الوعي. قدمت نفسي عند الطاولة ، وطلبت غرفة ، جاء معي الحمال ، كل شيء كان كما يظهر للعيان حديثاً للغاية ـ المطعم ، الممر ، الحجرة الخاصة بالمعاطف أخذني الصبي الى

الطابق الثاني ، فتح باب المصعد ، وفجأة كنت في قصر (•) مسيج قديم ، ردهة اقطاعية ، ممرات فخمة يشيع فيها الصمت ذات ابواب مهيبة عالية ، يعلو كل منها شعار النبالة المنحوت والملون . فتحت الباب ، فظهرت غرفة ذات اضاءة عالية ، تطل نافذتها على حديقة شتائية خضراء . لقد حزت بفرح على أكثر الفنادق فرادة وفخامة مما قد رأيته في أيما مدينة المانية كبيرة . وكان الهاتف الشيء الوحيد الذي ازعجني فمثل هذه البدع خطيرة ، ولا بأس ، فلو تطلب الامر ، يستطيع المرء دائماً أن يفككه أو يهشمه ، ولكني قبل كل شيء استفدت منه واعلنت لصاحب الفندق ان فنان الامسية قد وصل . ومن ثم أخذت قسطاً من الراحة ، اخرجت بعض الحاجيات من الحقائب ، استبدلت ملابسي ، وطلبت حليباً وكونياكاً الى غرفتي . في جيب معطفي كان يوجد كتاب «البساطة الخالية » (١).

قرأت فيه إحدى رسائل الرحلات لرنكلناتس ، وقد استمتعت بها كثيراً جداً ؛ ولكن ما أن سمعت النقرعلى الباب حتى تيقنت انهم قد جاءوا الى هنا ليصحبوني الى القراءة ، وانتبهت الى انني قد نمت لفترة لا بأس بها . كانت الظلمة منتشرة والجو بارداً ، وقد سرنا عبر شارع عريض فخم الى قاعة الحفلات الموسيقية ، وهذه المرة لم استطع تماماً ان اتدبر فهم الموقف وأن اطبق ادواتي النفسية المعتادة ، ولكني سرعان ما نجحت في اختيار وجه من الحشد استطيع ان اتوجه اليه ،وهكذا قرأت ما عندي حتى النهاية بشجاعة ، وبين حين وآخر كنت ارتشف جرعة ماء رائع ، وانتهى كل شيء قبل أن أصل فعلاً الى درجة الاحتجاج الداخلي ضد ذلك كله . حسناً ، فقد حدث كل شيء على ما

(•) جاءت كلمة قصر بالايطالية Palazza

(١) "Simplicissimus" «البساطة الخالصة».

يرام . هرعت الى حجرة الانتظار لبست معطفي ، واشعلت سيجاراً ، بدأ الناس الآن بالوصول ، لململت اطراف شجاعتي لمواجهة المجاملات ، وكنت فرحاً في الداخل لاني لا اعرف احداً في هذه المدينة ـ ولكن أمامي هناك وقفت امرأة ذات وجنات وردية ، ضحكت وقالت في لهجة شغابية : « ليس لديك أدنى فكرة عمن اكون ، اليس كذلك ؟» كانت امرأة من الغابة السوداء في مدينتي ، وكانت تذهب الى المدرسة مع اخوتي ، خلفها وقفت ابنتها ، صبية جميلة لها ذات وجنات امها المتوردة ضحكنا وقررنا ان نمضي سوية بعض الوقت ، ولكني سرعان ما كان لدي سبب لالحظ بانني شعرت بنعاس خفيف ذلك المساء : فقد وضع سيد امامي احد كتبي طالباً مني أن اكتب كلمات عليه لزوجته . كنت افكر في تلك اللحظة بنورمبرغ ، ولحسن الحظ ، بقي الآن امامي مدينة واحدة لانهي الرحلة ، كتبت شيئاً على الكتاب واعطيته اليه بابتسامة ودودة . قرأ الرجل ما كتبت واعاده الي . فقد كتبت : «في ذكرى امسية في نورمبرغ !» وكان علي ان امحو هذه الكلمات واغيرها . بعد ذلك ذهبنا الى الفندق لشرب كأس من النبيذ ، وتحدثت المرأة من كالف عن مدينتها وتذكرنا سيرة كل من استطاعت تذكرهم من ابنائها ، وجلست ابنتها هناك وكانت تجدنا نحن العجائز مثيرين للضحك ، وعلى حين غفلة ظهر شخص آخر من نوينبرغ ، ووجدت انني ما ازال وسط شفابيا . كان الوقت متأخراً ، حين ذهبت عبر بيت السلم الضخم الي غرفتي . حقاً كان امراً سهلاً ان يكسب الانسان قوته خلال قراءات من هذا النوع ، ومع هذا لم يكن الخبز هو ما افتقده بل الهواء ، وهذا الهواء ، هو هواء القدرة على الحياة ، على الرضا ، والايمان بمهنتي ونشاطاتي ، فلا يعصف هواء مثل هذا في اوغسبورغ ولا تمنح هنا مثل هذه المكافأة الشرفية بل على العكس ، (وهذا هو السبب الذي جعـل الله يزوّد الصادحين والفنانين

بتلك الاضافة السائغة في الثقة بالنفس) . لو سافر المرء مثل المغني الصادح ومثل الشاعر عبر المدن ، بقصد احياء امسيات الترفية الأدبية ، فسوف تكون هـذه بالضبط افضل فرصة لذلك المغرور المأخوذ باهميته الذاتية لاقناعه بالنقيض بلا ضرورته ، باللاجدوى الكلية لشخصه وخصوصيته . وسواء كان اعضاء النادي الأدبي قد استمعوا الى توماس مان أو كيرهات هاوتمان ، أو باورن منخهاوزن او الصادح هسه ، وسواء كان استاذ برليني يعطي محاضرته عن هوميروس أو استاذ من ميونخ يعطي محاضرته عن ماتياس كرونفالد ، فلا فرق في ذلك تماماً . فكل من هذه الاختصاصات لم تكن إلاّ فقرة واحدة في خطة، وخيطاً واحداً في النسيج ، والخطة كانت تدعى بالنشاط الفكري والنسيج كان يدعى بصناعة الثقافة ، ولا يملك لا الكل ولا أي من هذه الاختصاصات منفصلة اية قيمة مهما كانت . الهي لا تدعني افقد حس الفكاهة الذي أملك، دعني اعيش زمناً أطول قليلاً ودعني اساهم في عمل ما باحساس اكبر ، وقيمة اكثر من هذا المعرض الريفي . دعني كأقل خدّامك أن اسهم في ان تغلق المانيا نهائياً مدارسها الوطنية ، وأن تعمل أوروبا بنشاط لتخفض معدلات الولادة . فبدلاً من النقود التي تدفع لهذه المحاضرات ، وبدلاً من مظاهر الحفاوة والتكريم ، وبدلاً من التملق ، هبني رئة مليئة بهواء استطيع تنشقه.

يجزم الشكوكيون أنه لا يوجد أحد قد مات ابداً من جراء قلب محطم . ويرفضون ايضاً الايمان بامكانية ان يموت الاديب لافتقاده الهواء . كما لو أن الاديب يمكنه تنفس اي شيء ، ويمكنـه ان يستقطر كتيباً مـن أي غاز أو أية نتانـة ! .

كان الطقس رائعاً في اليوم التالي لذا فقد خرجت لالقي نظرة على

اوغسبورغ وعرفت ان هذا اليوم هو يوم انعقاد السوق . لم اتعلم الكثير من التاريخ ابداً ولكني استقيت ثقافتي كلها من الشعراء فكما تعرفت من خلال موريك على اسرار بلاوبويرن افضل حتى من الاساتذة هناك ، كذلك توصلت الى معلومات ممتازة عن اوغسبورغ عبر ذاكرتي عن «حراس العرش» التي كتبها آرنيم ، وعن نورمبرغ من خلال (فاكنرودر) و (ي،ت ، أ هوفمان) . لا أكاد احتاج هنا أن أقدم تأكيدات أن اوغسبورغ هي مدينة في غاية الجمال. ولكن هنالك شيء واحد قد راق لي بالأخص وجعلني اشعر شعوراً طيباً ، ففي ساحة السوق حيث كانت تعرض للانظار كميات تدفع المرء للشراء من الزبد والجبن والفاكهة والخضروات وما شاكل ، وجدت اعداداً كبيرة من الفلاحين و لا سيما النسوة منهم وبعض الاطفال الذين يصطحبونهم معهن يرتدون جميعاً ازياءهم الشعبية الاصلية القديمة ، ولفرحتي بهم كدت القي ذراعي حول رقبة اول امرأة التقيتها وتبعتها لمدة طويلة بين أكشاك البيع . كانت صدرات الاثواب مطرزة بزهرات صغيرة ، وأكمام غربية منتفخة محكمة المشد عند الرسغين ، وأغطية مضحكة للرأس ـ آه كم ايقظوا ذكرى طفولتي وسوق الماشية في كالف حيث يوجد مئات الفلاحين وزوجاتهم ، يأتي كل واحد منهم مرتدياً زيه. وكان بالإمكان تمييزهم على اختلاف مناطقهم في الغابة أو من مناطق الذرة المجاورة بواسطة الوان بنطلوناتهم الجلدية القصيرة ! .

كانت آخر سويعاتي في اوغسبورغ هي الأفضل فقد صادفني حظ طيب في هذه المدينة التي ظلمتها كثيراً حين خلطتها مع نورمبرغ مساء أمس . فبالإضافة الى كل الأشياء الجيدة والانيسة التي حدثت لي مسبقاً ، كانت هنالك مفاجأة خاصة في انتظاري . ففي اوغسبورغ يعيش زوجان كانا قد قرآ قبل أربعة عشر عاماً أحد كتبي وراسلاني ، ولا سيما ابنتهما التي ولدت في

تلك الاثناء باسم شخصية في الكتاب . وقد جاء هذان الزوجان الآن لرؤيتي ودعياني للغداء، وقد بذلا جهوداً دالة عل الحب كي يقدما لي أولاً وجبة طعام شهية ، ومن ثم ليرياني في السيارة وفي ساعات قليلة أكثر المناظر اهمية واروعها في اوغسبورغ القديمة. ومع هذا فقد شعرت بالخجل لانني أدين بكل هذه المحبة والعناية الى كتاب يبدو لي اليوم أنه لا يطاق . كانت هذه رغم كل شيء ساعات طيبة ، أية أشياء جميلة واستثنائية قد رأيت في تلك المدينة الاسطورية ! في الموهِف(*) في كنيسة سانت موتيس توجد مجموعة من الاردية الكنسية ذات بهاء كبير حتى ليظن المرء أنه في روما ، وعلى مقربة منها يوجد في المصلى أربعة أساقفة جالسين ، لم يكونوا أجساماً من الخشب أو الحجر بل المومياءات ذاتها ، في حلل كهنوتية ثمينة . وأجمل الأشياء بالنسبة لي كانت أبواب الكاثدرائية البرونزية ؛ ومع هذا ، بقي مشهد آخر ، في انتظاري داخل هذه الكنيسة الجليلة . هناك رأيت رجلاً ذا مظهر ريفي ولحية شقراء عريضة ، يتشح الأخضر الباهت ويحمل حقيبة على ظهره . شاهدته أولاً وهو يدخل الكنيسة يتقدمني مباشرة ، وبعدها رأيته يسير وهو يفتش عبر المبنى الهائل، وأخيراً عثر على ما كان يبحث عنه وركع أمام المصلى حاسر الرأس ، وعيناه متجهمتان صوب الصورة على المذبح ، وذراعاه ممدوتان على سعتهما بينما انفتحت اليدين بتضرع ، وصلى ، صلى بعينيه ، بفمه ، بركبته ، بذراعيه الممتدتين ، بيديه المفتوحتين ، صلى بجسده وروحه ، أعمى واصم تجاه العالم ، لا يزعجه وجودنا نحن البشر الملحدين الفضوليين الذين نبحث في الحرم عن الشبابيك البرونزية والقوطية بدلاً من البحث عن الرب . كان هذا الرجل المصّلي والنسوة في زيهم القروي هما الصورتان اللتان اختزنتهما من

الموهِف : ـ غرفة المقدسات وملابس الكهنة في الكنيسة.

اوغسبورغ لكتابي المصور الباطني والدائمي ، وليس القاعة المذهبة ، ولا النوافير المختالة و قصور المواطنين ولا أشكال التباهي الاخرى .

في ذلك المساء ارتحلت الى ميونخ وبعدها نعمت بعدة أيام من الراحة ، سمحت فيها للصور المشوشة أن تهدأ في ذهني، وأسفت لأنه لا بد لي من الرحيل الآن الى نورمبرغ أيضاً . وحدث أن كانت إحدى الأماسي محفوفة بالمخاطر ، فقد قمت بزيارة مدير فندق «بارك» ، وبما أنه كان قد عرفني ذات مرة في أرجاء اخرى من العالم كصديق للخمر الجيد ، فقد سلّى نفسه الآن أن وضع أمامي مختلف أنواع زجاجات النبيذ المنتقاة بعناية والمعتقة التي جلبها من قبوه . قرب انتهاء الامسية صار عليّ أنا ، الذي اعتبر ، بلا شك ، سكيراً ، ولكن غير معتاد على الكميات ، أن أبذل جهداً لاستجمع قوتي ولكني تدبرت الأمر في النهاية . فجأة ـ وما لم يكن هذا وهماً ممتعاً سببه النبيذ ـ كان مضيفي يجلس هناك مع صديقي من بادن يضحكان ويقرعان الكؤوس معي . ذهبت في اليوم التالي بدافع استزاده ثقافتي إلى غرف التحرير في صحيفة كبيرة ، ولكني لم أشعر بالراحة هناك فلم استطع تحملها لاكثر من ربع ساعة . ومع ذلك لا ينبغي أن أقول الكثير عن ميونخ ، فقد لازمني تأنيب الضمير طيلة الفترة التي امضيتها فيها ، ففي ميونخ يعيش الكثير ممن كانوا في وقت ما قريبين مني جداً ويعرفونني جيداً ، وكنت احبهم جميعاً وكان عليّ حقاً زيارتهم ، إلاّ أن هذا سيكون ذا وطأة ثقيلة على نفسي ، ثم ما الذي كان سيحدث ؟ كان سيسألني ثلاثون شخصاً بطريقة ودية إن كانت الأمور تجري على ما يرام معي ، وعما أفعله ، وفيما إذا كنت قانعاً بحياتي ، وبصحتي ، بنشاطاتي ، وغيرها من الأسئلة المشابهة المؤلمة ، وسيكون علي أن أجلس أمامهم مبتسماً أهز رأسي تحية وذلك أمر مرهق على نحو مرعب . ورغم هذا فقد رأيت بعضاً ممن اعتبرهم

أصدقاء حقيقيين ، ولكن ليس في منازلهم مع زوجاتهم ، ووسط أطفالهم أو في أماكن عملهم ، بل التقينا بفرح في المساء في قبو ما ونزل حيث نستطيع أن نناقش الكساد الاقتصادي ونحتسي نبيذ فالدومر وافنتالر ونتحدث عن الأعوام المبكرة ، وعن الاصطياف على بحيرة كونستانس وعن الرحلات الى ايطاليا ، وعن الاصدقاء الذين ماتوا في الحرب ، خلال هذه الأيام لم يكن مزاجي جيداً على نحو خاص ، ليس لانني فقط قد سئمت كثيراً جداً من الأدب ومستعد لتقديم أي شيء مقابل عدم الذهاب الى نورمبرغ ، ولكن كانت هنالك أسباب أخرى كذلك .

كانت رحلتي تقترب ببطء من نهايتها ، ففي خلال ستة أسابيع اتخذت طريقي الى هنا مـن تسينو ، إلى محطتي الأخيرة تقريباً ، وأنا مستمر على الطريق ، دون أن أملك فكرة واعية عنها ، ويشغل قلبي سؤال : ما الذي سيحدث الآن ؟ وما الذي اكتشفته في رحلتك ، وما الذي حققته ؟ وهل ستكون قادراً على العودة الى عملك والى صومعتك لتجلس في مكتبتك وحيداً مع عينيك المتوجعتين أو هل ستشرع بعمل شيء اخر ؟ وما زال هذا السؤال للإجابة . لقد أديت القراءات وتمتعت بالأحـاديث المتدفقة والقلبية مع الأصدقاء ، وشربت هنا وهناك النبيذ الجيد وقضيت ساعات جميلة في جو دافيء حميم؛ وفي هذه الاثناء اجبرت نفسي أن تحتمل الذي لا يطاق وللحظات مرت نسيت نفسي وأنا اتطلع الى العمارة القديمة (وقد غلبتني النشوة لساعات أمام القناطر القوطية المتشابكة) ، وكذلك في أوقات قليلة من لحظات تعب السفر ، بعد أن أكون قد تبادلت أحاديث كثيرة جداً ، كنت أشعر بحنين خاطف الى صومعتي البعيدة ـ ولكن لا شيء تغير أو استقر . ازداد احساسي بوطأة هذا الوضع أكثر فأكثر ، فما أن انهيت ـ اخيراً ـ رحلتي الـــى

نورمبرغ ، إلاّ وأنا في وضع نفسي لا يتقبل أيّ شيء ولم أكن شاعراً بالإمتنان ، ولم تكن حقيقة اني قد ذهبت الى هناك لتغير من الأمر شيء ، إذ أنني فكرت أن عليّ ان استجمع البطولة الحمقاء الضرورية لذلك بدلاً من أن اعتق نفسي ببرقية . كان امراً ينبغـي أن أكفر عنه الآن ، لأن نورمبرغ كانت خيبة أمل كبيرة لي .

غادرت في يوم موحش ، تمازج فيه الجليد والمطر وسافرت عبر اوغسبورغ مرة أخرى ، ورأيت الكاتدرائية وكنيسة سانت مورتيس تلوحان من بعيد فوق المدينة ، ثم وصلنا إلى ريف مجهول لي ، وفي آخر المدى ، امتدت امامي أراضٍ قفرة ، وعرة ، غيرمأهولة ، وغابات الصنوبر العظيمة ، وكانت قمم الأشجار تهزها عاصفة ثلجية . كان ذلك رائعاً يكتنفه الغموض إلاّ أنه بالنسبة لجنوبي مثلي كان أيضاً خانقاً مثيراً للإزعاج . فكرت مع نفسي ، فيما لو واصلت الرحيل في هذا الاتجاه ، فإنه مما لا شك فيه أن أشجار الصنوبر ستظهر أكثر فأكثر ، وسيظهر الثلج أكثر فأكثر وربما لايسك وبرلين وبعدها في الحال ستظهر سبيتسبرغن والقطب الشمالي. اوه ، يا الهي العزيز ما الذي كان سيحدث لو أني كنت قد قبلت دعوة الذهاب الى درسدن ! لاأستطيع تصور ذلك . فالرحلة كانت ، طويلة للغاية ، طويلة بشكل مرعب ، وقد شعرت بالفرح حين وصلت الى نورمبرغ ـ وفي سري كنت قد توقعت كل انواع المعجزات في هذه المدينة القوطية ، وأملت في رؤية اشباح (إ،ت،أ هوفمان) و(فاكنرودر)، ولكن لاشيء من هذا القبيل قد حدث . فقد تركت المدينة لديّ انطباعاً بغيضاً ، ولا اعتقد انها وحدها هي الملومة عليه دون نفسي ، فقد رأيت حقاً مدينة قديمة فاتنة ، أكثر غنى من أولم ، وأكثر غرابة من أوغسبورغ ، شاهدت سانت لونس ، وسانت سيبالد ، ورأيت الراثهاوس

والفناء الذي يقف فيه ذلك النبع الساحر بشكل لا يصدق شاهدت كل هذا وكان في غاية الجمال ، إلاّ إنه كان محاطاً تماماً بمدينة تجارية ، كبيرة لا انسانية، ملأى بمكائن لا يهدأ ضجيجها ، وعربات تشق طريقها على نحو ملتو ، كل شيء فيها يهتز غير مدرك لسرعة ايقاع الزمن المختلف ، زمن لا يعرف كيف يبني القناطر المتشابكة أو يشيد ينابيع بديعة تشبه الأزهار في الفناءات الساكنة - يبدو إنه مستعد للانهيار في الساعة المقبلة ، لأنه لم يعد يملك غاية أو روحاً . أية أشياء جميلة ، فاتنة رأيت في هذه المدينة المجنونة ! لم تقتصر على المناظر المعروفة، والكنائس ، وينابيع المياه ، ومنزل دورير ، والقصر ، بل أيضاً كم هائل من تلك الأشياء الصغيرة العرضية التي هي حقاً أكثر اهمية لي . كالصيدلية التي تحمل لافتة «الكرة الأرضية» والتي اشتريت منها مستحضر غسيل جديداً لعيني ، وكالمبنى القديم المتين والجميل الذي يعرض على واجهته تمساحاً محشواً خرج تواً من بيضته مع القشرة ،وقد عرضت اشياء اخرى من مثل هذه ،ولكن لا شيء من ذلك كله كان مصدر ابهاج لي . فقد رأيته من خلال الغازات التي تنفثها المكائن اللعينة ، كل شيء قد استهلك ، كل الأشياء هنا تنبض بحياة لا يمكن أن أصدق أنها انسانية ، ولا يمكن أن تكون إلاّ من صنع الشيطان ، كل شيء متهيء للموت ، مستعد أن يتحول الى رماد ، يتوق للأنهيار والفناء ، مشمئز من العالم ، يأكله السأم . فالوجود بلا غاية ، والجمال بلا روح . وحتى المحبة التي استقبلوني بها في النادي الأدبي ، وتنهيدة الراحة التي اطلقتها بعد انتهاء آخر قراءة لي (الأخيرة لزمن طويل قادم ، وربما تكون للأبد) ، حتى هذه لم تكن ذات جدوى . كل شيء كان يفتقد اسباب الراحة . ففي الفندق ، لم يتمكن جهاز التبريد البخاري المفرط النشاط من اشاعة البرودة طيلة الليل ، ولم يكن من الممكن ترك النافذة مفتوحة بسبب ضجيج حركة المرور في

الطرقات ؛ وفي الغرفة أيضاً ، كان ذلك الجهاز الدنيء ، الهاتف قد سرق مني آخر ساعة نوم صباحية ، بعد أن قضيت ليلة طويلة أعاني فيها من آلام لاتطاق . أيها الناس ، لم تعذبونني ، الأحرى بكم ان تمنحوني موتاً سريعاً !

في تلك الأثناء ، تقبل الرقيب الذي في داخلي كل هذه الاكتشافات بهدوئه المعتاد وودّ أن يعرف هذه المرة فقط فيما إذا كان الرفيق سينفجر أم سيواصل رغم كل شيء . فالرقيب الذي في داخلي (وهو كائن لا ينتمي الى شخص هذا الرواي) ليس له علاقة بالأفراح والآلام العرضية للشاعر المرتحل سوى ان يلحظها . فهذا الرقيب كان حاضراً وسيتحدث في زمن آخر بتعابير أكثر واقعية عن هذه التجارب . وأما اليوم فلن يتحدث سوى الصادح المرتحل ، الرجل العرضي في داخلي الذي يشعر ويعاني ممّا هو عرضي.

في نورمبرغ ، شعرت بنفسي أنني في التسعين من العمر وأنني على شفا الموت ، ولا أملك أمنية أخرى سوى أن أتوارى تحت التراب ، ولكن في الوقت نفسه صرت على اتصال وثيق بالشباب ، وقد سبب لي ، أحدهم «وكان طالب ثانوية أو كلية » احراجاً ، فقد طلب مني أن أكتب شيئاً له في كتابه ، وعندما لم يخطر في بالي شيء (وما الذي يمكن أن يخطر لي في مثل هذه الظروف؟) ، اقترح أن اكتب بعض الكلمات الإغريقية ، التي اقتبسها من العهد الجديد وظهرت في أحد مؤلفاتي . فطوال عشرين عاماً لم أرسم أيا من الحروف الاغريقية ، والله يعلم كيف ظهر هذا الاهداء ! شاب آخر قضيت معه أطول جزء من ساعات نورمبرغ القصيرة تلك وتمتعت بصحبته ، كان شاعراً . وكان قد نال مسبقاً تعاطفي معه في زمن مضى ، بسبب مقالة حاذقة كتبها عني وصف فيها بشكل ممتاز عبث محاولاتي الشعرية وسببها ، من ناحية ، وبسبب مؤلف صغير كان بطله الشاعر كرابه ، والذي كان يتمتع بسحر أصيل، من

ناحية. أخرى ذهب هذا الشاب في ارجاء نورمبرغ بصحبتي ،وصبر على الجلوس معي في الحانات طوال المساء ، ورغم أنه نفسه كان ممسكاً عن الشرب، وبوجهه الانيس ويديه الصغيرتين الرقيقتين ، بدا لي للحظات ملاكاً عُيّنَ ليحميني من الشر في هذه المدينة الغريبة.

ورغم هذا ، فقد بقيت هناك عاجزاً وتائهاً تماماً. شيء واحد فقط كان واضحاً امامي ، وهو الرحيل بأسرع ما يمكن . وكالمعتاد ، لدي صديق في ميونخ من الاصدقاء الطيبين الذين يمكن الاعتماد عليهم ، ابرقت اليه اخبره انه من المستحيل أن أحتمل البقاء في نورمبرغ وله أن يتوقع حضوري في ميونخ في القطار السريع القادم. حشرت أشيائي بشكل أو بآخر في حقيبتي ، وبشكل أو بآخر فررت بنفسي خارج الفندق الى المحطة ، ورحلت بعيداً عن نورمبرغ ، مسحوقاً ولكن فرحاً لانعتاقي ؛ وما زالت المدينة في نظري مدينة مكرسة للدمار . كان قطاراً جيداً لم يتوقف في الطريق الى ميونخ . إلاّ أن الرحلة استغرقت وقتاً طويلاً جداً وتحملتها بصعوبة جمة لحين وصولي الى المدينة ، مثل كهل في التسعين مـن العمر ، بعقل مشوش ، وعينين ملتهبتين، وركبتين ملتويتين . وربما كانت تلك من افضل لحظات رحلتي . ها أنا في ميونخ ثانية ، ما أزال حياً ،تركت كل شيء خلفي ، ولا احتاج ابداً قراءة النصوص أمام الجمهور ثانية . في المحطة وقف صاحبي ، ضخماً وقوياً ذا عينين ضاحكتين ، حمل حقيبتي الصغيرة ؛ وتجنب القاء الأسئلة والاستفسارات الطويلة ، وأخبرني أن أصدقاء لنا ينتظروننا في قبو للخمر . كنت افضل الذهاب الى الفراش ولكن قبو الخمر كان جيداً أيضاً ، فوافقت .كانت تجلس مختلف شخصيات الأدب والنقد عند الطاولة في انتظارنا وقد قدم لنا خمر الموزلية الرائع بحق ، واستمعت الى الحوارات والنقاشات الشيقة وكنت في منتهى الرضا لأن ذلك كله لم

يمسني على الاطلاق ، ولم يتطلب مني عمل شيء ، إنه ببساطة امر ممتع . كان بإمكاني الجلوس هناك متأملاً كل تلك الوجوه المنفعلة الذكية وأنا احتسي الموزلية وأشعر بالنعاس وهو يقترب ، وإذا شئت ، فبإمكاني البقاء في الفراش الى اليوم التالي ، ليوم كامل ، لعام ، لقرن ، ليس بمقدور أحد أن يطلب أي شيء مني ، لا قطار سكة حديد سيصفر لي، ولا منصة مضاءة يزينها ابريق ماء. ولن يتوجب علي الكتابة بالإغريقية أو اي نوع آخر من الأحرف الابجدية.

بقيت بصحبة صديقي لبضعة أيام ، كنا فيها خارج المدينة تماماً في حي ريفي ، من أجل أن استعيد نفسي ولاقرر كيف اخطط لرحلة العودة . في هذه اللحظة استيقظ وعي لديّ ، أو على الأصح بريدي هنا . فوصل فيض من الأوراق شغلني لايام عديدة ، ومن بين جميع المواد غير المهمة كان يوجد أيضاً شيء ذو اهمية ، رسالة طويلة للغاية من ذلك الشاعر الشاب الذي اضطررت أن ارجع مخطوطته اليه. ففي ذلك الوقت تركت رسالة التملق الواضحة الزيف تماماً التي ارسلها انطباعاً كريهاً جداً لدّي ، ولكن الآن ابهجني بصدقه الذي لا يضاهي عندما جعلني أعلم ، بحقائق بسيطة اختارها بقوة وبعاطفة ، كم كنت ابدو له دائماً اخرقاً فوق الوصف ، وغبياً ، وبغيضاً . احسنت ! ايها الزميل الشاعر الشاب استمر ! الصدق وليس الكلام المنمق ، هو ما ننتظره من الأدب الحديث .

نجحت في اغواء أعز اصدقائي البافاريين للخروج من قريته في شمال بافاريا ، وقضينا أمسية دافئة ما زلت اتذكرها بعرفان للجميل . والآن عدت انساناً خاصاً ثانية وكان لي موقف اكثر سذاجة تجاه الأدب فقد غامرت بفعل شيء لم افعله من قبل إلاّ نادراً في حياتي ، تقربت من بعض زملائي شخصياً ، وقضيت ساعة لم تكن بلا جدوى مع جوزيف بيرنهارت . فلا يستطيع

البروتستانتي والكاثوليكي أن يقرب أحدهما الآخر بحميمية أكثر مما فعلناه في تلك المناسبة . وامضيت أمسية مع توماس مان ، اردت ان ابين له ان حبي القديم لامثاله لم يختف ، وكذلك كانت لديّ رغبة أن أرى كيف تسير الأمور مع هذا الرجل الذي ينجز عمله بوعي وبعزة لا مثيل لها، وفي الوقت نفسه يبدو أنه يملك معرفة عميقة جداً بملابسات واحباطات مهنتنا . جلست عند مائدته حتى ساعة متأخرة من الليل . وكان يدير المناسبة ببراعة واناقة ، بمزاج رائق موشّى بلمسة مودة ولمسة مكر ، يحميه بيته الجميل ، وتدعمه مهارته وهيئته الجيدة . أشعر بإمتنان لتلك الامسية كذلك . وبعدها رغبت في روية كاتب المقطوعات المميزة في كتاب «البساطة الخالصة» «يوهيم رنكلناتس» . وفي الأمسية التي جمعتنا ، كان في منتهى اللطف ، شربنا فيها كل اصناف الخمر الجيد ، كنا سعيدين وحين انتهى اللقاء ، ذهبت إلى موقف عربة الترولي وعدت ، مكتفياً تماماً ومستعداً للنوم . في تلك الساعة كان عمل رنكلناتس قد ابتدأ وذلك امر لا احسده عليه .

في نمفنبورغ ، تلقيت عناية جيدة وكنت مدللاً ، بإمكاني أن أغسل عيني بماء بارد طيلة اليوم أو أن اتمشى جيئة وذهابا تحت الاشجار العتيقة الفخمة اراقب الاوراق اليابسة تتدافع بمرح في الريح ، رفيقاتنا الصغيرات ، الأوراق اللاتي كثيراً ما تطلعت اليهن بحزن ، وكثيراً ما نظرت اليهن وضحكت ، ومثلهن اندفع اليوم الى ميونخ ، وغداً الى زيورخ ، ثم اعود ثانية ، لأواصل البحث ، مكرهاً على الفرار من الألم ، مدفوعاً لإرجاء الموت مدة أطول بقليل تساءلت والغم يملأ نفسي ، لم يحمي المرء نفسه بهذه الدرجة ؟ أجبت ضاحكاً لأن هذه هي لعبة الحياة .

ولأن الضحك كان يبدو لي شيئاً رائعاً ومرغوباً فيه للغاية ، سألت صديقي إذا كان يوجد في ميونخ آنذاك أحد أولئك الممثلين الهزليين الاصيلين المشهورين كالذين كنت رأيتهم في فترات متقطعة . وبالفعل ، كان يعرف صديقي أحدهم ، ويدعى فالنتين . بحثنا عنه في الصحيفة ووجدنا أنه كان يعرض في مسرح صغير مسرحيته «الفرسان اللصوص في ميونخ» فذهبنا في إحدى الامسيات الى هناك ، وحتى الساعة العاشرة كانت تعرض مسرحية سترندبرغ في المسرح الصغير ، وبعدها جاء دور فالنتين . كان يمثل مع فرقة صغيرة «الفرســان اللصوص في ميونخ» مسرحية مدهشة ، قطعة استثنائية للهراء ، كان الغرض من هذه المسرحية هي اعطاء فالنيتن الفرصة ليتمشّى جيئة وذهاباً حاملاً سيفاً معقوفاً طويلاً ويفعل ويتفوه بالأشياء المضحكة . وأحياناً كانت ايضاً في منتهى الحزن للدرجة التي تجعلك تنتحب ، مثلاً ، الطريقة التي جلس فيها على جدار المدينة في برودة المساء يعزف على أكورديونه ويفكر بصباه ، وبالجرب ، وبالموت . أو حين قصّ باستغراق ولفترة طويلة جداً حلم ظهر كان هو فيه بطة ، وكان على وشك أن يأكل دودة طويلة . وقد عبر بشكل مذهل في هذا المشهد عن قصور الادراك الانساني في ابسط اشكاله، هذا الموقف المأساوي ، ايضاً ، مثل ذاك المشهد بمعية الأكورديون ، استقبله الحاضرون بقهقهات عالية. ابداً لم أرَ امرح من هذا الجمهور . كم يتوق الناس للضحك ! فمن امكنة بعيدة عن الضواحي ، يستعجلون المجيء في الطقس البارد ، يدفعون النقود ، وينتظرون فترات طويلة ، ولا يعودون الى منازلهم إلا بعد انتصاف الليل ، كل ذلك ليكونوا ـ فقط قادرين على الضحك . أنا أيضاً ضحكت من اعماق قلبي ، وكنت سأكون أسعد لو أن المسرحية قد استمرت

حتى الصباح . الله وحده يعلم متى ستسنح لي الفرصة لاضحك ثانية . كلما كان الممثل الهزلي ذو قدرة أعظم ، وكلما كان تقديمه لوضعنا الانساني الأخرق والمروع بعبارات أكثر رهبة واستعصاءاً ، كلما ازدادت حاجة المرء للضحك ! من بين الحضور جلست امرأة شابة خلفي ، وضعت كلا مرفقيها فوق كتفي . استدرت لأراها لانني ظننت انها ربما قد وقعت في غرامي ، إلا أنه كان الضحك فحسب ، فبسببه كانت تهتز كما لو أن الشيطان قد تملكها . وتنتمي ذكرى فالنتين إلى كنوز رحلتي .

أمضيت وقتاً طال أكثر مما ينبغي في ميونخ وعلى مائدة صديقي ، صرخت مخاطباً ، كن رجلاً ، وقرر الرحيل . إلاّ أن الحال الآن لم تكن كما كانت من قبل في لوركانو. فلم يكن من السهل قول الوداع ولم اكن راحلاً الى العالم ولن اتمكن من النظر الى الوراء وأنا أشعر بالتفوق على من تركتهم ورائي ، فأنا الآن عائدٌ الى القفص ، إلى الصقيع ، إلى المنفى . حسناً ، أعرف فالورقة تصارع كي تحمي نفسها في خضم الريح ، ولكنها رغم هذا ـ يجب ان تذهب اينما شاءت الرياح ، فأين سأذهب الآن ؟ وكم من الأيام سأنجح في تأخير عودتي الى الوطن ؟ ربما سأواصل الترحال لزمن طويل ، ربما طيلة الشتاء وربما بقية حياتي . وفي كل مكان سأجد في النهاية هذا الصديق أو ذاك وسنجلس لنحتسي النبيذ في واحدة من الاماسي ، وهنا وهناك سألتقي في احدى ساعات الغسق بمباهج ومقدّسات شبابي ، وفي كل مكان سأكون حراً وليس فقط أن أحزن للريح الباردة والأوراق المتدامعة بل حراً لأضحك ، وربما ورغم كل شيء ، وكما اخمن من آن لآخر ، توجد ملامح لشخص فكاهي في داخلي في حالته أكون أنا في موقف قوي . فهو بالأحرى لم يتشكل تماماً بعد ، لأني لم أمر حتى الآن بما يكفي من الأوقات العصيبة.



الإنتقال إلى منزل جديد

١٩٣١

لا يعني الانتقال إلى منزل جديد بداية شيء جديد فقط بل يعني كذلك التخلي عن شيء قديم . واشعر في هذه اللحظة ، وأنا أنتقل اليه ، بإمتنان من أعماق قلبي للصديق الكريم الذي منحنا إياه ، وأفكر بفضله وبصداقته المتجددة وبالأصدقاء الآخرين الذين اجتمعوا ليساعدوا في بنائه وفي تأثيثه . ولكني لن أكون قادراً على كتابة خطاب عنه ، وتقديمه في قصة ، وامتداحه وغناء أغنية له. فكيف يؤلف المرء الكلمات وينشد الأغاني في الخطوة الأولى من مشروع حديث ، وكيف يحتفل المرء بالنهار قبل قدوم المساء ؟ ونستطيع بالتأكيد ، في الأهداء للمنزل الجديد ، أن نبقي الآمال في قلوبنا ونحث أصدقاءنا أن يحملوا في قلوبهم أمنيات غير معلنة للمستقبل ولحياتنا . ولكن لن يكون بإمكاني أن أقول شيئاً عن ذلك المنزل ، وأقدم الأخبار الحقيقية عنه ، وأن أبوح بأية صلة تتكون معه إلاّ بعد عام وبعد يوم.

إلاّ أني أستطيع ، بل ينبغي علي ، ونحن ننتقل إليه ، أن أتذكر المنازل الأخرى التي منحت حياتي وعملي في الأيام الماضية الدفء والأمان. أشعر بالإمتنان لكل منزل من هذه المنازل فكل منها يحفظ لي ذكريات لا حصر لها ويساعد حين استعيد الماضي في منح الزمن الذي عشت فيه هناك ، وجهاً خاصاً

به . لذا ، وكما يتحدث الناس في الاجتماعات العائلية النادرة عن الأيام الخوالي ويتذكرون الموتى ، أود اليوم أن أذكر نفسي بكل أسلاف منزلنا الجميل ، واستدعي كل صورهم في ذاكرتي ، وأخبر أصدقائي عنهم.

مع أني نشأت في منازل عتيقة لها هوية مميزة إلاّ أنني كنت في صباي سيء التربية ، فوضوياً ، مستغرقاً في نفسي إلى حد أنني لم أكرس أى اهتمام يذكر أو أعطي محبتي للمنزل وإلى الغرفة التي اعيش فيها . ورغم أنها لم تكن مسألة لامبالاة بمنظر غرفتي في ذلك الوقت على الإطلاق ، وإنما الذي يهمني من مظهر الغرفة التي أشغلها ما أضيفه أنا اليها فقط . لم يكن يهمني أو يفرحني أبعاد الغرفة ، جدرانها ، زواياها ، ارتفاعاتها ألوانها ، أرضها ، لأن الأشياء التي أجلبها معي وأبعثرها وأعلقها وأضعها حولي هي ما كان يعنيني من الغرفة.

ولا علاقة للذوق أو الزخرفة بالطريقة التي يزين فيها صبي في الثانية عشرة من عمره غرفته الأولى ويجعل منها خاصته ، فدافع مثل هذا التزيين يكمن في أمر أعمق بكثير من مسألة الذوق وحدها . لذا فحين امتلكت بفخر في سن الثانية عشرة أول غرفة خاصة بي في منزل والدي الفسيح لم أحاول أن أقسم أو احتل الغرفة العليا أو أن أجعلها جميلة وملائمة للعيش من خلال الألوان او ترتيب الاثاث، ولم أبال بموقع السرير ودولاب الملابس ، وهلم جرا ، بل ركزت على بضعة أشياء في الغرفة لم تكن بالنسبة لي مجرد وسيلة من وسائل الراحة بل ملاذات . وكان أهمها منضدتي القائمة التي تمنيت امتلاكها منذ فترة طويلة وقد جلبوها لي الآن . كان أهم ما في هذه المنضدة هي المساحة الفارغة تحت غطائها المائل حيث كنت أبذل ما بوسعي لأنظم مخزناً يضم نوعاً من التذكارات السرية، وأشياء لا يحتاجها المرء ولا يمكن شراؤها ، أشياء ذات قيمة تذكارية وجزء منها ممتلكات سحرية بالنسبة لي وليس للآخرين . ومن بين

هذه الأشياء جمجمة لا يعرف أصلها لحيوان صغير ، أوراق جافة ، قدم أرنب ، قطعة زجاج سميك أخضر ، والعديد من مثل هذه الأشياء التي تقبع متوارية في شفق كهفها تحت غطاء المنضدة ، فممتلكاتي وأسراري ، التي لا يراها ويعرفها أحد لها قيمة عندي أكبر من أي شيء آخر أملكه . ويأتي في المرتبة الثانية من الأهمية بعد هذا الكنز السري سطح المنضدة ، ولا علاقة للمسألة هذه بالسرية التامة بل بالتزيين والإستعراض والتفاخر. فبدلاً من إخفاء الأشياء والمحافظة عليها، كنت ارغب في عرض ما كان يتمتع بالجمال وقوة التأثير والتبجح بـه: باقات زهور، أجزاء من الرخام ، صور وأنواع أخرى من اللوحات المعروضة. وكانت أقصى أمنية لي هي أن أحوز على قطعة تمثال أعرضها هنا ، لا يهم نوعه، طالما كان عملاً فنياً ذا ثلاثة أبعاد ، أي جسد أو أيّ رأس ، كانت هذه الرغبة من القوة لدرجة أني سرقت ذات مرة ماركاً واشتريت بثمانين بفنغ[1] تمثالاً نصفياً صغيرا من الطين المفخور لقيصر ولهلم الصغير، كان يصنع على نطاق واسع ولا قيمة له .

إن توق صبي الثانية عشرة ذاك ظل حاضراً في سن العشرين فمن بين أول الأشياء التي اشتريتها حصلت عليه من عملي كصبي عند بائع كتب في توبنجن كان قالباً جصياً كتمثال نصفي لهرميز[2] ، من صنع براكسيتليس[3] .

وفي الغالب أنني لن أكون قادراً اليوم على احتمال وجوده في أية غرفة. وفي الوقت نفسه كان لا يزال يغمرني شعور دافق كهذا الذي يحس به صبي أزاء

---

(١) البفنغ ـ جزء من مئة من المارك الألماني

(٢) هرميز ـ رسول الآلهة عند الإغريق ، وإله الطرق والتجارة والاختراع والفصاحة والمكر واللصوصية.

(٣) براكسيتلس ـ نحات اثيني (٣٥٠ ق.م) ، ما بقي من أعماله فقط هو (هرميز مع الطفل ديونيسوس) المصنوع من الرخام .

تمثاله النصفي بكل ما يمثله من سحر النحت الفطري ، المحاكاة الملموسة والمحسوسة للطبيعة ، لذا من الصعب تسميته تطور حقيقي في الذوق حتى لو كان شكل هرميز أكثر مهابة من تمثال القيصر النصفي . يجب أن أشير أيضاً إلى أنني في الأعوام الأربعة التي قضيتها في توبنجن لم يستمر اهتمامي خلالها بالمنزل والغرفة التي كنت أعيش فيها فقد اقمت في شارع هرنبرجر بغرفة هيأها لي والديّ حين ذهبت الى توبنجن : كانت غرفة معتمة وكئيبة في طابق أرضي لمنزل موحش وقبيح يقع في شارع لاجاذبية فيه . إلاّ أنني لم أعانِ البتة من مكان السكن هذا رغم تحسسي للجمال في أوجه عديدة . ولم يكن بالضبط «مكاناً للسكن» طالما كنت أعمل في المكتبة من الصباح الباكر حتى الليل ، وحين أعود الى البيت يكون الظلام قد حل ولا أرغب عندها بشيء سوى أن أبقى وحدي ، أن أكون حراً لأقرأ أو أنجز عملاً . لم أكن أفهم انذاك بعد أن غرفة «جميلة » تعني غرفة جذابة بل كانت تعني لي على نحو أدق غرفة مزخرفة فقط . لذا فقد هيأت الكثير من الزخارف وثبت على الجدران أكثر من مئة صورة لأشخاص أكنّ لهم الإعجاب لسبب أو لآخر ، وبعض الصور الفوتوغرافية الكبيرة الحجم ، وأخرى صغيرة قصصتها من مجلات دورية مصورة ومن فهارس الكتب التي يصدرها الناشرون وظلت هذه المجموعة تتنامى باستمرار خلال هذه السنوات. فما زلت أذكر بوضوح تام كيف دفعت بأسف مبلغاً مرتفعاً ـ نوعاً ما ـ لثلاث صور كانت الأولى فوتوغرافية تخص الشاب جيرهارت هاوتمان الذي قرأت كتابه «هانيله» في ذلك الحين والصورتين الأخريين لنيتشه ؛ الأولى صورة مشهورة له بشاربه الطويل ونظرته التي يحدق فيها إلى الأعلى ، وأما الثانية فصورة مرسومة بالألوان الزيتية التي تظهره راكباً كرسياً للمقعدين في الهواء الطلق ، وهو ينظر نظرة غارقة في الحزن وخالية من

أي تعبير . كثيراً ما كنت أقف أمام تلك الصورة متفحصاً إياها. كانت توجد أيضاً صورة هرميزي وأكبر استنساخ لصورة شوبان استطعت الحصول عليه ، وبجانب كل ذلك علقت على منتصف الجدار فوق الأريكة وعلى طريقة التلاميذ المعتادة ، ترتيباً متناسقاً للغلايين . وكان لي منضدة قائمة في هذه الغرفة أيضاً ، وفي مخائبها السرية كان السحر والغموض لكنوز ما تزال هناك ، والتي ظلت الملجأ السهل الحصول عليه دوماً فقط من العالم الخارجي الكئيب إلى مملكة السحر ؛ والفرق فقط لم يكن وجود الجماجم هناك وأقدام الأرنب وشجر كستناء الحصان الاجوف ، واجزاء من الزجاج ، بل توجد بدلاً منها ، قصائــدي ، وخيالاتي، ومقالاتي ، مدونة فــي الدفاتر وفي أكداس من الورق المبعثــــر .

في مطلع عام ١٨٩٩ غادرت توبنجن إلى بازل وكنت في الثانية والعشرين من عمري وهنالك وللمرة الأولى شعرت بعلاقة جادة حيوية تربطني بالفنون التخطيطية : فبعد أن كنت مكرساً ما أملك من الوقت خلال الفترة التي قضيتها في توبنجن إلى الشؤون الأدبية والفكرية على وجه الحصر ، وخاصة إلى إندماجي مع غوته أولاً ومن ثم نيتشه كما لو كنت ثملاً أو مأخوذاً . فقد تفتحت عيناي في بازل وتيقظت حواسي وسرعان ما صرت مراقباً لبيباً بفن العمارة والرسم . وكانت دائرة الناس الصغيرة هنا التي اعتنت بي وساهمت في ثقافتي مشبعة تماماً بـ «ياكوب بوركهات» الذي توفي قبل فترة قصيرة والذي احتل في النصف الثاني من حياتي مكاناً كان يخص نيتشه في السابق . وهكذا حاولت للمرة الأولى في السنوات التي قضيتها في بازل أن أحيا باسلوب فيه ذوق ورقي، حيث استأجرت حجرة جميلة أخاذة لها ماضٍ في منزل من منازل بازل القديمة. كان فيها فرن حراري فخاري كبير وقديم إلا أن الحظ لم يحالفني

فيها ؛ فقد كانت بحد ذاتها رائعة ولكنها لم تمنحني الدفء أبداً ، رغم وجود الفرن القديم الذي كان يستهلك كميات هائلة من الخشب. إضافة إلى ذلك كانت عربات الحليب وعربات السوق القادمة من «البان كيت» تمر من تحت النافذة ابتداءً الساعة الثالثة صباحاً محدثة فوق الشارع المرصوف بالحصى الذي كان يبدو شارعاً جانبياً هادئاً ، وكانت تسرق النوم من عيني . فما كان مني بعد فترة وجيزة إلاّ أن أفر هارباً مغلوباً على أمري إلى حجرة لطيفة في ضاحية حديثة.

وعندها ابتدأ زمن من حياتي لم أعد أعيش فيه بغرف تأتيني عرضاً ، متنقلاً من واحدة الى أخرى في كثير من الأحوال ، بل أعيش في منازل أصبحت عزيزة عل قلبي ومهمة لي . وفي السنوات التي تقع ما بين زواجي الأول في عام ١٩٠٤ وانتقالي الى «كازابودمر» في عام ١٩٣١ عشت في أربعة منازل مختلفة بنيت منها واحداً بنفسي . ينبغي أن أستعيد ذكر الجميع اليوم.

في تلك الفترة ، لم انتقل الى منزل قبيح أو حتى إلى واحد من ذوي السمات العادية ؛ وشاهدت الكثير من الفن القديم ، وذهبت إلى ايطاليا مرتين ، إضافة إلى أن حياتي كانت قد تغيرت واغتنت بطرق أخرى : فقد قررت عند تركي لمركزي السابق ان اتزوج وأن أعيش نهائياً في الريف من الآن فصاعداً . كان لزوجتي الأولى دور كبير في اتخاذ هذه القرارات إضافة إلى اختيار المكان والمنازل التي كنا سنعيش فيها ، فقد عزمت أن تحيا حياة بسيطة مفعمة بالضجة في أحضان الريف بحد أدنى من الضروريات، رغم أنها كانت تؤكد كثيراً على العيش بشكل جميل بجانب البساطة ، أي أن تحيا في منازل ملائمة ، وقورة وفي طبيعة خلابة ومنظر جذاب. وبإختصار كانت تود العيش في منازل غير

مألوفة إلا أنها تتسم بالروعة والتميز . كان حلمها الأعلى أن تعيش في بيت صغير نصف ريفي ، يشبه قصر مالك المزرعة ، سقفه مكسو بالطحالب وتظلله الأشجار العتيقة . وإذا أمكن فعند الباب الأمامي كانت تحلم بينبوع متدفق . وأنا أيضاً ملكت بالضبط مثل هذه الأحلام والأمنيات وذلك أيضاً كان بفعل تأثير «ميا». لذا فما كنا نتطلّع اليه كان إلى حد ما مقرراً مسبقاً. في البدء بحثنا في القرى الجميلة القريبة من بازل ومن ثم ونتيجة لزياراتي الأولى إلى أميل شتروس في اميسهوفن ، فكرنا في بحيرة كونستانس ،وفي النهاية بينما كنا في البيت بكالف مع أبي واختي أكتب (تحت العجلة) ، عثرت زوجتي في قرية «جاينهوفن» المطلة على «اونتزي» ووجدت فيها منزلاً ريفياً شاغراً يقع في ساحة صغيرة هادئة أمام كنيسة القرية . وافقت عليه واستأجرنا المنزل مقابل مئة وخمسين ماركاً في السنة ،وقد بدا لنا هذا المبلغ حتى في ذلك الوقت مبلغاً زهيداً . وفي ايلول ١٩٠٤ ، بدأنا في الاستقرار هناك ، ولكن في البداية أصبنا بالخيبة والاحباطات نتيجة انتظارنا الطويل للاثاث والأسرة الضائعة التي كان من المفروض أن تأتي من بازل والتي كنا نبحث عنها اليوم تلو الآخر في السفينة الصباحية القادمة من شافهاوزن. بعدها بدأنا باحراز تقدم تصاعد حماسنا معه حيث طلينا باللون الاحمر الداكن الواح الدعامات الخشبية الملس في الحجرة الكبيرة بالطابق الثاني ؛ وأما غرفتا الطابق السفلي فكانتا أجمل ما في المنزل ، مكسوتان بألواح خشب الصنوبر العتيقة غير المطلية إضافة لوجود المدفأة الكبيرة المدعوة «بالاختراع »: وهي عبارة عن جزء من الجدار يعلو دكة خشنة مكونة من قرميدات خضراء قديمة كانت قد تسخنت بنيران موقد المطبخ، وكان هذا المكان هو المكان الأثير لقطنا الأول ، الهر الوسيم «جاتا ميلاتا». وهكذا كان بيتي الأول . وبطبيعة الحال ، فإننا لم نستأجر سوى نصف البناية ، فالنصف

الآخر كان يتضمن مخزن الغلال ومربط الحيوانات في الحظيرة التي احتفظ بهما مالك المزرعة لاستعمالاته الخاصة . إن أمكنة المعيشة في هذا البيت المكسو نصفه بالخشب تحتوي في الطابق الأرضي على مطبخ وغرفتين ، أكبرهما كانت مزودة بمدفأة قرميدية كبيرة وكنا نستعملها كغرفة معيشة وغرفة نصف الجدار حيث يشيع جو من الدفء والراحة ، وأما الغرفة الأصغر المجاورة لها فهي تعود إلى زوجتي إذ يوجد هناك بيانها ومنضدتها وسلم بدائي من الخشب يقود الى الطابق العلوي حيث تتناظر مع غرفة المعيشة حجرة كبيرة لها نافذتان تحتل الزوايا من خلالها. كان بإمكاننا أن نرى فيما وراء الكنيسة جزءاً من البحيرة والشاطيء وهذه الحجرة كانت مكتبي الذي يضم منضدة كبيرة صنعتها بنفسي وما زلت احتفظ بها حتى اليوم ، وهي القطعة الوحيدة الباقية من أثاث تلك الأيام ؛ ومرة ثانية صرت أملك منضدة قائمة إضافة إلى جدران مرصوفة بالكتب . وكان على من يدخل هذه الغرفة أن نيتبه جيداً إلى العارضة المشيدة التي تمثل عتبة الباب ؛ وكل من يغفل ذلك سيصطدم رأسه باطار المدخل الواطيء ، وقد حصل هذا لكثير من الداخلين . ففي الزيارة الأولى للشاب «شتيفان تسفايج» استلقى ربع ساعة قبل أن يسترد وعيه ويستطيع التكلم، فقد دخل بسرعة كبيرة وتحمس أكبر للدرجة التي لم تتسنّ لي فرصة تحذيره منها، وفي هذا الطابق أيضاً توجد غرفتا نوم وعليه كبيرة تعتلي الطابق كله . ولم يكن لهذا المنزل حديقة فقد كان هناك مساحة صغيرة من العشب وشجرتان أو ثلاث من أشجار الفاكهة الضئيلة ، ورقعة صغيرة حفرتها أنا بمحاذاة البيت للعنب الأحمر ولزهرات قليلات.

عشت لمدة ثلاثة أعوام في هذا البيت جاء إلى العالم خلالها ابني الأول، وكتبت العديد من القصائد والقصص القصيرة ويوجد في مؤلفي «كتاب

الصور، وفي أماكن أخرى مشاهد كثيرة من حياتنا في ذلك الوقت . هذا البيت أعطاني شيئاً لم يمنحني إياه أي بيت سكنته من بعد وهذا ما جعل هذا المنزل الريفي عزيزاً وفريداً في نظري : فقد كان أول بيت عشت فيه ! وأول مأوى لزواجي الفتي ، وأول مشغل حقيقي لمهنتي. ففيه راودني للمرة الأولى احساس بالاستقرار، ولهذا السبب ذاته كان ينتابني أحياناً شعور بالحبس وبأني محاصر بالحدود والالتزامات. للمرة الأولى هنا أخذني الحلم الجميل بالخلق والانجاز في مكان اخترته بنفسي نوعاً من المأوى والذي اتخذ هيئته بوسائل بدائية زهيدة ، فقد وضعت مسماراً بعد آخر في هذه الجدران ، ولم اشتر أياً منها وإنما أخذتها في صناديق التعبئة التي رافقتنا عند الانتقال الى المنزل ، هذه المسامير طرقتها الواحد تلو الآخر على طول درجة الباب الحجرية . حشوت الصدوع المشققة في الطابق العلوي بألياف الحبال العتيقة وبالورق ، وطليتها باللون الأحمر ، وقد حاربت التربة الرديئة جنب البيت ، والجفاف والظل من أجل زهرات قليلة. لقد نظمنا هذا المنزل بحماسة الشباب الرائعة ، وبشعور مسؤوليتنا الذاتية عن تصرفاتنا وبإيماننا بأن هذا البيت سيدوم لنا طيلة حياتنا وقد حاولنا أن نحيا في هذا الكوخ القروي نمطاً من الحياة الريفية ، والبسيطة ، النزيهة ، الطبيعية ، حياة لا علاقة لها بالحضارة ، ولا بالحداثة .وقد استمددنا الأفكار والمثل العليا التي اهتدينا بها من راسكين وموريس ومن تولستوي بالقدر نفسه . كان هذا نجاحاً من ناحية وفشلاً من ناحية أخرى ولكن لكلينا كانت حياة صادقة تماماً ، كل شيء كان يسير بولاء وبأخلاص.

تقف صورتان ، وتجربتان شاخصتان بحدة ووضوح في ذاكرتي حين اتذكر هذا المنزل والسنوات الأولى في جاينهوفن . الأولى من صباح يوم صيفي دافيء ومشمس ، صباح يوم عيد ميلادي الثامن والعشرين . استيقظت فيه

مبكراً ، جفلاً بل كدت أصاب بالهلع ، من أصوات غريبة تناهت اليّ ، فهرعت الى النافذة وهناك ، رأيت فرقة القرية الموسيقية للآلات الهوائية ،وقد جمعها صديقي أودفيج فينك من قريتين متجاورتين ، وكانوا يعزفون المارش واللحن الترتيلي ، وقد تلألأت ابواق ومفاتيح الكلارنيت تحت شمس الصباح . كانت إحدى هذه الصور التي ارتبطت بالبيت القديم ، وأما الأخرى فهي مرتبطة أيضاً بصديقي فينك . ففي هذه المرة أيضاً استيقظت من النوم إلا أن الوقت كان ما يزال في منتصف الليل ، ولم يقف تحت نافذتي صديقي فينك ، بل صديقي بوخرر، الذي اخبرني أن المنزل الصغير الذي كان قد اشتراه قريباً لودفيج فينك وأثثه لزوجته الصغيرة قد التهمته النيران. مشينا بصمت عبر القرية والسماء حمراء مثل الدم والبيت الصغير الساحر ، الجذاب الذي قد وسع تواً وطلي وأثث يحترق حتى آخر لوح خشبي في سقفه ، ومالكه كان في شهر العسل وسوف يصل غداً ليجلب عروسه الى ذلك البيت . كانت كومة الحطام ما تزال تحترق وتطلق الدخان ونحن في طريقنا إلى لقاء صديقنا لنستقبله هو وزوجته بالأنباء التعسة .

وشيئاً فشيئاً ، ودونما أسف ، ودعنا بيتنا الريفي ، لأننا قررنا الآن أن نبني بيتاً خاصاً بنا ، وقد دخلت مختلف الاعتبارات في هذا القرار . في الدرجة الأولى كانت الظروف الخارجية موأتية ،وحياتنا البسيطة الاقتصادية مكنتنا من جمع النقود عاماً بعد عام ، وأيضاً كنا في شوق الى امتلاك حديقة مناسبة وإلى مكان أكثر اتساعاً وعلواً ويطل على منظر أرحب . كذلك كانت زوجتي مريضة جداً ، وأيضاً كان هنالك الطفل ، لذا بدت وسائل الترف مثل حوض الاستحمام وجهاز تسخين الماء الحار لا ضرورة لها تماماً مثلما كانت قبل ثلاثة أعوام . وهكذا فكرنا وقلنا لانفسنا لو نشأ أطفالنا في الريف فسيكون من

الأجمل والأفضل لو فعلوا ذلك فوق ارضهم الخاصة ، وفي منزلهم الخاص ، وفي ظلال اشجارهم. لم أعد اتذكر كيف برزت لنا هذه الفكرة وكل ما أذكر أننا كنا في غاية الجدية بشأنها ، وربما لم يكن هناك شيء وراءها غير الإحساس الذي يتملك أصحاب المنازل من الطبقة الوسطى ، ورغم أنه لم يكن قوياً في كل منا . إلاّ إن السنوات الخصبة لنجاحنا الأول في النهاية قد افسدتنا ، وربما في هذه أيضاً ، يكمن شيء من مثل القرويين العليا ؟ لم أكن واثقاً تماماً من مثاليتي تلك حتى في ذلك الوقت؛ التي استمديتها من تولستوي ومن «يرمياس جوتهليف» وعززتها بتيارحركة مفعمة بالحياة على نحو جميل في المانيا تدعو للهرب من المدينة والحياة بين أحضان الطبيعة . وهي حركة ذات أسس اخلاقية وفنية ، وقد كانت بنود الإيمان الرائعة هذه والسيئة الصياغة في نفسي الوقت حاضرة في أذهاننا بالشكل الذي عبرت عنها فيه في «بيتر كامنسند». ولم أعد اعرف بالضبط ما كنت افهمه من كلمة «قروي» أما اليوم ، فأنااعتقد بأني لا أعرف شيئاً بمثل هذا اليقين من أني النقيض الكلي للقروي ، (وطبقاً لطبيعتي الفطرية) فأنا الهائم على وجهه ، الصياد ، الذئب القلق المتوحد . حسناً ، ربما لا يكون تفكيري آنذاك مختلفاً كثيرا عما هو عليه اليوم ، إلاّ إني وضعت صيغة أخرى شعرت بها هي «القروي ـ ساكن المدينة» بدلاً من وضع النقيضين «القروي ـ البدوي» . وأدركت حين كنت أعيش كقروي أن لا يعني البعد عن المدينة فحسب بل القرب من الطبيعة والأمان الذي يطبع الحياة التي لا يقودها العقل بل الغزيرة . ولم يقلقني على الإطلاق أن مثاليتي الريفية ذاتها لم تكن سوى مسألة عقل. تمتلك رغباتنا دائماً مقدرة مذهلة على التنكر وكأنها فلسفات للحياة . فلم يكن الخطأ في الحياة التي عشتها في جاينهوفن آنذاك وإنما يكمن جزئياً ـ في أني قد صارعت بوعي شيئاً يختلف تماماً عمّا تنزع اليه

طبيعتي الحقيقية. فلا يسعني القول كم مرة سمحت لنفسي أن تقودها فيما يخص هذا الشأن أفكار ورغبات زوجتي ميا ، رغم أن تأثيرها في تلك الأعوام الأولى ،وكما أرى الآن فقط وأنا أستعيد الماضي،كان أقوى مما كنت لأسلم به.

وباختصار ، فقد قررنا أن نشتري الأرض وبنينا عليها . وتصادف أن كان صديق لنا ،مهندسٌ معماريٌ من بازل موجوداً هنا ، وقد وفر لنا حمواي ، الجزء الأكبر من تكاليف البناء كقرض . وكان من الممكن آنذاك الحصول على أرض رخيصة في أي مكان ، وأظن ان المتر المربع يكلف اثنين أو ثلاثة كروشن. وهكذا في سنتنا الرابعة في بحيرة كونستانس اشترينا قطعة من الأرض وشيدنا عليها بيتاً جميلاً وقد اخترنا موقعاً خارج القرية تماماً يمنحنا حرية التطلع الى اونترزي كان بإمكاننا أن نرى الساحل السويسري، ورايخناو ، وبزج وكاتدرائية كونستانس، وأن نرى ما وراء الجبال النائية ، كان المنزل مريحاً أكثر من الذي تركناه وأكبر حجماً منه ، يحتوي على غرف للاطفال وللخدم وللضيوف ، وادراجاً وخزانات بنيت فيه ، ولم نعد بحاجة إلى جلب الماء من النبع كالسابق . فيوجد في المنزل مياه متدفقة ، ويوجد تحتها قبو للنبيذ وآخر لجعة الجذور وغرفة مظلمة للتصوير الفوتغرافي تخص زوجتي وغيرها كثير من وسائل الراحة . لكن بعد انتقالنا وجدنا الخيبات والمضايقات في انتظارنا فكثير ما كانت تمتليء البالوعة ويقف الماء القذر في مغسلة المطبخ متوعداً بالفيضان ، فنسرع أنا ورئيس البنائين الذي نستدعيه عل عجل ونستلقي على بطوننا أمام البيت نحرك بالعصي والأسلاك أنانيب التصريف التي حفرناها . ولكن ورغم ذلك كله فقد تحول الحال على وجه العموم الى الاحسن ومنحنا شعوراً بالسعادة وحتى لو عشنا حياتنا اليومية بالبساطة القديمة فسيبقى هنالك عدد من وسائل الترف التي ما كنت لاسمح لنفسي أن أحلم بها . ففي حجرة عملي

توجد خزانة للكتب مبنية في الجدار ومنضدة كتابة قابلة للطي ، وقد غطيت جميع الجدران بلوحات كثيرة ، وأصبح لدينا الآن عددٌ من الأصدقاء الرسامين، كما أنا قد اشترينا بعض الأشياء وتلقينا الباقي كهدايا ، وبدلاً من ماكس بوخرر الذي انتقل للعيش بعيداً ، عاش رساماان من ميونخ قريباً منا في الصيف ، وهما بلومل ورينر ، وقد احببناهما وما زلت اعتبرهما من عداد أصدقائي .

وقد فكرت بجهاز تدفئة ممتاز على نحو خاص ومترف لمكتبي ، مدفأة كبيرة من القرميد الاخضر من الممكن استخدام الفحم فيها للاحتراق البطيء ، وقد بذلنا جهداً جهيداً لاجل ذلك فقد اعدنا أثناء تشييدها حمولة عربة كاملة من القرميد الى المصنع لانه لم يكن يشبه تماماً اللون الاخضر الجميل الذي حلمت به وأوصيت عليه . واطّلعت من خلال هذا «الموقد» على الجانب الزائف لكل الاجهزة النافعة والتطورات التقنية : فمن دون شك أنه كان يسخن الأشياء جيداً ، ولكن ما أن يصبح الجو عاصفاً حتى يبدأ هذا الموقد بتوليد الغاز دون أن يكون قادراً على طرده لينفجر بعدها محدثاً ضجة ما زلت اسمعها حتى اليوم وتملأ الحجرة فجأة بغاز الفحم ، والدخان والسخام. وعندها ينبغي اخراج الفحم بالسرعة الممكنة واطفاءه ، ومن ثم الذهاب الى رادولفسل بمسيرة ساعتين لكي نجلب الخزاف ،وبعدها نمضي العديد من الأيام بلا حرارة حيث يصبح المكتب عندها بلا منفعة . حدث ذلك لثلاث أو أربع مرات وقد غادرت المنزل مرتين مباشرة بعد أن تقع «الواقعة» فما يكاد هذا الإنفجار الخبيث يحدث وتملأ حجرتي بالدخان حتى احزم حقيبة ملابسي واهرب بعد ان استدعي الخزاف في رادولفسل ومن هناك ارحل الى ميونخ مستقلاً القطار ، اذ كان لدي ما أعمله على أية حال ، مساعد رئيس تحرير في مجلة ، ومع هذا فسوء تصرف مثل هذا كان نادراً ما يحدث.

كانت الحديقة أهم من البيت عندي. ولم أكن قد امتلكت حديقة خاصة بي بعد. ومن مباديء الحياة الريفية التي التزمتها ترتب عليّ أن أسوي الأرض بنفسي ، وأزرعها ، وأرعاها وقد فعلت ذلك لأعوام عدة . بنيت في الحديقة سقيفة للحطب وللأدوات المستعملة ؛ وكنت أعمل بمعية ابن الفلاح الذي كان يرشدني ، ولقد علمت حدود المجازات ، واسندت الأزهار بالأعواد في أحواضها وزرعت الأشجار . الكستناء وشجرة الزيزفون ، والكتلبة ، وصفاً من أشجار الزان ، وعدداً من شجيرات التوت وأشجار الفاكهة الجميلة . وحين قدم الشتاء قضمت الأرانب والغزلان أشجار الفاكهة وحطمتها ، بينما أينع الباقي بروعة . وكانت الفراولة وأشجار توت العليق والقرنبيط والبازلا والخس موجودة عندنا بوفرة . كذلك سويت حوضاً لبذرة زهرة الدهلية وحفرت ممشى طويلاً ازدهرت على جانبيه مئات الزهور من عباد الشمس ذات الأحجام المميزة وتحت أقدامهم رُكلت الآف من نبات الكَبّوسين الملونة بكل ظلالات الأحمر والأصفر . كنت لوحدي على الأقل لعشر سنوات في جاينهوفن وفي بيرت أزرع الخضر والأزهار وأسمد أحواض الزهور واسقيها ، وأنظف الممرات من الأعشاب ، وانشر واقطع كل الكميات الكبيرة التي نحتاجها من الخشب . كان الحال ممتعاً ومفيداً إلاّ أنه تحول في النهاية الى عبودية قاسية . فتمثيل دور الفلاح أمر رائع ما دام لا يتعدى اللعبة . ولكنه ما أن يتحول إلى عمل روتيني وواجب ، حتى تتلاشى المتعة التي تكتنفه . وقد كشف هوغوبال في كتابه حسب معلوماتي المتفرقة جداً عن الموضوع ، معنى سلسلة الأحداث هذه في جاينهوفن ، رغم أنه كان قاسياً قليلاً وغير عادل مع صديقي فينك فقد كان يحيط صداقتنا دفئاً أكبر ، ومرحاً برئياً أكثر، من المدى الذي أعطاه لها.

كم تجدد أرواحنا بتطرف صورة محيطنا ، تحرفها ، أو تصححها ، وكم

تتأثر صور ذاكرتنا بحياتنا الداخلية ، وقد ظهر ذلك بوضوح مرتبك بتذكري للمنزل الثاني في جاينهوفن . ولليوم ما زلت احتفظ بأدق صورة عن حديقة ذلك البيت ، وأرى في داخله مكتبي بجلاء بشرفته الفسيحة بكل تفاصيلها ، ويمكنني أن أسمي المكان الذي يقف فيه كل كتاب من كتبي . إلاّ أن ما تحفظه ذاكرتي عن بقية الحجرات قد أصبح ضبابياً بصورة واضحة بعد عشرين عاماً من تركي المنزل.

وهكذا تكيفنا كما ينبغي مع الحياة وشعرنا بالاستقرار ، وأمام بابنا الأمامي كانت الشجرة الطويلة الوحيدة في ممتلكاتنا تقف ساكنة ، شجرة أجاص ضخمة عتيقة بنيت تحتها دكة خشبية ، كنت أعمل بانهماك في تنظيم حديقتي ، أزرعها وأجعلها جميلة ، وكان يلحقني في الحال أكبر أبنائي يزحف ورائي بمجرفته اللعبة . إلاّ أن الأبدية التي بنينا من أجلها المنزل لم تستمر طويلاً، فقد استهلكت جاينهوفن ولم أعد أنتظر فيها حياة أخرى ، فكنت كثيراً ما أقوم برحلات قصيرة . فالعالم في الخارج كان في غاية السعة ، ووصلت أخيراً في صيف عام ١٩١١ إلى الهند . يسمي علماء النفس المعاصرون ، المأخوذون بفكرة العنصر الأساسي ، مثل هذا الشيء «الفرار» ، وبالطبع كان هذا العنصر موجوداً بين الآخرين . إلاّ أنه كان أيضاً محاولة لاكتساب نظرة شاملة وقدرة على رؤية الأشياء . في صيف ١٩١١ ذهبت إلى الهند وعدت منها في نهاية العام . ولم يكن أيٌ من هذه كافية بالنسبة لي . فعلاوة على استياءاتنا الداخلية غير المعلنة أضيفت لها أشياء أخرى خارجية، منها المشاكل التي تثار بين الرجل وزوجته بسهولة : فقد ولد كل من أبننا الثاني والثالث ، وصار الأكبر في سن المدرسة . وكانت زوجتي تشعر بين آونة وأخرى بالحنين إلى سويسرا وكذلك

للعيش قرب المدينة ، وإلى الأصدقاء وإلى الموسيقى ، وشيئاً فشيئاً صرنا نعتبر بيتنا معروضاً للبيع وأن حياتنا في جاينهوفن ما هي إلاّ فترة استراحة . وفي عام ١٩١٢ تصاعدت المسألة لقمتها حين وجدنا مشترٍ للبيت .

أما المكان الذي أردنا الإنتقال إليه بعد ثماني سنوات في جاينهوفن فكان بيرن . وبالطبع لم نكن نريد السكن في المدينة نفسها ، ففي ذلك خيانة لمثلنا العليا ، بل أردنا بيتاً ريفياً هادئاً في منطقة قريبة من بيرن ، ربما واحدة تشبه ضيعة صديقنا الرسام «البرت فلتي» القديمة الرائعة التي عاش فيها سنوات عديدة، فقد زرته عدة مرات في بيرن وأبهجني كثيراً منزله الرائع المهمل بعض الشيء والأراضي التي تمتد بعيداً عن المدينة . كنت أعرف أن في قلب زوجتي حبٌ كبيرٌ لبيرن وللحياة فيها ولبيوتها القديمة بسبب ذكريات الصبا ، إلاّ أن الذي أثر على قراري هو في الواقع وجود صديق لي مثل فلتي .

ما أن قررنا فعلياً ترك بحيرة كونستانس إلى بيرن ، حتى أصبح كل شيء في غاية الاختلاف ، فقبل انتقالنا بأشهر قليلة توفى صديقي فلتي وزوجته بتعاقب سريع .حضرت جنازته في بيرن ، وصرنا أمام حالة جديدة فلو أردنا حقاً أن ننتقل إلى هناك فأفضل شيء نفعله هو أن نسكن في بيت فلتي . تمردنا في دواخلنا على هذا الإرث ، الذي تفوح منه رائحة الموت ، وبدأنا بالبحث عن مكان آخر في الجوار إلاّ أننا لم نفلح في إيجاد ما يلائمنا لم يكن فلتي وزوجته هما اللذان يملكان المنزل وإنما كان يعود لعائلة نبيلة في بيرن وكان بإمكاننا أن نأخذ عقد الايجار مع بعض قطع اثاث البيت ، مع كلب عائلة فلتي الذئبي سوزي.

كان المنزل الذي يقع في ملخنبولفج قرب بيرن ، على مبعدة من قصر ميتجكوفن ، يتمثل في كل جانب من جوانبه تحقيق لحلمنا القديم ، الذي ترسخ

بثبات أعمق في أذهاننا منذ أيامنا في بازل على أنه البيت المثالي لأناس مثلنا .
كان منزلاً ريفياً من طراز بيوت بيرن ، ذات الجملون المدور ، وبسبب تناسبه اللاقياسي الملحوظ ، كان في هذا المنزل بالذات شيء له سحر خاص علينا ، فهو من أكثر الأشكال لطافة كما لو أنه بني خصيصاً لنا . يجمع خليطاً من الملامح القروية وملامح قصور مالكي الضيعات ، نصفه بدائي ، والنصف الآخر من البيوت الأنيقة الارستقراطية . يعود بناؤه إلى القرن السابع عشر مع اضافات وتصليحات داخلية في عهد الامبراطورية ، تحيطه أشجار جليلة ، تظلله تماماً شجرة دردار هائلة الحجم . وتكثر فيه الأماكن المنعزلة والزوايا المظلمة الرائعة ، تكون أحياناً من النوع المقبول ، وأخرى من النوع الغريب .
وقد استأجر جزءاً كبيراً من المزرعة ومن المنزل القروي أحد المزارعين كنا نجلب حليباً للمطبخ وسماد الحديقة منه . وعلى ذكر الحديقة تمتد حديقتنا ، في الجانب الجنوبي من المنزل ، وتنحدر الى الأسفل في مصطبتين متماثلتين على نحو حاد ذات درجات حجرية تطوقها أشجار فاكهة جميلة متعددة ؛ وعلى بعد مئتي خطوة تقريباً من المنزل كانت توجد ما تدعى «بالأيكة » وهي بستان صغير يضم عشرات من الأشجار العتيقة ، من بينها أشجار الزان البهية ويعتلي هذا البستان تلة صغيرة تشرف على الجوار . وخلف المنزل ، كان الماء يتدفق من نبع صخري رائع ، وتكسو الشرفة الكبيرة باتجاه الجنوب كرمة نبات الحلوة المعترش الكبيرة ، ومن هناك كان بإمكاننا ان ننظر عبر الجوار والتلال المغطاة بالأشجار إلى سلسلة الجبال ، التي كانت جميعها مرئية من منطقة التل السفحي ثون إلى فترهورن ، وكذلك كتلة جماعة يونجفراو العملاقة في الوسط . وقد وصفت المنزل والحديقة بدقة متناهية في روايتي الناقصة «منزل الاحلام». وعنوان هذا العمل غير الكامل هو تخليد لذكرى صديقي البرت فلتي ، الذي

اعطى هذه التسمية إلى واحدة من أكثر رسوماته تميزاً . كانت توجد في داخل المنزل الكثير من الأشياء الممتعة والبهيجة : مواقد قرميدية قديمة وجميلة ، أثاث والواح خشبية تكسو الجدران، ساعات فرنسية أنيقة ذات القاصات تحت النواقيس الزجاجية ، مرايا قديمة كاملة الارتفاع بزجاج مخضر يبدو الواقف أمامها وكأنه صورة لبعض الاسلاف ، ومدفأة من الرخام كنت أشعل فيها النار في كل أمسية خريفية .

وخلاصة القول انه لم يكن بمقدورنا أن نتخيل وضعاً من الممكن أن نحبه أكثر من هذا ـ ومع ذلك فقد كان الحال منذ البداية مبهماً وحزيناً . فالحقيقة إن حياتنا الجديدة هذه قد بدأت بموت الزوجين وهذا ما كان نذير شؤم . ومع ذلك فقد تمتعنا في البدء بمميزات هذا المنزل ، المنظر الذي لا يضاهي ، غروب الشمس فوق «يورا» ، والفاكهة الطيبة . مدينة بيرن القديمة حيث الاصدقاء وحيث يمكننا سماع الموسيقى الجيدة ، ما عدا أن كل شيء كان يصطبغ بالاستسلام والاذعان الى حد ما ؛ ولم تعترف لي زوجتي إلاّ بعد مضي عدة سنوات بأنها ومنذ البداية المبكرة في المنزل القديم ، الذي كان قد فتنها كما فعل معي ، قد شعرت مراراً بالخوف والضيق ؛ نعم بشيء مثل الفزع من الموت المفاجيء أو من الأشباح . وبالتدريج تصاعد الضغط الذي غير طريقة حياتي تلك ، ودمرها جزيئاً . ولم نكمل العامين على انتقالنا حتى بدأت الحرب العالمية، وابتدأ معها تدمير حريتي واستقلاليتي ، وحلت الأزمة الاخلاقية الكبيرة بسبب الحرب التي ارغمتني على ايجاد أسس جديدة لتفكيري كله ولعملي كله . وأصاب مرض خطير طويل الأمد أصغر أطفالنا ، صبينا الثالث الصغير ، وبدأت تظهر التحذيرات المسبقة الأولى تنبيء بمرض زوجتي الانفعالي ـ وفي الوقت الذي كنت فيه مرهقاً بسبب واجباتي الرسمية الناشئة عن الحرب، وفي الوقت

الذي ازدادت معنوياتي فيه يأساً أكثر فأكثر ، إنهار كل شيء كان يشكل سعادتي آنذاك . وفي الفترة الأخيرة من الحرب سكنت في ذلك المنزل النائي بلا إضاءة كهربائية ، وغالباً بلا كيروسين في عتمة الظلام ، وأخذت نقودنا تنضب تدريجياً . وفي نهاية المطاف وبعد أوقات عصيبة طويلة ، تفاقم مرض زوجتي ودخلت المصحة لفترة طويلة ؛ وكان صعباً عليّ أن اتدبر أمور اسرتي ، لهذا كان لا بد أن أرسل أطفالي الى الخارج وبقيت لشهور طويلة وحيداً في البيت المنعزل مع خادمة مخلصة عزباء. ولو استطعت لغادرته منذ أمد طويل لو كان عملي الحربي يسمح لي بذلك . وأخيراً وفي ربيع عام ١٩١٩ انتهت هذه الوظيفة الحربية وعدت حراً من جديد. تركت المنزل المسكون بالاشباح في بيرن بعد أن قضيت فيه ما يقارب السبعة اعوام . وبالمناسبة ، لم تصحب مفارقتي لبيرن أية صعوبة . وقد صار جلياً من الآن فصاعداً أن أمامي مبدئياً احتمالاً واحداً للوجود لا غير : أن أضع عملي الأدبي فوق كل شيء ، وأعيش من أجله فقط : وأن لا آخذ المشاكل المتعلقة بالمال أو أية اعتبارات أخرى مأخذاً جدياً . ولو لم أنجح في هذا لضعت . رحلت إلى لوجانو ، وقضيت بضعة أسابيع في سورينو ، وبحثت عن كازاكاموسي ، ثم وجدتها في مونتانيولا ، وانتقلت إلى هناك في ايار ١٩١٩ . ولم يأتني من بيرن سوى منضدتي وكتبي ، فقد استأجرت بقية الاثاث . في آخر المنازل هذه الذي أعيش فيه حتى الآن ، قضيت اثنى عشر عاماً ، لم اغادره طيلة الأربعة اعوام الأولى فيها ، أما بعدها فأنا اقضي فيه المواسم الأكثر دفئاً فحسب.

إن هذا المنزل الجميل ، أو بالإحرى الغريب ، الذي اغادره الآن ، يعني الكثير لي ؛ فقد كان في العديد في نواحيه أكثر البيوت التي امتلكتها أو سكنتها أصالة وجمالاً . ولكن للتأكيد ، فأنا لم أملك شيئاً منه مهما كان وحتى

لم اسكن فيه بالكامل.، بل استأجرت فقط شقة صغيرة تحوي أربع حجرات لا غير . لم أعد مالكاً لعزبة ، ولا أباً لعائلة يملك منزلاً واطفالاً وخدماً ينادي كلبه ويزرع حديقته ؛ بل صرت اديباً ، ضئيلاً ،ومفلساً رث الثياب وغريباً يدعو للريبة الى حد ما ، يقتات على الحليب والأرز والمعكرونة ، ويرتدي بزاته القديمة حتى تبلى عليه. وفي الخريف يجلب الى البيت ثمار الكستناء عشاء له من الغابة ولكن التجربة التي كانت هي جوهر كل ما مر قد نجحت ، ورغم الصعوبة التي كانت تطبع كل الأشياء في تلك الاعوام إلاّ أنها تبقى أعواماً رائعة ومثمرة . كانت تشبه الاستيقاظ من كابوس استمر لاعوام ، لقد استنشقت الحرية والهواء، والشمس وكنت اتمتع بالعزلة وبعملي . وفي فصل الصيف الاول ذاته كتبت في تعاقب سريع كلاً من «كلاين وفاغنر» و «الصيف الاخير في كلينسجور». وشعرت بعد الانتهاء منها أن توتراتي الداخلية قد خفت بما يكفي لابدأ في الشتاء القادم بكتابة «سدهارتا» . وهكذا ، لم أضعف، بل جمعت شتات نفسي وحققت انسجامها ثانية ، فما زلت قادراً على العمل ، والتركيز ؛ ولم تتمكن أعوام الحرب ، كما كنت متوجساً بعض الشيء من أن تحطمني فكرياً طيلة تلك الأعوام . وأما من الناحية المادية، فما كنت لأستطيع أن أواصل العيش وأن انجز عملي لولا عدد من الاصدقاء الذين وقفوا باستمرار الى جانبي وبوفاء . فبدون عون صديقي «فينتتور» واصدقائي الأعزاء من سيام ، ما تمكنت من الاستمرار ، ولا سيما تلك الخدمة العظيمة التي قدمها لي صديقي «كونو أميت» حين أخذ ابني برونو ليرعاه .

وهكذا عشت في «كازاكاموسي» الأعوام الاثنى عشر الأخيرة ؛ وقد ظهرت الحديقة والمنزل في روايتي «الصيف الأخير في كلينجسور» وفي غيرها من مؤلفاتي. ولقد طليت هذا المنزل ورسمته وسبرت اغوار اشكاله المعقدة

النزوية لعشرات المرات ؛وخاصة في الصيفين الأخيرين . وعلى سبيل الوداع رسمت صوراً لكل المناظر ولكثير من الزوايا وجدران الحديقة ذات الجمال الآسر، مطلاً عليها من الشرفة والنوافذ ومن سطح البيت . كان قصري تقليداً لكوخ الصيد الباروكي ، انبثق من نزوة معماري من تسينو قبل حوالي خمسة وسبعين عاماً . وقد سكن فيه سلسلة كاملة من المستأجرين الآخرين ، ولكن أحداً منهم لم يبق المدة التي بقيتها أنها ولا أحد احبه أكثر مني (ولا نظر اليه أيضاً بعين الرضا) وجعله يصدق موطنه المختار كما فعلت أنا . كان نتاج الذوق المترف الخارق للعادي والمتعة في بناء منزل يتغلب أو يقهر الصعوبات في منطقة تضاريس طبيعية ، هذا القصر الضخم إلى حد ما، والمضحك الى حد ما ، يملك تنوعاً في جوانبه . وينفتح باب هذا المنزل بأبهة وبتكلف على سلم أميري يقود إلى الأسفل حيث الحديقة ، ويستمر بمعية العديد من المصاطب والسلالم والمنحدرات والأسوار الواقية ، حتى يضيع نفسه في وهد حيث توجد نماذج رائعة قديمة من كل الأشجار القادمة من الجنوب ، التي تنمو معاً وتتشابك مع نبات الحلوة المعترش ، ومع نبات ياسمين البر. كان المنزل يختفي عن العيان تماماً لو نظر اليه من القرية نفسها . وأما من الوادي في الأسفل وهو يشرف على سلسلة التلال الساكنة المغطاة بالأشجار فيبدو بسلالمه الحلزونية ، وأبراجه الصغيرة تماماً مثل واحد من القصور الريفية الموجودة في روايات «ايكندروف».

وإبان الاثنى عشر عاماً ، طرأ تغيير كبير هنا ليس على حياتي فحسب ، بل على البيت والحديقة كذلك فشجرة الأرجوان العجوز الوقورة القابعة في أسفل الحديقة ، أكبر الأشجار التي رأيتها في حياتي ، والتي كانت تزهر بخصب كبير عاماً بعد عام وتبدو في الخريف وفي الشتاء في غاية الغرابة بقرونها ذات اللون البنفسجي المحمر ، وقد سقطت ضحية لعاصفة خريفية. وأما

شجرة المغنولية التي نمت في صيف كلينجسور العظيم ، قرب شرفتي الصغيرة والتي اينعت زهراتها البيضاء الكبيرة الحجم والتي تشبه الاشباح في غرفتي تقريباً ، فقد قطعت حين كنت غائباً . في أحد فصول الربيع وبينما كنت عائداً من زيورخ بعد غياب طويل ، وجدت أن بابي الأمامي العتيق قد اختفى بشكل فعلي وقد سدت فتحته بجدار . وقفت أمامه مسحوراً كما لو أنه حلم ولم أجد سبيلاً للدخول : فقد أجروا بعض التعديلات القليلة عليه دون أن يتفوهوا بكلمة واحدة أمامي . إلاّ أن أياً من هذه التغييرات لم يستطع أن يغير من محبتي لهذا البيت ، لقد كان خاصتي أكثر من أي بيت سابق سكنته ، لأنني هنا لم أكن رجلاً متزوجاً وربا لعائلة : كنت وحدي ، ممتلئاً بالدفء . هنا شققت طريقي عبر سنوات مثبطة قاسية حلت بعد الانهيار الطارىء على الوضع الذي غالباً ما كان يبدو يائساً تماماً . وهنا تمتعت لعدة أعوام بأعمق عزلة ، قاسيت منها كذلك، وكتبت الكثير من القصائد ورسمت اللوحات . وكان ذلك مثل فقاعات صابون تبعث على الراحة . وأصبحت أكثر تعلقاً بذلك كما لم أفعل في أي مسكن منذ شبابي . وكعرفان لجميل هذا البيت طليته مراراً ومجدته في الأناشيد ، وحاولت بشتى السبل أن أكافىء ما منحني إياه ولما كان يعينه لي .

لو أنني بقيت وحيداً ، ولم لم أجد رفيقاً لحياتي مرة ثانية ، فمن المحتمل جداً أنني ما كنت اغادر «كازاكاموسي» أبداً رغم انها في العديد من النواحي لا تلائم ، رجلاً طاعناً في السن لم يعد يتمتع بصحته . فخلال تلك الفترة الخيالية كثيراً ما كنت أشعر بالبرد اللاذع وتحملت شتى أنوع البلايا الأخرى . وبين الفينة والأخرى خلال الأعوام الأخيرة تشكلت لديّ فكرة ، رغم أني لم آخذها مأخذاً جدياً وهي : من المحتمل بعد كل ما حدث أن انتقل ثانية ، اشتري أو أؤجر منزلاً أكثر راحة وصحياً أكثر يحمي شيخوختي . وكانت هذه آمالاً

وأفكاراً ليس إلاّ .

ما حدث بعد ذلك أن تحققت حكاية الجن الممتعة : ففي إحدى أماسي الربيع من عام ١٩٣٠ كنا نجلس في «آرخ» في «زيورخ» ، نتجاذب أطراف الحديث ، الذي تطرق الى المنازل والى البناء ، وذكرت رغبتي العابرة في الحصول على منزل . فانفجر صديقي (ب) يضحك بصوت مجلجل على حين غرة وصاح : «ستحصل على ذلك المنزل».

بدت لي هذه مزحة ، ودعابة بتأثير احتساء النبيذ في المساء . ولكن هذه المزحة قد تحولت إلى أمر جاد ، والمنزل الذي حلمنا به مازحين في ذلك الوقت يقف الآن هنا ، كبيراً وجميلاً على نحو هائل ، وسيكون تحت تصرفي مدى الحياة . من جديد أشرع بالاستقرار ومرة أخرى ستكون «مدى الحياة» ، وهذه المرة من المحتمل أن تكون كذلك .

سيكون هناك متسع من الوقت لكي أدون حكاية هذا المنزل فيما بعد ، وقبل كل شيء ، فالحكاية ما كادت تبدأ . واليوم يوجد شيء آخر في الحسبان . سنلامس كؤوسنا وننظر في عيون أصدقائنا الطيبين والأسخياء ونشكرهم وسنشرب نخبهم ونخب المنزل الجديد .



ملاحظات حول العلاج في بادن

١٩٤٩

انقضى خمسة وعشرون يوماً على المرة الأولى التي ارسلني فيها طبيب طيب القلب كمريض إلى بادن ، ولا بد أني كنت مهيأ في الداخل لتقبل التجارب والأفكار الجديدة في وقت العلاج الأول ذاك. فقد كتبت حينها كتابي الصغير (نزيل في المنتجع) ، الذي كنت اعتبره حتى فترة قريبة ، وفي خضم أسى الشيخوخة الحقيقي ، واحداً من أفضل كتبي وأتذكره دائماً بتعاطف خالص . وبدافع من حياة الفندق الخاوية في المنتجع التي لم اعتد عليها، وكذلك من خلال المعارف الجدد من الناس ومن الكتب ، اكتسبت خلال أسابيع العلاج الصيفية تلك ، مزاجاً للتأمل ومراجعة الذات . وكان ذلك في منتصف الطريق بين « سدهارتا » و « ذئب البوادي » ، مزاجاً لمراقبة الموضوعية لمحيطي ولنفسي على السواء ، وقد شعرت ببهجة تهكمية عابثة في مراقبة وتحليل اللحظة العابرة ، وكنت في حالة تأرجح بين تكاسل لا مبال وبين الانهماك في العمل المكثف. ونظراً لأن هذه الملاحظات والصور الهازلة لحياة العلاج والفندق ، والحفلات الموسيقية في الكازينو والتجولات الكسلى ، كانت قبل كل شيء تافهة وغير منطقية إلى حد ما ، لذا ما لبثت أن تركزت

رغبتي في التفكير والكتابة حول موضوع اكثر عمقاً وأكثر بهجة وهو ذاتي نفسها ـ عن نفسية الفنان والأديب ، وعن العاطفة والجدية ، وعن زهو الكتابة ، التي تسعى ،مثلها مثل بقية الفنون ، إلى لمس ما يبدو مستحيلاً ؛ لكن حين تحرز النجاح ، فإن هذا النجـاح لا يطابق ، ولا حتى يشبه ما سعى الكاتب اليه وحاوله ، إلاّ إنها تعوض ذلك بأن تأوله أحياناً الى شيء جذاب ، وممتع ، ومرضي ، تماماً مثل زهرات الثلج التي ترتسم على نافذة غرفة دافئة في الشتاء ، والتي لم نعد نبصر فيها النزال الذي دار بين درجات الحرارة المتعارضة بل ننظر الى المناظر الطبيعية للروح ولغابات الحلم.

في العشرين عاماً التي مضت لم أعد قراءة كتاب «نزيل في المنتجع » إلاّ مرة واحدة ، والذي ظهر في تلك الفترة ، وكان ذلك الغرض ظهور طبعة جديدة بعد انتهاء أعوام الحرب المدمرة ، وأثناء القراءة هذه خبرت التجربة المألوفة لجميع الفنانين والكتّاب ، وهي أننا نعد نملك على الإطلاق أحكاماً أكيدة ثابتة حول نتاجاتنا الخاصة ، فمن الممكن أن تتغير في الذاكرة على نحو مدهش . فقد تصبح أكثر ضآلة أو أكثر روعة أو بلا قيمة أساساً. كان من المفترض أن تظهر هذه الطبعة الجديدة من (نزيل في المنتجع) في مجلد واحد مع كتاب (رحلة إلى نورمبرغ) اللذين كانا يرتبطان معاً الى حد بعيد في الموضوع وفي زمن التأليف. وحين بدأت بإعادة قراءة العملين الصغيرين لم يكن في ذهني (النزيل) بل (رحلة إلى نورمبرغ) العمل الأفضل والأكثر نجاحاً . وهذا الحكم كان السبب في عدم قدرتي على إعادة التنظيم من جديد ، فقد كان راسخاً بثبات شديد لدرجة أنني كنت في منتهى الدهشة وخائب الظن إلى حد ما ، حين توصلت في نهاية قراءاتي الى العكس تماماً . فمن بين المخطوطتين المتشابهتين جداً كان (النزيل) العمل الأكثر قيمة والأكثر فتنة إلى حد كبير ؛

حتى أنني فكرت جدياً لوهلة أن لا أضم نهائياً (رحلة إلى نورمبرغ) إلى الطبعة الجديدة من أعمالي . وعلى أية حال فنتيجة إعادة القراءة المتأنية هذه كان الاكتشاف ، وهو على وجه العموم ، اكتشاف مفرح ، وهو أنني ومنذ عقود كتبت عملاً صادقاً نوعاً ما وبهيجاً وممتعاً على السواء ، وهذا الشيء لم أعد استطيع أن أبلغه اليوم.

منذ ذاك الاكتشاف ، انسل الزمن ثانية ، فهو يمضي بسرعة مدهشة للعجائز . وتكتسي أعوام الشيخوخة مقارنة بأعوام الماضي الوائقة الثابتة بثوب بخس ، رديء النوع نسج من السيلولوز . وقد مضى الآن خمسة وعشرون عاماً على كتابة ملاحظاتي عن الزيارة الأولى لبادن ، وينبغي علاوة على هذا ، أن اعترف بأنـــي كلما عدت الى بادن سببت لي هذه الملحوظات شيئاً من القلق ، فيحدث في الكثير من المناسبات أنه ما أن يتم أحد رفاقي النزلاء قراءة الكتاب حتى تتولّد لديه الرغبة مباشرة في التحدث معي عنه. وأصبح هذا الوضع الذي يمكن فيه أن يدنو مني أي شخص ويبادرني الحديث على هذا النحو وأكون مرغماً على تحمل الحوار ، أشد بغضاً وإغاظة لي بمرور السنوات. وقد تزايد هذا الاشمئزاز باطراد كما تزايد جوعي الى الهدوء والعزلة. فخلال الأعوام الاخيرة ، كنت أشعر بالسأم ومتعباً بلا حدود بسبب «كوني موضع حديث للناس». فمنذ زمن طويل كف ذلك في أن يكون دعابة أو شرفاً لي ، بل كان في الحقيقة سوء طالع. ولو كنت أغادر من وقت الى آخر مكان سكناي الذي كان ملاذاً مريحاً ذات يوم ، كأن اتلقى العلاج في بادن ، فأنا أفعل ذلك ومن بين أسباب اخرى، بدافع الخوف والاشمئزاز من الزوار الذين يقفون باستمرار عند بابي الامامي دون أن يستجيبوا أبداً إلى التماساتي للرأفة بي سواء كانت هذه الالتماسات هادئة أم غضبى ؛ هؤلاء ؛ كانوا يتسللون

حول منزلي وكثيراً ما يتعقبوني إلى أكثر الزوايا خصوصية وتوارياً في كرمتي . لقد وضعوا في رؤوسهم أن يستكشفوا غريب الأطوار هذا ، ويواجهونه ويدوسون بأقدامهم حديقته وحياته الخاصة ، ويحملقون عبر النافذة فيه وفي منضدته ويدمروا كلياً بثرثرتهم ما تبقى من احترامه للبشرية مع ما تبقى من إيمانه في معنى وجوده . وتنامى هذا الشد بين العالم وبيني منذ زمن طويل ، ومنذ أن بدأ فعلياً الاجتياح القادم من المانيا ، المتوقع منذ أعوام ، تحول الحال الى القادم محنة لا تطاق. لقد تحملت مئات من مثل هذه التهجمات والاقتحامات بسيماء عذبة أحياناً أو فظة ، ولكنني لثلاث مرات خلال الأسابيع الأخيرة للغزو جابهت الزوار وبصقت على الذين كانوا يتجولون في حديقتي كما لو كانت تعود اليهم . فليس هناك من صبر ولا تعب مهما بلغ عمقه يمكنه أن يتحمل اي شيء على الإطلاق ؛ وما من قدر مهما كان كبر حجمه إلا ويأتي عليه وقت من الأوقات يطفح بما فيه .

وعلى هذا النحو كان عزمي على تلقي العلاج في بادن ثانية ، نوعاً من الهرب . لقد كنت هناك لمرات عديدة ، ودائماً ما كان ذلك في أواخر الخريف. فالحمامات وتقدم الأيام في الفندق بايقاع بطيء يبعث الخدر بنعومة والخيوط الباهتة الأولى لضياء تشرين الثاني العابر ، والسكون والدفء المرضي للبناية شبه الفارغة ، بدت لي وكأنها ما يتمناه قلبي ؛ وكما حدث مراراً في السابق ، كنت أما أن استرخي ولا أفعل شيئاً سوى اتباع الروتين ، أو كما في زيارات أخرى ، أملأ ساعات الليالي المؤرقة في كتابة الشعر وأنا في فراشي ،وبهذا الفعل اكسب قدراً أعلى من الصحو لا احققه في النهار ابداً . وعلى أية حال ، كان ذلك تغييراً . ففي مناخ الشيخوخة والتدهور من الممكن لمثل هذا التغير أن يكون في بعض الأوقات دافعاً لا يستهان به، قررت أن أذهب ووافقت

زوجتي، التي كان القرب من زيورخ بالنسبة لها يشكل اغراء أكثر من الحمامات . حزمنا حقائبنا ، دون أن نستغني عن الكتب ولا أدوات الكتابة ، ورحلنا . ومن جديد وجدت نفسي انتقل الى الفندق المريح القديم الذي كان ومنذ علاجي الأول كثيراً ما يرحب بعودتي وبهدوء شهدني اتحول إلى رجل متقدم في السن ومن ثم سيد هرم.

أصبحت ومنذ أمد طويل جزءاً من أثاث النزلاء المسنين ذوي الرؤوس البيضاء ، الذين يستقبلهم الناس بابتسامات التقدير والإحترام . وفي هذه المرة أيضاً انضمت إلى الناس ، ومن جديد وجدت أن بعض النزلاد القدامى جداً الدائمين الذين كنت كثيراً ما أصادفهم هنا قد ماتوا . وقد جلس الآن في أماكنهم في قاعة الطعام عجائز آخرون . وبالتأكيد كان هناك أيضاً بعض الوجوه الجديدة بين مستخدمي الفندق الذين كانوا لا يحيّون النزيل الدائم الراجع اليهم بابتسامة ودية تنم على تعرفهم عليه .

مررت عبر عقدين ونصف بتجارب كثيرة في هذه البناية ، وتأملت وحلمت وكتبت الكثير. وفي جدار منضدتي الصغيرة في الفندق استلقت مخطوطات (نارسيسوس وجولدموند) ، و (رحلة إلى الشرق) و (لعبة الكريات الزجاجية) ، ومئات الرسائل وصفحات اليوميات ، وبعض عشرات من القصائد التي نظمتها في حجرات سكنتها هنا ، وزارني هنا زملاء وأصحاب من بلدان عديدة وفي فترات عدة من حياتي ، وتمتعت بكثير من أمسيات الشرب الأنيسة وكذلك بالكثير من النهارات التي أخضع فيها لحمية الخبز والماء . وهناك أوقات مرت انتشيت فيها بالعمل وأخرى اصبت بالضجر والجدب . في هذا المبنى ، وكما في المدينة كلها ، لا تكاد توجد زاوية لا تحمل ذكريات لي . وكل الذين لم يعرفوا وطناً لهم غالباً ما يتعلقون بحب مثل هذه

الأماكن الغنية بالذكريات العتيقة وبنوع من إيهام الذات ولكنه حب لا يخلو من الحنان . وفي الطابق الثالث كانت توجد غرفة وضاءة لها ثلاث نوافذ ، كتبت فيها قصائد «افكار الليل» و «تأمل» . القصائد الأولى كانت عن الليلة التي اعقبت التقارير الأولى في الصحف عن المذابح المنظمة وحرق جماعات اليهود في ألمانيا وفي جناح آخر في المبنى أخذت «قصائد من فراش المرض» شكلاً لها قبل عيد ميلادي الخمسين بأشهر قليلة . وفي الصالة في الطابق السفلي تسلمت خبر اختفاء أخي . وفي المكان نفسه بعد مضي يوم واحد إعلان موته ، واعتدت منذ أعوام عديدة أن احتل دائماً الغرفة ذاتها الواقعة في أقدم جزء من البناية ، وكنت سأتألم إن عدت اليها ولم أجد ورق الحائط المورد بزهرات زرق وحمر وصفر موجوداً في مكانه إلاّ أنه كان هناك مع منضدتي ، ومصباح القراءة حيث هذا الوطن الصغير الزائف بقلب ممتن.

كان كل شيء يعد بالسكينة والراحة. كان من بين النزلاء الدائمين الذين نلتقيهم في الفندق سيدة زارت المنتجع لعدة سنين بعدد المرات التي زرته فيها أنا تماماً ، وكانت توقفني في السابق لمرات عدة في حوارات طويلة ومن طرف واحد ، إلاّ أنها باتت تقرفني الآن . ففي زيارتي الأخيرة هنا حدثت مشادة صغيرة بيني وبينها كنت قد اقتنعت انها حاسمة .كنا نتحاشى هذه السيدة ولو حدث في بعض المناسبات ووجدت نفسي جوارها بلا صحبة أهرع للبحث عن شخص آخر بسرعة ويأس لا يمكن لأحد معهما أن يوقفني ولو بالقوة .

وللقراءة جلبنا معنا «ابله دوستويفسكي» وبدأنا نقرؤه . كان مثيراً مثلما كان قبل ثلاثين عاماً ، ولكن هذه المرة كان الحدس مخيباً للآمال في بعض الأحيان إذ ظهر الكتاب كما لو أنه قد فقد شيئاً عبر الأعوام من مادته ومضمونه. كما بدا أن عدد التافهين وساعات الحوارات الطويلة البلهاء قد ازدادت. فلو عشنا بما فيه الكفاية من العمر ، لربما وصلنا للنتيجة نفسها مع

الكتاب كما حدث قبل أعوام طويلة بعد القراتين الأوليتين. له فبغض النظر عن شخصية الأمير التي لا تنسى ، لا شيء من شأنه أن يرسخ في الذاكرة فيما عدا روغوجين والمرأتين . ومن بين المشاهد ، كان الفصل الأول في عربة القطار والمشهدان في منزل روغوجين الكئيب والحفلة الليلية الصاخبة في حديقة ليبيديف ، والمشهد المفزع الذي تبصق فيه كل من المرأتين إحداهما على الأخرى والأمير واقفاً مع ناتاشا في الخلف . وسيتذكر القاريء ، وسط تلك الحوارات التي تمتد عبر مئات الصرفحات والتي رغم كل شيء سيرغب بشدة بعد فترة طويلة في إعادة قراءاتها وقد وقع كلانا ثانية في اسر اجواء الرواية المضطرب والمرتجف . وقد حدث ما توافق مع هذه الحالة النفسية تماماً حينما دخلت زوجتي الى الغرفة في إحدى الاماسي بعد العشاء وقالت «يوجد مجرم في الخارج يندفع جيئة وذهاباً هناك أمام الباب» فقلت «لا بد أن أراه » وخرجت مسرعاً .

بالتأكيد ، كان رجل يتحرك جيئة وذهاباً مضطرباً يرتجف بانفعال كبير ، شاب من الواضح عليه أنه غريب ، ولكن لم يكن مظهره الشرقي واليهودي هو ما أذهلني ـ فهذا النوع اعرفه جيداً واجده جذاباً ؛ فما يميزه كعلامة فارقة وما أوحى لزوجتي ان تطلق عليه صفة «مجرم» كان ببساطة حالته الانفعالية نوع من الاضطراب القلق الخفيف ، ومن الاهتياج المحموم . ولكنه لم يكن مجرماً ، وعرفت ذلك منذ النظرة الأولى إليه ؛ وربما لو توخيت الدقة ، ستكون له شخصية المنتحر ؛ فاهتياج واضطراب حركاته تلائم هذه الصفة ، ومع هذا يبقى ذلك بعيد الاحتمال ، ومن المرجح والمؤكد تقريباً أن الحقيقة هي فقط أن هذا «المجرم» كان شخصاً في حالة انفعال شديد ، يرزح تحت ضغط وغارق في اليأس ؛ ومن المحتمل والمؤكد تقريباً انه كان يراقبني كذلك ، وكان يأمل في الحوار اكثر من طلب المساعدة أو المشوره . اجتزته بتمهل والقيت نظره عليه .

في البدء أحسست بشعور يقترب من التعاطف ، ولكن بعدها اقترب هذا الشعور أكثر فأكثر من الهلع . وجدت أمامي شخصاً يرغب في التحدث وعنده حاجة ملحة اليه ، ربما لأن لديه ما يجثم على قلبه ويجعله يتنفس الهواء بمشقة ، ربما فقط لأنه عانى من الوحدة طويلاً أكثر من طاقته على التحمل ، ففاض الضغط من الداخل دون أن يستطيع التحكم فيه . ضيعت دربي في دهليز جانبي وهجمت علي التعاسةبعنف فقد كنت واثقاً بشكل تام تقريباً بأني حين أعود سيفتح الحديث معي ، وسيضع فجأة أمامي ما في داخله بعنف وكنت خائفاً بالفعل من ذلك . ففي الحالة التي كنت أعيشها آنذاك حالة الصحو الكبير ، والهرب من الناس وحالة الشك العميق بمعنى وقيمة كل شيء عشت وعملت من أجله ، لم يكن يوجد شيء ممكن أن يسبب لي الرعب ويقودني الى هاوية اليأس مثل مداهمة إنسان يتطلع بالضبط الى الأشياء التي لا استطيع منحها كالإيمان ، والاستجابة المتعطفة ، والاستعداد لتقبل تساؤلاته أو شكواه ، أو اتهاماته ، فوضعانا من ناحية التكتيك لم يكونا متساويين الى درجة كبيرة : فقد كنت ضعيفاً ، مرهقاً في وضع دفاع ، وفوق ذلك كنت واثقاً ، مسبقاً من الهزيمة ؛ وكان هو شاباً قوياً يملك قوة دافعة قوية وراء قلقه أو انفعاله أو هياجه أو عصابه أو ما شاء أن يسميه المرء . كنت أملك كل أسباب الخوف منه. إلاّ أني أيضاً لم استطع أن أبقى متردداً الى الأبد في الردهات والأروقة ولم يكن بإمكاني أن أعرض زوجتي التي كانت تنتظر في غرفتي لاحتمال أن يندفع إلى الداخل ويفزعها. لذا وباسم الله ، كان لابد أن أعود ، فدافع هذا «المجرم» المسعور للتحدث أو التشكي أو التهجم كان حالة ذهنية أعرفها تمام المعرفة . فعبر أعوام وفي الحقيقة عبر عقود كان يأتيني العديد من الأشخاص وهم في

هذه الحالة المحمومة ، إما لأنهم يتوهمون في سمة خاصة للفهم أو لمجرد أنني اعترضت دون قصد طريقهم . لقد استمعت إلى الكثير من الشكاوى ، والاعتراضات والمجادلات الشرسة ، وإنفجارات الألم والاستياء المكبوح ، وكثيراً ما يتحول ذلك الى تجربة قيمة بالنسبة لي ، واثبات أمدني بالقوة ، أو أنه أدراك عميق ذي نفع لي . أما الآن وفي هذه المرحلة من حياتي الصعبة القفراء ، فإن كل اقتراب من شخص جديد ، وكل معرفة جديدة متطفلة تشكل لي عبئاً وخطراً يهددني . وصار الآن هجوم رجل أقوى وأكثر خشونة مني كهذا أمر مقيت الى حد بعيد ، يستدعي كل الأشياء في داخلي للدفاع والرد على الهجوم ، فعدت إلى غرفتي بخطى واسعة ناقمة وبسيماء لا يعد بالود ابداً . ومن غير ريب خطى إلى الأمام وللمرة الأولى ، حين التفت الي في ضوء المصباح الباهت ، ورأيت وجهه الذي كان والظل يستر نصفه ، وجه مهتاج إلاّ أنه وسيم في ذات الوقت وجه شاب منفتح ولكنه أيضاً عاقد العزم يفيض منه التصميم العنيد .

قال لي إنه مثلي ، يقيم في الفندق وقد انتهى تواً من قراءة كتابي (نزيل في المنتجع) الذي جعله في غاية الانفعال والاثارة فدفعته رغبته الصارمة للحديث معي عنه .

وضحت له بإيجاز بأني لا أملك أدنى رغبة للتحدث ، بل على العكس كنت في حالة فرار من هجوم الأشخاص الجائعين للحديث الذين أصبحوا عبئاً ثقيلاً علي للغاية . وكما هو متوقع لم يذعن ، وكان لا بد أن أعده بالاستماع اليه في اليوم التالي ، إلاّ أني رجوته أن يكون قنوعاً ويكتفي بربع ساعة من الزمن . حيّاني وذهبت ، فعدت إلى زوجتي ، التي استأنفت قراءتها للأبله بصوت عالٍ . وبينما كان أصدقاء أو غوحين ، أيبوليت وكوليا ، مستمرين في

أحايثهم الطويلة ، تراءى لي أن معظمهم يشبه الغريب في الدهليز.

وحين آويت إلى الفراش ، صار جلياً أن الغريب استمع إليه في تلك الأمسية ، فتوقع ما سيحدث في اليوم التالي والالتزام الذي تعهدته ، أخذ يثقل كاهلي الآن ويفسد نومي . ثم ما الذي قصده الرجل حين قال إن قراءة كتابي قد «اثارته» ؟ فقد استعمل (هو) هذا التعبير . من المحتمل حينها ، أنه صادف أشياء في كتابي ، وجدها عسيرة على الفهم ومثيرة للاشمئزاز ، وجاء يطالب بتفسير لها أو جاء يعترض عليها . وعلى هذه الحال امضيت نصف الليل مشغول البال ، ولم يكن هذا النصف يعود الي بل الى الغريب . كان عليّ أن استلقي وارتب الأفكار عنه ، وأن أخطط لما يمكن أن يقوله أو يسأل عنه . كان لا بد أن أستلقي هناك وأعذب نفسي بأن استرجع من الذاكرة بايجاز مضمون (نزيل في المنتجع) بشكل تقريبي . هنا أيضاً حقق الغريب المنحوس ميزة علي ؛ فهو يعرف ، من قراءة قريبة ،الكتاب الذي كتبته منذ خمسة عشرين عاماً والذي اعدت قراءته آخر مرة قبل عدة سنوات. ولولا أني توصلت الى صورة واضحة بعض الشيء عما سيكون عليه موقفي في الحوار القادم ، لما نجحت بعدها بالتفكير في أمر آخر والاستغراق في النوم أخيراً .

جاء اليوم التالي ومعه ساعة ما بعد الظهيرة التي كان كلامنا في انتظارها، الغريب وأنا ، وصل الغريب وجلسنا في الدهليز نفسه حيث ظهرت هيئته المتوعدة في الليلة الماضية على حين غفلة . جلسنا عند طاولة قديمة مطعمة للعب القمار في منتهى الجمال ، وسط سطحها الدائري رقعة شطرنج بمربعات من الخشب الفاتح اللون والغامق ؛ في تلك الايام البهيجة لعبت في بعض الأوقات الشطرنج على هذه الطاولة . ورغم أنه كان وقت نهار ، لم تكن هذه الغرفة اكثر اضاءة عما كانت عليه في المساء السابق ، بل بدا لي أنها مكّنتني الآن من

رؤية وجه خصمي بشكل جيد للمرة الأولى . وما شعرت به في هذا الموقف ، هو أني كنت حقاً سأفرح لو وجدت وجهه لا يثير التعاطف ، لأنه كان سيجعل موقفي الدفاعي أكثر سهولة . إلاّ أن وجهه كان ودوداً جداً ، وجه يهودي ذكي مثقف ، من الشرق نشأ نشأة دينية . وقد كان فعلاً رجلاً ورعاً متضلعاً بشكل جيد في الكتاب المقدس ، وكان في طريقة لان يصبح عالماً باللاهوت وحاخاماً يثير الشكوك وينقلب عليها ، لأنه قد كان له لقاء مع الحقيقة ذاتها ، مع الروح المتقدة . لقد كان مستشاراً ، ويحتمل انه كان يمر لأول مرة ، بتجربة خضتها أنا مرات عديدة في حياتي . كان في حالة روحية تعلمت أن أميزها في نفسي وعند الآخرين ، حالة الوعي ، والتبصر والمعرفة والنغمة الروحية . في هذه الحالة ، يعرف الانسان كل شيء ، وتتكشف الحياة أمامه مثل وحي ، وكل ما أدركه في مراحل مبكرة ، وكل النظريات ، والتعاليم ومواد الإيمان ، تتهاوى وتنجرف مثل الرذاذ ، وتتحطم الواح القانون والسلطات . إنه وضع مدهش ، فغالبية الناس ، وحتى أولئك الملتمسون الروحيون لم يجربوها قط . لقد وقعت علي أنا أيضاً ومستني كذلك عاصفة الاعجاز ، أنا أيضاً ودون أن أخفض أجفاني تجرأت على إبصار الحقيقة في العين . فلهذا الشاب الموهوب جداً ، وكما اكتشفت بعد أن طرحت عليه سؤالين أوليين ظهرت المعجزة في شكل اللاوتس ، وبالنسبة له كانت النغمة الالهية تحمل اسم «الطاو» ، ولو بقي هناك اي شيء يمثل له كقانون أو كمبدأ اخلاقي فكان هذا الأمر : أبق منفتحاً لكل الأشياء ، ازدرِ اللاشيء ، أدنه ، ودع كل أنهر الحياة تتدفق عبر قلبك . فكل من يبلغها ، ولا سيما لأول مرة، تمتلك هذه الحالة الذهبية سمة الحقيقة المطلقة وترتبط بوثوق بالإعتناق الديني. فكل الأسئلة تبدو أنها وجدت أجوبتها ، وكل المشاكل قد حلت ، وتلاشت الظنون الى الأبد . بيد أن هذه الحقيقة المطلقة ،

وهذا الانتصار « إلى الأبد» ليسا سوى وهم . فالشكوك والمشاكل والمعركة ستسمر ، وتصبح الحياة بلا شك اكثر غنى ولكنها لا تقل صعوبة . وعند هذه النقطة بدا حواري اللاوتسي أنه قد توقف : فما زالت تجربة الحرية والنعمة الالهية تحمله عالياً وتحوله وتجدده ، كان جلياً إن الظلالات تلاحقه الان وإنه على شفا أن يندفع بتهور من حالة نفسية مفرطة مباركة عائداً إلى عالم الصراع، وما كنت أنا لهذا الهبوط العمودي غير شيء ثانوي .

لقد وقع الكتاب بين يدي هذا الشاب صاحب الموهبة الفريدة ، كتابي «نزيل في المنتجع» ، وحين قرأه ، صار حجر عثرة في طريقه، فمعه لقي التفتح المطلق قيوداً له ، وواجه التوكيد الكوني مقاومة ؛ لقد قرأ الكتاب ، كتاباً سخيفاً وغير كفوء بالمرة ، وهذه القراءة قد أوهنت عطيته الإلهية ، وتجربته ذات الانسجام الكوني ؛ فقد حادثه عقل فردي ، منتقد ومتعجرف من الكتاب ، ولم يكن بمقدوره أن يجمع التشامخ والمتعة ليجعل هذا الصوت المضطرب أهلاً للتناغم العظيم . لم يستطع ان يجيب بضحكة ؛ لقد عثر مصادفة على هذا الحجر وزل به ، فبدلاً من أن يفرحه ، عذبه وأغضبه . وما أغاظه بشكل خاص كانت الغطرسة التي انتقد المؤلف بها وجادل مسألة السعادة العامة في سقط المتاع المغلف بالابهام ، من خلال وجهة نظر شخصية الفنان وتزمته في الذوق ، دون أن يكون قادراً على كتم الحقيقة إنه هو نفسه في أعمق نقطة من حياته العاطفية قد أحس بالسعادة في سقط المتاع هذا ، وفي الانغماس في الشهوة الحسية . وأكثر الأشياء سخافة ، بل أكثرها مهانة كان الاسلوب والنبرة التي تناول فيها المولف فكرة الهندوس عن التفرد ؛ لقد بدا وكأنه يقدمها كأمر ينبغي الايمان به حرفياً وأن يقبلها دون اعتراض مثلما يتقبل تلميذ جدول الضرب . لقد بين أن المؤلف يعرض فكرته كعقيدة ، كحقيقة جازمة ، بينما لا تعدو

Tat Tvam Asi الأولية في أحسن أحوالها فقاعة صابون جميلة ، وتلاعب أفكار ذات تلون قزحي خادع .

كان ذلك تقريباً مضمون حوارنا ، الذي لا يستمر طبقاً لاتفاقنا لاكثر من ربع ساعة وقد أدار هو بشكل ما معظم الحديث ، لاني لم أبدِ اعتراضاً ولا لفت انتباهه لحقيقة أنه لو كان المرء قد فتح نفسه لكل الأشياء لما كان عليه أن يشتاط غضباً بسبب كتاب وإنما كان عليه أن يفحم المؤلف كليه . ولا أشرت خلال ربع الساعة تلك ، إلى أن كتابي ومثل أي ابداع شعري لا يحوي مجرد مضمون بل بالأحرى ان المضمون فيه عديم الاهمية نسبياً ، مثل عدم اهمية مقاصد الكاتب المحتملة. فالذي يعنينا حقاً ، نحن الفنانين ، ان ينبثق من اهداف ومعاني وأفكار المؤلف اسلوب محبوك من نسيج اللغة وخيوطها ، والتي تعلو قيمته ـ التي لا يمكن وزنها بدرجات على قيمة المضمون الخاضعة للقياس . لم أقل ذلك ، لانه لم يخطر لي ابداً ، خلال حوارنا ، أن أقوله ، ولانه طالما كان رفيقي يتكلم عن الكتاب بانفعال جميل ، فيجب عليّ أن أقر إنه كان محقاً تماماً. كان يتكلم فقط عن المضمون لا غير فلم يؤثر الباقي فيه . خلال الربع ساعة تلك كنت مستعداً لأن اتنازل عن الكتاب او اسحبه لو كان ذلك بالإمكان ، لأنه لم يكن نقد هذا القارىء مبرر تماماً فحسب بقدر ما يتعلق الأمر بالأفكار الواردة فيه ، بل كان حزني الحقيقي لانه قد شكل مصدر اغاظة لروح نبيلة طاهرة.

نظرت صامتاً مغموماً الى وجه ويدي ناقدي ، هاتان اليدان غير المنكمشتين وغير الكثيبتين مثل يدي ، بل ، مثل صوته وكل حضوره الحيوي ، يافعتان مرنتان مليئتان بالقوة . ثم نظرت الى الألوان والزخرفة الجميلة للخشب في طاولة القمار التي جلسنا عندها نحن اللاعبين وربما بقينا نشهد للذوق

الحسن ولروح خالقها المرحة المنسية منذ زمن بعيد حتى عندما تحول رفيقي الشاب الى عجوز ذاوٍ متعب من الكلمات والمعاني .

لم تكن زوجتي حاضرة في هذه المناقشة ، لان وجودها كان سيمنع الرجل من التعبير عن نفسه بحرية ، وما أن مرت الربع ساعة حتى ظهرت زوجتي وجلست معنا ، وبهذه الحماية ، أنا الذي نادراً ما فتح فمه خلال اللقاء كله ، نطقت بكلمات قليلة ربما كانت مهدئة توفيقية .

رغم سعادتي بتوديعه ورغم اللاجدوى من مواصلة هذا اللقاء ، إلاّ أني أحسست بالألم يعصر قلبي لاني لم أكن أملك شيئاً لاعطيه أو لأريه لهذا الطالب الحقيقي عدا قناع الشيخوخة الكئيب الذي يجرد اراء المرء تجاه نفسه وكتبه من اهميتها ومن دفاعاته عن هذه الآراء أيضاً . كنت سأكون فرحاً لو منحته شيئاً ساراً على الاقل كان قد بقي معه قليلاً من شعو الإبتهاج لربع الساعة؛ هذا الذي شعرت إنه كان مهلكاً للغاية .

توالت الأيام والليالي قبل أن تخف كآبتي من جراء هذا اللقاء واستطعت ان اعزي النفس حين فكرت أن هذا الصمت الفاتر وانسحاب العجوز بلا مقاومة ، سيخدم الرجل اليافع بشكل مثمر ، ما أن يندمج ثانية في فلسفة الطاو من أجل التفكير والتأمل ، أكثر من أي موقف آخر كنت سأتخذه تجاه مناشدته.

إلى مــارولا

١٩٥٣

أختي الصغيرة العزيزة ! في الأمس دفنوك في المقبرةالقديمة في كورنتال ، المكان الذي لم يفقد الكثير في هذه الأيام المروعة من المروح والشذى ، والسكينة، والنبل التي كانت تتصف بها كورنتال المقدسة ذات يوم .

وفوق قبر أبينا شجرة التوت التي كنت قد رأيتها لمرة واحدة فقط عندما كانت غضة وصغيرة ولم أرها ثانية . وقد أصبحت شجرة طويلة وضخمة ، توجب قبل أيام قليلة ماضية قطعها وقلع جذورها ليكون في القبر مكان لك أيضاً ، وكان ذلك أصوب ما فعلوه ، لأن هنا مكانك ، جنب أبينا ، الذي عنيت بشيخوخته الموحشة ووفرت له الراحة ،وكلفك ذلك تضحية كبيرة .

لقد حفرت أعوام الخدمة الطويلة آثارها عليك واكسبتك نوعاً خاصاً من الاحترام الذي حملناه لك نحن أطفال هسه . ومن بين التضحيات التي أقدمت عليها دون تردد كان التنازل عن ذلك الحب الآخر والرفقة التي كانت ستلائمك كما تلائم كل فتاة شابة حسنة التربية . وكان تأثير الأب واضحاً على سمة حياتك الأخيرة العذرية التي تشبه كثيراً حياة الراهبات. وإذ كان هذا

الرجل الورع خلال أعوامه التي قضاها في كورنتال قد اشاع بعد وفاة والدتنا فيضاً من السلام والنبل البهيج الرصين ، وإذ تحول في نظر الكثير ممن عرفوه آنذاك أو حتى في نظر من عرفه خلال الرؤية أو عن بعد ، إلى شخصية لا يمكن أن تنسى مثل شيخوخة أبوية من العصر الذي نزل فيه الانجيل. فإن لتضحيتك ، وحضورك ، ولبصيرتك ورعايتك ، لصحبتك وتعاونك ، ولا سيما في السنوات التي فقد فيها بصره دوراً مهماً في ذلك . إنه واحد من «المسيحيين الأوائل » ، هكذا وصفه لي ذت مرة الاسقف فورم ، وكتب في مناسبة أخرى أن أبانا كان واحداً من شخصين كانا أكثر من استحقا التبجيل ممن صادفهم في حياته كلها .

والآن مضى على موت أبي ما يقارب الأربعة عقود ، وكذلك الأسقف فورم ، ومعظم الذين عرفوا ، أبانا واحترموه ؛ وعلى قبره نمت الطحالب وينبغي لشجرة التنوب الشامخة أن تفسح المجال أيضاً ، وأنت أختي الحبيبة قد عدت الى الموطن لتلتقيه .

كلكم تركتموني وحيداً لأمد قادم وأيضاً ذكرى والدينا وقصص طفولتنا الخيالية . فعبر حياتي كثيراً ما وفيت هذه الذكرى حقها من التقدير واقمت النصب التذكارية الصغيرة لها ، وفي العديد من قصصي وقصائدي حاولت أن أحفظ شيئاً من حكاية الجن تلك ، ليس من أجل القراء بمعنى الكلمة ، بل بشكل رئيسي من أجلي وأجلكم ومن أجل اشقائي وشقيقاتي الخمسة فحسب . لأنكم وحدكم القادرون على فهم الايماءات ، والرموز السرية اللامعدودة ، والإشارات الهازلة ، ومع كل ادراك واكتشاف جديد لتجربتنا المشتركة قد شعرتم بنفس الدفء الموجع حقاً الذي يلف القلب بقدر ما احسب

أنا عندما استحضر في ذاكرتي ما نقدر استرداده .

واليوم قرب قبرك لو تذكرت وأنا مستغرق في التفكير تلك القصص والقصائد ، فلن أشعر ببهجة يشوبها شيء من الألم فحسب بل بشيء آخر ، عذاب واستياء من نفسي ومن قصصي ، نعم ، شيء يشبه الندامة تقريباً أو تأنيب الضمير . لأن في هذه الكتابات هنالك دائماً ذكرٌ لاخت واحدة فقط ، رغم إني كنت سعيداً جداً لان لي اختين . وحتى في الأزمان المبكرة هذه أحياناً تفاجئني . وبلا شك وفي العديد من الحالات ، لم يكن دمج الاختين في واحدة الا تبسيط ، او اقتصاد أو وسيلة راحة ناتجة عن عدم قدرة وعجز في موهبتي ، التي كانت دائماً ما تمنعني من كتابة قصص تتعلق باشخاص كثيرين . وهذه ترتبط بشكل رئيسي ، كما كنت أشعر دائماً ، بالنقص الكامل للموهبة الدرامية والمزاج الدرامي . ولكن من الطبيعي أن أعثر عبر عقود من النضال غير المجدي ضد هذا النقص ، على الاعذار والمبررات الجزئية ، بلى ، تبريرات لعدم قدرتي تلك .

قال شاعر كبير من الشرق الأقصى قولاً مأثوراً ذات مرة ، بعد تمعن في قصيدة تلميذ ذكر فيها «زهرات خوخ عديدة» : «زهرة خوخ واحدة كانت ستكون كافية ». لهذا تبين لي أنه لم يكن مباحاً وجائزاً ان احول اختين الى واحدة في قصصي بل حتى قد يكون تعزيزاً نافعاً، فيما عدا أن هذا الضرب المرضي في توضيح المشكلة عادة لا يصمد كثيراً امام فحص المرء لافكاره . فلسبب وجيه ، كانت الاخت الوحيدة ، هي اديله الموجودة دائماً للقراء الذين يعرفوننا شخصياً ، هي اديله الموجـودة دائماً وليس مارولا ، إضافة إلى أن اسمك ، مارولا ، كما أظن ، لم يذكر في كتاباتي سوى مرة واحدة ، في قصة

الشحاذ بينما كثيراً ما وجد القارىء اسم اديله امام عينيه.

واليوم لا أشعر أني مدين لك بتبرير أو التماس منك بالغفران ؛ فلا شيء من مثل هذا القبيل نحن بحاجة اليه فيما بيننا . ففي الواقع ، كان من الطبيعي والمناسب أن تكون اديله اقرب اليّ ، ولا سيما في الأيام المبكرة ، ومن الطبيعي والمناسب أن يبحث صبي نضج قبل أوانه عن أصحاب أكبر منه سناً ويفضلهم ، وخاصة في طفولتنا نحن. فالعامان اللذان بفصلان بيني وبين اديله كانا تافهين لدرجة أنهما لم يسببا أية صعوبات تعيق صداقتنا ، وكانت في الوقت نفسه مهمة بما يكفي لجعل العناية الامومية الناعمة العرضية بالصبي ، المولع كثيراً بحالات أخرى بلعب دور الفارس، أن تزيد من التعلق فقط .

ورغم احتلال الاخت الوحيدة لقصصي ، فلم تكونا ، «أنتما الإثنتان» على الاطلاق رمزاً ولا كانت اديله فقط عزيزة علي ومشوقة لي ومهمة ، بل على العكس فحتى في السنوات الأولى من حياتي كنت دائماً اراكما وأشعر بكما دائماً كشخصيتين مستقلتين بشكل واضح وبمرور الأعوام تزايد هذا الفرق بثبات في دقة وفي سحر . كنا ستة أشقاء وشقيقات كرسنا كل حياتنا أحـدنا للآخر بشكل كبير ووجدنا حتى في الاختلافات بين شخصياتنا وامزجتنا . كما هو موجود في أية عائلة جيدة التكوين على نحو لائق ، فرحاً ومرحاً وفرصاً أكبر لنمو الحب اكثر مما كنا جميعاً نشترك فيه . وحين كبرنا وتقدم العمر بنا نبذ البعض منا الكثير مما كان مشتركاً خلال تربيتنا ونتيجة لذلك لم يتأثر البتة الحب الذي كان يجمع بيننا اخوة واخوات .

ربما كنا نشبه اللحن السداسي ، عزف يجمع ستة أصوات لآلات ست مختلفة ، ينقصها فقط البيان والكمان الأول ، أو بالأحرى كانا موجودين

بالتأكيد ، إلا أنهما لم يبقيا في نفس الايدي . كل منا من وقت لآخر كان هو العازف الرئيسي : وقت ولادته ، وحين تمر به المحن والبلايا ، وعند خطوبته وزواجه ، بل حتى على نحو أكبر في وقت الخطر وحين يشعر إنه مهدد ويعاني من الأحزان وقد نكون شعرنا أحياناً نحن الأصغر سناً ـ ولست واثقاً من ذلك ـ بحسد من الدفء المشع ، والفرح والجاذبية التي كان يتمتع بها بالفطرة كل من ثيو وأديله ، أو من اللامبالاه المحببة عند كارل . ولكن كان لكل منا مواهبه وقدراته الخاصة به ليسهم بها ، حتى صغيرنا العزيز هانز ، الذي لولا ذلك الهجوم العنيف والمفاجيء لمدرس فظ والاختيار المنحوس السابق لأوانه للمهنة ، لكان بلا شك عاش حياة أوفر سعادة ، ولكن حتى لو حشدنا قوانا ومرونتنا لنصمد في وجه الحياة ، نبقى جميعنا مرهفين ومميزين لدرجة نكون فيها عرضة لعدم الثقة بالذات ، وعرضة للقلق والألم الميئوس منه مثلما حصل لشقيقنا هانز ـ ولست واثقاً أيضاً من هذا ، فهو مجرد تخمين .

وحين اقارنك بأديله ، تلك المخلوقة ذات الخيال الجامح عاشقة اللهو والتوق الى الجمال بشكل كبير ، كنت أنت أكثر رصانة وبروداً ، وميالة اكثر للنقد ، ولكنك كنت دوماً مستعدة للمرح ، وحتى لو لم تكوني تتمتعين بالحيوية وبالحماس المدهش الذي لدى «اديله» ، فكنت كتعويض عن ذلك اكثر تبصراً ودقة في احكامك ،وقليلاً ما تغشى بصيرتك بسهولة أو تجرفك العاطفة ، وكنت أكثر دقة في تعبيرك اللفظي وفي الكتابة ؛ وكان توجيه والدنا وقدوته في هذا واضحاً ، وعثرت فطنتك على اوصاف ملائمة للعديد من الناس وللكثير من الاحداث . وتجاه عالم الخيال والفن لم يكن موقفك يتسم بعدم المرونة وإنما بالتحفظ ، وكل ما كان جميلاً كان عزيزاً عليك ، ولكن لم يكن

يعجبك أبداً أن يتملقك ،أو يغويك أو يفاجئك . فكلُّ ما كان جميلاً فقط ومرضياً كان موضع شك في نظرك ، فلا بد أن يتملك أيضاً قيمة الصدق. وقد علق في ذهني ما قلته أو كتبته لي ذات مرة عما تعتقدين بخصوص الشعر . ورغم أن ذاكرتي ليست دقيقة ولكنه كان شيئاً كهذا : في أوقات كنت تثمنين قصيدة حقيقية وتحبينها حباً جماً ، إلا أنك لم تكوني لتعتقدي أن الفكرة القوّية تصبح على طول أفضل لو صيغت شعراً بدلاً من النثر وكنت تؤمنين بقدر أقل في إمكانية اكتساب الفكرة الرديئة ، والمشوشة والجزئية الجودة أو تغدو أكثر كمالاً لو نظمت شعراً . وحين كتبت قصيدة اليك وأرسلتها في عيد ميلادك الاخير ، كانت هذه القصيدة الوحيدة التي كنت قادراً على عصر ذهني وكتابتها في تلك الأعوام الاخيرة ، المجدبة . ومن حسن الحظ أنني لم أكن أفكر بحكمك ذاك . ولم أكن أحاول التأثير عليك بشعر جميل ، فقط كنت اريد أن ابين لك انني افكر فيك وابذل جهداً من أجل خاطرك . ولكن فيما بعد ، وحين ارسلت ابيات شعري التي كانت مشوشة وخرقاء إلى حد ما تذكرت ثانية كلامك ، فشعرت بشيء من الخجل ، إلاّ أنني فرحت حينما لقيت هديتي رغم كل شيء استقبالاً رقيقاً .

ذات مرة ـ وهذا ما ينبغي أن اعترف به اليوم كنت غاضباً قليلاً منك ، وخاب الظن فيك بعض الشيء وكنت في ذلك على خطأ تماماً . حدث ذلك في تلك الرحلة الى نورمبرغ التي وصفتها في مخطوطة تعود الى العشرينات وفي وقت كنت امر فيه بفترة حرجة وتعيسة في أحوال كثيرة في حياتي قبل أن أشرع في التنفيس عنها في «ذئب البوادي» . كنت أنت آنذاك في ميونخ ووسط الكرب الثقيل الذي كنت أعانيه تلك الأيام ، وبعد أن انتهيت من

ارتباط نورمبرغ ، كان أمراً مريحاً لي أن أعرف أنه ليس اصدقائي القدامى هم من ينتظرونني فقط في ميونخ لقضاء أمسية شراب بل أنت أيضاً حيث كنت هناك ، واحداً منا ، شخصاً من بواكير الحياة الجميلة ، القدسية. قدمت الى هناك تحركني وتدفعني تيارات عاصفة عبر مضايق خانقة كان على حياتي أن تجتازها في ذلك الوقت الذي كنت آملاً فيه للقاء والحديث مع امرء من الناس القلة المقربين اليّ و رفيق حميم من الطفولة ، لأجد شيئاً جميلاً ومستحيلاً ودرجة مختلفة لا يمكن تحقيقها من الفهم . شيءٌ من الحماية والنجاة ، ليس بمقدور أحداً أن يمنحني اياها وليس بمقدور أحد أن يمثلها. وحين وجدتك في ميونخ قابعة في البيت وكنت قانعة تماماً لم يكن لقاؤنا ينقصه الفرح ، ولكن لم تكوني مياله الي ولا راغبة في اتخاذ دور صديقتي الحميمة ، فانكمشت، خائب الأمل مرفوضاً ، ولم نحصل في هذه المناسبة على شعور المودة الحقيقية. فما كنت أنشده منك تلك اللحظة لم يكن بمقدور أحد أن يعطيني اياه ، حتى ولا اديله ، حتى ولا ابانا أو امنا ، فوقعت في مأزق ولم أكن قادراً ، إلاّ فيما بعد، وبعد أن مضت فترة لا بأس بها من الزمن على الفهم وقادراً أن أشعر بالإمتنان لأنك قد احتفظت بسكينتك وتحفظلك ورفضت ان تتبعيني الى ارض اضطرابي القاحلة .

كان جميلاً أن تحلي ضيفة عندي في مونتانيولا ، وحدث هذا مرة واحدة ولعدة أسابيع خلال إحدى رحلات نينون . عشنا معاً هناك بهدوء تام وكنا عموماً سعيدين ببعضنا ، وعندما كنت تقرأين لي في المساء بصوت عالٍ فقرات مترجمة من نصوص انكليزية ، وتروين لي بوضوح وباختصار شيئاً كنت قد قرأته بناء على طلبي ، كنت استطيع عندها أن اتصور الحياة التي

عشتها مع والدنا خلال اعوام ترمله ، كمعين له ورفيق . وياللأسف ، ففي نهاية إحدى هذه الزيارات حدث ما وجدنا تماماً على نحو حميم وعميق لبقية أيامنا ـ فقد جاءنا خبر وفاة «اوديله» ـ الذي بقينا بعده نحن الاثنان آخر الاشقاء والشقيقات . ومنذ ذلك الوقت ، عدنا مرة ثانية متلازمين ، حتى خلال فترة معاناتك الطويلة جداً والقاسية ، رغم أننا لم نتمكن من رؤية بعضنا بعدها سوى مرة واحدة .

وحدث أيضاً خلال هذه الفترة الأخيرة من تقاربنا أن انهار شيء ما فقد اهميته ، شيء كان دائماً ما يربكنا ويفرق قليلاً بيننا وهو وضعي ككاتب أو بشكل أدق مكانتي في الحياة العامة ، الضجة المثارة حول الشهرة ،حشود المعجبين الحقيقيين والمزيفين الذي كثيراً ما كانوا عبئاً عليك بما يكفي . «أديلة» أخذت هذا الأمر باستخفاف اكبر ، بل في الواقع لقد منحها شيئاً من اللهو واشبع غرورها أن يكون لها أخ شهير . ولكن أنت في رزانتك الرائعة كان لك رأي إنتقادي جداً في هذه الشهرة ، وفي هذه الحياة العامة ، وهذه الاحتفالات والمعجبين بالتأكيد كنت تعرفين رأيي بكل هذه الأشياء ، إلاّ أنك كنت ترينني وترين حياتي يلتهمها ويفقرها الى درجة تتزايد أبداً هذا المسح الهائج ، كنت ترينني والواجبات تفرض عليّ ، وتمتصني وتسرقني من حياتي الخاصة . وكان هذا هو بالضبط ، حياتي الخاصة جداً برمتها ، التي كرست نفسك اليها والتي قاسمتني اياها وانت سعيدة بكل ما في الكلمة من معنى وأكثر من الممكن . سواء كنت مشهوراً أم لا ، فأنا أخوك ، وكنت كأخت مغرمة بي ، ولو كانت الشهرة قد ابعدتني عنك وعن الجماعة الطبيعية الضيقة للمقربين الي ، ومن المحتمل جداً أنك وجدت في ذلك خسارة لك ولي أيضاً . كنت مستعدة ان

تتقبلي هذه الخسارة المؤلمة ، وان تفهمي اني لا استطيع الخلاص منها، فليس عليَّ فقط أن أؤلف كتبي، بل أيضاً ان اتقبل كذلك قدر الامكان نتائج خربشاتي السارة المرهقة منها .

كان هناك أمر واحد في غاية الأهمية لم أبحثه بعمق معك ،مثلما لم اطرحه مع اختي الأخرى واشقائي واعني الايمان الذي تربينا عليه والذي لم نعد نحن الستة نحتفظ به. «فأديله» وانت و«هانز» كل على طريقته الخاصة بقي مخلصاً لايمان ، وعندي مبرر لاعتقد ان ايمانك هو الأقرب لايمان ابينا والأكثر انفتاحاً لتفريغه بصيغة ، بلى ، كما انعكس تقريباً بشكل كامل في دراستك لخلاصة العقيدة الدينية وفي ترانيم القرن السابع عشر الجميلة ، مع الاضافات الصغيرة من «سبنر» و «بنجل» و«سيسندروف» .

فالذي لم اتمكن من التحدث به بشكل جاد مع والدينا هوتاريخ انتقادي وشكوكي حول هذا الايمان وعثوري التدريجي على طريقي عبر تقوى ممزوجة باعتراف عميق بالعقيدة التي استمددتها من مراجع يونانية ، ويهودية وهندوسيةوصينية إضافة إلى المراجع المسيحية ـ وربما فكرت أن هذا الموضوع كان يصلح لأن يكون موضوعاً ملائماً للتحاور معك . إلاّ أن هذا الحوار لم يدر بيننا أبداً . كانت الكراهية والتحريم تقفان معارضتين في الطريق ؛ والاحترام للايمان الراسخ عند الآخرين وما يطبعنا من نفور مشترك لحشد الانصار من حولنا ، مما جعل التحاور بيننا مستحيلاً ، وأعمق من هذا كله كان الاحساس بأنه لا ينبغي لنا أن نزعزع أو نهز ما كان يربطنا جميعاً بقوة . لذا خلقنا نحن الاشقاء والشقيقات حالة هدوء جميلة حليمة تعلو اللجة العقائدية وعشنا وسطها . ولو وضـع إيمانك المسيحي في مواجهـة عارية مع ايماني بالعالم ،

لافترقا مثل الماء والنار ، ومثل النعم واللا . ولكن أي إيمان حر من كل قيود قد وجه حياتك كما فعل معي مثل بوصلة داخلية. وكان هذا رغم كل شيء رابطاً مشتركاً بينـنا ، وربما كان شيئاً جميلاً أن نشعر به أمراً مقدساً ، بعيداً عن المتناول .

سأودعك الآن «مارولا» دون أن أومن أننا سنجتمع ثانية كما كنت واثقة في أحلامك الأخيرة التي عذبتك بلا هوادة . ولكني لم افقدك ، أنت معي مثل جميع موتاي الأعزاء . ومثلما رافقتني «اديله» أو أمي بين حين وآخر ليحذراني من إهمال كل ما هو مقدس وجليل في خضم الحياة اليومية ، وأنت كذلك قبل الجميع ستقفين بجانبي حين أقع في خطر الغموض أو التفوه بالزيف بسبب التهور ، وبسبب العبث المشوب رغم هذا بالعناد الأحمق . ستلقين ، كما أومن وآمل ، بنظرة من داخل هالة عذريتك ، وهالة الاستقامة ، والصدق الخالص النقي حتى في الحب الأخوي .

أحداث وقعت في انجادين

١٩٥٣

أصدقائي الأعزاء (*) : كلما طال الزمن في التعامل مع اللغة ، كلّما صار الجهد المبذول فيها أكثر صعوبة وأكثر التباساً . ولهذا السبب وحده لن أكون قادراً عما قريب على تدوين أيّ شيء ، على الاطلاق . لذا ينبغي قبل أن أخبركم عن تجاربي في انجادين أن نصل إلى فهم ما نعني «بالتجربة» ، فخلال الفترة القصيرة نسبياً من حياتي الواعية ، فقدت هذه الكلمة مثل غيرها الكثير من القدر والأهمية ، إنه درب طويل ينحدر من العتمة الذهبية التي كانت تتمتع بها ، مثلاً في أعمال « ديلثي » الى السقوط عند الصحفي الذي أخبرنا كيف «خاض تجربة » مصر أو سيسلي ، أوكنوت هامسون ، أو الآنسة س الراقصة ، في حين أنه قد يكون حتى لم ير ولم يدون هذه الأشياء بجودة وصدق .

ولو أنني تماديت في رغبتي وحاولت أن أصل اليكم بواسطة الطريق غير المباشر للكلمة المكتوبة وحبر عمال المطابع ، فسيكون عليّ أن أغمض عيني

(*) «أحداث وقعت في انجادين » هي رسالة موجهة الى العديد من أصدقاء هسه .

قليلاً وأحاول أن أعزز التصور بأن لغتي وأسلوبي القديمين في الكتابة ما زالا يملكان نفس التأثير عليكم ، كما هما بالنسبة لي ، وإن «التجربة» بالنسبة اليكم ، كما هي بالنسبة لي ، أكثر من مجرد انطباع حسي خاطف ، أو حادث عرضي من بين مئات المصادفات التي تقع في الحياة اليومية .

وهنالك أمر مختلف ، لا علاقة له باللغة أو بمهنتي ، وهو الأسلوب الذي يتعامل فيه العجائز مع الأشياء . وهنا لن أسمح بل ينبغي أن لا اسمح لنفسي بالانجراف في الخيال ، أو الوهم بل يجب أن تتمسك بما تعرفه : فالشخص الأصغر سناً أو اليافع لا يملك تصوراً عن الطريقة التي يواجه فيها كبار السن التجربة . فمن الناحية الجوهرية، ليس هنالك أية تجارب جديدة لهم . فهم ومنذ أمد بعيد قد أخذوا حظهم من التجارب الملائمة الأولية الحتمية، وأصبحت تجاربهم «الجديدة» التي يخوضونها دائماً اندر ، وصوراً ، مكررة للتجارب التي حدثت كثيراً في السابق ، أو هي ضربات فرشاة حديثة فوق لوحة من الواضح أنها منتهية. فهم يغفلون الأحداث الماضية بطبقة خفيفة جديدة من اللون أو من طلاء الورنيش و غطاء واحد على رأس عشرة ، أو رأس مئات الأغطية التي تسبقه ، ورغم هذا فهم يفيدون منه شيئاً جديداً ؛ رغم أنهم بالتأكيد ليسوا الأولين ، ولكن لأنهم حقيقيون ، لأنهم قد جلبوا معهم من بين الأشياء الأخرى مواجهة الذات وتمحيصها . والإنسان الذي يشاهد البحر أو يستمع الى «فيغارو» للمرة الأولى يتكون لديه انطباع مختلف وعادة ما يكون أقوى من الذي يفعل ذلك للمرة العاشرة أو للمرة الخمسين . ولكي أكون دقيقاً ، فإن الأخير يحمل للبحر وللموسيقى توقاً أقل ، إلاّ أنه يملك عينين وأذنين أكثر خبرة وأكثر حدة ؛ فهو لا يسجل الانطباع الذي فقد جدته بشكل مختلف وعلى نحو أكثر تمييزاً من الآخر فحسب، بل هو يسترجع بشكل لا مناص منه

الانطباعات الأولى ؛ فهو يجدد تجربته مع البحر أو مع «فيغارو» باسلوب جديد إضافة الى أنه يلتقي مع ذاته الأولى ومع عينيه وأذنيه الغضتين إما بابتسامة ، أو بسخرية ، أو باندفاع وحنو، أو خجل أو فرح، أو بشعور بالندم . وعلى العموم ، فمن اللائق للمتقدمين في السن أن يشعروا تجاه طرق الإدراك واكتساب التجربة المبكرة بتعاطف أكبر أو يكونوا أكثر ارتباكاً بدلاً من مشاعر الترفع ، ولا سيما الإنسان المنتج ، الفنان ، حين يواجه ميعة صباه الضائع بكل ما يملكه ذلك الصبا من قوة وحده وخصب . فمن النادر جداً أن ينتابه الاحساس الذي يقول «آه ، كم كنت ضعيفاً وأحمق في ذلك الحين ! » بل بالأحرى ستدغدغه الرغبة هذه : «آه ، لو كنت اتمتع بشيء من قوة تلك الأيام ! » .

ومن بين التجارب التي قدر لها أن تكون ملائمة وتحمل أهمية لي إلى جانب التجارب الإنسانية والفكرية هي التي كانت تخص الطبيعة . فبالإضافة الى المناظر الطبيعية التي كانت موطني وكانت تنتمي إلى العناصر المكونة لحياتي الغابة السوداء وبازل وبحيرة كونستانس وبيرن وتسينو - واخترت مناظر طبيعية قليلة ليس عدداً كبيراً - ومميزة من خلال رحلاتي ، وتجوالي ورسمي والدراسات الأخرى وقد عينتها كمعالم أساسية ؛ شمال ايطاليا وبالذات توسكانا ، البحر المتوسط ، وأماكن من ألمانيا ، وغيرها . لقد شاهدت الكثير من أجزاء الطبيعة كان معظمها تقريباً يشيع البهجة في نفسي ؛ وقليل جداً منها فقط حتم القدر عليها أن تكون مريحة بشكل عميق ودائم ، وأن تزدهر بالتدريج إلى أوطان ثانية صغيرة وربما كان أجمل هذه المناظر هو شمال انجادين الذي ترك انطباعاً قوياً في نفسي .

لقد جئت إلى وادي الجبل هذا ربما عشر مرات ، أحياناً كنت أمضي

بضعة أيام فقط ، ولكن في الغالب كنت أقضي أسابيع هناك . كانت المرة الأولى التي رأيته فيها قبل خمسين عاماً على وجه التقريب فحينما كنت شاباً أمضيت الاجازة في بريدا فوق برجون مع زوجتي وصديق صباي فينك وعندما حان موعد الرجوع إلى الوطن قررنا أن نقوم برحلة سير شاقة أخرى .وفي برجون وضع لي إسكافي مسامير جديدة في نعل حذائي ، وشرعنا بعدها في رحلتنا وحقائبنا تعلو ظهورنا من خلال البولا عبر طريق جبلي طويل وجميل ومن ثم عرجنا على درب الوادي الذي يفوق كثيراً سابقه في الطول. فيمتد من بونته الى سانت موريتس طريق ريفي بلا سيارات ولكنه يضج باعداد لا تحصى من عربات صغيرة جداً يجرها حصانان والتي تثير حولها غيوماً لا تنقطع من الغبار . في سانت موريتس ودعتنا زوجتي واستقلت القطار العائد الى الوطن .
بعدها أخذ صاحبي الذي كان منزعجاً من الارتفاع ومن النوم السيء من الليل يزداد باستمرار صمتاً وهياجاً. ظهر أعلى واد لنهر «إن» امام ناظري ، مثل رؤية الجنة ، رغم الغبار والحرارة . انتابني إحساس بأن هذه الجبال والبحيرات ، وعالم الأشجار والأزهار هذا لديه المزيد ليخبرني به أكثر مما يمكن أن استغرق فيه وان استوعبه بلقائنا الأول ، وأنني سأرجع اليه منجذباً في وقت قادم يوماً ما، وأن وادي الجبل شديد الانحدار هذا الغني جداً بالأشكال ، والجليل جداً والمتناغم ، كان مهما بالنسبة لي ، ولديه شيء ثمين ليمنحه الي أو ليطلبه مني .
بعد أن قضينا ليلة في سيلس ماريا (حيث اكتب هذه المذكرات اليوم) ، وقفنا على حافة البحيرة الأخيرة في انجادين ، وعبثاً كنت أحث رفيقي في السفر المنهك القوى ليرفع عينيه وينظر عبر البحيرة الى مالويا وصوب «برجل» وأن يرى كم كان هذا المنظر خيالياً في روعته وجماله . لكن شيئاً لم ينفع معه ،

فقال منفعلاً ، وهو يشير بذراع ممـدودة إلى أعماق الفضاء الهائلة : «أوه ، دعك من هذا فما ذلك إلا منظر مبهرج مألوف تماماً . وإذا ذاك اقترحت عليه أن يأخذ الطريق الريفي إلى مالويا وآخـذ أنا ممر المشاة في الجانب الآخر من البحيرة . في تلك الأمسية جلسنا في شرفة «اوسترياقكيا» متباعدين ،كل منا يجلس وحده عند مائدة صغيرة ، وتناولنا طعامنا على هذه الحال ؛ ولم نحزم حقائبنا إلاّ في الصباح التالي ومن ثم ذهبنا نثب بفرح على الطرق المختصرة لطريق «برجل» .

وأما المرة الثانية فحدثت بعد بضعة أعوام حينما ذهبت إلى سيلس للقاء ناشري البرلييني ، س. فيشر ولمدة يومين أو ثلاثة فقط . وبقيت في ضيافته بنفس الفندق الذي تكررت زيارتي له في كل صيف خلال السنوات القليلة الأخيرة . هذه الزيارة الأخيرة لم تترك في الانطباعات سريعة ورغم ذلك ما زلت اتذكر الأمسية الطيبة التي قضيتها مع «ارثور هوليسشر» وزوجته ؛ فقد كان لدينا الكثير لنقوله لبعضنا البعض في تلك الأيام .

وقد مررت بتجربة أخرى في ذلك الوقت ، مشهد كان يزداد قيمة وأهمية بالنسبة لي في كل زيارة متتالية ويمس أوصال قلبي : منزل كئيب بعض الشيء ينوء بثقله على جدار حجري حيث أنشأ نيتشه بيته في انجادين. يحيط بهذا المنزل عالم الرياضة والسياحة والفنادق الكبيرة البراق الصاخب ، ويقف اليوم بتحد ، يبـدو عليه شيء من الانزعاج والاشمئزاز ، ومثيراً الرهبة والتعاطف ، ومذكراً بالحاح بصورة الرجل الشامخة التي نصبها الناسك حتى في تعاليمه الكاذبة .

بعدها ، تلاحقت الأعوام دون أن أرى انجادين ثانية وتلك كانت سنواتي

في بيرن ، سنوات الحرب المحزنة . وفي بداية عام ١٩١٧ وعندما كنت مريضاً نتيجة العمل الذي فرضته الحرب وحتى بشكل أكبر من جراء مأساة الحرب العامة وقد أمرني طبيبي بالحاح أن أبتعد من هنا ، دعاني صديقي الشغابي ، الذي كان في مصحة تقع فوق سانت مورتيس أن أوافيه الى هناك . كان ذلك في منتصف الشتاء ، الشتاء المرير الثالث للحرب ، وقد صرت على معرفة بجانب جديد من الوادي ، بروائعه وقسوته ، بقدراته على الشفاء والراحة . تعلمت ثانية كيف أنـام ، واستعدت شهيتي ، وقضيت أياماً اتزحلق فوق الثلج أو أتزلج ، وبعد فترة قصيرة تمكنت من تحمل الأحاديث والاستماع للموسيقى مرة أخرى ، حتى أنني استطعت أن أعمل قليلاً ، وفي بعض الاوقات كنت اتسلق بمفردي فوق الزحلوفتين الى ملجأ كورفيليا ، حيث لم يكن حيث لم يكن بإمكان أية مركبة كبلية أن تصل إلى هناك في ذلك الوقت ، وعادة ما أكون الوحيد هناك . وفي شباط عام ١٩١٧ أمضيت صباحاً في سانت مورتيس لا يمكن نسيانه . إذ ذهبت في مهمة وما أن دخلت الى الساحة المقابلة لمكتب البريد حتى خرج رجل يرتدي قبعة من الفرو من مبنى المكتب ، الذي تجمع أمامه حشد كبير من الناس ؛ ابتدأ الرجل يقرأ بصوت عالٍ ما جاء في برقية كانت قد وصلت في الحال . اجتمع الناس حوله ، وهرعت أنا أيضاً باتجاهه وأول عبارة تمكنت من فهمها كانت «لقد تخلى القيصر عن منصبه»[1] كانت أنباء عن ثورة شباط . ومنذ ذلك الحين مررت عبر سانت مورتيس راكباً أو ماشياً مئات المرات ، ولكن دون أن يغيب عن بالي إلاّ نادراً ذلك المكان والصبـاح الشباطي من عام ١٩١٧ ، وأصحـابي والذين ضيفوني في تلك الأيام ، والذين غادروا الحياة جميعاً منذ زمن بعيد . ومن الأشياء التي هزتني

---

(١) "Le czar demissiona"

وتركت أثراً عميقاً في روحي ما حدث بعد فترة قصيرة من مرضي وتماثلي من ثم للشفاء في هدوء شانتريلا وعندما أحسست بصوت منادي البلدة محذراً وواعظاً يدعوني للعودة إلى الحاضر وإلى ما كان يدور في العالم . في كل مكان أذهب إليه في هذه المنطقة ، في كل مكان تلتفت الي الأيام الخوالي والقى وجهي ونفسي ، هذه النفس التي كانت تمتد أمام ناظريها منذ زمن بعيد نفس هذه المشاهد ؛ فقد قابلت الرجل الذي لم يكمل بعد الثلاثين من عمره وهو يحمل حقيبته فوق ظهره لكيلو مترات كثيرة في حرارة آب ، والتقيت بالرجل الذي يكبره أثنى عشر عاماً ، وهو يمر بأزمة خطيرة ، بعد أن أفاق من آلام الحرب ، معذباً وكهلاً ، وقد وجد هنا استراحة قصيرة ليستفيد نفسه ، وليجددها ويقوي قدرته على التأمل . ومرت أمامي تلك المرحلة المتأخرة من حياتي وقت كنت اتزلج بصحبة أصغر بنات توماس مان ، وراعى المركبة الكبلية في كورفيليا المشيدة مؤخراً ، أحياناً كان يرافقني صديقي لويس الرهيب وكلبه الدّشهد(*) الماهر والتقيت في الليل بالشغيل الصامت في مخطوطة «نارسيوس وجولدموند» . آه ، يا للتواتر الخفي للتذكر والنسيان الذي يحدث في أرواحنا ، وكم هو سرّي وبهيج ومربك في الوقت ذاته ، حتى بالنسبة لمن كان على اطلاع إلى حد ما على طرق ونظريات علم النفس الحديث ! كل منا يعرف ما تختزنه ذاكرته وما يمكن أن تتحكم فيه . ورغم هذا ، لا أحد منا يقدر أن يجد طريقه في الفوضى الرهيبة لما قد نسيه وأحياناً يحدث بعد أن تكون قد تلاحقت الأعوام تلو الأعوام ، ومثل كنز دفين أو قنبلة تعود لزمن الحرب عثر عليها مزارع أثناء الحراثة ، تندفع بعض اجزاء مما قد نسيناه تشق طريقها كأشياء لا فائدة لها أو عسيرة الهضم ، تخرج للنور ثانية . وفي مثل هذه اللحظات (في

(*) الدّشهند : كلب الماني صغير طويل الجسم قصير القوائم

نارسيسوس وجولدموند) صورت واحدة من هذه اللحظات الحيوية تبدو لنا كل محتويات ذاكرتنا المزدحمة ، والثمينة والرائعة مثل ، ركام ضئيل من الغبار. نعتمد نحن الشعراء والمفكرين على الذاكرة كثيراً ، فهي رأس مالنا ، الذي نعيش عليه ـ ولكن لو فاجأنا اقتحام من هذا النوع القادم من العالم السفلي حيث الأشياء المنسية والمهملة ، عندها ستكون لهذه الأشياء التي استرجعت ، سواء أكانت سارة أو لا ، ثقلاً أكثر وقوة أكبر من الذكريات التي حفظناها بكل عناية . كنت اعتبر احياناً الفكرة الكامنة وراء دافع التجول في العالم وغزوه ، والتوق الى ما هو جديد وما لم تره أعيننا بعد ، وإلى السفر ، وإلى الأراضي الغريبة ، التي يألفها أغلب أصحاب الخيال ، وخاصة في أيام شبابهم. هي نفسها فكرة التوق للنسيان لإبعاد كل ما كان جائزاً ولإخفاء المناظر المعتادة بالعديد من المناظر الجديدة قدر الإمكان. ومن الناحية الأخرى فإن ميل الكهول، إلى العادات الراسخة والتكرار ، والبحث المستمر عن ذات المواقع ، والأشخاص والمواقف ، سيكون عند ذاك محاولة للتمسك بمكنونات الذاكرة ، وحاجة لا تروى ابداً لتطمين النفس بما هو مخزون في الذاكرة ، وربما يكون أيضاً رغبة ، أو أملاً غير معترف به ، بأنه لا بد أن تزداد هذه الذخيرة الثمينة ، فلربما في يوم ما نستعيد هذه التجربة أو تلك ، وهذا اللقاء أو ذاك ، هذا أو ذاك المنظر أو الوجه الذي كان قد لفه النسيان وضاع ، لنضيفه الى محتويات الذاكرة . إن جميع الطاعنين في السن ، سواء عرفوا ذلك أم جهلوه ، هم في بحث عن الماضي ، الذي يبدو في الظاهر أنه لا يمكن استرجاعه ؛ ولكن من قال ذلك فهو لم يرحل دون رجعة ، فمن الممكن ، في ظروف مناسبة من خلال الشعر مثلاً ، أن نعيده وننقذه إلى الأبد من مملكة الأشياء الراحلة .

وهناك طريقة أخرى لاسترجاع الماضي بحلة جديدة ، وهي أن نلتقي ثانية بالأشخاص الذين عرفناهم منذ عقود ماضية ولم نرهم منذ كانوا أصغر سناً بكثير. كان لي صديق يسكن انجادين بمنزل مريح في غاية الروعة تغطي جدرانه الواح خشب الصنوبر ويمتلىء بالمواقد المصنوعة من الحجر الصابوني ؛ وهو الساحر «يوب» ، صديق كلينجسور .كان غالباً ما يمتعني ويدللني على طريقة الأمراء وقت كنت ما أزال متزلجاً وزائراً منتظماً لملجأ كورفيليا . آنذاك كان يلعب في بيته ثلاثة أطفال فاتنين ، صبيين وفتاة أصغر منهم ، تستوقف من يراها فوراً لأن كلا عينيها كانت تفوق فـمها الصغير حجماً . لم أكن قد رأيت الساحر«يوب» منذ عشرات السنين ، فما عاد يزور الجبال ولكن حدث منذ بضعة أعوام أن التقيت زوجته ثانية وفي بيتها رأيت الأطفال الذين اصبحوا الآن كباراً : الموسيقى ، والتلميذ الذي لم يتخرج بعد ، والفتاة ، التي ما زالت تتميز بعينيها الكبيرتين وفمها الصغير ؛ وقد أصبحت ذات جمال اخاذ وتتحدث بحماسة عن الاستاذ الباريسي الذي تدرس معه الأدب المقارن . كانت موجودة أيضاً في منزل والدتها في الأصيل عندما كان يعزف صديقنا «إدفين فيشر» باخ و موزارت وبتهوفن ، ومنذ ذلك الوقت في بيرن، عندما كنت بكامل فتوتي عزف لي هذا الفنان الموسيقى التي وضعها لقصائدي الاليزابيثية. كان يظهر مرة بعد أخرى ، في مراحل مختلفة من حياتي وفي كل مرة كانت صداقتنا العميقة تستمر وتقوى .

وهكذا في كل عودة الى هنا كان الماضي الحبيب يأتي ليرحب بي ، وأعرف أنه عصيّ على الاسترجاع ، إلاّ أنني اتحايل على استحضاره في الذاكرة. وحين اقيس الماضي بالحاضر وبأناي اليوم يعتريني الفرح، والألم،يطربني ويخجلني ، يحزن قلبي ويرضيني . فحين أنظر الى المنحدرات

التي كنت ذات مرة قادراً على تسلقها دون جهد يذكر سواء بالسير على قدمي أو فوق زحلوفتين ، ولا يمكنني أن اتسلق اليوم اقلها علواً ، وحين أفكر بأصحابي الذين شاركتهم العديد من تجاربي في انجادين ، والذين يخلدون الآن منذ أمد طويل في قبورهم ، يعتصر قلبي وجع شفيق .كان استدعاء تلك الأوقات وأولئك الاصحاب سواء في الحديث أو في التفكير المتوحد ، وتصفح البوم الذكريات المزدحم ، متعة دائماً ما يصاحبه أمل واهن في أن تظهر صورة ضائعة منسية تفوق كل البقية تألقاً . وفي الوقت الذي تضعف فيه طاقات المرء وتقصر رحلات السير الصغيرة عاماً بعد عام وتصبح أكثر مشقة تتعمق باطراد متعة التذكر واغناء الآف الثنايا المكونة لنسيج الذاكرة بالتفاصيل الجديدة عند العودة الى هنا كل عام . كان لرفيقة حياتي نينون دور في ذلك ، فمنذ شتاء التزلج قبل ثلاثين عاماً تقريباً ، وأنا لا ازور هذا المكان بدونها ، وكانت تصحبني في اماسي بيت الساحر مع س.فيشرومع فاسرمان ، وتوماس مان. وقبل عامين حضرت معي جمع الشمل الكبير مع زميلي في المدرسة من ماولبرون ، اوتو هارتمان ، الذي كان ابهج وانبل ممثل من بين اصدقائي كلهم لطرائق الالمان والشغابيون الجيدة في التفكير.كانت عطلة بهيجة فقد منحنا صديقنا جل اهتمامه في عطلته القصيرة ، وقد اصطحبناه في السيارة الى مالويا ومنها إلى يولير وكانت الجبال تشمخ بصفاء تحت سماء آب العالية . وفي تلك الأمسية ودعته وأنا مثقل القلب . اما الأمنية التي ترددنا في البوح بها وهي عسى ان نلتقي ثانية فقد تحققت : فقبل مماته بايام قليلة كان ضيفي من جديد في مونتانيولا "in montangnola dona ferens" وقد اخبرتكم عن ذلك في رسالة تذكارية .

في هذا الصيف جئت ، الى هنا متخذاً طريقاً جديداً . ففي يوم قيامنا

بالرحلة دفنت الصخور المتساقطة الطريق في «برجل» وتحطمت الجسور ، لذا كان علينا ان نتخذ مسلكاً جديداً غير مباشر عن طريق سوندريو ، تيرانو ، بوشكيافو ، ممر برنينا ، ورغم كونها رحلة طويلة الا انها كانت في منتهى الروعــة . فما لبث ان اختلطت آلاف المشاهد منها في ذهني ثــم بدأت بالتلاشي ؛ وافضل ما حفظته في ذاكرتي الانطباع عن مئات التلال ذات الثنايا، والمصفوفة جنباً إلى جنب في شمال ايطاليا تغطيها الكروم . ولو رأيت هذا المشهد في اعوامي الاولى لما اثار في اي اهتمام يذكر . فما كنت متلهفاً اليه آنذاك هو الطبيعة غير الآهلة ، وغير الداجنة ، والوحشية ، وكنت أفضلها ذات طابع رومانسي ، ولكن بعد مضي زمن طويل ، ومع كل عام يمضي ، ازداد ولعي واهتمامي بتفاعل الانسان مع الطبيعة ، في تشكيلها والتحكم فيها ، والاجتياح السلمي لها بالمزارع والأعناب : خلال شقوق الأرض ، والجدران ، والمسالك التي تتشبث بمنحدرات التلال راسمة الحدود لأشكالها عبر مهارة المزارع وكــده في حرب صامتة حرون مــع القفار المهلكة لقوى الطبيعة ونزواتهـــا .

كان لقاء الصيف المهم الأول لقاء انسانياً وموسيقياً . فقد كان عازف الفيولونسيل (*) «بيير فونيه» ينزل فيه . كان «فورنيه» في نظر الكثيرين الأول في مجاله ؛ وفي رأيي أنه كان انقى العازفين كلهم ، عازف كمان يوازي سلفه كازالس ، وربما يفوقه في البراعة الفنية بسبب جودة ودقة عزفه إضافة إلى تمتع برامجه بالذوق والنوعية الراقية . ولا يعني ذلك أنني على اتفاق تام ودائم مع فورنيه بشأن هذه البرامج ؛ فهو يعزف بروعة للعديد من المؤلفين الموسيقيين الذين بإمكاني أن أستغني عن موسيقاهم دون أن يخالجني أي شعور بالألم ،

(*) الفيولونسيل : كمان كبير.

برامز ، مثلاً ، مع أن موسيقاه رغم ذلك جادة ويمكن تأملها بعمق ، بيد أن العجوز الشهير قد عزف ذات مرة إضافة إلى الموسيقى الأصيلة كل أنواع الأعمال التفاخرية والسخيفة . كنا نعرف فورنيه وزوجته وابنه لعدة سنوات ، وكنا كثيراً ما نستمع اليه في الحفلات الموسيقية ، ولكن في الفندق كان كل منا يترك الآخر في سلام ، ويحيي أحدنا الآخر بهزة رأس فقط وعن بعد، ونشفق على بعضنا حين يرى كل منا الآخر وقد حاصره الفضوليون . وفي هذه المرة حدث بعد الحفلة الموسيقية في الـ«راتهاوس» في «سمادن» أن تعارفنا بشكل أفضل ، وأبدى رغبته بكرم أن يعزف لي في وقت ما على انفراد . ولأن وقت رحيله كانت قريباً ، لذا كان لا بد ان تقام حفلة العزف المنفرد هذه في اليوم التالي ، وصادف أن كان ذلك يوم نحس لي ، كنت فيه معتل الصحة ، منفعلاً ومرهقاً ، ومكتئباً . كان واحداً من تلك الأيام التي يفرضها علينا محيطنا ورغبات قلوبنا الجامحة حتى في مرحلة حكمة الشيخوخة الزائفة . فتحتم علي أن أضغط على نفسي بعض الشيء لأذهب الى غرفة الفنان في الموعد المحدد في آخر الأصيل ؛ وبسبب كآبتي ومزاجي غير الرائق فقد بدا لي أنني احتل مكاني في مجلس فــرح وأنا مستنزف القوى . دخلت الحجرة ، قدم لي كرسياً ، ثم جلس القائد وأخذ يدوزن أوتار آلته ، وبدلاً من جو الإرهاق ، والخيبة ، والاستياء الذي كنت اعانيه مع نفسي ومع العالم ، أحاطتني فوراً الحان سيباستيان باخ الصافية البالغة البساطة كما لو أنني قد رفعت على حين غرة بعيــداً عــن وادينا الجبلــي ، الذي فقد في ذلك اليوم سحــره في عينــي الــى عالــم جبلــي أسمى بــكثيــر ، وأصفــى ، وأكثــر

شفافية يتسع لكل الأحاسيس ، يوقظها ويجعلها أكثر حدة. وما لم أكن قادراً على فعله خلال اليوم ، وهو أن أخطو من المكان العادي الى كاستاليا، فعلته الموسيقى لي خلال لحظة . طوال ساعة ونصف من الزمن جلست استمع الى العزف المنفرد للحن باخ الاوركستري ذي الجزئين مع وقفات قصيرة تتخللها احاديث صغيرة ، وكان عزف الموسيقى القوي ، البارع ، الهادىء ، مثل الخبز والنبيذ للجائع ، ومغذياً ومطهراً ، اعان روحي على استرجاع شجاعتها وبعث حياتها من جديد. إن مقاطعة الروح التي شيدتها لنفسي كملاذ وملجأ عندما كنت أغرق في قذارة عار المانيا والحرب ، عادت تشرع ابوابها على سعتها ، وادخلتني الى عيد عظيم حيث المهابة والسكينة ، وهذا ما لم يتحقق البتة في قاعة الحفلة الموسيقية . وأنا اقطع طريق عودتي ، كنت ممتناً وقد امدتني بالقوة طويلاً بعد ذلك .

في أيامي الأولى ، كثيراً ما حضرت مثل هذه الحفلات الموسيقية وكانت لي دائماً علاقات حميمية وودّية مع موسيقيين كونت من بينهم العديد من الأصحاب . ولأني كنت أعيش في عزلة ، ولم يعد بمقدوري السفر ، أصبحت مثل هذه الأوقات السعيدة بطبيعة الحال قليلة الحدوث . وإلى جانب ذلك ، فمن نواح عديدة كنت كثير التطلب ومتحفظاً في تقييمي للموسيقى وفي الحكم عليها . فلم أنشأ مع عازفي الحفلات الموسيقية التي تقام في القاعات الكبيرة بل مع موسيقى الحجرة وكان أفضلها على الدوام تلك التي يستطيع المرء أن يشارك فيها . وفي صباي ، دخلت خطواتي الأولى في عالم الموسيقى مع الكمان وشيء من الغناء ، وكانت شقيقاتي وكارل من بين أشقائي بشكل خاص يعزفون البيانو . فكارل وثيو كانا مغنين ، ولو كنت قد استمعت في

بداية شبابي الى سوناتات بتهوفن أو الى الليدة الألمانية الأقل شهرة لشوبرت التي كان يعزفها هواة لم يبرزوا معنى القطعة الموسيقية كما يفعل الفنانون المحترمون فإن ذلك لم يكن ليخلو من نفع وجزاء فلو استمعت مثلاً ، في الغرفة المجاورة الى كارل وهو يجاهد ويصارع من أجل سوناتا ومن ثم «ينولها» في النهاية ، فبإمكاني أن أشاركه الشعور بالانتصار والنتائج الجزية للمعركة. فيما بعد ، وتحديداً في أول الحفلات الموسيقية التي استمعت اليها ، والتي يعزفها مشاهير الموسيقيين ،كنت بلا شك في بعض الأوقات استسلم لسحر البراعة في الأداء كما لو أنني استسلم للسكر . فقد كان شعوراً لا يوصف ان تستمع الى مختصين كبار يتحكمون وهم مبتسمون بالمشاكل التقنية دون جهد ظاهر ، مثل ذلك البهلوان الذي يسير علي الحبل أو يمسك الأرجوحة . وكانت هناك عذوبة تكاد تكون موجعة لو أضيف الى المقاطع المناسبة قليل من التأكيد وكثير من الصقل والذبذبة المتلهفة ، والاختصار السوداوي للصوت . إلاّ أن هذاالنوع من البهجة لم يكن ليستمر لفترة طويلة جداً . كنت معافىً لدرجة تجعلني ادرك كم هي محدودة هذه البهجة ، وتجعلني أنظر الى وراء السحر الحسي للعمل ذاته وإلى روح المعلم ، وليس الـى روح قائد الفرقة الموسيقية أو العازف المنفرد رغم تألقها . وربما أصبحت بمرور السنين مفرط الحساسية تجاه جاذبية الخبرة التقنية وإلى الانغماس القليل في القوة ، أو العاطفة أو العذوبة التي تضاف الى العمل . ولم أعد أحب القادة والفنانين البارعين أو الحالمين ، وأصبحت من المعجبين بالموضوعية. وعلى أية حال كنت قادراً طوال السنين على تقبل المبالغة عن طيب نفس في الجانب المتعلق بالزهد أكثر بكثير من نقيضه . وأما الآن فقد أشبع صديقي «فورنيه» تماماً هذا الموقف وهذا الخيار .

بعد ذلك بفترة قصيرة واجهتني تجربة موسيقية أخرى خرجت منها بنتيجة مضحكة مرحة حدثت في حفلة موسيقية أحيتها «كلاراهاسكيل» في«سانت مورتيس» . وباستثناء ثلاثة سوناتان لسكارلاتي[1] ، لم يكن البرنامج مثلما تمنيت تماماً : فقد كان على وجه العموم برنامجاً جيداً ، وراقياً ، ولكن فيما عدا مقطوعات سكارلاتي، لم يكن من بين المقطوعات واحدة أفضلهـا . ولو كان الأمر بيدي لاخترت سوناتيتن أخريين لبتهوفن . بعدها ، أعلن عن المقطوعة التالية وكانت «بونتن بلاتر» لشومان[2] وهمست لنينون قبل بدء العزف المنفرد عن أسفي لو كانت تنتظرنا « فالدسين » بدلاً من هذه المقطوعة ، لأنها أفضل واكثر قرباً لي بأية حال ، وإنه لشيء مهم جداً لي أن أستمع الى مقطوعة «الطير يشبه النبي »[3] ، أقصر مقطوعات شومان والمفضلة لدي كلما سنحت لي الفرصة . صارت الحفلة جميلة ، حتى أنستني خياراتي المفضلة ورغباتي البالغة الخصوصية ،ومن المؤكد أن الأمسية كانت علاوة على ذلك مبشرة بالنجاح . وقد قدم لنا الفنان ، الذي صفق له الجمهور بحماسة ، ما نرغب في سماعه ، بل وأكثر من هذا ، عزف مقطوعتي الأثيرة «الطير يشبه النبي» . وكلما سمعت هذه المقطوعة السامية الغامضة اتذكر المرة الأولى التي سمعتها فيها ، وأرى منزل جاينهوفن وحجرة زوجتي والبيان ووجه ووجه الضيف العزيز ، ذي اللحية الطويلة ، والوجه الشاحب والعينين الحزينتين

---

(١) سكارلاتي : - يعود هذا الاسم الى السندرو سكارلاتي (١٦٥٨ - ١٧٢٥) مؤلف موسيقي ايطالي ورائد الاوبرا الايطالية ، والى ابنه دومينيقو سكرلاتي (١٦٨٥ - ١٧٥٧) وهو أيضاً مؤلف موسيقي.

(٢) شومان ، روبرت (١٨١٠ - ١٨٥٦) مؤلف موسيقى الماني ، تأثر بيتهوفن وشوبرت .

(٣) الطير يشبه النبي : - Vogel als Prophet .

الغامقتين ، وهو ينحني بشدة فوق مفاتيح البيان . لم يمض زمن طويل حتى انتحر هذا الصديق الطيب والموسيقي الحساس . وقد واصلت إحدى بناته الكتابة لي بين فترة وأخرى وكانت سعيدة لسماعها مني أشياء طيبة ومؤثرة عن والدها الذي لم تكد تعرفه . كانت هذه الأمسية في قاعة الحفلة الموسيقية الضاجة بجمهور دنيوي إلى حد ما ، مهرجاناً صغيراً أيضاً لاستعادة ذكريات من ذلك النوع الحميم والعزيز الى القلب. ففي مسيرة حياة طويلة يحمل المرء معه الكثير الذي لا يمكن أن ينطفيء إلاّ مع موته. مات الموسيقي ذو العينين الحزينتين منذ ما يقارب النصف قرن ، ولكنه ما يزال حياً بالنسبة لي وفي بعض الأوقات يصبح قريباً جداً ، وبقيت مقطوعة فالاسين التي تحكي عن الطير حتى لو استمعت اليها بعد أعوام من الزمن إضافة الى سحر شومان الخاص ، منبعاً للذكريـــات دوماً ، التي تشكل غرفة البيان في جاينهوفن والموسيقى وقدرة ، أجزاء منها ليس إلاّ . كثير من الذكريات الأخرى أيضاً كانت تقتحمني فجأة ، تعيدني الى الصبا ، استمع إلى أشقائي وشقيقاتي الأكبر مني وهم يعزفون عل البيان ، فتعود معزوفة شومان لتدور في رأسي . كذلك لم أنس أبداً الصورة الأولى التي رأيتها لشومان في طفولتي .كانت لعبة بطاقات للاطفال بالألوان ، ربما لم تعد طباعتها الملونة مقبولة في الثمانينات ،تضمُ صور الفنانين المشهورين مع قائمة بأعمالهم الرئيسية ؛ أمثال شكسبير ، روفائيل ، ديكنز ، ولترسكوت ، لونجفيلو ، وغيرهم . كان لهؤلاء طيلة حياتي وجوهاً مثل تلك الموجودة في البطاقات الملونة . ومن المحتمل أن تكون لعبة البطاقة ذات الثلاثة وجوه تلك مع الهيكل المكرس لجميع الصور والأعمال الفنية المهيئة للشباب والبسطاء ، المحفز الأول لفكرة انشاء جامعة شاملة للأدب والفنون لكل العصور والثقافات والتي

اتخذت فيما بعد الاسمين كاستاليا ولعبة الكريات الزجاجية .

عبر العقود التي مرت على صلتي بوادي الجبل هذا ، أجمل مسقط رأس لنهر عظيم عرفته في حياتي، من الطبيعي أن أكون قادراً على ملاحظة التطورات التي تحدث بعد ادخال المكتبة ، وغزوات المضاربة ، طوفان الغرباء وتغييرات اخرى توغلت بعيداً إلى جوار موطني تسينو تقريباً . وحتى قبل خمسين عاماً لم تكن سانت مورتيس أكثر من مدينة صغيرة مزدحمة بالأجانب ، وكان برج الكنيسة العتيق المائل يبدو في ذلك الوقت مهموماً ، كما لو أنه يدرك استثمارات قطعة الأرض الضئيلة هذه التي كانت ستعود بنفع التوازن والانهيار . إلاّ أنــه رغم هذا يقف اليوم في مكانه دون تغيير ، يسند توازنه بهدوء ، بينما اختفى العديد من المباني الفوضوية التي يفوق حجمها الحجم الاعتيادي والتي شيدت من أجل المضاربة في حوالي عام ١٩٠٠ . ولكن في كل مكان من المساحة المحـدودة التي تمتد بين سانت مورتيس و سيلس وحتى في عمق فكس ، تجد عائدات تقسيم واستغلال الأرض ، وتشييد المساكن الكبيرة والصغيرة ، وتسلل السكان الأجانب في تزايد متسارع في كل عام. ويبقى السكان الجدد الذين يتنامى عددهم باضطراد غرباء في مجتمع الوادي الى حد بعيد في نظر المواطنين القدامى الذين يباع موطنهم لهم ؛ وحتى ذوي النية الحسنة منهم لا يتواجدون كثيراً هنا ، ولم يقاسوا أوقات الشتاء العصيبة ، والانهيارات ، وذوبان الجليد ، ولا يكاد يكون لهم أي دور في مشاكل المجتمع العامة واحتياجاته الرئيسية.

إنه لأمر يعود بالراحة للإنسان حين يزور من وقت لآخر بالسيارة الاماكن

التي أصابها شيء من التغير أو التي لم تتغير على الإطلاق في العقود الأخيرة . فلم تعد رحلات السير تمتد بعيداً جداً ، لذا كان بإمكان السيارة أن تشبع رغبتي في رؤية هذه الأماكن . وهكذا لطيلة أعوام كنت أريد زيارتها مرة ثانية في هذه الجبال حيث شرعت بأولى رحلات المسير في شبابي ، في ممر البولا وجبل بريدا . أما هذه المرة فقد اتخذت الرحلة اتجاهاً معاكساً للرحلات الأصلية التي قمت بها سيراً على الأقدام . وأما ذلك الطريق المغبر الصغير الذي يمتد بين سانت مورتيس وبونته ، الذي كان ذات مرة مزدحماً بالعربات الكثيرة الممتعة التي تسير فوقه ، فلم يعد ممكناً التعرف عليه . ولكن فيما وراء بونته ، التي تدعى اليوم «لابونت» La Punt سرعان ما كنا وسط عالم الصخور الصامت القاسي الذي ميزت فيه ، مرّة بعد مرة الاشكال والمواقع التي تعود للأزمان الأولى ؛ وجلست لفترة طويلة فوق تلة مكسوة بالعشب بعيداً عن الطريق وقد ذكرني مرأى سلسلة الجبال الطويلة الجرداء ، المتعددة الألوان وجبل البولا الصغير (الذي دائماً ما يذكرني اسمه الجميل ب- animula Vagula blan-dula) أشياء حدثت في صيف ١٩٠٥ أثناء التجول. كانت السلاسل الصخرية المقفرة والساحات الملأى بصخر الجلمود تحدق راسخة الى الأسفل ، ولوهلة راودنا ذلك الشعور بالإحسان والتحذير ، فالبقاء على ساحل البحر أو في الجبال بعيداً عن البشر والحضارة من الممكن أن يعطي الإحساس بأنك خارج الزمن ، أو على أية حال تعيش في نوع من الزمن لا يعد الدقائق ، ولا الأيام أو السنوات ، فقط معالم جيولوجية تفصل الواحدة عن الأخرى آلاف السنين . كــان ذلك شعوراً بديعاً يتناوب بين عالم بدائي لا زمن له وبين فترة حياة الإنسان الخاصة القصيرة الامد . إلاّ أنه كان شعوراً متعباً أن تعي أن كل ما جربه

البشر ، وما هم على استعداد لتجربته يبدو زائلاً ولا أهمية له للغاية . بعد استراحتنا في الأعالي فضلت الرجوع إلى الفندق ، فقد سمحت لنفسي أن تستحضر الماضي بما يكفي وأكثر . ولكن كان هناك جبل بريدا الصغير أيضاً ، وتلك المنازل القليلة عند مدخل النفق حيث قضيت في ايامي المبكرة بضعة أسابيع من اجازتي عندما كنت متزوجاً ولم أرزق بأطفال بعد . إضافة إلى ذلك كانت تلح في ذاكرتي كثيراً صورة بحيرة جبلية صغيرة ، لونها أخضر عميق مشوب بزرقة غامقة مثل عيني الطاووس ، رغبت في رؤيتها ثانية ، ولذلك اتخذنا التدابير كي نعود عن طريق تيفنكاستل ويولير . وسرعان ما أحاطتنا اشجار الصنوبر والأرزية (*) وبدأت اتحرى في هذا الجانب من الطريق عن علامات صغيرة للزمن والحضارة . وفي وقفة أخرى ، كسر سكون الوادي ، حيث كان يخيّم تماماً ضجيج محرك متواصل ظننته يعود لحفارة ميكانيكية أو لجرارة ، ولكنه لم يكن غير ماكنة حصد الحقل في الأسفل ، والتي كانت تظهر صغيرة جداً على بعد مسافة. ظهرت البحيرة الآن ، بحيرة بالبوونيا ، كانت رائعة ، مياهها باردة ويعكس سطحها الأخضر الغابة ومنحدر الجبل بهواتة الثلاثة الوحشية والمظلمة تلوح عالياً فوق البحيرة . كانت جميلة وساحرة كما في الأيام الخوالي ، عدا نهاية البحيرة المنخفضة التي اقيمت عليها السدود واجريت الاصلاحات المتنوعة إضافة إلى وجود عدد من السيارات الواقفة على طول الشارع . ولكن ما أن وصلت الى بريدا حتى احسست ان نزوعي وراء الذكريات القديمة وفرحتي بزيارة المشاهد القديمة ثانية قد اختفى تماماً . وفكرت في أن أقف وأتأمل المنزل الصغير الذي عشنا فيه ذات مرة وأن استفسر عن

(*) الأرزية : شجرة حرجيّة من الفصيلة الصنوبرية .

مالكيه إلاّ أني لم أرغب بفعل ذلك ، لأنه كان من غير المجدي أن أعلم أن نيكولاي واقرباءه قد غادروا الحياة منذ زمن بعيد . كذلك كان هذا اليوم واحداً من أوائل الأيام الحارة في هذا الصيف البارد الممطر. لم يكن الهواء يصل إلى هنا من الأعالي ومن المحتمل جداً أن تكون الأشياء المنسية من زمن شبابي وزواجي الأول قد استيقظت في داخلي. فليس تعب السفر وحده ولا حرارة الصيف هما اللذان عكرا صفوي وافقداني الصواب ، بل شعور يوازيهما بالقلق والندم تجاه مراحل عديدة من حياتي ، حزن على ما مضى ورحل ولا سبيل الى رجوعه . اجتزت جبل بريدا الصغير دون توقف ، واستعجلت العودة إلى البيت ، رغم أني كنت راغباً حقاً في زيارته ثانية . وبينما كنت أحاول فكرياً تتبع أسباب القلق والندم ، لم أعثر على أية آثام أو اسقاطات معينة في مقتبل حياتي ، لأن النسيان قد لفّها ولكنني خبرت مرة ثانية شعور الذنب ، ذلك الشعور الغريب ، القاتم ، الذي لا يمكن السيطرة عليه والذي يمكنه مهاجمة اشخاص من جيلي ومن نوعي لو فكروا بالزمن الذي سيسبق عام ١٩١٤ .
فكل من صدمة وهزة تاريخ العالم منذ ذلك الانهيار الأول للعالم المسالم ، لن يتحرر تماماً من شعور التواطؤ ، رغم أن هذا الشعور هو أكثر مايلائم الشباب ، لأن العمر والتجربة لا بد أن يكونا قد علمانا أن هذه القضية تشبه تماماً نصيبنا في الخطيئة الأصلية وينبغي إلاّ تورثنا القلق ؛ وبإمكاننا أن نتركها للاهوتيين والفلاسفة . ولكن بما أن العالم الذي أعيش فيه قد تغير خلال حياتي من عالم سلام جميل ، مرح مطلق العنان لأهوائه الى حد ما ، إلى مكان للرعب ، لذا فإنني سأعاني بلا شك من انتكاسات بين الحين والآخر تردني الى حالة الشعور بالإثم . وقد يكون شعور المسؤولية المشتركة تجاه ما يدور في العالم ، الذي

يحلو لمن يحسون به أحياناً أن يفسروه كدليل على وجود ضمير حساس بشكل خاص وانسانية عالية . وما هو في الحقيقة إلاّ مرض ، أو لكي اكون دقيقاً ، ما هو إلاّ افتقاد للبراءة والإيمان . والشخص المتوازن تماماً لن يقترب من الفكرة المتعجرفة ذلك أن عليه أن يتحمل مسؤولية جرائم وأمراض العالم ، ويتحمل خموله في السلم وهجمته في الحرب ، ما لم يكن شخصاً مهماً يملك تأثيراً يكفي لأن يكون قادراً على زيادة أو تقليل معاناة العالم وآثامه .

في غضون صيف الجمادين هذا قدر لي أن التقي لقاء آخر غير متوقع مع الماضي . لم أجلب معي الكثير مما يقرأ ، فقط الرسائل التي ارسلت إليّ الى هنا لذا فقد فوجئت يوم وصلت رزمة من ناشري دون أن تقوم بجولة عن طريق مونتانيولا . كانت تحوي على طبعة جديدة من كتاب نارسيسوس وجولدموند وبينما أنا اتطلع فيه ، واتفحص أوراقه ، جلدته ، وغلافه الورقي وأفكر للحظة لمن يمكنني أن اعطيه حتى لا يثقل امتعتي ، فطنت فجأة أني لم أقرأ هذا الكتاب منذ أن كتبته ، أو بالأحرى منذ مسودات الطبعة الأولى أي منذ حوالي خمسة وعشرين عاماً خلت ، وقد تحملت عناء حمل مخطوطة هذه الرواية لمرتين من مونتانيولا إلى زيوخ ومن هناك الى شانتاريلا . وما زالت أذكر كذلك فصلين أو ثلاثة جعلتني أمضي ليالي أرق متعبة ، إلاّ أن الأمر كله أصبح غريباً عني بعض الشيء وغير مألوف ، كما يحدث مع معظم الكتب ومؤلفيها عبر مرور الأعوام. ولم أشعر أبداً بحاجة لتجديد هذه المعرفة . والآن وأنا أتصفح أوراقه بلا قصد بدا لي أنه يتحداني ويجد فيّ الاستجابة وهكذا أصبح « نارسيسوس وجولدموند » مادة قراءة لي لما يقرب الاسبوعين . لقد كان واحداً من أكثر كتبي نجاحاً ، كما وصفته «السنة الناس» هذا المصطلح المقيت . وألسنة الناس لا

تتفوه دائماً بعبارات الامتنان والمديح ؛ بل على العكس ، فبالاضافة إلى «ذئب البوادي» انتزع كتابي الجيد «نارسيسوس وجولدموند» أكبر قدر من النقمة وتفجرات اللوم. لقد ظهر هذا الكتاب بفترة لا تبعد كثيراً عن آخر عهد في المانيا للمتحاربين والأبطال وكان إلى حد كبير غير بطولي ، غير مولع بالحرب ، ضعيف ، وكما اخبرني الناس ، يقود إلى شهوة عارمة غير مبدئية للحياة . كان كتاباً شهوانياً بـلا حياء ، وقد أبدَ الألمان والسويسريون حرقة ومنعه من التداول ، وعبرت أمهات الأبطال وهن يناشدن الديكتاتور والعهد العظيم ، عن سخطهن بعبارات هي التي منعتني من اعادة قراءة الكتاب لاكثر من عقدين ؛ بل حدث هذا تلقائياً نتيجة تغييرات معينة في اسلوب حياتي وعملي . ففي السابق كان علي أن أعيد قراءة كتبي حينما استلم مسودات الطبعات الجديدة ، وكان عليّ أيضاً في هذه الحالات أن أعمل بعض الشيء فيها وبوجه خاص اختصرها . إلاّ أني ومع ازدياد متاعب عيني بدأت اتجنب هذا العمل قدر الإمكان ، وقد تولت زوجتي ذلك لفترة طويلة . ولكن ، من دون شك ، لم افقد الحب الخاص ، «النارسيسوس وجولدموند» فقد ظهر إلى الوجود خلال فترة رائعة نشطة ، والشتائم واللطمات التي تحمّلها كانت في صفه بدلاً من أن تكون ضده ، فهو يسكن قلبي ، كما هو الحال أيضاً مع «ذئب البوادي» . إلاّ أن الصورة التي أحملها عنه في ذهني قد تغيرت بمرور الزمن ، فلم أعد اعرفه جيداً ، وبما أني قد تركت تأليف الكتب منذ زمن طويل ، فقد شعرت بحرية لتكريس اسبوع أو إثنين لأرم تلك الصورة وأصححها .

كان جمعاً ودياً ونافعاً فلا شيء في الكتاب كان يثير الأسف او الندم . ليس لأني كنت على وفاق مع كل ما جاء فيه ، فمن الطبيعي أن يكون للكتاب

نواقصه ؛ فقد بدا لي وكما يحدث تقريباً مع معظم كتاباتي التي اعيد قراءتها بعد مدة طويلة ، أنه يتصف بشيء من الاسهاب ، وشيء من الفضفضة ، ولعلني كنت كثيراً ما أكرر الشيء ذاته مصوغاً بكلمات مختلفة قليلاً . ولم أجنب نفسي التأمل المتكرر والمخجل إلى حد ما لافتقاري الموهبة والقدرة إلاّ أن هذه القراءة كانت اختباراً لذاتي حيث أرتني من جديد وبشكل واضح مواطن ضعفي . فللمرة الثـانية ذهلت بقوة ، لأن معظم أعمالي الروائية الطويلة لا تقدم ، كما كنت اعتقد أثناء كتابتها ، مشاكل وصور الناس المعاصرين كما هي طريقة المعلمين الحقيقيين ، فقط كانت تكراراً لبعض المشاكل والنماذج المتجانسة مع طبيعتي ، رغم أني كنت على عتبة مراحل جديدة من الحياة والتجربة ، ولم يكن جولموندي وحده في حالة جينية في «كلينسجور » بل كان ذلك حتى في «كنولب» ، مثلما حدث مع «كاستاليا» وجوزيف كنشت في «ماريا برون» وفي «نارسيسوس» . إلاّ أن هذا الإدراك لم يؤلمني ، فقد كان يعني أكثر مــن مجرد تصغير وتقليص لغروري ، الذي كان في السابق وبلا ريب ، أكبر على نحو ملحوظ ؛ كما يتضمن أمراً ايجابياً آخر. فقد بين لي أنني رغم الكثير من الأماني والمحاولات الطموحة ، بقيت بصورة عامة مخلصاً لطبيعتي ولــم أتنازل عن طريق تحقيقي الذات حتى في أوقات الأزمة والاضطرار . ولم يكن تناغم الكتابة ، ولحنها ، وإيقاع صعودها وهبوطها غريباً عني ولا كانت تفوح منه نكهة الماضي أو الفترات الباهتة من حياتي ، رغم إن تلك الاشراقة في الدفق هي شيء لا أتمكن من نسخه اليوم . وما زال هذا النوع من النثر يلائمني ، ولم أنس شيئاً من بنيته الرئيسية أو من أساسات اسلوب تعبيره ، ولا شيء من لمساته العابثة ، لقد كانت اللغة وبشكل أكثر

بكثير من مضمون الكتاب ، هي التي بقيت حقيقة غير مشوهة في ذاكرتي .

وأما بالنسبة للباقي فإنه شيء لا يصدق كم نسيت الكثير منه ! وحقيقة أنه لم تصادفني أية صفحة أو جملة لم تكن إلا وتفهم على التو . لكني كنت نادراً ما أعثر على أية صفحة أو يصادفني أي فصل استطيع أن استدل من سطوره على ما ستتضمنه الصفحة التالية . تفاصيل صغيرة كنت قد اختزنتها في ذاكرتي ، مثل شجرة الكستناء عند بوابة الدير ، منزل الفلاح والجثث في داخله، «بلس» حصان جولدموند ، إضافة إلى أمور أكثر اهمية مثل بعض الحوارات الدائرة بين الأصدقاء ، والنزهة الليلية «في القرية » ، سباق الخيل مع ليديا . وأما ما تم نسيانه ، فقد نُسي على نحو مبهم ،وكان معظم تجربة جولدموند التي خاضها مع ماسترنيكلاوس ، ونسيت كذلك الرحالة المغفل روبرت ، والحادث العرضي مع «لينة» ، وكيف قتل جولدموند بسببها للمرة الثانية . بعض ما أتذكره أشياء ناجحة وجميلة لكنها سببت لي شيئاً من الخيبة وبعض أماكن سببت لي المتاعب أثناء الكتابة ولم أكن راضياً عنها تماماً وكان من الصعب العثور عليها ، وما أن تم ذلك حتى بدت لي مقبولة .

خلال هذه القراءة التي أنجزتها ببطء وعناية ، رجعت اليّ أيضاً أحداث ارتبطت بتأليف هذا الكتاب. سأقاسمكم واحداً منها فلربما كان أحدكم موجوداً أثناء وقوعها . حدث ذلك قرب نهاية العشرينات وكنت قد وعدت أن أقرأ النصوص الأدبية في شتوتجارت لأني اردت أن ازور موطن شبابي ، ونزلت ضيفاً عند احد الاصدقاء الذي فارق الحياة الآن .وكان «نارسيسوس وجولدموند» آنذاك تقريباً مخطوطة لم تطبع بعد ، واخترت من هذه المخطوطة بكل حماقة فصلاً خاصاً وجلبته معي لاقرأه بصوت عال يحوي سرداً للكارثة.

أصغى الجميع الي باحترام ؛ ففي ذلك الحين كان هذا الوصف بشكل خاص مهماً وقيماً بالنسبة لي ، وبدا أن حكاياتي عن «الموت الاسود» قد تركت أثراً عليهم ، وعم جو من المهابة عبر القاعة ، أو ربما كان مجرد سكون عدم الرضا . ولكن حين انتهت القراءة والتقى «الجمع الحاضر» في خان لطيف من أجل العشاء، اتضح لي أن تجوالات جولدموند عبر «الموت الاسود» استفزت وبقوة غريزة الحياة عند الجمهور وكنت أنا نفسي ما أزال مستغرقاً كلياً في الفصل . وللمرة الأول ، ولكن ليس دونما تردد ، قدمت للجمهور نموذجاً لطريقتي الجديدة في الكتابة ؛ وما زلت متورطاً فيها ،وقد قبلت بلا أدنى رغبة الدعوة لتجمع العشاء ، الودي هذا. والآن سواء كنت على حق أم كنت مخطئاً ، فأنا أشعر ان الجميع قد اطلقوا تنهيدة ارتياح بعد الاستماع إلى حكايتي وقد القوا بأنفسهم في خضم الحياة بتلذذ مضاعف . كان هنالك نزاع وحشي صاخب حول المقاعد ، حول الندلاء ، حول قوائم الطعام والأخرى الخالصة بالنبيذ وفي كل مكان كانت الوجوه المتأنقة ، الضاحكة والتحيات الجذلى تسمع هنا وهناك ، تتناهى الى مسمعي . صديقان يرفعان صوتهما وسط الضجيج ليطلبا عجة البيض مع الكبد أو مع فخذ الخنزير ، وتراءى لي أني أصبحت أسير إحدى فترات الشرب ، حيث كان جولدموند ، وسط حشود هؤلاء متحرقاً للعيش ، وهو يحاول أن يجعل الخوف من الموت شيئاً غبياً ، يشرب كأسه ويفلح في وخز المرح الهستيري الى مديات لا تنفك تتعاظم ،.ولكنني لست جولدموند ، فقد شعرت بالضياع وان هذا المرح يرفضني ويشمئز مني ، وكان من المستحيل علي تحمله . لذا تمشيت الى الباب مشية جانبية وتسللت الى الخارج بعيداً عن الانظار قبل أن يفتقدني أحد ويعيدني الى مكاني . لم يكن ذاك تصرفاً حاذقاً

وبطولياً ، كما فهمته في وقتها ، بل كان رد فعل غريزي لم يكن من الممكن التغلب عليه .

بعد ذلك ، قدمت لمرة أو مرتين قراءة عامة ، ومرة أخرى لأني كنت قد أعطيت كلمتي إلاّ أن هذه كانت الأخيرة .

انسل صيف انجادين هذا هو الآخر وأنا أدون هذه الملحوظات ، فقد حان وقت حزم الحقائب والرحيل . وقد كلفتني كتابة هذه الصفحات القليلة جهداً اكثر مما تستحق ؛ لم أعد امتلك الموهبة له . عدت الى الوطن ثانية ، خائب الرجاء بعض الشيء ، خائب الظن بسبب قصوري الجسدي المتنوع . وربما أن هناك سبباً أكبر من ذلك . فرغم كل جهودي وانفاقي للوقت ، لم أكن قادراً على انتاج اي شيء افضل من هذه الرسالة الموجهة إلى الناس ، والتي أنا مدين بها للعديد منكم قبل كل شيء ومنذ مدة طويلة . على الأقل يوجد أمر جميل مخبأ في انتظاري ، شيء جميل جداً ، إنه رحلة العودة إلى الوطن عن طريق مالويا وكيافينا . هذه الرحلة الممتعة دوماً من الوضوح البارد لأعالي الجبال إلى صيف الجنوب الغامض ، إلى «ميرا» والخلجان والمدن الصغيرة ، إلى أسوار الحدائق ، وأشجار الزيزفون ، ونباتات الدّفلى في بحيرة كومو . سأتنشق هذا الشذا مرة أخرى وأنا ممتن القلب .

انتبهوا لأنفسكم . وداعاً ! .



هرمان هسة

سيرة ذاتية

يتضمن هذا الكتاب اثنتي‌عشرة قطعة أدبية عن السيرة الذاتية لهرمان هسة ، وهي من أكثر ما كتب في هذا المجال أهمية ونموذجية ، وقد نظمت بحيث يروي هسة حياته الخاصة تقريباً بتتابع مرتب زمنياً . ويتبدى للقارىء ، في هذه السيرة ، ميل هسة الواضح لأن يقوده بعيداً عن الواقع الى « مملكة الروح السرمدية » فيضعف الاهتمام بالشخصية ذاتها . وسرعان ما يكتشف قارىء روايات هسة الذي يعود الى « سيرته الذاتية » أن الفتنة في الروايات لا تكمن كثيراً في قدرتها على التحليق في الخيال بقدر ما تكمن في الخواص التي تعبر عن حياة الكاتب . ان نمط بداية حياة هسة تحوّل ليكون نموذجاً للشباب الغريب العاجز عن تقبل القيم البالية وغير الراغب في بيع نفسه الى مجموعة قوانين ، والذي انعزل عن المجتمع المنظم للبحث عن ذاته ، وإن ازمة نضوج هسة الروحية تعكس ازمة وعي العديد ممن تخطوا الثلاثين من العمر والذين أجبرتهم أحداث العقد الماضي ـ كالحرب والفقر والتكنولوجيا ـ إلى اعادة تقييم قيمهم . أما هسة الأكبر سناً والذي يشبه واحداً من هؤلاء الحكماء الجليلين ، فهو يمثل طريقة في الحياة ، ربما ما يزال بعض القراء يتوقون إليها . لقد غطت المذكرات المجموعة هنا كل فترة من حياة هسة ، من طفولة الساحر ، وعبر ازمة النضج ، إلى سكينة الشيخوخة . وسواء كان هسة يكتب « رواية » أم « سيرة ذاتية » ، فهو ينتهي تقريباً دائماً الى ما يدعوه « بمملكة الروح السرمدية » التي تقيم خارج الزمان والمكان ، وتتجاوز الرسم فوق جدار السجن . اننا نجد ان الاختلاف الرئيسي في عقل هسة وعمله لا يقع بين الحياة والفن او بين الحقيقة والخيال ، بل بالأحرى بين واقع الروح المليء بالمعاني والعالم اليومي الزائل الذي أطلق عليه « الواقع » او « الواقع المزعوم » .



المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت ، ساقية الجنزير ، بناية برج الكارلتون ، ص.ب ٥٤٦٠ - ١١
العنوان البرقي : موكيالي ، هـ ٨٠٧٢٩٠٨
تلكس : LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧
الغلاف : زهير أبو شايب